الرِّداء



لويد دوغلس

ترجمة : تمام داود

الرداء

بيان

باسماء الكتب المترجمة عن الانكليزية

بقلم

السيدة تمام داود

المفقودة البيضاء في قارة افريقيا السوداء

تول بابل العظيم

الروح فوق المادة

القصص الادبية للاحداث

الحبُ المنتصر او ادنا وسانت المو

الرداء



يلبس مرسيلوس الرداء في روما امام اصدقائه

لويد دوغلس

الرداء

مترجم عن الانكليزية

بقلم

السيدة تمام داود

المطبعة الاميركانية — بيروت
١٩٤٨

صدر هذا الكتاب في الولايات المتحدة وترجم باذنه من المؤلف
لويد دوغلس ومن الناشر شركة هوتن ميفلن
فلهم جزيل الشكر والامتنان

الفصل الاول

كانت لوسيا حين بلوغها السنة الخامسة عشرة من عمرها تنمو قواها الجسدية والعقلية نموًّا تدريجياً كسائر اترابها . بيد ان دائرة افكارها كانت لا تزال ضيقة محدودة

ففي ذات صباح من ايام الربيع شعرت انها اصبحت تحت عبء مسؤولية كبيرة وهو ان والدتها التي كانت تخاطبها فيما سلف من الايام بامور تافهة افضت اليها في ليلة امس بامرٍ هامّ وهو : ان اباها تهوَّر في انتقاده الجارح على مجلس الشيوخ الذي هو عضو من اعضائه . فكان من الفتاة ان سرَّت لما احرزته من ثقة والدتها بها لاطّلاعها على مثل هذا الشأن الخطير حتى انها اكدت في نفسها بعد اعمال الروية ان الامير غايوس هو ابعد من ان يعير هذه المسالة اهتمامه

لكنها بعد ذهابها الى مضجعها لتنام اخذت اعصابها تهيج وهي تفتكر وتقول في نفسها :

ان الامير غايوس في امكانه ان يضرب صفحاً عن انتقادات ابي على نفقات الدولة الباهظة وعلى سوء ادارته لو لم يكن شديد الاستياء من عائلة غاليو . مع انه لم يكن احد مطلعاً على هذا الامر الا انا وصديقتي ديانا . فيجب اذاً على كل واحد من العائلة ان يكون على حذر والا فانها معرضة لاتعاب جسيمة

* * * *

وقد ايقظتها في ذلك اليوم زقزقة العصافير التي لم تكن معتادة ان تسمع شدوها لان ربيع تلك السنة اقبل قبل اوانه في اواخر شباط . وكان اول خاطر طرأ في

ذلك الوقت على مخيلتها ذلك الهمّ الاليم الذي ازعجها في اول الليل ولازمها كالم في الضرس .

ثم نهضت من فراشها وارتدت ثيابها بهدوء كي لا تزعج تونيا التي كانت نائمة على المقعد والتي لو استفاقت ووجدت سرير سيدتها خلواً منها لاوجست خيفة لذلك احتذت لوسيا صندلها ومشت بتؤدة على البلاط الفاخر الانيق الذي افضى بها الى قاعة الضيوف فالممرّ الطويل فالدرج العريض المؤدي الى الدار الفسيحة ومنه الى الرواق الواسع حيث وقفت تحجب عينيها من توهج نور الشمس

ولقد لاحظت في هذه السنة نمو عضلاتها وازدياد قوتها البدنية ولكنها تجاه تلك العواميد الرخامية الضخمة القائمة عليها السقوف المقبية والتماثيل الفخمة الماثلة بسكون امام ذلك السهل الضيق والينبوع الفضي العالي . وجدت نفسها صغيرة وانها ستظل صغيرة مهما تقدمت في السن . وبينما هي سائرة على ذلك الرخام لمحت وجه خادمها النحاسي اللون واساريره العميقة فتذكرت ايام طفوليتها حين كان كلما رآها يرفع قبضة رمحه الى جبهته المتجعدة ويحييها تحية الصباح فكان منها ان ابتسمت له . وتابعت طريقها الى الايوان الذي كانت اغصان الكرمة تغشاه في آخر المربع . وهناك على « الدرابزون » الرخامي الذي كان يشرف على الحديقة واشجارها وبركة مائها وكذلك على المدينة والنهر الجاري فيها اخذت لوسيا تناجي نفسها فيما اذا كانت تخبر اخاها مرسيلوس بذلك الحادث الذي اذا وقف عليه فانه بدون شك يغضب غضباً شديداً وربما يفعل ما يؤدي به الى عاقبة وخيمة . على ان من الضروري الافضاء بذلك الى احد افراد العائلة لئلا يحدث بعدئذٍ ما لا تُحمد عقباه . لذلك اوحت اليها فكرتها ان تؤجل الخبر الى وقت الغداء لان اخاها لا يستيقظ قبل ذلك بحيث قضى ليلته ساهراً في الوليمة التي اقامها غايوس على شرف جنود محكمة القضاء . وقد ودّت لو انها افتكرت واطلعته على الحادث الذي وقع لها في الصيف الماضي .

وبينما هي في هذا الهاجس اذ سمعت وقع خطوات « صندل » خفيفة فالتفتت الى ورائها ورأت دسيموس العثي مقبلاً نحوها ووراءه خادمتان توأمان مكدونيتان حاملتان صينيتين فضيتين على اكفهما . فسالها دسيموس وهو خافض النظر هل تريد سيدته ان تتناول فطورها هنا ? فاجابته بالايجاب

فنادى دسيموس بصوتٍ عالٍ الفتاتين فاسرعتا حالاً في تحضير المائدة بينما لوسيا تراقب بسرور وارتياح حركاتهما اللطيفة كأنها تراقب حركات كلبين خفيفي الروح . ولقد كانت الابنتان جميلتين واكبر من سيدتهما ببضع سنين وهذه هي المرة الاولى التي تراهما فيها تأتيان عملاً ما لان والدها كان قد اشتراهما منذ اسبوع وقال لها انهما من عائلة معروفة راقية لذلك كان اول عمل جرى اختبارهما فيه هو خدمة المائدة . فكانتا تقومان بشغلهما بعجلة بدون ان تلتفتا الى سيدتهما وكانتا شديدتي البياض وذلك من جراء حبسهما مدة طويلة في احدى السفن البخارية

وكان والد لوسيا يلذُّ له اشتراء الخدم الممتازين مع انه لم يكن في عائلة غاليو عددٌ وافر منهم لانه كان يعتقد ان تكثير عددهم يؤدي اخيراً الى الخراب لذلك اشترى عبيده بتمام التروي كما يشتري الاشياء الضرورية لمنزله والادوات الفنية . وكان الجنود بعد ان يعودوا من غزو بلاد راقية يُعلمون معارفهم الاغنياء انهم جاؤوا باسرى من الدرجة الاولى . فكان والد لوسيا يذهب قبل عرضهم للبيع بيومٍ واحد وينتقي منهم الاحسن طبعاً بعد الاطلاع على تاريخ حياة كلٍ منهم ثم ياتي بهم الى منزله وقلما طرد واحداً ممن اختارهم .

كان احد هؤلاء الخدم يدعى ديمتريوس وقد ابتاعه والدي منذ ست سنوات واهداه الى مرسيلوس لمناسبة عيد ميلاده السابع عشر فكان لهذه الذكرى يوم مشهود عندنا اذ البسوا فيه اخي الجبة البيضاء بعد ان حلقوا ذقنه لاول مرةً في حياته وصار من الواجب عليه ان يتصرَّف تصرُّف الرجال اما انا فكنت مبتهجة جداً وليس لي من العمر الا تسع سنوات . اما ديمتريوس فكان اكبر من مرسيلوس

بسنتين ويحترمه كل الاحترام على ان الاخير كان يعامله معاملة الصديق لصديقه .

وكان ديمتريوس هذا ابن رجل غني كورنثي الاصل يملك عدة مراكب وقد قضت عليه الحكومة بالموت لتدخله في السياسة الدفاعية وكان له شقيقان تسلمهما سفير اخائية الجديد واما والدتهما الشريفة فانتحرت . وقد أتي بديمتريوس ذي القوام الطويل والوجه الجميل والسواعد المفتولة الى رومية تحت المراقبة الشديدة لانه كان قوياً وجسوراً جداً

وتذكر لوسيا ان والدها كان يخبر زوجته عنه فكانت تقول له انها تخشى اذاه وهو يجيبها ان لا خوف منه اللهمَّ اذا عامله مرسيلوس معاملةً حسنة . فان ديمتريوس لا ينتظر اكثر من معاملة سيد لعبده . وهو يعرف ذاته انه خادم ويكره كونه عبداً ولكنه مضطرٌ ان يطيع . واخبرها ايضاً كيف انه لما ابتاعه اخرجه بنفسه من الكهف وفكَّ القيود من يديه الداميتين واستطرد قائلاً : انني سرت امامه بدون ان التفت الى الوراء لاراه سائراً خلفي

كان حوذي عربتي ينتظرني امام الباب ولما اقتربنا منه أشرت اليه ان يتجه نحو الطريق المؤدي الى القصر

قالت زوجته هل تركته وحده ؟ الم تخاطر بعملك هذا ؟

– بلى اجاب والدي وانني كنت امام خطر اعظم لو انني اتيت به مقيداً بالسلاسل لذلك اطلقت له الحرية لارى اي الطريقين يختار أيعيش معنا ام يتنحى عنّا . فالتفت اليَّ مدهوشاً من معاملتي هذه وسألني بلغة يونانية فصيحة ماذا تريد ان اعمل عندما اصل الى القصر ؟ اجبته اسال عن مرسيبور وهو يخبرك ماذا تعمل فحنى راسه ووقف واذ كان يحرك السلاسل التي على يديه قلت له القِ هذه بعيداً ثم صعدت الى عربتي . قالت له امرأته لا اظن انك تراه فيما بعد . وجواباً على كلامها دخل مرسيبود وقال يا سيدي وصل الى القصر شاب كورنثي يقول انه يخصُّنا

سُرَّ والدي بهذا الخبر وقال نعم انني قد ابتعته هذا الصباح وساهديه الى ابني ولكن لا تقل له في الوقت الحاضر . اعطهِ طعاماً كثيراً ليا كل وثياباً نظيفة ليلبس بعد ان يغتسل لانه قد مضت عليه مدة طويلة وهو رهين السجن

— قد فعل ذلك

— حسناً فعلت

— لا يا سيدي انا لم افعل شيئاً . جاءني هذا الكورنثي وانا في الحديقة وسمّى لي اسمه . ولما وقع نظره على بركة الماء خلع ثيابه بخفة زائدة وتحفّز للسقوط فيها وما كدت ادفعه عنها حتى غطس فيها ولكنني سافرغها واغسلها

وكان مرسيبور يعامل ديمتريوس معاملة اب لابنه حتى ظن كل من رآه ان بينهما صلة قرابة لان مرسيبور هذا كان كورنثياً مثله

* * * *

خرج ديمتريوس من البيت وسار في الرواق الى ان اقترب من لوسيا ووقف صامتاً لا ينبس ببنت شفة ريثما تسمح له بالتكلم . فقالت له ما الخبر يا ديمتريوس ؟ اجابها باحترام ان قاضي محكمة القضاء يتمنى لشقيقته الصحة والهناء ويطلب ان تسمح له ان يتناول فطوره معها .

سُرّت لوسيا ثم تكلمت برصانة قائلة اخبر سيدك ان شقيقته ستكون مسرورة للغاية واعلمه ان الفطور سيكون هنا في الايوان

بعد ان سار ديمتريوس بضع خطوات مشت لوسيا امامه ولما ابتعد قليلاً سألته لماذا استيقظ سيدك باكراً اليوم ؟ ألم يذهب امس الى الوليمة ؟ اجابها بلى وربما يريد هو ان يكلمك بهذا الشأن

— هل وقع له حادث ما ؟

— اذا كان الامر كذلك ربما يريد هو ان يفضي لك بنفسه بدون مساعدة خادمه

– كنت لا شك معه في الوليمة لتقوم بخدمته

– نعم

– هل كان الامير هناك ؟ فانحنى ديمتريوس ثانية

– هل كان الامير غايوس منشرح الصدر ؟

– نعم كثيراً الى ان نام

– لا شك انه كان سكران

– ممكن كان كذلك ولكن ليس لي ان اتكلم

ثم استأذن منها وذهب – اما هي فعادت من حيث اتت واخذت تناجي نفسها قائلة لو لم يحدث شيء مزعج في الحفلة الليلة الماضية لما كان ديمتريوس هكذا متكتماً . اما دسيموس فانتحى ناحية بعيدة من الايوان لانه راى علامات الاهتمام بادية على وجه سيدته

وكانت التوأمان واقفتين بتأدب الواحدة بازاء الاخرى تنتظران الاوامر – فاقتربت منهما لوسيا وسالتهما عن اسميهما فاجابت احداهما : انا أدعى هيلانه واختي تسمى نستا

– ولماذا لا تتكلم اختك ؟

– لانها خائفة

عندئذٍ مدت لوسيا يدها ودغدغت ذقنيهما ورفعت رأسيهما قائلةً لهما : لا تخافا انني لن اضربكما ثم اخذت تلعب بشعر هيلانة كانها احدى اللعب وربطت شريط شعر نستا التي بكت عندما شعرت بجنوها نحوها – فقالت لهما لا ترهبا شيئاً فلن يؤذيكما احد لانكما من خاصة الشيخ مرقس لوقا غاليو احد اعضاء مجلس الشيوخ فانه دفع ثمنكما غالياً لما وجده فيكما من التهذيب والطاعة . ثم التفتت الى دسيموس وقالت له ألبسْ هاتين الابنتين ألبسة بيضاء . وضع عقداً من المرجان في عنق كلٍ منهما ودعهما تخدمان على المائدة فان اخي سيتناول فطوره معي هنا .

واما انت فاذهب الى عملك

كان لدسيموس مدة طويلة يعتني بشؤون المنزل الضرورية كشراء المآكل من الاسواق وكذلك التوابل التي كانت تاتي بها القافلة من بلاد بعيدة وهو خادم له اهميته ولكن لم تكن لوسيا لترتاح اليه لانه كان مستبداً برأيه خلافاً لمرسيبور الخادم اللطيف والامين الذي كان يهتم بامور البيت وباملاك سيده ويديرها ويعرف كل خصائصها اكثر مما يعرف سيده لانه قضى حياته في خدمته .

تلقى دسيموس الامر بالذهاب الى عمله غير انه لم تعجبه ملاطفة لوسيا للابنتين لان تدريبهما يتعلق به وحده فما ان سار حتى سارتا وراءه وهما فرحتان مرحتان فاخذت لوسيا تراقب حركاتهما الى ان توارتا عن الانظار وهناك اخذت تناجي نفسها قائلة : هل أخبر اخي بما حدث لي مع غايوس لا لا بل يجب اولاً ان اعرف ماذا حدث في الوليمة

* * * *

صباح الخير يا شقيقتي العزيزة قال مرسيلوس هذا وطبع على خدها قبلةً ثم ابتدأ يداعبها بلمس شعرها بينما كان بمبو كلب الراعي الكبير الاسود يُدخل راسه تحت ابطها ويبصبص بذنبه فالتفتت لوسيا الى مرسيلوس وقالت له يظهر لي انك اليوم على غاية من الانبساط والانشراح ويغلب على ظني انك كنت ليلة امس في الحفلة التي احياها الامير غايوس ؟

— ولكن يا اختي اشكري الالهة لانك لا يمكنك ان تصبحي في عداد القضاة يوماً من الايام . لقد كانت ليلة طويلة مثيرة للعواطف

— قل لي ماذا حدث ؟

فضحك مرسيلوس وقال اخشى ان اكون قد أهنت عائلتي ان الالهة وحدها تعلم ما تكون العاقبة . لم يكن سموهُ صاحياً ليفهم ما جرى ولكن لا بدَّ من ان

يعلمه احد بذلك قبل انقضاء النهار . فاقتربت منه لوسيا ووضعت يدها على ركبته وسألته مرتعدة ماذا حدث يا مرسيلوس ؟

– ان الشيخ طسقوس العضو في مجلس الاعيان هو وابنه انطونيوس الذي اراد ان ينال الحظوة في عيني غايوس نظم قصيدة مديح مسهبة وأوعز الى ولده في القائها

– لا شك ان الامير سُرّ بها كثيراً وانت وطولوس قابلتما ذلك بالثناء والجميل

– الحق يا اختاه ان الجميع ودّوا لو كانوا في اسرّتهم لانهم كانوا منهوكي القوى من كثرة الشراب والمآكل المتنوعة الفاخرة التي قُدّمت لهم فضلاً عن عزف الموسيقى وعرض الألعاب السحرية والقاء الخطب المزعجة واجراء الملاكمة حتى ان طولوس الذي كان جالساً مقابلي نام كالطفل الرضيع

– بعد هذا كله جاء دور القصيدة أليس كذلك ؟

– بلى لقد ابتدأ انطونيوس يتلو القصيدة اولاً بصوت عالٍ ثم خفّت لهجته . ولقد طالت ابياتها حتى ملّ الحاضرون فناموا ما خلا بعض اشخاص منهم وكنتوس شقيق انطونيوس الذي اغضبته تلك الحالة .

– ماذا فعلت انت لتغضب غايوس ؟

– لو ان فخامته كان نائماً بهدوء وبلياقة دون ان تكون ذقنه السمينة ملتوية نحو صدره لكان اخوك التعيس استطاع احتمال كل شيء . ولكن كان رأس الامير منقلباً الى الوراء وفمه مفتوحاً ولسانه مندلعاً وغطيطه يملأ المكان ويزعج كل انسان وفي نهاية القصيدة زاد انطونيوس في مديح الامير قائلاً ان غايوس هو ينبوع المعرفة وان عينيه تتوهجان بنور الهي . وعندما تتحرك شفتاه تجري الحكمة من فيه ويبتسم العدل . ولما سمعت هذا المديح لم استطع ان املك نفسي بل قهقهت قهقهة شديدة حتى استيقظ الجميع ما عدا غايوس

فقالت لوسيا ولكن يا مرسيلوس ؟ فنظر اليها ورآها اصبحت صفراء كالاموات

فضمها اليه وسألها هل انت مريضة ؟ اجابته" نعم . قال لها لا تخافي يا اختاه ان غايوس سيغضب ولكنه لا يتجاسر ان يعاقب ابن مرقس لوقا غاليو فقالت له :

– اسمعت ما حدث امس حينما انتقد والدك الامير غايوس ؟

– نعم سمعت ولكن الوالد له قوة كافية للاهتمام بامر نفسه

– لو كان هذا الامر هو الشيء الوحيد لكان ممكناً ان يتغاضى غايوس عنه ولكن انت اغضبته وهو حاقد عليَّ ايضاً

– انت ؟ ما الذي حمله ان يحقد عليك ؟

– أتذكر ذلك الوقت الذي فيه كانت ديانا ووالدتها وانا ضيفات في قصر كابري واتى غايوس لزيارة الامبراطور ؟

– نعم

– ان غايوس وقتئذ حاول ان يتحبب اليَّ

– ماذا تقولين ؟ سأري ذلك الحيوان الكريه كيف يكون التحبب . ساخرج لسانه من فيه وعينيه من رأسه . لمَ كتمت عني ذلك قبلاً ؟

– لو كان اخي رجلاً جباناً لكنت اخبرته بذلك ولكنه قوي شديد الشكيمة واخشى ان يقتل غايوس ويحكم عليه بالهلاك وعلى والدي ايضاً ووالدتي

– وماذا قالت والدتي بهذا الصدد

– لم اخبرها شيئاً من ذلك

لمَ لم تخبريها ؟

– لانني لو اخبرتها لكانت تخبر والدي وحينئذ يقع الخطر عليكم كما لو كنت اخبرتك انت

– لقد كان من الواجب ان تطلعي الامبراطور على ذلك ولو كان خلواً من الفضيلة لانه لا بُدَّ من اهتمامه بهذه القضية بسبب بغضه لغايوس

– انت تعلم انه ضعيف الشعور ولا يبعد اذا ما وبخ غايوس امام الحضور ان

يفنى بعدئذٍ كل شيء. وغايوس لا يفنى شيئاً . حاولت ان اتجاهل الامر اذ لا احد يعرف شيئاً الا ديانا وانا

— ديانا الطفلة . ما زال هذا الامر سراً فلماذا اخبرتها ؟

— لانها كانت تخشاه وقد فهمتْ انني اخاف البقاء معه وحدي . ولكنني اقول لك ان ديانا لم تبقَ طفلة وعندما تجيء لزيارتي ارجو منك ان لا تعاملها كانها ابنة خمس سنوات وانت ابن مئة . فقد بلغتْ السادسة عشرة من سنها . يجب ان تعاملها من الان فصاعداً كابنة في ريعان الصبا . ولو كنت تعني شيئاً من وراء تلك المعاملة لِمَا كانت تغتاظ منك وهي تتأثر عندما تدعوها يا حبيبة قلبي

— لم اعتقد ان ديانا شديدة التأثر لهذا الحد فانني اعلم انها تغضب لاقل شيء لا يعجبها وقد كانت غير هيابة عندما طلبت تغيير اسمها

— كانت تكره ان تدعى اسينيا واظن اسم ديانا اجمل أليس كذلك ؟

— ربما لان اسينيا اسم لالهة ساذجة

— اظن ان ديانا كانت تُسرّ حينما كنت تناديها يا حبيبة قلبي اذا كنت تعني ما تقول

— هل ديانا تحبني ؟

— بلا ريب . وكيف لم تلاحظ ذلك ؟ تعال الان اجلس هنا واستعد للفطور

تطلع مرسيلوس في ناحية البيت ودُهش حين رأى الجاريتين مقبلتين فسأل اخته هل هما يا تُرى ذكيتان كما انهما جميلتان اجابته هذا هو اول يوم تقومان به بعمل ما لان والدك اشتراها الاسبوع الماضي لذلك لا استطيع ان اجيب بنعم او لا

وضعت الابنتان الصينيتين على الطاولة وانتحتا ناحية الايوان وانتظرتا . اما ديانا فانها سارت متجهة نحو الدرابزون فتبعها اخوها وسألها ما بالك ؟

اجابت اخشى ان يكون مصيري يوماً ما كهاتين الابنتين لان غايوس لا يعرف الرحمة

– ماذا تريدين ان اعمل ؟ هل اذهب واعتذر ؟

– افعل ذلك في هذا النهار واني ارجو منك ان تتوجه اليه وتتصالحا . يمكنك ان تقول له انك كنت سكران أليس كذلك ؟

– انني افضل ان أجلد على ان اعتذر

– انا اعرف ذلك ولكن ألا تعلم ان غايوس شديد الانتقام ؟

– ماذا يستطيع ان يفعل ان الامبراطور لا يسمح لحفيده ان يعاقب احداً من عائلة غاليو لانه يكرهه كرهاً بليغاً

– نعم . جعله الامبراطور نائبه لان جوليا طلبت منه ذلك وهي تقدر على كل شيء . ففكر ملياً بهذه المسألة ودعنا الان نتناول فطورنا وبعد ذلك تذهب الى غايوس وتأخذ معك الدواء الذي يشفي غليله وهو ان تمدحه وتقول له انه مثال الجمال والكمال ولا مثيل له في المملكة كلها بل قل له ايضاً انه اله ولكن اياك والابتسام عند هذا المديح والاطراء بل كن رصيناً في كلامك معه

* * * *

فقبل مرسيلوس نصيحة اخته بيد أنه اراد التخلص من هذا الواجب الممقوت فاستقرَّ رأيه على ان يذهب توّاً الى غايوس ويضرب صفحاً عن اتباع العادات الرسمية . لذلك استحم عند الساعة العاشرة بالماء الساخن ثم سبح في البركة وارتدى ثوباً لا ئقاً ونزل الى الطبقة السفلى . وقد شاهد في طريقه باب مكتبة ابيه مفتوحاً فدخل ليحييه قبل ذهابه فسأله والده عما اذا كان يستطيع ان يوافقه لشراء مهرتين

اجابه مرسيلوس اتأسف لعدم تمكني من ذلك لان لديَّ مهمة ضرورية يجب ان اتممها . فهل تريد يا سيدي ان تؤجل ذهابك الى الغد . اجابه والده اني ارى على محياك امارات الهمّ والاهتمام فاذا كان في الامر مـا يوجب مساعدتي لك فلا اتأخر البتة

جلس مرسيلوس على الكرسي وقص على والده كل ما حدث له ليلة الوليمة الى ان انتهى الى القول انه يريد الاعتذار فسمع غاليو الرواية كلها دون ان يعترض . غير انه لما ذكر له مسألة الاعتذار تحمس والده وصاح قائلاً لا . لا . لا

فتعجب مرسيلوس وساله ما السبب يا ابتاه ؟ فاجابه ابوه ان اخطر آلة يستعملها الانسان في اصلاح ما فسد هي الاعتذار . قال هذا وانتصب واقفاً ثم استطرد قائلاً حتى في احوال مرضية عندما تريد ان تصالح صديقاً آذيته فاذا كان الاعتذار يحط من كرامتك ربما يصبح اكثر تمرداً عليك واذا كان الصديق لا يرضى الا باعتذار كهذا فهو ليس بصديق وصداقته لا يجب ان تدوم . وفي مسالة غايوس يكون الاعتذار مضراً بلا شك لانك لا تعتذر الى رجل شريف بل بالعكس لانه يعتبر كرم الخلق علامة ضعف

ان لدى غايوس اسباباً تجعله يشعر بسلطته . لا تدافع ابداً عن شخص غير امين على مركزه . اجاب مرسيلوس ربما انت على صواب يا سيدي

— لا شك انني على صواب قال غاليو هذا واتجه نحو الباب واغلقه ثم عاد وجلس في كرسيه واستطرد قائلاً : اعلم انه من الامور الضرورية مراقبة غايوس وشدة الحذر منه واليك البرهان :

لماذا يطلب طيباريوس الشيخ مساعدة الالهة وهو في غنى عنها لانها وُجدت لمساعدة الفقراء فقط وليس الاغنياء . وحينما يطلب نظير الامبراطور هذا مساعدة الالهة يكون اما مختل الشعور او معوجاً وهو على ما اؤكد انه من النوع الاول لانه حاقد على والدته منذ سنوات كثيرة لانها التمست منه ان يطلق ڤسبانيا المرأة الوحيدة التي احبها فقاطعه مرسيلوس قائلاً : اظن انه يحب ديانا

— نعم ولماذا ؟ لانها حفيدة ڤسبانيا . انني اذكر انه لم يكن حاكماً مستبداً غاشماً في بداءة حكمه التي ازهرت في اثنائها رومية حتى انها فاقت احكام يوليوس قيصر في عظمتها كما انه لا يخفى عليك انه بعد ما طلق ڤسبانيا طلقته كل لذة في

المملكة حيث احاط به المنجمون والسحرة والدجالون والكهنة واقنعوه اخيراً ان يتخذ جوليا التي كان يكرهها منذ صغرهـا زوجة له وهو يخشاها جداً وهو على صواب لانها امرأة وحشية تقدُم على قتل اي انسان دون ما رهبة او خشية

قال مرسيلوس اخبرتني لوسيا ان الامبراطور لا يذوق الخمر الذي يوضع على المائدة قبل ان تشرب منه امبراطورته

– لا عجب من ذلك فانه من شدة خوفه وسوء ظنه يحرس ابواب غرفة نومه ونوافذها اثنا عشر رجلاً من المصارعين . وهذه الامور جميعها يعرفها غايوس ولا يخفى عليه ان الامبراطور سخيف العقل وان ايام والدته لن تطول واذا حدث لها حادثٌ ما فان السلطة تبعدهم حالاً الى كريت وعلى راسهم الامير غايوس

– واذا ماتت جوليا هل ينصب الامبراطور طيباريوس اسينيوس امبراطوراً على العرش ؟

– ربما يتم ذلك لكي يعوّض فسبانيا من الاكرام بتشريف ولدها قـال مرسيلوس مخاطباً نفسه هل يُهمّ ديانا يا ترى ان تصبح اميرة ؟ واذ فاه بهذه الكلمات التفت الى والده فرآه مدهوشاً فقال له هل يهمك يا بنيَّ امر ديانا ؟

– لا يهمني اكثر مما يُهمّ لوسيا فانهما لا تفترقان البتة كما اراهما تقريباً كل يوم

– انها جميلة ونشيطة

– نعم اجاب مرسيلوس ولكنها لم تبقَ طفلة فقد بلغت السادسة عشرة من العمر

– اذاً فقد اصبحت في سن الزواج . ولكن اليك نصيحتي وهي ان لا تتحبب كثيراً اليها لان لغايوس جواسيس في كل مكان وهو يريدها له

– هل في بيتنا يمكن ان يكون له جواسيس ؟

– لمَ لا ؟ اتظن ان غايوس ابن اغريبا الذي لم يعرف الامانة كل حياته يصعب عليه ان يقوم بعمل كهذا . . . ثم قال دعنا الان من هذا كله فلننتظر جوادينا

ونذهب لنفحص المهرتين

فللحال لبى مرسيلوس طلب والده كأن مسألة غايوس قد انتهت وعند خروجهما رأيا ديمتريوس مستنداً الى عمود في الرواق ولما وقع نظره عليهما حياهما برمحه كما هي عادة العبيد نحو سادتهم ثم تبعهما

فتكلم مرسيلوس والده بصوت منخفض قائلاً ليس من عادة ديمتريوس ان يقف مثل هذا الموقف في الرواق كأني به ينتظر حدثاً جديداً . أتظن انه مرتاب من شيء ؟

– لا شك من ذلك . فانه كان مرافقاً لك ليلة امس في الوليمة وقد عرف انك اغضبت غايوس ولهذا السبب اخذ الاحتياطات اللازمة

– أأسأله عما اذا كان هناك من جواسيس ؟

– اذا كان يرتاب في احد فانه يخبرك

– انني ارى كنتوس مقبلاً نحونا وقد فهمت انه يرافق الامير في هذه الايام في ذهابه وايابه

وعند وصوله اليهم لم يحيّهم قط بل اخرج رسالة مذهبة من منطقته وقال قد امرني سمو الامير غايوس ان اسلّم هذا الكتاب الى القاضي مرسيلوس لوقا غاليو . فترجل مرافقه عن جواده واخذه منه وسلمه فتناوله مرسيلوس من يده وسأله عما اذا كان ينتظر جواباً

فاجابه كنتوس بلهجة جافية : ان الاوامر الملكية لا تطلب جواباً بل طاعة . ثم همز جوادهُ وسار مسرعاً

فقال غاليو : ان غايوس سريع في انجاز اعماله . وسرَّ اذ رأى هدوء ابنه وهو يخرج الخنجر من منطقته وينزع برأسه الشمع عن الدرج . ثم فتح الكتاب وعرضه على انظار والده الذي قرأه بصوت عالٍ وهذا مضمونهُ

تحية من الامير غايوس دروس اغريبا الى القاضي مرسيلوس لوقا غاليو

ان شجاعة القاضي في منصّة القضاء يجب ان تصرف في خدمة الدولة في مراكز حيث تبدو الجرأة شريفة وذات قيمة . ولا تكون في حفلات الولائم حيث ينحطّ قدرها . فعلى القاضي مرسيلوس لوقا غاليو ان يتقدم قبل الغروب من رئيس الحرس البريتوري كورنيليوس كابيتو ليتسلّم منصبهُ

طوى مرسيلوس الدرج وسلمهُ الى ديمتريوس وقال لوالده : ان لدينا الوقت الكافي للذهاب وفحص المهرتين . ولما راى والده ان ابنه لم يعرْ المسألة اهمية عظيمة سرّ بشجاعته وافتخر

ثم اشار مرسيلوس الى ديمتريوس ان يأتي اليه وقال له : انك قد سمعت فحوى الرسالة ؟ اجاب نعم يا سيدي — يظهر ان الامير يريد ان يتخلص مني . أجابه ثانية نعم

قال مرسيلوس : انني قد جنيت على نفسي لذلك انصح لك ان لا تجازف بحياتك لاجلي فلك ملء الحرية في ان تقرّر البقاء هنا او الذهاب معي

— لا بل اذهب معك

— حسناً . اذاً هيء ما نحتاج اليه واذا احتجت الى دراهم لشراء شيء ما فاطلبها من مرسيبور . ثم همز جوادهُ ولحق بوالدهِ الذي سار جوادهُ شوطاً بعيداً عنه وقال له تكلمت مع ديمتريوس واطلقت له الحرية فيما اذا كان يريد ان يذهب معي فقال انه مستعدّ للذهاب . غير انني افهمته بصراحة انه ربما يلاقي حتفه هناك

اجابه والده حسناً فعلت . ثم اطلق لفكره العنان وقال لابنه قليلون في المجلس الرجال الذين خصتهم الالهة بالذكا . كما خصّت به عبدك ديمتريوس لا تظن لكونه عبداً بان افكاره واراءه غير صائبة . اقول لك انه سيأتي يوم وليس ذلك ببعيد فيه يستلم العبيد زمام الاحكام ولو انهم كانوا مدربين لكنت تراه في ايديهم اليوم او غداً لانهم لا ينقصهم سوى التدريب فقط

ولا يخفى عليك ان ثلاثة ارباع سكان رومية هم من العبيد لان الجنود يأتون يومياً بمراكب ملأى منهم . ولا بدَّ من ان يتّحدوا يوماً ما ويثوروا على الحكام ويطلبوا الحرية . ومعلوم ان الحكومة عاجزة على مقاومة هذا العدد العظيم لانها حكومة جوفاء ضعيفة وشريرة دأبها اللهو والمرح واقامة الولائم يحكمها امبراطور سخيف العقل يقرب من حدّ الجنون . ان رومية مهدَّدة بالخراب ولكنني لست اعلم متى يكون ذلك . على انني اؤكد انها سائرة في طريق الاضمحلال لانها ضعيفة وشريرة جداً فلن تدوم

الفصل الثاني

لما ذهب مرسيلوس الساعة الثالثة ليعرف ماهية الوظيفة التي دبّرها له الامير غايوس لم يجد كرنيليوس كاپيتو هناك . فتعجب من ذلك وتشاءم لانه ادرك حالاً ان صديق والده الحميم لم يرغب في مقابلته كي لا يبلغه امر تلك الوظيفة الخطرة

سار غاليو وابنه على ظهرَي جواديهما مسافة ميلين من محلة اسمعيل دون ان يتمكنا من ابتياع شيء . ما لان بائعاً طماعاً طلب سعراً فاحشاً ولان مسألة ابنه شغلت باله لذلك لم يبقَ له رغبة في المساومة

ولما وصلا ولم يجدا كورنيليوس هناك اخذ العجب من غاليو كل مأخذ بحيث يعلم بالتاكيد انه لو كان في رومية مَن يعدّل تحويل العقاب الذي قصده غايوس لابنه لما كان الا رئيس الحرس الپريتوري والقائد العام الذي كانت له السلطة المطلقة في تعيين الميعاد وضبطه

غاص غاليو في لجة تذكاراته القديمة وطفق يقصّ على ابنه باخلاص سيرة ابطال الحرس الپريتوري المحزنة وكان ابنه يعلم تلك السوالف حق العلم . فشرح له كيف ان يوليوس قيصر اسس هذا المشروع لاجل سلامة حياته واختار حرسه من الابطال المشهورين الذين قاموا باعمال خطيرة ومشهورة . وقد تقدم هذا المشروع مع تقدّم الايام وتألف من الحرس جيش عظيم لاجل الحرب . ونُصبت الواح من النحاس والرخام في الساحة الواسعة نقشت عليها سير واعمال ابطاله الآتي الذكر وكل من اتصف بالجرأة والاخلاص ونال الشرف العظيم في تلك الايام . ثم استطرد غاليو والغمّ ملء قلبه قائلاً . ان اوغسطس الذي زاد زهوه زيادة سيئة اخذ يمنح العضوية الشرعية التي هي من حق الشيوخ فقط الى اخصائه الذين غضوا الطرف عن خطاءه .

وكذلك الى اغنياء مقربين اليه ازدادوا ثروة من ربع صناعة الاشغال الاجنبية والى سماسرة العبيد والى الذين كانوا يجمعون دخل الولاية وكل من يقدّم له خدمة ما ، او يالئ طمعه الذي لا حدّ له وهكذا زال المجد والامتياز عن الحرس البريتوري اذ كانت العضوية تُباع وتُشرى

ان الامبراطور طيباريوس عيّن كورنيليوس كابيتو رئيساً للحرس البريتوري مع ان المذكور لم تهمه تلك الوظيفة ولكنه اطاع وقبلها واخذ ينظف الحرس من كل من لم يكن اهلاً لها . ولما رأى طيباريوس ذلك امرهُ ان لا يتمادى كثيراً في التطهير عند ذلك فهم كورنيليوس ان الامبراطور انما عينه في الوظيفه ليستعمل اسمه كمطهر .

ولو ان اوغسطوس قيصر اكتفى باسقاط الحرس البريتوري ووقف عند ذلك الحدّ لكان ذلك سهلاً ولكنه دمر نظام مجلس الاعيان الذي كان شريفاً ايضاً . فكان القضاة المتغيبون عن اشغالهم لاسباب ضرورية يغتنمون عند رجوعهم فرصة ليشغلوا المكاتب بما يريدون ويتمتعوا بالحمامات والمأكولات والملبوسات . ثم ان اوغسطس وسع نظام المجلس وادخل فيه ابنـاء اعضائه فاذا كان لدى الشيخ دراهم كافية وله اهميته السياسية كان ابنه يلبس اللبـاس الرسمي وتُؤدّى له تحية الشيخ نفسه

احبَّ مرسيلوس ان يعتقد ان له من المواهب ما يعزّز قضيته لانه في دروسه في « الاكادمية » او مجمع العلماء كان ممتازاً في الاطلاع على تاريخ الحروب وعلم الحركات الحربية وتفهمها وقد ربح جوائز كثيرة في رمي السهام الى ما هناك من الدروس المفيدة لذلك كان يترقب الفرصة للحصول على وظيفة جديرة به بالنظر لثقته بنفسه بحسن القيام باية وظيفة كانت . ولم يكن مفتخراً بلقبه كقاضٍ لانه لم يرد ان يدعوه عبيده بهذا اللقب

وقال غاليو لابنه انني ارجو ان يعير كابيتو قضيتك الاهتمام اللازم فاذا كانت

الوظيفة شريفة فانني لا ابالي بما ينجم عنها من الاخطار والمصاعب لانني مستعد ان ادفعك الى الاخطار وليس الى هوة العار . ولي مل. الثقة ان صديقي يبذل كل ما في وسعه لاجلك فاذهب بهذا الايمان

وتأكد مرسيلوس ايضاً ان كابيتو الذي البسه الجبة البيضاء لاول مرة في حياته لا بدَّ له من مساعدته في امر لا يحط من مقامه في مسألة انتقام الامير منه . ولقد كان مرتاحاً لهذا الامر فسار على جواده وديمتريوس يتبعه حتى وصلا الى الشارع الذي يؤدي الى حيث يقيم رئيس الحرس فرأياه مزدحماً جداً بالجنود والضباط والحرس البريتوري . فترجلا عن جواديهما وبكل عناء استطاعا تفريق الجماهير للوصول الى مكانهما المقصود

ولما دخل الى مكتب كابيتو ولم يجده فيه بادره الكاتب وقال له قد اوصاني الرئيس ان اسلمك هذه الرسالة فتناولها مرسيلوس منه وسار نحو ديمتريوس خادمه الذي لما رأى سيده مقبلاً قدَّم له عنان جواده وركب هو فرسه وعادا كلاهما الى البيت دون ان يفض مرسيلوس ذلك الدرج الرسمي الكبير او يقرأ شيئاً مما انطوى عليه

* * * *

ولما وصل الى البيت رأى والده في مكتبه على احرّ من النار ينتظر عودته وقد بدت على وجهه علامات القلق والاضطراب . ثم التفت نحو ابنه بعد ان قرأ الرسالة وقال له ان وظيفتك توعز اليك ان تذهب الى منوع وتكون قائد الحامية فيها فسأله مرسيلوس ما هي منوع واين موقعها الجغرافي يا سيدي ؟

– ان منوع مدينة وسخة واقعة في شمالي فلسطين

– انا اعلم ان هنالك قوة عسكرية في قيصرية ويافا فقط وليس في منوع

– انها قرب البحر الميت الذي نستخرج منه الملح ومن واجبات حاميتنا ان

تؤمن الطريق للقوافل التي تذهب لجلبه من هناك

– ظننت ان الوظيفة اشدّ خطراً مما وصفتها ؟

– انها لخطرة جداً لان البدو يفاجئون القافلة التي تحمل المؤونة والدراهم للعمال الذين يستخرجون الملح . وقد يتفق احياناً ان القافلة تهلك على بكرة ابيها وحاميتها تقف مكتوفة الايدي لانها مؤلفة من رجال غير مخلصين لا يهمهم امرها سواء هلكت ام بقيت في قيد الحياة

– كنت ارجح ان الأمن مستتبّ في الاماكن التي يحكمها الجيش الروماني

– معاذ الله بل بالعكس لسوء الحظ

– اتعرف شيئاً اكثر عن منوع يا والدي ؟

– نعم يا ابني انني اعرف الشيء الكثير عنها فقد كانت واجباتي مع اربعة من زملائي لعدة سنين خلت حراسة تلك القلعة . ثم انتصب واقفاً وتهدّد بقبضة يده قائلاً : الان علمت لماذا غايوس يريد ان يرسل ابني الى منوع لانه يعلم انني اقدّر الاخطار التي سيواجهها هناك حق قدرها

ثم رفع يديه وصرخ قائلاً ليتني دُعين لاسترحم من الالهة ان تهلك نفسهُ

* * * *

كورنيليا فبسانيا غاليو التي هي حفيدة لزوجة الامبراطور طيباريوس المطلقة لو انها اجهدت نفسها قليلاً لكان لها مركزٌ سامٍ في الهيئة الاجتماعية . وكذلك لو اقنعت زوجها ليستميل اليه صاحب التاج لكان مرقس لوقا غاليو قد اصبح من الاخصاء المقرّبين للعرش وكان له ولعائلته ما شاء من الاشياء التي يرومها

وكذلك لو ان كورنيليا تملقت الامبراطورة جوليا لكانت عائلة غاليو قد ارتقت الى اعلى درجات السعادة ولكنه كان ينقصها الجهاد الضروري ومع انها كانت لطيفة مع ضيوفها ومحبة لزوجها واولادها فقد كانت مع هذا اكسل امرأة

في المملكة كلها . ولقد كانت ايضاً محبوبة من عبيدها وخدمها لانها لم تشأ ان تُصدر اوامرها الا لما فيه راحتها او طمأنينة بالها فقط واذا كانت تفاجأ بخبر ما فانها كانت تلجأ الى البكاء.

وقد حدث يوماً ان جاءتها پولا والدة ديانا تخبرها بصدد الخطاب الذي القاه زوجها في مجلس الاعيان وانتقد فيه الحكومة وندّد بسوء ادارة غايوس . فكان منها ان انزعجت شديد الانزعاج الا انها كانت مع پولا تسعيان جهدهما لكي تمكّنا رباط الصداقة بين لوسيا وديانا وتوثقا عرى المحبة بين مرسيليوس والاخيرة . اما وقد انتقد غاليو سياسة غايوس فان عولوس والد ديانا سيمنعها من المجيء اليهم

وقد كان احد احلام كورنيليا ان ترى ابنها الشجاع ممتطياً جواداً ابيض يقود جيشاً مظفراً في الاسواق ويباهي بالالوف المؤلفة المرحبة به والداعية له بدوام العز والسؤدد . وهي تعلم حق العلم ان الذي يحصل له مثل هذا العرض والشرف لا بدّ من ان يعرّض نفسه للحروب والاخطار

* * * *

واتفق ذات يوم انه بينما كانت كورنيليا في غرفتها الملأى بالرياش الثمين الفاخر اذ دخل زوجها وجلس في احد الكراسي وهو عابس الوجه مقطب الجبين فقالت له ما بالك فان هيئتك تدل على التعب

اجابها ان مرسيلوس مدعوٌ الى الخدمة

— هذا الذي كنا ننتظره فانني أسرّ بمثل هذا الخبر . وهل المكان بعيد؟

— نعم انه بعيد ووظيفته توجب عليه ان يرأس الحامية الرومانية في منوع فليس اذاً من سرور ولا افتخار لاننا في اغلب الاحيان نرسل الى هنالك الاشخاص الذين نريد ان نتخلص منهم . وقد تلقى مرسيلوس الامر هذه المرة مباشرة من غايوس وليس من لجنة الشيوخ في منوع التي كانت تستشار اولاً في الامر

ولما سمعت كورنيليا منه هذا الشرح اخذت تشهق وتبكي كالطفل مع انها كانت قد تجاوزت سن الاربعين وطفقت تلوم زوجها على انتقاداته اعتقاداً منها بانه هو السبب في ابعاد ابنها لتقليده هذه الوظيفة . على ان زوجها لم يرد ان يُفضي اليها بالحقيقة لكي لا يزيد تعس ابنه في توبيخ امه له . ثم مسحت دموعها وصاحت قائلة : اين هو الان اريد ان اراه حالاً

— انه الان يُعدّ حاجاته اللازمة لانه مسافر هو وديمتريوس في هذه الليلة حسب الامر المعطى له

— ولكن لماذا يسافر في احد الزوارق ولا يشتري مركباً لسفره يكون لائقاً بقدره ومقامه . ثم عادت كورنيليا الى البكا .. فقال لها زوجها خلي عنك الان وامسحي دموعك لانه سيعود عن قريب وقد ارسلني لاهينك لمقابلته . ولكن اياك ان تظهري امامه الضعف فانك تزيدين في تعسه . اما اذا رآك تودعينه بشجاعة فانه يفتخر بك ولا ييأس . فقالت كورنيليا سأحاول جهدي والتصقت بزوجها لتعزية نفسها

* * * *

جاء مرسيلوس لوداع والدته وقد لبث بازائها نصف ساعة . ومع انها بكت عند وداعه إلا انها اظهرت شجاعة غير منتظرة . وقبل ان يذهب ليودع اخته التي كان والدها قد انبأها بسفره ، مرّ بغرفته فلم يرَ ديمتريوس هناك فسأل عنه فقيل له انهم رأوه ممتطياً جواده وهو ينهب به الارض . فلم يقل مرسيلوس شيئاً بل ذهب الى حيث كانت اخته تراقب المراكب والسفن في نهر التيبر فلفتت نظرها سفينة سوداء فخمة فاقترب اخوها منها وطوّقها بذراعيه وهي بدورها طوّقت عنقه ثم سألته دون ان تنظر الى وجهه أيمكن ان تكون هذه السفينة سفينتك ؟

— نعم انها بعينها

– انني مسرورة لاخذك ديمتريوس معك

– هو الذي اراد ان يذهب معي

– هل كل شيء جاهز . لقد سألته هذا السؤال وهي تحاول ان تخفي تأثرها . انك لست تعلم متى تعود

– لا ليس لي هذا العلم الآن

تنهدت لوسيا فجأة ثم طوقت عنق اخيها ثانية وهبت تبكي وتنتحب فهمس في اذنها قائلاً لا تبكي يا أختاه علينا ان نتصرف كرومانيين

فرفعت لوسيا رأسها ونظرت اليه بعينين متوهجتين من الغضب واجابت مستهزئة بقوله كرومانيين ! أية فائدة يستفيدها الروماني اذا كان شجاعاً مدّعياً ان كل ما يقوم به حسن وشريف وانه يضحي بكل شيء ويتألم ويموت لاجل رومية . انني ابغض رومية ! انظر ماذا فعلت رومية بنا وبك ؟ لماذا لا نقدر ان نعيش بسلام ؟ ان المملكة الرومانية تعجُّ بالعبيد . ولست اعني العبيد الذين مثل ديمتريوس وترتيا بل مثلك ومثلي . لقد امضينا معظم حياتنا ونحن نحني رؤوسنا ونجامل ونداهن وجيوشنا تقتل وتغزو . ولِمَ هذا كله ؟ لتصبح رومية رئيسة العالم يحكمها رجل مختل كطيباريوس وسكير كغايوس . انني اكره رومية وامقتها

رأى مرسيليوس ان لا يقاطع شقيقته في ابان غضبها . ولما هدأت قليلاً قال لها اتشعرين احسن الآن . فكان منها ان القت رأسها على كتفه وهي لا تزال متأثرة. وهو اذ كان يتطلع الى هنا وهناك رأى ديمتريوس واقفاً بعيداً عنهما قليلاً فقال لها ساتركك الآن لارى ماذا يريده ديمتريوس الذي اقترب منه وقال يا سيدي ان ابنة السفير عولوس هنا . فقالت لوسيا لاخيها انا ذاهبة الى الحديقة لانني لا استطيع ان اقابلها في هذه الحالة . ثم التفتت الى ديمتريوس وقالت له ادعُ ديانا الى هنا . وقبل ان يتوجه ليدعوها سأله مرسيلوس اتظن ان ديانا عالمة بسفرنا ؟

– نعم يا سيدي

– كيف عرفت ذلك

– لانني رأيت الدموع في عينيها

وبعد ان ذهب ديمتريوس اخذ يراقب حركات اخته وقامتها المنحنية فاخذته الشفقة عليها . ثم تقدّم من ديانا فدهش لِما رأى من نمو عضلاتها وبراعة جمالها وخفق قلبه لها . فحَيّته بكلتا يديها ثم نظرت اليه وهي تحاول رد الدموع عن مقلتيها وهو بدوره اخذ يتمعن في اسارير وجهها الجميلة ثم قال لها يسرني انكِ جئتِ لتودعيني يا ديانا

– احقاً انك مسافر هذه الليلة ؟

– كيف عرفتِ ذلك

– عرفت منذ ثلاث ساعات فقط وقد فهمت ان وقتك لا يسمح لك بالمجيء لتودعني

– انكِ اوليتني منة عظيمة بمجيئكِ يا ديانا . واذ قال هذا ضمّها اليه

– هل يمكنك ان تكتب لي الليلة من على ظهر الباخرة ؟

– اكون مسروراً للغاية وارجو ان تكتبي لي انتِ ايضاً . اتعديني بذلك ؟

– نعم اعدك . وبعد ان قالت هذا ودعته وانصرفت الى الحديقة حيث كانت لوسيا بانتظارها فسارتا معاً ومرسيلوس يراقبهما . ثم رأى ديمتريوس مقبلاً وعلامات الانشراح والارتياح بادية على وجهه ففهم انه هو الذي اخبر ديانا بسفره

فسأله ديمتريوس ، هل يريد سيدي ان يتناول غداءه في البيت

– لا يا ديمتريوس لانني ودعت بيت والديَّ مرة ولا اريد ان ازيد في عذابهما وعذابي في توديعهما ثانية . ساتناول غدائي في الباخرة

ثم اخذ مرسيليوس يناجي نفسه قائلاً : لو كنت أُمهلتُ نهاراً آخر لكنت قمت باعمال كثيرة ضرورية واهمها ان اكتب الى طولوس

* * * *

ولما التقت ديانا بلوسيا تحت مظلة الحديقة بكتا معاً بكاء شديداً . ثم اخذتا تتحدثان بشأن مرسيليوس اذا كان بامكانه ان يعود على جناح السلامة . فقالت ديانا كم يكون سرورنا عظيماً لو استطاع احد ان يضغط على افكار غايوس ليعدل عن الانتقام منه . نعم ربما كان والدي يستطيع ان يؤثر عليه لو لم يكن في الآونة الحاضرة متغيباً في مرسيليا

ثم سألت لوسيا ديانا : هل ودَّعت مرسيليوس ؟ فحنت ديانا رأسها وضغطت على يد لوسيا واحمرَّت وجنتاها ولم تُجب

ثم سألت لوسيا ايضاً كيف استطاع ديمتريوس يا تُرى ان يصل الى هنا بمثل هذه السرعة الشديدة

اجابت ديانا انه ذهب ليخبرني بسفر سيده وانه يرغب في ان يراني . وكان هنا منذ قليل هل اتى ليودعكِ كانه مساوٍ لكِ في المقام

– من الغريب ان ديمتريوس لم يكن يكلمني قط في حياته الا عند قيامه بوظيفة تتعلق بي . لقد جاء اليَّ وقال انني ذاهب اليوم مع شقيقكِ وربما لا يتسنَّى لي الرجوع البتة لذلك اتيت لاودّع شقيقة سيدي واشكر لها حنوها نحو خادم اخيها ولن انسى ابداً لطفها . ثم اخرج خاتماً من جيبه وقال اودّ ان اترك هذا الخاتم معكِ فاذا عدت الى هنا سالماً فعندئذٍ يمكنك ان ترديه لي وان لم اعد فسيكون لك . ان والدي اهداه لوالدتي وهذا هو الشيء الوحيد الذي تمكنت من جلبه

– ماذا قلتِ له ؟

– ماذا تريدين ان اقول له وهو ذاهب واخي مخاطراً بحياته . ومع هذا كله فانه بشر مثلنا أليس كذلك ؟

– نعم هو بشر . ولكن اعلميني ما قلتِ له ؟

لقد شكرته واعلمته انني اقدر ثقته وكذلك وعدتهُ بانني اهتم بوديعته التي استودعني اياها وتمنيت له العودة سالماً معافىً

– هذا حسن وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك مددت اليهِ يدي

– مددتِ يدك لعبدٍ جاء ليودعك ؟

قالت لوسيا لقد جرى اعظم من هذا فانه وضع الخاتم بخنصري ثم قبل يدي

– وهل تقرّرين ابقاء الخاتم في خنصركِ ؟

– لا لماذا البسه ربما افقدهُ .

– هل خطر على بالكِ ان ديمتريوس خطر له ايضاً ان يحبكِ سراً ؟

اجابتها : لم الاحظ هذا الامر . نعم يا ديانا ان ديمتريوس خادم وذلك من سوء حظه فانه وُلد في بيت راقٍ وتربى تربية عالية والذين كبلوهُ بالسلاسل هم اناس انذال لا يستحقون ان يربطوا سيور حذائه . ولمَ ذلك ؟ لانهم رومانيون . انتِ يا ديانا تسمعين بالقتل وسفك الدماء ولكنك لا تعلمين ان كل ما هو عظيم ويستحق الذكر في المملكة الرومانية قد نهب من مملكة اليونان . اصدقيني الخبر لماذا نحن نتكلم باللسان اليوناني ونفضله على اللاتيني . اليس لان اليونان تفوّقوا علينا بجميع العلوم والفنون وادارة الحكومات وهلم جراً

فاسرّت ديانا الى لوسيا بما يأتي : انكِ تجازفين في كلامك هذا حتى ولو اسررتهِ اليَّ انا . ألا تكفي المصاعب والاتعاب التي اصابت عائلتكم . اتريدين ان نُنفى او ان نمسي جميعنا في السجن ؟

* * * *

وقف مرسيلوس وحده على « درابزون » ظهر المركب ولم يلاحظ انهما نزلا في النهر لانهماكه وتشتتٍ في تدبير شؤونه الخاصة . وكانت اصوات سكان المدينة قد خفتت واختفى كل شيء من نظره مـا عدا لهيب شعلتين صغيرتين بدا له على عامودي رخام منزله وتيقن له ان والده واقف على الشرفة

ولما اختفى النور بعد قليل شعر بان كل شيء اصبح جديداً عنده سواء كان من جهة الحياة ام الحب ام المنزل كأني به في غيبوبة وما لبث ان ثاب اليه وعيه فودّ لو انه يعود ليرى عائلته مرةً اخرى وديانا ايضاً على انه سرّ ان يرى عبده المخلص على بضع عشر خطوات منه فأومأ اليه بالاقتراب ولكي يشغله بالحديث سأله : هل تؤمن يا ديمتريوس بالالهة ؟ قال هذا واشار الى الفلك

– اذا كان سيدي يؤمن فانا كذلك

– دعنا من هذا . اصدقني الحقيقة ما هو اعتقادك بها . هل تصلي وتستمدّ منها المعونة والنجاح ؟

– لما كنت انا واخوتي صغيري السن علمتنا والدتنا واوصتنا ان نستغيث بالالهة لما لها من قوة الدين واليقين . وكان في حديقتنا تمثال للآلهة پريپوس فكانت والدتي تحمل بيدها الواحدة نباتاً وبالاخرى معولاً وتسجد عند قاعدة التمثال بحيث كانت تؤمن بانه اله الزرع . ولا تنقطع عن الصلاة ايضاً للالهة (اثين) حينما كنت واخوتي نسير وراء المعلمة الى غرفة الدراسة اما والدي فلكي يسر والدتي كان يقدم هدايا للالهة في ايام الاعياد

– حسنٌ كلامك بشأن والدتك . على اني اسألك ثانيةً هل تؤمن بالالهة ايماناً حقيقياً ؟

– كلا يا سيدي

– أتعني بلفظة كلا انها لا تستطيع ان تخدم الناس . او هل تشك بوجودها ؟

اظن ان الاقرب الى العقل يا سيدي ان تؤمن بعدم وجودها لانني لما صليت وسجدت في آخر مرة كان والدي يساق الى الاعدام مكبلاً بالقيود الثقيلة . ولم نتأخر انا ووالدتي عن الصلاة للاله ژيوس اله الالهة والناس لكي يحفظ حياته . فاما انه لم يسمع دعاءنا او انه سمع وليس له من قدرة واستطاعة على مساعدتنا او انه كان في مقدرته مساعدتنا فرفض ذلك ولم يفعل . وفي اليوم عينه لم يبقَ لوالدتي

قوة على احتمال الحزن فكان من شدة يأسها ان انتحرت وقد بقيت من ذلك الحين بعيداً عن الادعية والتضرعات الى الالهة بل انني ما ازال الى الان اقذفها بالسباب واللعنات .

ثم وجّه اليه سوألاً آخر وهو متفرس في الفضاء . هل تعتقد انه توجد قوة فوق الطبيعة تسيطر على هذا الكون ؟

– ليس عندي فكر صريح بهذا الشأن الخطير يا سيدي غير ان الانسان اذا نظر في نظام هذا الكون العجيب وتأمل ما فيه من اسرار تحير الافكار فلا بدَّ من ان يشعر بوجود خالق عظيم له . وما كنت لاعتقد قط ان الناس يستمدون المعونة من تماثيل اشخاص فوق الطبيعة فيجدر بنا والحالة هذه ان نؤمن بان هؤلاء الناس ابتدعوا من عند انفسهم افعالهم البربرية بدون مساعدة الالهة

– انني اوافقك يا ديمتريوس فلو ان هناك قوة فائقة يستطيع الانسان ان يلتجي اليها عند الحاجة لكان سعيداً جداً

– نعم يا سيدي ان النجوم تتبع نظاماً محدوداً متقناً وهي امينة وثابتة . انني اؤمن بنهر التيبر وبالجبال والغنم والمواشي والخيل فاذا كان هناك من اله يديرها فهو امين وثابت ولكن اذا كان ذلك الآله على جبال اولمبوس يدير اعمال البشرية فانه بلا ريب اثيم ومعتوه

قال مرسيلوس ربما يخيل لك ان البشرية باجمعها معتوهة

– لست ادري يا مولاي

عاد ديمتريوس الى حيث كان اولاً واما مرسيلوس فاخذ يقول بنفسه ان هبده محقّ بفكره لانّ ما الذي اوصل الامبراطورية الرومانية الى هذه الحالة المؤلمة اليس اختلالها ؟ وهذا ما يؤلم العالم كله ، فاذا وجدت قدرة فائقة تحكم هذا الكون فهي مختلة ايضاً . ان النجوم امينة وثابتة ؟ اما البشرية فانها مختلة

الفصل الثالث

بعد ان قطعت السفينة الصغيرة جزر اللاپارى في اردإ طقس في السنة وجنحت الى بوغاز مسينا الخطر قابلت بحراً هادئاً ونسيماً عليلاً منعشاً هدأ اعصاب ربانها مانيوس فلذَّ له الحديث . وبعد ان تكلم وقتاً طويلاً عن سفراته العديدة سأله مرسيلوس الافادة عما يعرف عن منوع

اجابه الربان قائلاً : انه لا يوجد مكان يسمى بهذا الاسم ولما نظر اليه مرسيلوس بدهشة اعطاه الربان درساً في التاريخ كان يعرفه قبلاً واستطرد قائلاً :

منذ خمسين سنة حاصرت جيوش اوغسطس مدينة غزة القديمة واخضعتها بعد حصار طويل شاق كلفهم اكثر مما يستحق الاستيلاء عليها . ولو انهم دفعوا الضريبة الباهظة التي فُرضت عليهم للوصول الى الملح لكانت اقلّ بكثير ثم تابع مرسيلوس سؤاله قائلاً ما الذي تعلمه عن البدو ؟

– كان باستطاعة الامبراطور ان يشتري البدو باقل كثيراً مما كلفته نفقات الحرب لان خسارتنا بغزو غزة كانت ثلاثة وعشرين الف رجل وكانت حاميتها خليطاً من المصريين والسوريين واليهود الذين لم يرعبهم رؤية الدم ولم ياخذوا اسرى لانهم لم يكونوا بحاجة الى مَن يخدمهم بل كانوا مشتهرين بانواع التعذيب . وحسبما تبين للامبراطور ان موقفهم المستمر في احتقار المملكة يتطلب تطهير غزة القديمة لذلك صرّح قائلاً : من هذا اليوم فصاعداً اصبحت غزة مدينة رومانية واصبح اسمها (منوع) وكان يرجو ان السكان يسرون جداً بالفوائد التي يحصلون عليها من دولة متمدنة ولا يذكرون فيما بعد انها كانت قبلاً مدينة مهملة . وبما انها كانت تُدعى غزة منذ قرون عديدة فان اوغسطس سيحتاج الى مرسوم ليغير اسمها وعاداتها

واضاف مانيوس قائلاً : انت تعلم يا سيدي ان شاطىء بحر الميت الجامد الابيض هو قبضة ملح بالقياس الى بقعة مياه في غابة يجتمع اليها حيوانات شتى ويتقاتلون لاجلها . فكان احياناً يظهر حيوان اقوى من غيره فيطرد سائر الحيوانات ويستولي وحده عليها ومراراً كثيرة كانت الحيوانات الصغيرة تتغلب على الحيوان الكبير وتطرده . هذه هي حالة مدينة غزة

قال مرسيلوس ولكن قبضة الملح ليست في غزة بل في البحر الميت

اجابهُ الربان نعم ان الحق بجانبك . ولكنك لا تستطيع الوصول الى البحر الميت ما لم تسمح لك غزة به . ومن مدة طويلة طرد اسد يهوذا بقية الحيوانات بعد ان القى الرعب في قلب الضبع الفلسطيني . ثم طردت مصر الفيلة الكبيرة الاسد واخيراً تمَّ للاسكندر النمر التغلب على الفيلة . وبعد معارك كهذه كان الصغار يرتدون الى الوراء ويأخذ الواحد منهم بيد الآخر اما الكبار فانهم كانوا يلحسون جروحاتهم

فسأله مرسيلوس مع علمهِ بالجواب عن سؤاله : تُرى أي حيوان جاء بعد النمر ؟

— جاء النسر الروماني بل اسراب من النسور الرومانية وافت لتجمع العظام ولكن الذين سبقوا لم يكونوا على استعداد ليجعلوا الرومانيين يجمعون عظامهم . ولهذا السبب خسرنا عدداً وافراً من الرجال لنحصل على قبضة ملح من البحر الميت

قال مرسيلوس يا لها من رواية لذيذة

— نعم انها لرواية لذيذة ولكن الامر المهم هو النتيجة التيُ احدثتها هذه الحروب الطويلة على غزة . لانهُ بعد كل غزوة كان يبقى فيها بقية من الجنود الغرباء ومن الرجال المشوَّهين الذين لم يستطيعوا العودة الى بلادهم . لذلك كانت الحرب سجالاً بين رودس والاسكندرية حيث كان السكان مزيجاً من كل امة ولسان

فلو ان القيصر اخذ كل مَنْ لديهِ من جنود واحدث مجزرة بشرية لم يسمع

بمثلها انسان فلا يستطيع البتة ان يحرز النصر النهائي . لان الشرقي لا يُغلب

ولما كان مرسيلوس يحاول ان يستفهم اكثر من ذلك عن وظيفته وجّه اليه السؤال التالي ايضاً . ألا تستطيع حاميتنا في غزة ان تحافظ على النظام ؟

— كلاً . اذ ليس من اختصاصها الاهتمام بشؤون المدينة فان مركزها في خارجها بناحية الشرق حيث الارض صخرية قاحلة لا ينبت فيها شيء من النباتات التي تصلح للاكل . وهناك يوجد خمسئة من الضباط والجنود لكي يجعلوا البدو على حذر منهم فقد اتفق في احيان كثيرة ان القافلة التي تتوجه لجلب الملح تفنى على بكرة ابيها

— ألا تنتقم الحامية من اولئك القتلة ؟

— ان الحامية لا يهمها من الامر شيء . لان رجالها غير مدرَّبين ورئيسهم ضعيف خامل . وغالباً يثورون بعضهم على بعض فيُقتل منهم مَن يُقتل . فماذا يُنتظر من حامية تُهرق دماؤها في ساحة ارضها ولا يهم رئيسها شيء ما

على ان مرسيلوس افضى في تلك الليلة نفسها الى ديمتريوس بالخبر نفسه الذي سمعه من الربان فاصغى اليه الاخير بدون ان ينبس ببنت شفة ولما اتم حديثهُ قال له يجب على سيدي ان يتولى بنفسه قيادة القلعة حالاً . ربما هؤلاء الجنود الكسالى يؤدون الطاعة لقائد محبوب وشجاع كسيدي فان كل انسان تقريباً يعتبر العدل والشجاعة وانت يا سيدي عادل وجري.

قال مرسيلوس هي الجرأة نفسها التي اوصلت سيدك الى هذه الحالة . ثم قال مخاطباً نفسه ، الحق بجانب ديمتريوس يجب ان اتولى انا قيادة القلعة عند اول دقيقة من وصولي

* * * *

وفي اليوم الثامن من شهر اذار رست السفينة في ميناء مدينة غزة فودّع الربان مرسيلوس الذي وقف يراقب حركات الناس . اما ديمتريوس فانه نزل الى البر واحضر معه خمسة رجال وطنيين واوعز اليهم ان يحملوا الامتعة وينزلوا بها الى البر وان يأتوا بحمير لنقلها الى القلعة فاستغرق عملهم هذا ساعة من الزمن ومرسيلوس منتظر

ثم احضروا له جملاً عليه مظلة لركوبه وبما ان الحامية لم تقف على نبأ يعلمها بمجيئه لذلك لم يحضر احد لاستقباله . فسار الموكب وفي مقدمته مرسيلوس الى ان وصل الى القلعة وهناك فتح له الحارس الخاص بابها الكبير دون ان يعترض او يمانع . ولما تقدموا الى عرصة الدار اقبل خفير آخر وانتظر . امـا ديمتريوس الذي كان في مؤخرة الموكب فنزل عن حماره وتقدم ووقف خلف سيده . ولما رأى الخفير الوسام الذهبي المزين صدر القاضي حياه بسيفه

قال مرسيلوس بصوتٍ عالٍ . انا القاضي مرسيلوس غاليو وقد أُمرتُ بالحضور الى هنا لاتولى قيادة حامية القلعة فهلموا بي الى الضابط الذي بيده زمام القيادة

اجابه الخفير ان الضابط بولس ليس هنا

— اين هو ؟

— في المدينة

— من يقوم مقامه في غيابه ؟

— الضابط سكستوس يا سيدي ولكنه نائم الان وقد اصدر امره بعدم ايقاظه وازعاجه

فتقدم منه مرسيلوس وتفرّس في وجهه وقال له انني لم اعتدْ انتظار احد حتى يستفيق من نومه فاذهب حالاً وايقظه ولكن اغسل وجهك جيداً ولا تدعني اراه مرة ثانية على هذه الصورة اهذه قلعة رومانية . ام زريبة خنازير ؟

ولكن الخفير ذهب ولم يعد ولما نفذ صبر مرسيلوس من كثرة الانتظار صعد الدرج الى ان وصل الى الدار الداخلية المظلمة فانتصب امامه خفير آخر

فصاح به مرسيلوس سر بي حالاً الى الضابط سكستوس

باذن من ؟

– باذن القاضي مرسيلوس غاليو الذي جاء ليستلم قيادة الحامية وفي الدقيقة نفسها فُتح الباب وظهر منه رجل بلباس رسمي قذر وقد حيكت على كم يده اليمنى صورة نسر اسود

فسأله مرسيلوس أأنت هو سكستوس ؟

اجابه نعم يا سيدي

فقال مرسيلوس قد امرني الامير غايوس قيادة الحامية هنا . مُرْ رجالك ان يأتوا بامتعتي

– ارني الامر الذي تحمله اذا شئت

– اقترح ان ناخذه الى السفارة وهناك يصير الفحص . كم لقائد المئة بولس من المدة هنا ؟

اجابه : منذ كانون الاول فقد تولّى الادارة عقيب وفاة ڤيتلوس

– ما سبب وفاته ؟

– قضى اثر نوبة حمّى فاجأته

– لقد اخذني العجب من انكم لا تزالون احياء وانتم بهذه القذارة

– اننا هنا لا يهمنا امر النظافة كثيراً ثم قال سأريك الغرفة التي تشغلها الى ان يجيء بولس

اما الغرفة فكانت خاوية من الاثاث الا من خوان و كرسيين وسرير و كانت تشابه غرف السجون

– مُرْ رجالك ان يحضروا سريراً آخر الى ديمتريوس

اجاب سكستوس : ولكن الخادم لا ينام بقرب سيده

– اما خادمي فانه ينام بالقرب من سريري

– هذا ضد الاوامر يا سيدي

قال مرسيلوس ليس احد يصدر الاوامر الا انا

* * * *

كانت تلك العشية بمثابة تذكار دائم في تلك القلعة لان هذه السالفة أعيدت مراراً عديدة حتى اصبحت حديث خرافة

دخل مرسيلوس الى غرفة المائدة مصحوباً بالضابط الذي قاده اليها فوجد صفوف الضباط جالسين غير انهم لم يقفوا له عند دخوله بل تفرسوا فيه عندما تقدّم الى منتصف الغرفة وجلس بقرب المائدة . فنظر نظرة عمومية الى بقية الموائد فوجد نفسه الاصغر بين الحاضرين . اما ديمتريوس فانه سار مسرعاً الى المطبخ ليباشر خدمة سيده وبعد ثوانٍ قليلة وصل القائد بولس يصحبه سكستوس الذي اخره قليلاً في الخارج ليخبره بالحوادث التي جرت في غيابه . ثم دخلا الغرفة واتجها نحو المائدة التي كان يشغلها مرسيلوس فاجرى سكستوس التعارف بينهما . وكان بولس متأثراً من الشراب الذي كان يتناوله وعلامات الضعف بادية على وجهه الضعيف الشديد الاحمرار وكانت يداه قذرتين ترتجفان وبالرغم من هيئته الخارجية فقد كانت تبدو عليه امارات النبالة . وبعد ان تناولا الغداء اخذ بولس يفحص مرسيلوس فحصاً مدققاً ثم قال بلهجة الهازي. غاليو . غاليو هذا اسم مهم . هل من قرابة بينك وبين الشيخ غاليو

– نعم انه والدي

– اذاً انت قاضٍ واذ قال هذا نظر الى بقية الضباط فرآهم واجمين كأن على رؤوسهم الطير . ثم تابع كلامهُ قائلاً : كان الاجدر بالامير غايوس ان يختار منصباً سامياً يليق بابن الشيخ غاليو . ثم تكلم بصوت مرتفع وربت على كتف سكستوس وقال له الان عرفت لماذا بعثك غايوس الى هنا . ثم التفت الى

مرسيلوس وقال له بهزء انني اراهن بان هذه اول وظيفة أنتدبت اليها

فوقف مرسيلوس وهو يعلم ان كل العيون شاخصة اليه وتكلم برزانة قائلاً : سأعطي اوامري الان لاول مرة . ايها القائد بولس قف واعتذر عن سؤ تصرفك كضابط

اجابه بولس قد اصدرت امراً في غير محله .. ولكنه لما رأى مرسيلوس يخرج سيفه من غمده اخرج هو سيفه ايضاً وقال له الاجدر بك ان تردّ سيفك الى غمده ايها الغلام

اما مرسيلوس فانه أمر حالاً بان تُهيأ الغرفة للبراز فتبارز الاثنان وكان صف الضباط شهوداً لذلك البراز غير المنتظر . في اول الامر ظهرت الغلبة لبولس لان مرسيلوس اخذ يرجع القهقرى حتى صار بلصق الحائط وبالرغم من الجهد الذي بذله بولس في المبارزة ظهر عليه الاعياء . فتنشط عندئذٍ مرسيلوس وضرب بسيفه سيف بولس فالقاه الى الارض . وبعد ان استظهر عليه قال له بلهجة قاسية اعتذر الان عن سؤ تصرفك كضابط

فانتصب بولس واقفاً ونظر الى مرسيلوس نظرة استهزاء . فما كان من مرسيلوس الا انه سلّ خنجره من منطقته وناداه قائلاً : ايها القائد بولس دافعْ عن نفسك بخنجرك واذا لم تطع اوامري فانني قاتلك لا محالة

لم يكن الاعتذار امراً سهلاً على بولس غير انه اعتذر بعبارة . موجزة . ثم قال له مرسيلوس اظن ان الوقت قد حان لكي تعرفني الى الضباط رفقائك

فقال بولس ملتفتاً الى الضباط . ان القاضي مرسيلوس غاليو قد اصبح منذ اليوم سفيراً لهذه الكتيبة وقائداً للحامية . فرفع الضباط سيوفهم حالاً وحيّوه تحية الشرف والاحترام . فقال مرسيلوس في الساعة الخامسة صباحاً تتناولون طعام الفطور وبعد ذلك يجري عرض تفتيش في المكان المخصص لذلك برئاسة الضابط بولس

ثم التفت الى سكستوس وقال له احضر لي سيفي ولما مضى متثاقلاً ليحضره امرهُ باحضار سيف الضابط . فتسلم مرسيلوس كلا السيفين ثم سلم بولس سيفه وانتظر الى ان جاءه سكستوس بدون تأخير وكذلك فعل بولس ايضاً

ثم امر مرسيلوس سكستوس ان يُشرف على تهيئة الغرف التي كان يشغلها الضابط بولس . وعند مروره بالغرفة التي شغلها حين وصوله رأى عدداً لا يُستهان به من الخدم يهيئون له غرفةً برعاية سكستوس . وبعد وصوله جلس وراء مكتبه وسأل ديمتريوس عما لديه من امر جديد فرفع هذا سيفه الى جبهته وحيا سيده قائلاً: لي الشرف يا مولاي ان اكون عبداً لقائد حامية منوع.

اجابهُ مرسيلوس اشكرك يا ديمتريوس ولكننا لسنا على تمام الثقة بحسن النتيجة

اما بولس فانه بلا شك خسر خسارة جسيمة بزوال سلطتهِ ونفوذه ومع هذا فانه كان يصدع باوامر مرسيلوس ولكن لم يكن احد ليعلم ما في ضميره من حب الانتقام لذلك كان ديمتريوس ينام عند باب سيده وخنجره في يده

وبعد اسبوع تعوَّدت رجال الحامية الاصغاء الى اوامر مرسيلوس الجازمة والعمل بها فرأى ان لا يعاملهم بالمحاباة حرصاً على مركزه الرسمي ولا ان يجازف بحديثه مع الضباط رفقائه فكان عادلاً رصيناً وحازماً معاً وقد شعرت المؤسسة هناك بنظام ضيق ولكنها لم تتذمر . فتغيرت حركات الرجال واصبحوا فخورين بحفظ معداتهم بانتظام وتحسنت ظواهر الضباط تحسناً محسوساً

كان بولس الذي كان الثاني في القيادة يجيء الفينة بعد الفينة ليتلقى التعليمات من مرسيلوس بدون ان يلتفت الى الحالة الماضية فكان حديثهما موجزاً وجافاً معاً . واراد مرسيلوس ان تتغير الحالة بينه وبين بولس لانه شعر ورأى من الصواب مصادقته بحيث يكون له رفيقاً ممتازاً . فودَّ ان يحدث ما يقربهما الواحد من الاخر ويصلحهما اما سكستوس فانه كان يتلقى الاوامر من بولس لذلك لم يهمه امرهُ كثيراً

على انه حدث بعد عشرة ايام من تلك المبارزة ان مرسيلوس لاحظ ان مكان سكستوس على المائدة كان فارغاً فسأل بولس عنهُ فاجابه انه قد كسر فخذهُ

– متى وكيف ؟

– في هذا النهار يا سيدي وذلك بسقوط باب المؤونة عليه

فلما سمع مرسيلوس هذا الكلام نهض حالاً وترك المائدة وتبعه بولس الى غرفة سكستوس فشاهداه مستلقياً على فراشه والعرق البارد يتصبب من وجهه . فلما وقع نظره عليهما حياهما . فسأله مرسيلوس امتألم كثيراً ؟ اجابه لا يا سيدي . قال انها كذبة رومانية لا تقرّ انك متألم ولو قُطعت ارباً ارباً . واظن انك غير مرتاح باضطجاعك في هذا السرير . سادبّر لك غيره . وسأعودك بذاتي فكن بطمأنينة

وفي اليوم الثاني انتشر الخبر بين الخيام ان القائد الجديد الذي كان يعرضهم امامه بهيئته الرسمية قد ذهب بنفسه الى المطبخ وهيأ طعاماً خفيفاً للشيخ سكستوس ونقله الى غرفة حسنة واشرف على تدبير سريره . وفي الليلة نفسها اصبح مرسيلوس وحده قائد الحامية ولم يبقَ ديمتريوس مضطراً ان ينام على باب سيده ويقوم بحراسته

* * * *

وفي صباح اليوم الثاني دخل بولس الى غرفة القائد بدون كلفة فاوعز اليه مرسيلوس ان ياخذ كرسياً ويجلسْ عليه ثم قال : ان الطقس حارّ . اجابه بولس نعم انه حارّ ولكنه يلائم حالة السكان سواء كان حارّاً ام بارداً . ثم اخبره قائلاً ان لليهود يا سيدي عيداً سنوياً مهماً يمارسون طقوسهم فيه اسبوعاً كاملاً وذلك في شهر نيسان حينما يكون القمر بدراً . اظن انك سمعت به ؟

– كلا لم اسمع شيئاً من ذلك هل لنا علاقة به

– هو اسبوع فصحهم السنوي يحتفلون به تذكاراً لهربهم من مصر

– وماذا كانوا يعملون في مصر ؟

– لا شيء. انما ذلك حدث منذ خمسة عشر قرناً

سأل مرسيلوس قائلاً : ألا يزالون يتذكرونه ؟

– ان اليهود لا ينسون شيئــاً يا سيدي . فترى كل واحد منهم يودّ من صميم قلبه ان يزور اورشليم اللهمّ اذا كان قادراً « ليأكل الفصح » حسبما يقولون غير ان اكثرهم يذهب للنزهة والمتاجرة وما شاكل ذلك فتأتي قوافل عديدة من اماكن بعيدة ليعرضوا بضائعهم حتى تضيق بهم المدينة على رحبها وبالحقيقة انه لعرض عظيم ياخذ بالالباب ويشدّد العزائم ويحقق آمال الزوّار التجار بالارباح والغنائم

– يظهر انك ذهبت الى هناك ؟

– اجل بدون شك لانني لا ازال منذ احدى عشرة سنة اي من حين مجيئي الى هذه القلعة اتوجّه كل سنة الى هنــالك . لان الوالي الذي في اورشليم والذي مركزه يفوق كل المراكز الفلسطينية ينتظر دائمــاً ان تأتيه قوّات كافية من كفرناحوم وقيصرية ويافا ومنوع ليحافظوا على النظام في اثناء العيد

– الظاهر انه يحدث في ذلك الوقت معارك هائلة يُخشى من امتدادها

– لا لا شيء من ذلك تماماً غير ان اليهود حينما يجتمعون هناك يأخذون بالندب والبكاء على فقدان ملكهم وهذا يؤدي الى شيء خاص بل الى بعض منازعات في الاسواق . والوالي يؤكد ان وجود قوة من الجيش الروماني بلباسهم الرسمي يمنع الشعب من الشغب والقلاقل

– كم يجب اذاً ان نبعث من الرجال للمحافظة على الامن ومتى يكون سفرهم؟

اجابه بولس يجب ان نبعث كتيبة من مئة جندي وعلينا ان نسير بعد الغد لان اورشليم على مسيرة ثلاثة ايام من هنا

– تدبّر الامر انت يا بولس وترأس القوة الا اذا كنت تفضل البقاء

– انني افضل الذهاب لانه الشيء السنوي الوحيد المبهج الذي تتجدد فيه الحياة ولا تكون على وتيرة واحدة فاشير عليك ان تذهب

– اذا كان الامر كما ذكرت فانني سأذهب على مسؤوليتك . ماذا يجب ان نجهز ونعدّ لهذه الرحلة

– ناخذ من الثياب بزّاتنا الرسمية ونتزود من الاطعمة مؤونة الطريق ونحمل ما يلزم لاجل نصب خيامنا وستكون انت فخوراً بقيادتك هذه الكتيبة . وحين نصل الى اورشليم يهيئون لنا ثكنات وطعاماً جيداً يقدمه اغنياء المدينة

– ألا يستاؤون من حكم الرومان في اورشليم ؟

– ان هؤلاء الاغنياء لا يستاؤون من حكم الرومان لانهم هم انفسهم يجبون الجزية الى طيباريوس ويبقون ربعها لهم . لكننا الفقراء يشعرون بثقل نيرهم بسيطرتهم عليهم . ثم ان هؤلاء الاغنياء يتظاهرون بالنوح والبكاء على مُلكهم المفقود وجماعة التجار والمرابين يتزعجون اذا حدثت ثورة حقيقية لان الوالي والشيوخ هم انفسهم من اكبر لصوص المدينة

قال مرسيلوس هذا امر غريب جداً فقد كنت اعتقد دائماً ان اليهود وطنيون مخلصون لكنهم يبغضون المملكة الرومانية بغضاً شديداً

– هذا يقال عن الشعب الساذج لانهم يأملون انهم سيحصلون على استقلالهم القديم . من المرجح عندي انك سمعت باعتقادهم بمجيء المسيّا الذي يُقال له المسيح

– لا لم اسمع شيئاً من ذلك . من هو المسيّا ؟

اجابه بولس : المسيّا هو مخلصهم وحسب نبوات انبيائهم انه سيظهر يوماً من الايام ويدربهم ويساعدهم للوصول الى سبيل حريتهم

– لم اسمع به قط وليس لي من رغبة في الوقوف على التقاليد الدينية

– ولا انا ايضاً . ولكن في اسبوع الفصح يسمع النـاس كثيراً من هذه الاحاديث الطريفة عنه . وانك لتراهم لابسين ثياباً سوداء من قمة رؤوسهم حتى اقدامهم وسائرين في الاسواق يقرعون صدورهم ويعولون لاجل مسيحهم بل هؤلاء

لا يبتغون مملكة من وراء ذلك سوى ما يملأ بطونهم واذا شعروا بادنى ثورة فانهم يسعون جهدهم لقمعها حالاً

وبعد ان فكر مرسيلوس هنيهة قال انا اعرف ان العالم لا يخلو من الناس الادنياء ولكن رياء هؤلاء لم يدع زيادة لمستزيد

– ان الذي يسؤوني بالاكثر هو ان ارى بعض هؤلاء الاغنياء سائراً على هذا الشكل بينما الفقراء والعمي والعرج سائرون خلفهُ لانهم يعتقدون ان بايديهم زمام مسألتهم المقدسة . قال هذا ونظر الى جهة الباب فرأى ديمتريوس واقفاً خارجاً فقال له مرسيلوس لا تخف منهُ يا بولس انه رجل امين

ثم اتمَّ بولس حديثه قائلاً لولا وجود الاغنياء في الولايات الخاضعة لنا لكانت المملكة الرومانية قد سقطت من زمن طويل

– لا تقل هذا يا بولس ربما قادك هذا الى اتعاب

– نعم قد قادني ذلك الى اتعاب لانني كنت جريئاً واميناً امام جرمانيكوس ولذا تراني ضابطاً في منوع . ان المملكة الرومانية مدعومة بخيانة الولايات الغنية لانهم مستعدون ان يبيعوا شعبهم ووطنهم بيع السلع . اما هذه الخيانة فلم تكن متاصلة فينا بل ان رومية ورثتها من الاسكندر وهو بدوره ورثها من الفرس وهؤلاء تملكوها من المصريين . ثم انه حدّق نظره في مرسيلوس وقال : بسالة رومية ! تبًا لها من بسالة . بسالة الخيانة . بسالة خزن الذهب التي تجعل المتمولين منهم يقفون في الزاوية يتفرجون على الفقراء وهم يتقاتلون دون ان يصلحوا بينهم او يمدّوا لهم يد المساعدة هذه هي حالة المملكة الرومانية المتعجرفة

قال له مرسيلوس ارجو ان لا تقول هذا القول امام احد لانك تُستهدف للهلاك

– انني اصرح بهذا الكلام امامك لانني اعلم انك تقدّر البسالة قدرها ليس الا

– انه ليأخذني العجب يا بولس من عدم اكتراث كبـار الموظفين لمثل هذه الامور والنظر فيها

– ماذا يستطيعون ان يفعلوا وهم كغنم بدون راعٍ . خذ لك مثلاً ينطبق على هؤلاء اليهود تمام الانطباق فانك تراهم اذا مـا تحمّس احدٌ منهم وحاول ان ينتقد الحكومة وسوء ادارتها فانهم يتخلصون منه باسرع ما يمكن من الطرق

سأل مرسيلوس : من يقتله ؟ الاغنياء ؟ أليس هذا هو الصحيح ؟

– ليس تماماً علينا نحن ان نقوم بواجب القتل . لان رومية لا تقدر ان تسمح بثورات كهذه

الفصل الرابع

كان اليوم الاول من سفرهم الى اشقلون متعباً للغاية لان الطريق كان وعراً يعج بالقوافل القادمة اليها ويتصاعد منه الغبار القذر . فقال ميلاس خادم بولس غداً تتحسن حالة السفر لاننا سنترك الطريق العامة ونعرج على طريق اقل طولا ووعورة وذلك في التلال . اما القوافل فانها لا تخاطر باجتيازها هذه الطريق خشية من قبائل البدو

– ولماذا نحن لا نخشى البدو

– لاننا اكثر عدداً منهم . ثم اخذ ميلاس يبين له صفات الجمال وطبائعها التي كان يشغلها القواد رؤساؤهم فقال انها لا تثير الغبار في مشيها بل ذلك من طبيعة الحمير على انه يمكنك ان تجاور الجمال سنين طوالاً ولكنك لا تستطيع ان تأتمن واحداً منها

فقد حدث ان اشترى سيدي جملاً من غلاطية منذ اثني عشر عاماً وكان الذباب والبراغيث حائمة عليه فقضيت يومين كاملين وانا انظفه بالزيت الحلو ولما انجزت عملي قابلني برفسة قوية . واما بقية الحيوانات فليست عقوقة مثله ونحن الخدم نقوم بخدمة سادتنا كالجمال والحمير . فقال له ديمتريوس اذا كان من الواجب على الانسان ان يخدم اخاه في الانسانية فليخدمه جيداً فاجاب ميلاس ببساطة نعم . ولكن اذا اراد العبد ان يصبح حراً فليهرب الى دمشق الملأى بالعبيد لانها مدينة سورية وسكانها يكرهون الرومان كرهاً شديداً

* * * *

وبعد ان حطّوا رحالهم تلك الليلة نهضوا باكراً وعرّجوا على طريق التلال المقفرة وساروا فوق الاودية على خطٍ واحد وكانت ايضاً القرى التي مرُّوا فيها قفرة

اما ديمتريوس فكان طرباً مسروراً بهذه الرحلة لانها جعلته يستنشق روح الحرية ويكون بعيداً عن ميلاس الذي رأى منه روح الاستبداد برأيه ففضَّل ان يتجنبه بقدر استطاعته كي لا يتحد واياه في مؤامرة ما

وفي ذاك المساء دعاه سيده لخدمته فسرَّ ديمتريوس كل السرور لانه كان قد سئم الوحدة . وكانوا قد اعدّوا للقائد خيمة كبيرة ذات رونق جذّاب . وبعد الخدمة التي قام بها ديمتريوس نحو سيده استلقى على ظهره خارج الخيمة وانصت الى الحديث الذي دار بين مرسيلوس وبولس

قال الاخير ان جماعة اليهود من اشدّ الملل شذوذاً في العالم كله فهم يعتقدون انهم تحت حماية الهيَّة وان الههم (يهوه) الذي خلق العالم والذي ليس لهم سواه يهتم بشؤونهم الخاصة دون سواهم . ولكنهم لا يوافقون على القول انه اله محلّي

فقال مرسيلوس ألا يعمل جوبيتر الشيء نفسه . أليس هو مدير الكون وله سلطة مطلقة غير محدودة

– لم يقل جوبيتر انه للرومانيين فقط

– هل قال يهوه انه لليهود ؟

– نعم بدون شك . فانهُ اوجدهم في جنة ومنعهم عن اكل ثمر احدى الاشجار فعصوا امره واكلوا لذلك غضب عليهم واخرجهم الى الصحراء حيث اصبحوا عبيداً ثم علّمهم كيف يهربون من العبودية وبعدئذٍ وعدهم ان يمنحهم بلاداً ليعيشوا فيها احراراً

قال مرسيلوس عجباً لها من بلاد ومن موعد

– نعم انها احطّ نقطة في العالم كلهِ ولم يبقَ لليهود سلطة عليها ولكن ألا تظن انه بعد خمسة عشر قرناً قضوها تحت نير العبودية انهم اي اولاد يهوه المحبوبين

يكونون احسن حالاً بدون هذه العناية الالهية ؟

– ربما تكون مسألة المسيأ التي تكلمت عنها سابقاً هي التي تجعل فيهم الامل لانهم يئسوا من انتظارهم عناية يهوه بهم ويظنون ان المسيأ حينما يجيء يحسن احوالهم ؟

– ولهذا السبب عينه صنعنا نحن اليونان الهة كثيرة بحيث اذا تعب الواحد منهم يقوم الاخر مقامه . ألم يترك زيوس مكانه مرة ليفسح المجال لابنه ابولو ؟

– ليس لمدة طويلة . فربما كان الطقس رديئاً وحاول ابولو تدبير الشمس ولم يستطع فتدخل زيوس اذ ذاك بهذا الامر فان آلهتنا تتصرف كما نريد نحن لانها صنع ايدينا . وانا اؤمن بوجودها . ان البعض من آلهتنا يريد الحرب والبعض الآخر يريد السلام والبعض يمنحك النوم والراحة وغيرها يجعلك مختل الشعور واكثر الآلهة تُسرّ اذ تراك خائفاً سطوتها . هذه هي تطورات الحياة . اما اليهود ولهم اله واحد عادل وصالح وحكيم ورحيم ابداً . واذا لم يجب سؤلهم بعض الاحيان فلانهم عنيدون متمردون وهو لا يستحسن اهواءهم لانهم لم يحسنوا استعمالها ربما يهوه يتشاءم منهم لانهم شعب متشائم

قال مرسيلوس ربما يرى (يهوه) انه من الضروري لابنائه ان يحتملوا المشقات لان ذلك يفيدهم – ظننت احياناً كثيرة انه ربما تتحسن احوال رومية اذا كنا نحن الوطنيين نضطر ان نسعى لاجل قوتنا اليومي ونخفف من سرقة جيراننا

– سيأتي وقت وهو قريب تزول فيه عظمة رومية لان الصولجان قد دار دورته الاخيرة ولان مصر تواجه اشعة الشمس المحرقة ودرايوس يهتز ويعتز مروّعاً كل انسان الى وقت ما والاسكندر ينوح مكتئباً لان ليس لديه من يخضع له . والقياصرة يترنحون من خمرة الظفر بالسلطة حتى انهم لا يريدون ان يسمحوا لليهود ان يملكوا ولو قطعة صغيرة من الارض ولكن سيأتي دور غيرهم عن قريب

فسأله مرسيلوس : متى يكون ذلك يا تُرى ؟

– ربما يحدث ذلك غداً او في نهاية الاسبوع المقبل . اذا كانت العدالة تقتضي من طيباريوس المعتوه وحفيده الخبيث المفسد

ثم سأل مرسيلوس بولس قائلاً : أتؤمن انت بان الالهة هي من طبع البشر ؟ وهل حاولت ان تصنع واحداً منها ؟

اجاب بولس نعم اؤمن ولكنني لم اصنع بعد واذا شئت فانني اصنع لك الهاً .

– بدون شك . واظن انك عندما تنجز صنعه يصبح مشابهاً لك

– ليس مثلي تماماً لان الاله الذي سأخترعه سيكون حسناً وموضوع ثقة ليس لاناس رومانيين او يونانيين او غلاطيين فقط بل لاناس امناء واذكياء يعهد اليهم ببعض اشغال مهمة . فانه يعلّم احدهم كيف يشفي البرص والآخر كيف يردّ البصر الى اعين العميان والسمع الى الطرش . ويُسرّ اليهم باسرار النور والنار وباستخدام حرارة الصيف للشتاء ونور النهار لليل

– هذا جميل جداً . ولكن دعْ الهك الذي ستصنعه يرى مسألة نقل الانسان من هذه الدنيا . ان الانسان كما لا يخفى عليك يجدّ ويجتهد الى ان يصل الى قمة عالية من الشرف وليكون فخراً لامته وسنداً لها عند الحاجة وحينما يتقدم في السن يمسي عالة على ذويه واخيراً ينضم الى آبائه بدون ان يترك له ذكراً خالداً فعلى الهك ان يعمل شيئاً بهذا الخصوص

واضاف مرسيلوس قائلاً : انت تعلم ان الروماني متى بلغ درجة الشباب والرجولة يحتفل به ذووهُ احتفالاً شائقاً رائعاً ولا شك انك تذكر كما اذكر انا انها احدى الدقائق المهمة المعدودة في حياة الفرد ولا يغيب عن حافظتي ما خامر فؤادي يومئذٍ من الحبور اذ اجتمع جميع الاهل والاقارب والاصحاب ووقف والدي بينهم خطيباً مرحباً بي يدعوني الى العضوية الرومانية بحيث شعرت في تلك الساعة بحقيقة الحياة ولا سيما بعد ان شرّفني كورنيليوس كاپيتو بما ذكر في خطبته التي القاها من ان لرومية الحق والمباهاة باخلاصي وشجاعتي وقوّتي . ثم اشار اليّ فاقتربت منه

فالبسني هو ووالدي الجبة البيضاء ومنذ ذلك الحين ابتدأت حياتي الحقيقية

والآن افتكر انه يجب على الملك هذا ان يامر انه عندما ينهي الانسان عمله على الارض ويصبح شيخاً ان تُقام له حفلة يدعو اليها كل معارفه ومقدريه . (ومن منا لا يسعى جهده في شبابه ليقوم باعمال عظيمة حين يعلم ان احتفالاً كهذا ينتظره في آخر حياته) وان الجمهور العظيم الموجود هناك يصرّح باعماله العظيمة التي قام بها في اثناء حياته . ثم يخلعون الجبة عنه ويطرحونها على غيره في احد الايام . ثم يبتدي الجميع يرتلون ترنيمة روحية فيمرّ الرجل بينهم منتصباً ثم يخرج الى الخارج مواجهاً الشمس وبعدئذٍ يختفي ولا يعود يظهر فيما بعد

وعند ما ساروا في اليوم الثاني الى البرية اخذ ديمتريوس يتمعن في الكلام الذي سمع سيده وبولس يتحدثان به . فقال مناجياً نفسه ان ما سمعته مهمّ ولكن يوجد ما هو اهمّ منه ان هذه الآلهة التي تكلم عنها مرسيلوس وبولس يجب ان تقوم بعمل ما تجاه ظلم الانسان لاخيه . وتذكر للحال والغضب آخذ منه كل مأخذ ذلك المنظر المؤلم يوم دخل الرومان الاوغاد عنوة الى بيتهم ودفعوا بوالدته الجميلة الى ناحية منه . ثم هرعوا الى حيث والده وراء مكتبه وكبّلوه بالقيود وساروا به الى ساحة الهلاك . فكان على هذا الاله الشريف ان يصرخ فيهم قائلاً : لا تقدرون ان تفعلوا هذا . لا تقدرون ان تفعلوا هذا ؟

* * * *

ولما وصل الجميع الى أورشليم بعد ان ساروا نحو ساعة كاملة في تلك التلال المقفرة رأوا من تلك المدينة العظمى مشهداً رائعاً جداً فان اشعة الشمس عند غيابها كانت قد كست قبتها وبرجها حلّة ذهبية من الانوار اخذت بمجامع قلوبهم فقال عندئذٍ مرسيلوس لبولس ياله من منظر بديع لم ارَ نظيره في حياتي

ولما رأى قوافل اليهود قد حطّت رحالها ولم تتحرك للسفر في ذلك النهار سأله

لماذا لا يواصل هؤلاء سفرهم ؟ اجابه لان هذا اليوم هو السبت المقدس عندهم لا يجوز في شريعتهم العمل فيه انما يحق لهم ان يسافروا فيه مسافة الف ذراع فقط

– ان هذا امرٌ مزعج تماماً

– نعم انه مزعج للفقراء ولكن ليس للاغنياء الذين يفسرون شريعتهم كما يشاؤون

– ماذا يقولون عنا حين يروننا لا نحترم سبتهم المقدّس ؟

– انهم لا ينتظرون منا ان نحترمه وفي اعتقادهم اننا اذا اعترفنا بيومهم هذا فاننا ننجسه . ولا يطلبون منا الاعتراف به ولا نلومهم على ذلك لان الانسان لا يقدر ان يحلّ الذي حرمه حريته

* * * *

وفي فجر اليوم الثاني استعد جند منوع لدخول المدينة فسرّ ديمتريوس سروراً عظيماً لان تلك الليلة كانت الاولى التي نام فيهـا حرًا مستريحاً منذ اصبح عبداً لمرسيلوس ولان اربعة من الضباط الكبار سافروا قبلهم الى أورشليم ولم ياخذوا خدمهم بل اخذوا قادة الجمال . فلما استفاق ديمتريوس صباحاً شاهد قوافل في طريقها الى المدينة مؤلفة من جمال وحمير ورجال ونساء واولاد وعبيد محملين احمالاً متنوعة

وقد سار العبيد والحمير يتقدمهم الجند ولما لم يكن ديمتريوس خبيراً بسفرة كهذه فانه سلم قيادة الحمير كلها الى ميلاس الذي قبلها مفتخراً

اما القوافل اليهودية فلما اقتربت من المدينة المقدّسة ظهرت على وجوهها علامات اليأس والحزن الشديد واهتم كل فرد منهم بحزنه الشخصي بدون ان يعير اهتمامه الى جاره السائر بقربه . على ان ديمتريوس شعر بغتةً بحرقة جديدة لان الرجال الذين كانوا حوله والذين دلّت هيئتهم على الغمّ تركوا عيالهم والقوا باحمـالهم الثقيلة الى اولادهم الذين زادوهم ثقلاً على ثقل واسرعوا الخطى الى الامـام . وعلى بعد

مسافة منهم كانت الهتافات تزداد كلما اقتربوا من المدينة وهم يكررون عبارة واحدة لا غير جعلت الجمهور الغفير يزداد ضجيجاً

فانطلق ديمتريوس مع ذلك التيار الجارف الذي لم يقدر ان يتخطاه لكثرة الزحام . وكان بالقرب منه عبد من اثينا اكبر منه سناً فسأله ديمتريوس أتعلم ماذا جار ؟

– انهم يقولون شيئاً عن ملك

– اتفهم لغتهم ؟

– افهمها قليلاً فاننا نأتي سنوياً بحمل من الاطياب الى هنا

– اتظن انه يوجد بينهم من يريد ان يملك عليهم ؟

– اني ارجح ذلك . لانهم يكررون كلمة مسيا اظن ان هذا هو اسم الرجل الذي يريدونه

ثم تابع ديمتريوس طريقه بين الحشد العظيم متبعاً بالعبد الاثيني وعلى طول الطريق كان الرجال يقطفون اغصاناً من اشجار النخل التي على جانبي الطريق ويحملونها مرفوعة وهاتفين : « اوصنا مبارك الآتي باسم الرب اوصنا في الاعالي » فركض اليونانيان الى ان وصلا الى امام الموكب .

وقف ديمتريوس بين الجماهير المحتشدة ليرى موضوع هذا الاهتمام العظيم فلمح رجلاً يهودياً لطيفاً ولون شعره يشبه الكستنا . مكشوف الراس راكباً على اتان ابيض وقد فسحوا له سبيلاً ليتمكن من المرور به . فادرك ديمتريوس للحال ان هذا الاحتفال كان بدون استعداد لان المحتفى به كان لابساً ثوباً بسيطاً رمادي اللون واتباعه الذين كانوا يمهدون امامه الطريق بتفريق الجماهير كانوا لابسين ايضاً ثياباً بسيطة عادية وكان هتاف الجموع السائرة وراءه يصم الاذان

وقد حاول ديمتريوس ان ينظر مرة اخرى الى ذلك الشخص الذي لقي كل هذا الاهتمام والاحترام فوجد من اغرب الامور واصعبها ان يصدّق هو او غيره بان

انساناً وقوراً كهذا بسيط الهندام والزي يتوقع ان يثير شعور الشعب ويحرضه على إجراء اعمال جريئة كهذه . وهو عوضاً عن قبوله هذا الهتاف وظهوره بمظهر الظافر المنتصر او الاكتفاء به كانت هيئته حزينة للغاية تدل على انه غير راضٍ عن هذا كله

وكان اصدقاؤه الاثنا عشر الذين اخذهم العجب من هذا الاحتفال غير المنتظر يهتفون مع بقية النـاس وتدل هيئتهم على الاهتمام الشديد ويودون من صديقهم المحتفى به لو انه يقابل حماسة الناس بمثلها او اكثر

وقد ادرك ديمتريوس فوق هذا كله ان هذا الحدث لم يحصل اتفاقاً لان هيئة هذا اليهودي الغامضة كانت تشفّ عن نفسية مثقلة بالهموم وكذلك رؤية عينيه الحزينتين الذابلتين الشاخصتين الى أورشليم كانت تدل على رضـاه بتحمل كارثة عظيمة وقد يمكن ان يكون عليه مسؤوليات اعظم من هذا التتويج لذلك لم يكن مصغياً الى الضجيج الذي حوله

وكان ديمتريوس غائصاً في لجة الدرس والتأمل بشخصية ذلك اليهودي حتى انه اصبح لا يبالي بما يطرق سمعه من الصياح والضوضاء واخذ يقترب منه رويداً رويداً الى ان اصبح على بضع خطوات منه

وبعد قليل وقف الجمع لان الرجل الذي كان راكباً الاتان الابيض استوى قائماً وكأنه استيقظ من منـام ثم تنهد وادار راسهُ ببطء وكان ديمتريوس يراقب حركاته وسكناته بقلب واجف وفم مفتوح من شدّة الدهشة وكانت عينا اليهودي تحدقان في ذلك الجمع الهائج تحنوان وتشفقان على الفريسة المغدور بها

كان الجميع يهتفون ما عدا العبد الكورنثي لان حلقه كان جافاً لم يستطع الهتاف معهم ولم يرد ان يفعل ذلك بل تمنى ان يلازم الجميع الصمت والهدوء لان اليهودي لم يكن من تلك الفئة التي يقام الهتاف لها او عليها . وهذا الوقت كان يستدعي السكون والسكينة غير ان عيني ذلك اليهودي كانتا ترنوان الى الجمع من كل جهة

الى ان استقرَّ بصرهما على محيا ديمتريوس المشدوه الذي افتكر انه نظر اليه نظرة خاصة وذلك لعدم اشتراكه مع الناس بالهتاف له ولكن تلك النظرة الخاصة كانت تشفُّ عن الارتياح الشديد الى مرأى ديمتريوس ارتياحاً يتعذر تفسيره ووصفه ممـا جعله يجمد في مكانه . ويمكن القول ان ما خصَّه بديمتريوس من القاء نظره عليه كان بمثابة رسالة حيوية ابلغه اياها لا رسالة شفقة وصداقة بل بالاحرى كانت نوعاً من القدرة الثابتة التي نسخت كل عبودية وفقر او اية حالة مؤلمة . وقد امتلأ قلب ديمتريوس جذلاً وحبوراً مقـابل هذه الثقة بالتقرب من تلك الشخصية العظيمة وترقرقت الدموع في عينيه فخرج من بين الجمع لا يلوي على شيء.

فرآه الاثيني وسأله هل رأيته ؟ فأومأ اليه ديمتريوس بالايجاب

— هل هو معتوه ؟ اجابه لا

— هل هو ملك ؟

اجاب ديمتريوس برصانة لا ليس ملكاً

— فاذاً ما هو ؟

اجاب ديمتريوس بصوت مرتبك لست اعلم ولكنه اكثر اهمية من ملك

الفصل الخامس

ولما نُصبت الخيام في ضاحية قرية بيت عنيا انحدر مرسيلوس ورفقاؤه من ناحية التلة الى المدينة بكل سهولة لان الاسواق لم تكن غاصَّة بالتجار كالعادة ولا سيما في ذلك اليوم الذي كان سبتاً

ومع ان الضابط بولس لم يبالغ في كلامه حين وصف لقائد منوع الصغير ما يُعدّ لنواب المملكة الرومانية من اللوازم الخطيرة الشأن فان مرسيلوس لم يكن يتوقع ان يرى قصر الولاية في مثل هذه الفخامة الشائقة . فلما أُنيخت الجمال التعبة وحطت رحالها في ذلك الليل امام شرفة مركز دومية الريفي اخذ العجب مرسيلوس من روعة ذلك المنظر الخلّاب . لان الناظر الى المدينة يدرك لاول وهلة ان محيطها الوضيع لا علاقة له البتة بذلك البناء الفخم الذي يدل دلالة صريحة على ان يداً اجنبية قد شيدته

ثم اوضح له بولس سبب هذا الاسراف في النفقة عليه قائلاً : ان نفقات بنائه كانت تؤخذ من جيوب اليهود وأذن لجماعة المهندسين والحفارين والبنائين ان ينفقوا قدر ما يحتاجون اليه من المال لجعل البناء فخماً للغاية . ولم يكن الامبراطور يخشى الاسراف لانه لما اظهر هيرودس الوالي الاول رغبته الشديدة في تجديد بناء المدينة قال له اوغسطس افعل ما يبدو لك فعله وقد فعل ما شاء كما ترى انت بنفسك .

ومع ان أورشليم لم تكن كلها مبنية بالرخام بل كان القسم الاكبر منها حقير المنظر وقذراً ومحتاجاً الى الاصلاح فان هيرودس الكبير اعاد بناء الهيكل على طراز بديع ثم عاد فبنى هذا القصر الفخم في مكان مرتفع وبعيد عن الحدود المقدسة

كان هذا البناء بمثابة حصن منيع قائم في وسط اورشليم . وكان الصعود الى دار الولاية منه في درج من الرخام على كل قاعدة منه تمثال نصفي لبعض مشاهير الرومانيين . وقد امتدت على كل جانب من تلك الساحة الرخامية حديقة من الزهور البديعة تجري اليها ينابيع مياه كثيرة تتدفق من اجران رخامية ايضاً

فقال بولس لمرسيلوس ان هذه الينابيع بنيت قنواتها منذ سبع سنوات فقط منذ تولى بيلاطس الحكم وحدث بسببها شغب بين الشعب ولكن الجيش المنظم ساندَ بيلاطس فهدأ الشعب حالاً . اما مسألة هذه الينابيع المشار اليها فيعود اصلها الى امرأة بيلاطس الذي كان والياً في كريت طوال سنين عديدة حيث كانت المزروعات كثيرة . فلما قدمت امرأته معه الى اليهودية تكدرت جداً من حالة تلك البلاد المقفرة وطلبت ان تُقام فيها حدائق تجرّ المياه اليها بواسطة قنوات مكينة ولما كانت هذه القنوات تتطلب نفقات كبيرة لانشائها ولم يكن لدى الوالي آنئذٍ مال كافٍ للقيام بهذا المشروع اضطر لاخذ المال من خزينة الهيكل وعلى إثر ذلك قامت قيامة الشعب عليه مدة سبعة اشهر تماماً وقد قُتل في اثنائها الفا يهودي والف روماني

ولو ان طيباريوس قيصر ولأه مركزاً غير هذا لأحسن صنعاً لان اليهود لا يحترمون بيلاطس مع انه يسعى جهده دائماً لمرضاتهم واذا ما حدث شغب آخر فانه بلا شك يخسر منصبه ابداً

فسأل مرسيلوس ولمَ لا تتفق كلمتهم على الشكوى عليه ليجري نقله او عزله؟

– لان اليهود الاغنياء الذين يجمعون الضريبة ومَن لف لفهم من التجار والصيارفة لهم سلطة عظيمة ولا يرغبون في نقله لانه يعاملهم معاملة حسنة . واذا حاول الامبراطور ان يعين بدله والياً آخر فلا يلبث المجلس الاعلى اليهودي ان يعارضه

– ما هو المجلس الاعلى ؟

– هو الهيئة التشريعية فاذا شاءت المعارضة فان بيلاطس يصغي اليها فقط

ولكنه لا يقدر ان يأتي بعمل ما . لذلك تراه في حالة سيئة وتعسة وبالحقيقة انه رجل قدير يستحق ولاية افضل من هذه

اما حملة منوع فقد تقدمت الى المكان المعدّ لها وكانت دار العرض ملأى بالجنود المقبلين من الحصون الفلسطينية والاعلام تخفق في اعاليها فتزيد في بهائها ورونقها .

ولقد شعر مرسيلوس بطمأنينة زائدة عند ما دخل المكان المعدّ له لانه على مثال منزله وقد نام في تلك الليلة نوماً هادئاً لذيذاً وعدّها الليلة الاولى التي ارتاح فيها منذ ان غادر بيت والده . وبعد يسير من الوقت اقبل اليه بولس وقال له ان المركب ڤستريس سيصل الى يافا قريباً وسيعود منها الى رومية في نهاية هذا الاسبوع فاذا اراد القائد ان يكتب الى ذويه شيئاً فالفرصة سانحة له . فشكره مرسيلوس لاهتمامه بشأنه

* * * *

اما مرسيلوس فلم يكتب شيئاً الى ديانا منذ ان فارقها سوى كتاب واحد موجز العبارة اظهر لها فيه أسفه على فرقها غير المنتظر واوصاها بان لا يقلق بالها لغيابه وعللها بتحسن الاحوال والعودة اليها . ثم كتب الى عائلته كتاباً موجزاً ووعد ان يراسلها برسالة مسهبة فيما بعد . اما في هذه الليلة فسيكتب الى ديانا ويخبرها بايجاز عن شؤون حياته في منوع وبسفره الى اورشليم وكيف انهم اعدّوا له مكاناً لائقاً بوظيفته وبلقبه الشريف . وقال على الرغم من ان القصاص في ارساله الى منوع اسقط شيئاً من كرامته فانه قد استردّه الان وهو يفتخر بكونه من الرعية الرومانية . وقال عن صديقه العزيز بولس انه لولاه ما استطاع احتمال معيشة الوحدة مع ما كان بينهما من الاختلاف والمعاكسة حين وصوله الى منوع . ثم ختم كتابه بقوله : انتِ تعرفين يا ديانا كم من الاشياء كنت احب ان اطلعكِ

عليها لو كنا معاً . اما الان فاكتني مع ما بيننا من بعد المسافة بان اعلمكِ ان سعادتكِ هي سعادتي والذي يؤلمكِ يا عزيزتي يؤلمني . ولي ملء الامل ان ارى عند رجوعي الى غزة رسالة مسهبة تتضمن الايضاح عن امورك كافةً وها اني ابعث بهذا الكتاب مع ديمتريوس الى ربان السفينة ولكم كنت اتمنى لو يتاح لي السفر فيها اليكِ لاتمتع بانس مشاهدتكِ

* * * *

شعر ديمتريوس فجأةً بكآبة لم يعلم مصدرها . اخيراً تبين له انها آتية من مصادر مختلفة . اولاً لكونه عبداً وليس له مستقبل وثانياً لكون حريته مختصة بسيده غير انه لما قابل بينه وبين ابناء جلدته وجد نفسه اقل تعساً منهم لانه عُومل في بيت غاليو معاملة حسنة . وكان اتبع لمرسيلوس من ظله لذلك كان رفيقه الدائم حتى ولو أطلقت له الحرية تماماً لصعبت عليه مفارقته .

اما حبه الشديد للوسيا فانه ضرب عنه صفحاً حتى كأنه ولو لم يكن خادماً لم تكن لوسيا لترضى به رفيقاً لها . ثم اخذ يراجع ذاكرته لعله يرى السبب الموجب لكآبته فوجد اولاً انه بعيد عن سيده لان الخدم هنا في أورشليم بعد قيامهم بواجباتهم نحو اسيادهم ينصرفون لممارسة شؤونهم الخاصة وهذا لم يعتده سابقاً وقد شعر هنا بعبوديته اكثر من ذي قبل

وكان هناك ايضاً سبب آخر مهمٌ اثار نفسيته وهو ان عيون تلك الشخصية الرائعة التي حدقت ببصرها اليه على قارعة الطريق انطبع مثالها في مخيلته وبلبلت باله . وبعد الدرس والتمعن العميق اتضح له ان السرّ في جمود نظرها وذبوله كان لشدة الكآبة والوحدة . وقد تبين ان اتباعه الذين حاولوا ابعاد الجماهير الغفيرة عنه كانوا يائسين لان الجمع انتظر ان يصدر منه عملٌ ما ولكنه لم تكن له رغبة في ذلك . ومع انهم رجوا منه كثيراً ان يسير امامهم ويكون لهم قائداً فلم يفعل بل كان رجلاً وحيداً وكانت عيناه متعطشتين الى رؤية صديق يفهمه . ووحدته

شبيهة بوحدة ديمتريوس . وكأنه كان يخاطب الجمع قائلاً انكم تستطيعون ان تعملوا شيئاً لهذا العالم التعس ولكنكم لا تعملون .

مرَّ على بقائهم في أورشليم ثلاثـة ايام وهم سائرون على خطة واحدة وكان الجنود بعد تناول فطور الصباح يجري عرضهم وعقيب ذلك يعودون الى ثكناتهم وبعدئذٍ يأتي اربعة عساكر ببزاتهم الرسمية ويقفون كالاصنام بينما تسير الفرق الى دار الولاية ومنها الى الهيكل ثم يمرون امام دار قيافا رئيس الكهنة الرخامية . وفي هذا العرض مشى ديمتريوس في مؤخر الحفـل مصحوباً بميلاس وراى بوناً شاسعاً بين الاحتفالات التي تُقام في رومية والتي تُقام هنا . فهناك المئات والالوف تسير وراء الاحتفالات اما هنا فالشعب لا يهمه من الامر شيء .

والذي اثار دهشة ديمتريوس بنوع خاص هو ما شاهده من شدة فقرهم ولباسهم والخرق البالية المغطاة بها اجسادهم . نعم انه يوجد فقر وشقاء في كورنثوس وطنه ولكن ليس الى هذا الحدّ وكذلك يوجد في اثينا كثير من الفقراء ولكن شتان بينها وبين اورشليم التي تُدعى المدينة المقدسة واسواقها ملأى بالامراض والعاهات لذلك لا عجب اذا كان الرجل الراكب على الاتان الابيض حزيناً كئيب النفس

انهم كانوا يقضون ذلك الاسبوع في اورشليم بعرض الجند وتحيـة الولاة والقناصل ومشاهدة الالعاب الرياضية واستماع شعوذة السحرة والمنجمين والآتين من الهند وافريقيا وسورية ويتمتعون بكل انواع الملاهي ثم يعودون الى ثكناتهم ليحتسوا كؤوس المدامة حتى الثمالة ويقامروا او يضطجعوا كسالى الى ان ينقضي النهار والليل لذلك ودَّ ديمتريوس العودة الى منوع التي هي اهدأ حالاً وانعم بالاً

ودَّ ديمتريوس ان يعرف ماذا حدث للرجل الذي لم يرد ان يصبح ملكاً على هذه البلاد فسأل ميلاس عنه فاجابه ربما ألقوه في السجن وخير له ان يُزج في غيابة السجن ولا سيما في هذا الاسبوع من ان يجمع حوله جمهوراً من الناس

— اتعرف اين هو السجن ؟

— لا لست اعلم مكانه ولا اريد ان اعلم لان الذي يزور احداً فيه لا يلبث ان يودع معه . وحسبي ما قاسيت من مرارة في السجون

في اليوم الرابع من دخولهم اورشليم خرج ديمتريوس يتمشى الى ان وصل الى الطريق التي رأى فيها الرجل الحزين وهناك جلس ساعة من الزمن في ظل احدى اشجار الزيتون ينعم النظر في المدينة . ثم اخذ يناجي نفسه قائلاً : اورشليم التي مضى عليها خمسة وثلاثون قرناً تريد اليوم ان تستعيد حريتها . ماذا تستطيع ان تعمل اذا أتيح لها الحصول عليها يا تُرى ؟ وما هي العبودية التي ترزح اورشليم تحتها ؟ بل ماذا يستطيعون ان يفعلوا اذا تمكنوا من ايجاد قائد يخلصهم من نير عبودية رومية ؟ هل يساعد الاغنياء الفقراء وتتحسن الحالة ؟ ان اليهود يرغبون في ان يجعلوا هذا الشاب ملكاً عليهم وهو لا يريد . فهل تغيير القواد يساعد على تغيير حالة المدينة؟

قال ديمتريوس هذا ثم نزل من التلّ وواصل السير الى ان بلغ داخل المدينة فرأى الاسواق مقفلة الا القليل منها فاعتراه العجب مما رأى ثم شاهد هناك تاجر سجاد اثيني مثله فسأله عن السبب الذي أوجب اقفالها . اجابه التاجر ألا تعلم ان هذه ليلة عيد الفصح فكل يهودي يأكل الفصح ويلازم منزله . وفي الصباح يبكرون الى اشغالهم كالعادة

فسأله الاثيني اين كنت قبلاً حتى تجهل هذه الامور الآن ؟

— انني كنت في ناحية التلة منذ ساعتين حيث تقع غابة من شجر الزيتون

— انني اعرف ذلك المكان وهو يُدعى بستان جثسيماني

— هل لك ان تعلمني اين اجد قافلة من اثينا تتعامل ببيع الاطياب ؟

— نعم . أتعني پوپيكوس ؟ هو هناك بناحية القلعة القديمة

فقال ديمتريوس وهو ذاهب الى پوپيكوس الاثيني ان العالم محتاج الى مَن يصلحهُ ولست اظن ان المليك الجديد الذي ينصبونه يستطيع ان يفعل شيئاً

* * * *

وفي صباح اليوم الثاني خرج ديمتريوس بعد ان أعدّ فطور سيده فرأى الاسواق غاصة بالجماهير الغفيرة التي جاءت لحضور حفلة العيد وشراء حاجاتها من التجار الذين كانوا قد عرضوا بضائعهم لانظار المارّة. ولا بُدّ للانسان في مثل هذا الزحام الا ان يمشي مشياً وئيداً حتى لا يتعرّض لدوس احد الباعة القاعدين القرفصاء. ولا سيما اصحاب البضائع الخزفية المصفوفة على الارض . هناك الالوف المؤلفة من كل امة ولسان يعجون ويضجون جميعاً وجماعة الفقراء يجولون بينهم بخروق بالية ويمدون ايديهم القذرة للاستعطاء.

بعد ان ترك ديمتريوس الاسواق المزدحمة وسار قليلاً الى ناحية القلعة سمع زيوس الاثيني الصغير يناديه . فسر ديمتريوس وتقدم نحوه لانه وجد من يهتم بامره . فقال له الاثيني لو كنت هنا امس لرأيت كيف انهم ألقوا القبض على الناصري الذي وجدوه هناك في البستان . فسأله ديمتريوس من هذا الناصري وماذا عمل ؟

— هو الرجل الذي رأيناه راكباً على الاتان الابيض

فلما سمع ديمتريوس منه ذلك اهتم بالامر غاية الاهتمام وطفق يسأله اسئلة متعددة فأجابه الاثيني قائلاً منذ الاحد الماضي والجنود يفتشون عنه الى ان صادفوه ليلة امس فقبضوا عليه واتوا به وبأتباعه الى المدينة

فسأله ديمتريوس متحمساً وماذا عمل يا ترى حتى قبضوا عليه ؟

— لانه هيج الشعب واراد ان يكون ملكاً عليهم وبوبيكوس يقول اذا اتهموه بالخيانة فستكون العاقبة وخيمة عليه .

— بالخيانة ؟ ان هذا الرجل لا يريد ان يقلق راحة الحكومة ولا يطلب ان يكون ملكاً . هذا عمل جنوني

— هذا ليس جنوناً . ان الكهنة الذين يديرون الهيكل يرغبون في ان يتخلصوا منه لانهم يخشون من ان يقضي على اعمالهم برمتها . ألم تسمع بما فعل في اليوم ذاته الذي رأيناه فيه ؟

– لا لم اسمع شيئاً من ذلك . قل لي ماذا حدث ؟

– ان الهيكل هو المكان الوحيد الذي يقدم فيه اليهود ذبائحهم . فانهم يبتاعون الحيوانات ويحرقونها . ويأتون بالبقر والغنم والحمام الى دار الهيكل الرخامية المفشاة جدرانها وسقوفها باجمل النقوش ويعرضونها للبيع

ولما جاء يسوع من الجليل ودخل الى الهيكل ولم يرقه هذا العمل لم يلبث ان قال هذا المكان ليس لبيع وشراء الحيوانات ويظهر انه شعر بسرقتهم ايضاً لانه قلب موائد الصيارفة فهب الغرباء الذين جاؤا من اماكن بعيدة يلتقطون ما سقط من الدراهم الى الارض . ثم اخرج باعة الحمام فخرج معهم الكهنة والعجول والغنم والصيارفة وكل من كان في دار الهيكل

وبينما كان الاثيني يقص على ديمتريوس ما جرى خرج من الخيمة المجاورة رجل عجوز ذو لحية بيضاء وحول عنقه سلسلة من الفضة وفي اصابعه خواتم الى ما هنالك من الزينة فقال زيوس الاثيني هذا هو پوپيكوس الاثيني وهو يعرف حق المعرفة هذه الحادثة ولكن الكآبة بادية عليه لان الكثيرين من عملائه منهمكون اليوم بمرافقة يسوع

فلما رأى پوپيكوس ديمتريوس سأله لماذا انت لابس اللباس الروماني ؟ اجاب ديمتريوس باحترام لان سيدي هو قائد القلعة في منوع

فقال پوپيكوس لو ان الجند الروماني يتركون اليهود يديرون شؤونهم الخاصة بانفسهم لكانت مشاكلهم تنتهي في مدة وجيزة ولكن تدخلهم في مسألة يسوع الناصري يستغرق النهار بكامله وغداً يوم السبت المقدس عندهم وهم لا يتعاطون فيه البيع والشراء فتكسد بضائعنا

واستطرد قائلاً منذ ثلاث وعشرين سنة وانا اجيء الى اورشليم ولم يحدث قط شغب كهذا اذ كان الناس يجيئون لحضور الاحتفال بعيد الفصح وبالوقت نفسه يبتاعون حاجياتهم فكان الرجل الفقير يأتي بحمامة في قفص والرجل الغني

بخروف او عجل ويسلمه الى الكاهن الذي كان يحرقه في دار الهيكل ولكن على توالي السنين اصبحت هذه العادة مسألة تجارية فكان الكاهن يفحص الخروف فاذا وجد فيه عيباً لا يُذكر يستبدله من آخر ويوجب على صاحبه ان يدفع قيمة الفرق . ثم يأتي غيره فيبيعه الخروف نفسه

فقال ديمتريوس هذه تجارة زائفة ولا عجب اذا عارضها هذا الناصري

– ولكن هذه المعارضة لن تفيده

– هل يلقونه في السجن

– فهمت انهم اخذوه الليلة الماضية الى دار قيافا رئيس الكهنة وشكوه لتهييجهِ الشعب الذي كان في الهيكل وقالوا ايضاً انه نجّس الهيكل كأن الهيكل لم يكن نجساً فقد حوّلوه الى اسطبل

وكان المشتكون عليه كثيرين فاندفعوا جميعهم بنفسٍ واحدة الى دار الولاية واخرجوا بيلاطس من فراشهِ ليصغي الى دعواهم . فقال لهم اذا كان ما تشتكون به عليه حسب ناموسكم فاحكموا انتم . ولكن الاغنياء لم يرقهم ما سمعوه فقالوا ان الشكوى لا تختص بالناموس فحسب بل يسوع هذا حاول ان يجعل نفسه ملكاً . فلم يبالِ بيلاطس كثيراً بكلامهم بل قال لهم على كلٍّ خذوه واجلدوه

فسأل ديمتريوس باهتمام هل جلدوه ؟

– نعم وليس كما يجلدون بقية المجرمين بل اسالوا دمهُ . عندئذٍ صاح احدهم من بين الجمع قائلاً : اقتلوا هذا الجليلي . فلما سمع بيلاطس انه جليلي قال لهم خذوه اذاً الى هيرودس لانه هو الذي ينظر في الدعاوي المختصة بالجليليين

– وهل اخذوه الى هناك ؟

فاومأ پوپيكوس بالايجاب وقال ان هيرودس لكي يرضي اغنياء اليهود والصيارفة عذّبه كثيراً بحيث امر العسكر ان يجلدوه ثانية ثم البسهُ ثوباً قرمزياً عتيقاً وادّعى انه يقدم له الخضوع . والبعض من العسكر السكارى ضفروا اكليلاً من

الشوك ووضعوه على رأسه . اما اصحاب الاموال فانهم لم يكتفوا بهذا بل طلبوا اماتته . عند ذلك صرخ ديمتريوس قائلاً :

إلى الموت !

– نعم . وقد عرفوا انه ليس من احد يصدر مثل هذا الامر الا بيلاطس فعادوا به الى دار الولاية

– وماذا حصل بعدئذ ؟

– لست اعلم اكثر مما ذكرت لك . واظن ان محاكمته لا تزال آخذة مجراها

– سأذهب الى هناك

– الاجدر بك ان تجتنب التدخل في حوادث كهذه

– ولكنني ذاهب الى سيدي . ثم تركهما وانصرف

* * * *

اسرع ديمتريوس في المشي حتى وصل الى المدخل البريتوري فشاهد جماهير من الشعب واقفين هناك . ثم صعد السلم ولبث في مكان مزدحم باغنياء اليهود وكان الوالي واقفاً داخل اعمدة الرواق ومحاطاً بحرس القصر . واصطف كالاصنام في مرتفع عالٍ اربعة فرق من الجند ينتظرون الاوامر. والاسير ماثل وحده امامهم. فشرع الوالي يسأله اسئلة لم يفهمها ديمتريوس لانه كان يجهل اللغة الارامية الجارية على ألسنة الشعب في ذلك الحين

ثم اقترب ديمتريوس من مكان يستطيع فيه ان يرى وجه المحكوم عليه فشاهد على رأسه اكليل شوك الذي قال عنه بوبيكوس وكان الدم سائلاً على وجهه ويداه مربوطتان واثار الضرب بادية على كتفيه العاريتين الداميتين غير ان هيئته تدل على عدم مبالاته بكل ما عومل به . وكانت اسئلة الوالي تتوجه بهدوء الى الاسير وهو عالي الجبين يجيب عليها بهدوء ايضاً . وكان الجمع واقفاً يصغي الى

الشهادة اصغاء تاماً اما ديمتريوس فكان يراقب وجه الضحية باهتمام كلي حتى انه لم ينظر الى ما حوله ليعلم هل كان سيده بين الحضور او لا . ثم التفت فرأى ضباطاً في الصف الاول يمثلون مراكزهم المتعددة وكان بولس بينهم وقد وقف حوله صف واحد من جنود منوع ولكن مرسيلوس لم يكن هناك . ثم تكلم الوالي بصوت عالٍ احدث ضجة عظيمة بين الشعب . فاقترب ديمتريوس الى ان وقف في مكان يستطيع منه ان يرى القاضي فابصر مرسيلوس واقفاً بين صف من القواد من عن يسار الوالي وكانت هيئته تدل على انه لم يفهم شيئاً من تلك الاحاديث بسبب جهله لغة الشعب وقد ودَّ لو كان في مكان آخر

اما الوالي فقد ظهر عليه الارتباك لان الذين حوله اكثروا من الجلبة واللغط فتنحى عن موضعه قليلاً وامر احد الحرس . فما عتم هذا ان عاد سريعاً وبيده طست فضيّ فغطس بيلاطس يديه فيه ثم رش منه الماء . فصاحت الجماهير ثانية مما دلَّ على انهم هذه المرة قرَّروا شيئاً وهذا القرار ارضى المنتقمين

وقد ادرك ديمتريوس الغاية من طست الماء وهي ان بيلاطس قد غسل يديه متبرئاً من هذه القضية وترك للشعب حريته بحيث تقع مسؤولية الحكم عليهم لا عليه لانه لم يرد ان يحمل سفك دم ذلك السجين على يديه . وشعر ديمتريوس ان سيده قد فهم مثله ان بيلاطس لا يريد تحمل المسؤولية

اقترب مرسيلوس من بيلاطس محيياً فبعد ان ردَّ له التحية كلمه بهمس كلاماً موجزاً فحنا مرسيلوس راسه ونزل من السلم وتوجه نحو بولس وافهمه التعليمات اللازمة . ثم اصدر بولس الأمر الى حامية منوع فتقدمت ومشى كل اثنين معاً وسار بولس في مؤخرتها ومرسيلوس في مقدمتها ففسح الجمع لها الطريق . ثم جذب احد الجنود الحبل الذي كانت يدا الاسير مربوطتين به فازعجه

لم يتبع ذلك الموكب اناس كثيرون انما كان معظمهم قابضين على لحاهم يهزونها استحساناً ورضىً . وفهم ديمتريوس ان بيلاطس حكم عليه ليسكّن ثورة الشعب

غير انه لم يفهم ما هو نوع العقاب . . وكان واقفاً على الجانب الآخر من الشارع اصدقاء يسوع جماعة بسطاء وصفر الوجوه يتشاورون فيما بينهم فيما اذا كانوا يتبعونه واخيراً اتفقت كلمة البعض منهم على اتباعه على انه كان الاجدر بهم ان يُظهروا منتهى الشجاعة لان الرجل استحق اصدقاء مخلصين

واذ كان ديمتريوس حائراً فيما عساه ان يفعل اقترب منه ميلاس . فسأله ديمتريوس ما هو نوع الحكم الذي حكموا به عليه اجابه انهم سيصلبونه

– لم يعمل عملاً يوجب صلبهُ وموتهُ

– المرجَّح ما تقوله ولكن هذا ما حكموا به وعلى ما سمعت وفهمت ان بيلاطس لم يشأ ان يحكم عليه بالصلب ولكنه خاف الشعب لذلك أوعز الى حامية منوع ان تقوم بهذا العمل لانها بعيدة

– اذاهب انت الى هناك ؟

لا . ليس عليَّ واجبات اقوم بها هناك والمشهد مؤلم جداً بحيث اذكر انهم صلبوا جندياً في غلاطية لانه طعن قائد مئة بحربة فبقي نهاراً كاملاً يصيح من الالم ثم وقعت الطيور السوداء عليه قبل ان يلفظ روحه .

ثم سار ديمتريوس نحو المكان الذي كان يشغله سيده فوجده فارغاً يخيم عليه السكون وبعد ان استراح قليلاً لتهدئة اعصابه الثائرة وقلبه الذي يكاد يتفطر من الالم نهض وشرب قدحاً من الماء ومع انه لم يرغب في الذهاب الى مكان الصلب فانه ملأ قدحاً آخر واخذه الى سيده

منذ ان وقع نظر ديمتريوس على وجه يسوع الكئيب تبين له ان الرجل لا مثيل له في هذا العالم وما من احد يدرك كنهه حتى ولا اصدقاؤه المقربون منه . وانه اليوم بالحق وحيدٌ فريدٌ

الفصل السادس

في صباح الغد لما سمع مرسيلوس بان جوليان قائد حامية كفرناحوم يعلن انه لا يجري اليوم عرض الجنود بل يجب على كل فرقة ان تعود الى ثكنتها تعجب جداً . وبعد عودته الى غرفته ارسل ودعا بولس ليستفهم منه عن السبب . فوصل اليه القائد المذكور وهو يترنح من كثرة الشراب الذي كان يتعاطاه في اثناء الليل . فنظر اليه مرسيلوس مشمئزاً واشار اليه بالجلوس ثم سأله عما حدث ؟

اجابه ان الوالي قضى ليلته بقلق وانزعاج

– وانت كذلك يا بولس واذا لم يكن في الامر من سر فاخبرني بكل ما وقفت عليه

– ان بيلاطس مستاء من كل انسان حتى من جوليان الشيخ الصالح الذي قال اذا كان الرجل جليلياً كان على قائد كفرناحوم ان يدقق بمحاكمته بدار هيرودس

– ارجو منك ان تقص عليَّ رواية هذا الجليلي من بدائتها واعتقد انت كأنني لم اسمعها قبلاً

فابتدأ بولس يسردهـا له قائلاً : حوكم نجار غبي من الجليل لانه ازعج راحة الشعب واستفزه الى العصيان ومنذ ايام دخل الى الهيكل وامارات الغضب على وجهه واخرج الحيوانات التي يقدمهـا اليهود ذبائح لالههم وقلب موائد الصيارفة وصرخ بصوت عالٍ انكم قد جعلتم هذا المكان المقدس مغارة لصوص وهذه هي الحقيقة بعينها

– اذاً لا بُدَّ ان يكون هذا الشاب مختلّ الشعور

فهزَّ بولس رأسه وقال انهُ شاب غير عاديّ . وكان منهم ان قبضوا عليه الليلة

الماضية وجاءوا به الى حنانيا الذي كان سابقاً رئيس كهنة ثم الى قيافا رئيس الكهنة الحالي وبعده الى بيلاطس فهيرودس . حضرنا المحاكمة ولم نكن في حالة تؤهلنا لفهم كل شيء. لانهم كانوا يتكلمون باللغة الارامية ومن الواضح ان الكهنة والكتبة ارادوا اعدامه الحياة

– ألانه تصرَّف هكذا في الهيكل ؟

– نعم لاجل هذا ولانه كان يدور في القرى ويجمع حوله جماهير الناس التي كانت تصغي بكليتها الى سماع اقواله

سأل مرسيلوس : عمَّ كان يتكلم

– عن ديانة جديدة لان احد الجنود الذي كان يعرف الارامية اخبرني ان يسوع هذا كان يعلّم الناس ديانة جديدة لا تتفق مع تعليم الكهنة وقد شهد عليه بعض الناس ولكن لم تتفق شهاداتهم على ان شاهداً واحداً قال بعد ان اقسم امام بيلاطس انه سمع هذا الجليلي يقول انني اهدم هذا الهيكل وبعد ثلاثة ايام اقيمه . وهنا يقبلون باية شهادة

– الى اين وصلوا بالتحقيق ؟

– هذا الذي جرى في محكمة هيرودس وسيجا كمونه امام بيلاطس بعد الفطور تماماً والمرجح ان بيلاطس سينيلهم طلبهم بصلبه واعدامه الحياة وفيما كانا يتحدثان اقبل رسول من قبل بيلاطس وبعد ان ادى التحية قال ان الوالي يحييكم ويامر ان يحضر حالاً الى دار الولاية صف من الضباط وفرقة مؤلفة من عشرين جندياً من منوع ثم حيا ثانية وعاد من حيث اتى . فالتفت مرسيلوس الى بولس وقال ما الذي يريده بيلاطس منا يا تُرى ؟

– اظن انه يريد ان نقوم نحن بعمل خطر لانه يأبى ان تندمج فيه فرقته المحلية .وبما ان حامية منوع تسافر غداً فاذا حدث امر ما فانهم لا يستطيعون الوصول الينا

ثم خرج بولس وبعد قليل من الوقت تبعه مرسيلوس الى غرفته فرآه يرتشف كأساً من الخمر فقال له لو كنت انا مكانك لكنت اكتفي بما شربته قبلاً فاقترب منه بولس وحدجه بنظره وقال أتعلم انك ستصلب رجلاً هل رأيت احداً يعمل عملاً كهذا ؟ اجابه مرسيلوس لا كيف يكون ذاك ؟ فملأ بولس الكاس طافحة وقدمها له قائلاً يمكنك ان تشربها حتى الثمالة واذا لم تفعل كما اشير عليك فستندم غاية الندم لان العمل الذي ستقوم به لا يقدر ان يعمله رجل صاح . فتناول مرسيلوس الكاس من يده وشربها

ثم قال له بولس ان العمل قاس للغاية ايها القائد . ولو امكنني التنصل منه لفعلت لانه يوجد شيء غريب في هذا الرجل وليس هو كسائر الرجال وقد قال الشهود عنه انه تصرف في الهيكل تصرف المالك في ملكه وكذلك في بيت حنانيا ابدى مثل هذا كأن البيت مختص به . وان جميع المحاكمات تجري في قصر قيافا ولكن يسوع كان الشخص الوحيد الهادي في القصر حيث ظهر الجميع حتى لبيلاطس ايضاً ان القصر كان هو القيّم عليه لا غيره وقد شهد احدهم ان يسوع هذا اعترف بانه ملك . فاقترب منه بيلاطس وسأله هل انت ملك ولم يسأله (هل قلت انك ملك) فبعد ان شرب مرسيلوس كأسين أخريين سأله وماذا كان جواب الجليلي ؟ اجاب ان مملكته ليست من هذا العالم

قال مرسيلوس قد اكثرت الشراب يا بولس حتى تكاد تفقد عقلك سأذهب وحدي وانبئهم انك مريض

اجاب بولس لن اتركك تذهب وحدك سآمر الفرقة ان تستعد للذهاب بقيادتي وهناك اجتمع بك

* * * *

كان مكان الصلب في بستان تحرق فيه عادة نفاية المدينة ولما كان ديمتريوس

لا يعرف جيداً طريق ذلك البستان فأنه قطع امله بالوصول في الوقت المعيّن لمشاهدة الصلب . وعلاوة على هذا فقد كان سيره الى ذلك المكان بطيئاً بالقياس الى شعوره بروحه الحزينة المنكسرة التي لم يشعر بمثلها منذ اصبح عبداً لانه ظهر له حينذاك ان العالم كله شرير والمحاكم ساقطة فاسدة والعدل اسم بلا مسمى بحيث كان الحكام يُباعون ويُشرون والكهنة يغشون الشعب ولماذا يسلم رجل عاقل نفسه للموت لكي يخلص العالم الذي لن يرجى اصلاحه . بل كيف يقف وحده هذا الجليلي المتهوّر الغاضب على تنجيس الهيكل المقدس امام رؤساء الكهنة الملتوين والمحكمة الخرقاء ؟

واذ اقترب ديمتريوس من ذلك البستان صادف اناساً كثيرين قادمين الى المدينة واكثرهم من الاغنياء. وعَلم علم اليقين ان هؤلاء هم المسؤولون وحدهم عن جريمة ذلك النهار وانهم انهوا عملية الصلب حسب مطاليبهم وعادوا الان الى معاطاة تجارتهم كأنهم لم يأتوا امراً غريباً . وربما ذهب بعضهم الى الهيكل ليتلوا صلاتهم

جدّ ديمتريوس في سيره الى ان وصل الى زقاق يؤدي الى رابية صغيرة غير انه نظيف خلافاً لبقية الازقة القذرة وكان على تلك الرابية ثلاثة صلبان طويلة في صف واحد . فلما تقدم الى الامام رأى ان يسوع كان في الوسط مستقيماً على صليبه كتمثـال ورأسه مرتفع بينما كان الرجلان المصلوبان من عن يمينه ويساره ملتويي الاعناق . فبهت لهذا المنظر المشؤوم واخذ يتأمله برهة . وقد انطفأت جذوة غضبه لانه رأى الرجل الحزين قد ضحى بحياته لاصلاح حالة الناس ولكنه قال ان الكهنة والكتبة سيستمرون في غشهم وخداعهم وان قيافا يحاكم الابرياء وبيلاطس يحكم بظلم ويغسل يديه القذرتين في طست من الفضة . اما هذا الرجل الوحيد فقد دفع ثمناً غالياً للحرب العقيمة التي شهرها لازالة الشر وطالما كرز وانذر . ولكن غداً ينسى العالم انه جازف بحياته في سبيل الامانة . وقال مناجياً نفسه اظن الاوفق لانسان مثله ان يموت من ان يعيش في عالم تجري فيه حادثة فظيعة كهذه .

لم يكن الجمع هناك غفيراً كما اعتقد ديمتريوس بل لم يحدث شغب في الشعب لان وقوف الجنود مسندين الى رماحهم كان الدليل على هدؤ الشعب وسكينته . فلما اقترب الى حيث المتفرجون لم يجد بينهم احداً من الذين كانوا في مكان المحاكمة . بل رأى فقراء يبكون وعدداً من النساء مجتمعات وعلى وجوههن امارات الحزن الشديد . وكانت الساحة الواسعة المنصوبة فيها الصلبان الثلاثة خالية من الناس

فسأل ديمتريوس احد الشرطة عن سيده فاجابه انه وعدداً من الضباط في الجانب الآخر من الرابية خلف الصلبان

– قد اتيت بماء لسيدي ليشرب

– حسناً فانه يغسل يديه فيها لانهم اليوم لا يشربون ماء

سأل ديمتريوس قائلاً : هل مات الرجل

– لا بل قال شيئاً منذ بضع دقائق

– ماذا قال وهل سمعته

– قال انا عطشان

– هل اعطوه ليشرب

– كلاً لكنهم ملأوا اسفنجة خلًا ممزوجاً بشيء مخدّر ورفعوها الى فمه ولكنه لم يشرب . لم افهم لحد الآن السبب الذي لاجله صُلب هذا الانسان . فانه ليس جباناً . ثم اشار الجندي الى ذلك الفلك الحالك السواد وقال انه ستهبّ عاصفة ثم تغلغل بين الجمع

اما ديمتريوس فانه لم يبقَ ناظراً الى الرجل الفريد بل ادار نظره الى الجهة الثانية من التلة فرأى مرسيلوس وبولس وخمسة غيرهم من الضباط قاعدين القرفصاء على الارض وهم يلعبون بالنرد (لعبة الطاولة) اما ديمتريوس فقد اخذه العجب من سيده لانه لم يعهده عادم الشعور الى هذا الحد وان الوقت لم يكن وقت لهو وتسلية

ولما لمحه سيده اشار اليه ان يقترب منه وسأله عما اذا كان لديه ما يقوله له اجابه قد اتيتك بماء لكي تشرب . قال له ضع الاناء هنا واذهب وائتني بذاك الثوب الذي تحت الصليب . فلما وقع نظر بولس عليه اخذ يتمعن فيه ثم قال انه لثوبٌ حسن منسوج في احدى القرى ومصبوغ بعصير الجوز وسأستولي عليه لان صاحبه لم يبقَ له من حاجة اليه

قال مرسيلوس لِمَ يكون لك ؟ اذا كان ذا قيمة فلنقترع كلانا عليه . وبعد اتفاق رأيهما على الاقتراع عليه كان من نصيب سيده مرسيلوس . فقال لديمتريوس احفظ هذا الثوب واعتنِ به فاخذه . ثم سأل سيده اذا كان يريد منه شيئاً فاجابه بقوله اذهب الى غرفتي واعدّ امتعتي لاننا نعود غداً الى منوع

وقف ديمتريوس وقال انني ارى حالة الجوّ سيئة متلبدة بالغيوم ولا يمرّ وقت يسير حتى تهب عاصفة هوجاء . عندئذٍ عرف ديمتريوس سبب تعاطي سيده كؤوس الخمر لانه لم يستطع احتمال هذا العمل الفظيع المخجل وهو في تمام عقله . ثم حدث رعد قوي يصمّ الاذان اهتزت له الارض . ولما شعر مرسيلوس بانه سيقع من الاضطراب وضع يده على الصليب الذي في الوسط فتلطخت بالدم فمسحها بذيل ردائه

وخرج من بين الجمع رجل بلباس اسود غالي الثمن وقال لمرسيلوس انتهر الناس فانهم يزعمون ان هذه العاصفة عبارة عن دينونة علينا . وإذ رعدت السماء ثانيةً قال له مرسيلوس ربما كان الامر كما يزعمون

– ولكن واجباتك تقضي عليك بالمحافظة على النظام

– أتروم مني ان اهدئ العاصفة واخفت هزيم الرعد

– هدئ التجديف الذي يخرج من افواه الناس وهم يصرخون ان هذا الجليلي هو ابن الله

– ربما هو كذلك وانت لا تدري . فخرج الرجل السمين وصاح قائلاً : يجب



يرمي الجنود الرومان النرد مقترعين على الرداء.

عليّ ان اعلم الوالي بهذا الامر حالاً

حدّق ديمتريوس بالرجل الفريد لآخر مرة فرآه قد رفع راسه ونظر الى الجوّ القاتم فنادى على الفور بصوتٍ عـالٍ كأنه ينادي صديقاً بعيداً عنه يستمدّ منه المساعدة . وقد سمعه واحد من اتباعه فركض من بين الجمع باكياً منتحباً فجذبه ديمتريوس اليه وسأله بلجاجة عما تفوّه به فلم يجبه بل تملص منه وزاد في البكاء والنحيب . واما الجليلي المائت فان شفتيه تحركتا ونظر الى الجموع الواقفين تحت كنظره اليهم حين احتفلوا به كملك عليهم . ثم تجدّد هزيم الرعد وخيم الظلام

فطوى ديمتريوس الثوب وحمله تحت جبته . لانه حين لمسه شعر بارتياح ازال عنه وحشة البعاد والانفراد وقال مخاطباً نفسه اذا سمح لي مرسيلوس بهذا الثوب فيكون لي منه ميراث ثمين لا يُحدّ من الرجل العظيم الشجاع الذي كان يلبسه . هذا وقد تمنّى معرفته كثيراً والحصول على صداقته . ولما كانت الفرصة لم تسمح له فقد اكتفى بهذا الثوب الذي سيكون له بمثابة تعزية ابدية وتذكار عظيم

ولما وصل الى اسواق المدينة كان الظلام قد ارخى سدوله على اورشليم مع ان الوقت لم يكن ليلاً بل كان بُعيد الظهر فذعر الناس لهذا الحدَث المفاجىء وتعجبوا من هذه الظلمة غير العادية . اما هو فان وجود الثوب معه ابعد عنه كل خوف وشعر كأن فيه الدواء الشافي لجميع الآلام

ولما وصل الى الثكنة كان ميلاس واقفاً في الرواق امام غرفة سيده بولس فلما رأى ديمتريوس مقبلاً سأله هل كنت هناك ؟ ولمـا لم ياخذ جواباً منه سأله ثانية أتظن ان هذه الظلمة الحالكة ناتجة عن كسوف الشمس

– كلّا لم اسمع بكسوف يدوم مدة طويلة كهذه

– أتظن ان ليسوع علاقة بهذه الظلمة ؟

– لا اظن ذلك

– هل راجعت فكرك بشأن الهرب الى دمشق ؟ سأتوجه في هذه الليلة بعد

ان اقوم بتمام الخدمة لسيدي وانها لفرصة نادرة فلا تدعها تفوتك واسمع لقولي بدون ان تفشي سرّي او تطلع عليه احداً

– كن مطمئن البال باني لا اقول شيئاً عنك البتة

ولما ودّع ميلاس ديمتريوس واتجه نحو الباب اخرج الثوب من تحت جبته فعاد ميلاس ادراجه وسأله ما هذا ؟

– هذا ثوبه

– كيف وصل اليك

– اقترع الضباط عليه فربحه سيدي

– اظنهُ يجلب النحس

– لا بالعكس فانه كان يخص رجلاً شجاعاً

* * * *

لما ولج مرسيلوس غرفته كانت سورة الخمرة والاعياء قد اخذا منه كل مأخذ فجلس على كرسي وامر خادمه ان يحضر له كأساً من الخمر ايضاً فاجاب سؤله حالاً . ثم قال له اذا اغتسلت بالماء البارد يا سيدي فلا بُدَّ انك تشعر بتحسُّن فتفرَّس فيه مرسيلوس بعينين واسعتين وسأله أكنت هناك ؟ ثم استطرد قائلاً لا شك في ذلك فقد اتيتني بالمـاء . قال ديمتريوس نعم وأتيت بالثوب ايضاً . ثم لمس مرسيلوس جبهته مبتغياً ازالة ذكر ما اجراه في ذلك النهار . فذكّره خادمه بالمأدبة التي سيقيمها بيلاطس عشية ذلك اليوم وبان يكون مستعداً لحضورها . فاجابه مرسيلوس الحق معك فانني اشعر انني قذر خارجاً ، قذر ومخجول معاً في الداخل

– نعم ولكنك كنت تطيع الاوامر

سأله ثانية هل كنت هناك ؟

نعم يا سيدي ان العمل محزن للغاية

فسأله ايضاً : ما هو رأيك فيه يا ديمتريوس ؟

اجاب : رأيي انه شجاع للغاية . لقد كان من سوء حظك أنْ عُهدتْ اليك هذه العملية

– لن اقدم على عمل كهذا ما دمت حياً . هل كنت هناك لما طلب من الهه ان يغفر لنا ؟

– لو كنت هناك لما فهمت

– ولا كنت انا فهمت ولكنهم قالوا لي ذلك . فصوَّب نظره اليَّ بعد ان طلب ما طلب . وهيهات ان انسى تلك النظرة . وكانت هي المرة الاولى التي رأى فيها ديمتريوس الدموع في عيني سيده

* * * *

ان القصر الذي أُقيمت فيه المأدبة كان مزداناً بكل انواع الزينة كالاعلام والالوية والازهار على اختلاف اشكالها والوانها . وكانت الموسيقى تعزف انغاماً عسكرية والقناديل الحجرية الكبيرة تضيء القاعة الواسعة وجلس بيلاطس على رأس المائدة وعلى جانبيه مرسيلوس وجوليان ثم قواد قيصرية ويافا وغيرهم من الضباط . وكان بيلاطس مغموماً وحائراً

استعد خدم بيلاطس لتأدية الخدمة المطلوبة وكذلك خدم القواد لان هذه المأدبة أُقيمت خصيصاً لتناول المشروبات الروحية . وكانت حامية منوع متهيجة الاعصاب لما قامت به من العمل الفظيع ذلك النهار والضابط بولس متكدراً ومغموماً الا انه عقيب احتسائه كؤوس الراح بكثرة اصبح ثملاً فرحاً .

اما مرسيلوس فلم تكن له قابلية للاكل فكان يتلهى بعشائه فادار بيلاطس وجهه اليه وسأله عما اذا كان يريد شيئاً آخر . ثم خاطبه بقوله ان ما قمت به اليوم

ازعجك وازال قابليتك لا شك ان العمل كان مؤلماً فانني اضطررت ان احكم فيه

فتفرّس فيه مرسيلوس بجرأة ووقاحة وقال له ان هذا الرجل لم يكن مذنباً كما اقرّ الوالي

فنظر اليه بيلاطس بغضب . وقال له : هل ينتقد قائد منوع قرار المحكمة العادل ؟

– لا شك بذلك . العادل ! هيه . لا احد يعرف العدالة اكثر من الوالي ان هذا الجليلي عُومل بظلم

– لم يعتد القواد ان ينتقدوا رؤساءهم كما فعلت انت اليوم

– نعم ولكن سموك ابتدأت في الحديث واذا كان هذا الموضوع لا يروقك فلنختر موضوعاً آخر

أبرقت اسرة وجه بيلاطس وقال . لك رأيك في الموضوع . ولكن لم يسبق لمرؤوسٍ ما ان ينتقد رئيسه بهذه الصراحة كما فعلت انت

– انا اعلم ذلك يا سيدي ثم حدق بصره فيه وقال : ولكن هذه قضية غريبة في بابها ومحاكمة فوق العادة وعقاب غير عادي كما ان المحكوم عليه رجلٌ غير عاديّ

– نعم انه رجل غريب . ثم سأله بصوت منخفض ما رأيك فيه ؟

– لست اعلم يا سيدي

– كان متعصباً

– بدون شك كما كان ارستوقراط وافلاطون

– اتعني انه من اصحاب هذا المزاج

وقبل ان يجيب مرسيلوس على ذلك وقف بولس يمزح ويمرح لانه كان ثملاً مما اغضب الوالي فاومأ اليه مرسيلوس ان يحترم الحضور لكنه لم يبالِ بل اقترب منه وهمس في اذنه كلاماً . فامر مرسيلوس ديمتريوس ان يجيء بالثوب لان بولس

يريد ان يراه

لم يطع امر سيده بسرعة لحدجهُ بيلاطس ببصره مدهوشاً فانتهره سيده وصاح به اذهب حالاً واحضره الى هنا • عندئذٍ ذهب مسرعاً الى غرفة سيده غير انه كان مضطرباً جداً فطوى الرداء الملوَّث بالدم والممزَّق من الشوك ووضعه على ذراعه واتجه نحو القصر وشعر كانه خائن يوافق سواه من الاضداد على الاستهزاء بصديق محب • وقال مخاطباً نفسه ان يسوع هذا يستحق معاملة احسن من هذه من جندي ثمل حتى بعد موته وخطر له ان يهرب بالثوب الى دمشق مع ميلاس ولكنه لم يفعل

ولما وصل به الى القاعة المقامة فيها المأدبة تأمل مرسيلوس ذلك الثوب ولكنه لم يلمسه بل امر خادمه ان يعطيه الى الضابط بولس • فنهض بولس وامسك الثوب من ناحية الكتفين ومشى به الى ان دنا من رأس المائدة ووقف امام بيلاطس وقال له هذا تذكار النصر خذه وضعه مع الاعلام • ولما رأى ان بيلاطس نظر اليه باشمئزاز اقترب من مرسيلوس وقال له ان الولاية لا تريد الثوب لكنَّ منوع تريده فانهض والبسه واذهب به الى منوع فقال مرسيلوس كفى يا بولس كفى غير ان بولس ظلَّ يقول له البسه البسه ثم سلمه الى ديمتريوس خادمه ليلبسه اياه • فصاح واحد من الحاضرين البسه وهكذا صاح جميع الضباط الثملين • ولما رأى مرسيلوس ان اوفق طريقة لتهدئة صياحهم هو لبس الثوب قال لخادمه هاتهِ فتمسك به ديمتريوس ولم يسلمه اياه فاحتدم سيده غيظاً واطمه وتلك اول لطمة من كف مرسيلوس لخادمه • فاطرق ديمتريوس راسه وسلمه الثوب ووقف صامتاً • فتناوله سيده ولبسه فوق جبته عندئذ قهقه الجميع الا مرسيلوس فانه لم يبتسم قط بل تغيرت سحنته • عندئذٍ سكت الجميع وقد امسى هو مشدوهاً او في حلم يحاول ان يخلع ذلك الثوب عنه ولكنه لم يستطع لان يديه كانتا ترتجفان وبعد ان ساعده خادمه على نزعه امره ان يأخذه ويحرقه

ولما خرج رأى ميلاس فقال له ستجدني الليلة عند « بوابة الغنم » فانتظرني هناك قال هذا واسرع الى البيت

* * * *

قال بيلاطس مخاطباً مرسيلوس اظنك لا تزال متـأثراً من جراء الامور التي حدثت اليوم فاذا شئت ان تستقيل فاننـا نعذرك فاجابه مرسيلوس ، اشكرك يا سيدي . واذ قام ليذهب شعر ان ركبتيه لا تزالان ضعيفتين ترتجفان فعاد وقعد في مكانه . واخذ ينسب هذا الضعف الفجائي الى جملة اسباب منها افراطه في شرب الخمور ومنها ازدياد تهديدات اعصابه المتهيجة . ثم اقرّ اخيراً ان لا هذا ولا ذاك بل ذلك من الرداء المسحور حسبما اعتقد بيلاطس

واذ كان يحاول الوقوف مرةً اخرى دخل احد الحرس وبعد ان حيّا اخبر ان قبطان المركب قسترس قد وصل وانه يريد ان يسلّم القائد مرسيلوس كتاباً من الامبراطور

فاصاخ مرسيلوس بسمعه الى الوالي ليعلم ما يجيب فسمعه يقول دَعْهُ يدخل فلما دخل حيّا الوالي فأوعز اليه ان يسلّم الكتاب الى مرسيلوس فاخرج هذا خنجره وفضّ به الدرج ولكن بيدين مرتجفتين وبعد ان قرأه بتمامه التفت نحو القبطان وسأله متى يقلع المركب قسترس ؟

– غداً يا سيدي عندما نعود الى يافا

– حسناً فسأكون مستعداً في الوقت المعيّن

– قد اعددت كل ما تحتاجه في سفرك الى الميناء . وسيمر المركب على غزة ويمكنك ان تنقل فيه كل ما تريد اخذه معك الى رومية

ثم القى التحية وخرج فالتفت بيلاطس الى مرسيلوس وقـال له انني اريد ان اكون في مقدمة المهنئين فقال له مرسيلوس اشكر لك عواطفك وتلطفك . غير اني

ارجو ان تسمح لي بالذهاب الآن

– لا بُدّ من ذلك . ثم لما وجده انه لا يزال ضعيفاً سأله عما يحتاج اليه من المساعدة او ان يبعث اليه خادمه ليقوم بخدمته

. نهض مرسيلوس بصعوبة كلية ومشى بخطى بطيئة متغلباً على ارادته كي لا يقع ويصبح سخرية امام الضباط . وعند وصوله الى نهاية الدار ارتاح هنيهة ثم تابع مشيه الى الممرّ الرخامي فالبوابة التي تؤدي الى الخارج وهناك ابتدأ يتلمس طريقه كما يفعل الشيخ العاجز ثم نزل في الدرج وعند وصوله الى الدرجة الاخيرة قعد عليها واسند راسه وعوضاً من ان يفرح ويُسرّ لانتهاء مدة نفيه فانه لم يكترث لشيء من هذا بل كان يخاطب نفسه قائلاً : انهض يا مرسيلوس لقد اصبحت حرّاً . انت ذاهب الى بيتك . الى عائلتك . الى ديانا . انك مسافر غداً . ماذا ألمّ بك ؟

ما كاد يصحو من غيبوبته حتى شعر بحركة امامه فرأى ميلاس ملتصقاً بالجدار ينسلّ منه على حذر . ولما وقع نظر هذا عليه ورآه جالساً هناك قفز كالغزال وغاب عن الابصار . ثم سمع وقع خطوات على الممشى فادرك ان الوليمة قد انتهى امرها . ثم شاء ان ينادي احداً لمساعدته لكنه ما امكنه قط ان يقرّر شيئاً . الى ان اظلم الليل فسار بخطى متثاقلة حتى وصل الى احد العواميد الرخامية ونام هناك

* * * *

صرف ديمتريوس ساعة كاملة في اعداد امتعة سيده وبعض اشياء يحتاجها في سفره الى منوع ! ولقد عزّ عليه كثيراً ان يترك سيده لغير ما سبب على انه افتكر ان يتمم خدمة سيده كالعادة ثم يهرب الى الشام البلاد الحرّة . نعم ربما يصادف اتعاباً ومصاعب كثيرة ولكن هذه ليست شيئاً في جانب نيل حريته واستقلاله . وسيرى مرسيلوس ان تلك الاهانة التي اهانه بها امام القواد في دار الوليمة تشفع بهربه . وبعد ان اتمّ عمله ذهب الى غرفتهِ وجمع ما يخصهُ من الامتعة ووضعها في

كيس وطوى الرداء بعناية زائدة ووضعهُ فوق الملابس التي في الكيس وكان لمسهُ اياه كافياً وافياً ليولّد فيه قوة الشعور بالراحة والطمأنينة

كان ديمتريوس قد سمع في حداثته رواية صغيرة عن خاتم منقوش عليه اسم امير وكان هذا الامير قد اهداه الى جندي خلصهُ من الموت . وبعد سنين طويلة كان اظهار الخاتم واسطة للتشرف بنيل رضى الامير وصداقته. وكان لهذا الرداء العامل الطبيعي نفسه الذي لخاتم الامير اعني به قوة الحماية والتأمين

وكانت الطريق الى « بوابة الغنم » بعيدة ولكن ديمتريوس كان قد اجتازها سابقاً في رحلاته الماضية وحده . وكان ميلاس قد اكد له انها خالية من الناس الا من الذين يؤمّون العاصمة من القرى الشمالية وقد رغب اليوم في قطعها ليس لانه ينوي الهرب عليها بل لانه احب ان يمتحن اجتياز طريق الحرية

كانت البوابة الآنفة الذكر خالية من الحراس ولم يكن ميلاس قد وصل بعد فاضطجع ديمتريوس على العشب بجانب الطريق وانتظره الى ان جاء فسأله ميلاس هل رآك احد ؟

– لا فكل شيء كان هادئاً

– وانت مَن رآك

– رآني القائد مرسيلوس وخوّفني لانني كنت ملتصقاً بالجدار انسلّ منه على حذر

– ماذا كان يعمل هناك ؟

– كان جالساً وحده عند مدخل الباب

– هل عرفك ؟

– نعم عرفني ولكنه لم يتكلم . دعنا نسير لنعرف كم من الاميال نقطع قبل شروق الشمس

– هل ظهر على القائد ما يدلّ على انه سكران ؟

– لم يظهر عليه شيء من هذا تماماً لانه غادر الدار قبل مغادرة غيره لها الا انه كان قلق البال على غير هدى من امره . ربما لم يكن يعلم اين كان

فتمهل ديمتريوس في سيره ثم قال انا متأسف يا ميلاس وان فكري يدفعني الى الرجوع اليه

– تباً لك من جبان تخشى الهرب من رجل يلطمك امام جمهور من الضباط اذهب واخدمه كل حياتك فانه فقد عقله

فادار ديمتريوس وجهه وقفل راجعاً

فصاح به ميلاس قائلاً الاوفق لك ان تتخلص من ذلك الرداء فهو الذي افقد مرسيلوس عقله لانه حين لبسه تغيرت وساءت احواله . انه لرداء ملعون وقد انتقم الجليلي من خصومه

وكان ديمتريوس يعثر في طريقه وهو سائر في الظلام وصوت ميلاس يرن في اذنيه قائلاً ملعون ملعون

الفصل السابع

كان فصل الشتاء في جزيرة كاپري قصير الاجل غير انه في نظر واعتقاد الامبراطور طيباريوس كان اطول فصول السنة لانه كان يكرهه كرهاً شديداً لما يعانيه من شدة الآلام العصبية التي كانت تنتابه في اثنائه من رطوبة جوّ تلك الجزيرة والاستياء من مشهد تلبد غيومه الحالكة السواد .

ولم يكن شغله الشاغل بعد ان سلّم زمام الحكم الى الامير غايوس سوى الاهتمام ببناء دارات (ڤيلّا) للمصيف في الجزيرة المذكورة على انه لم يكن ثمت من ضرورة تقضي ببناء ذلك . فكان يقضي سحابة النهار في حرّ الشمس في الربيع والصيف والخريف يراقب جماعة البنائين الذين كانوا يقدّرون هندسته النظرية والعملية حقّ قدرها لانه كان مهندساً بارعاً يرسم كل شكل باتقان تامّ حتى ان اغطية آبار الماء في راس الجبل كانت مصنوعة بطريقة هندسية انيقة ومغشاة بنقوش بديعة

وكانت الدارات (الڤيلات) التي بناها تسعاً وكلها مشيدة في رابية عالية على نسق واحد ويحيط بكل واحدة منها حديقة انيقة غنآء . اما ما انفقه على بنائها فمن جيبه الخاص وقد اتخذ منها لسكناه القصر جوفيس الذي امتاز بدقة صنعه وبديع نقوشه .

كان الامبراطور يكره الشتاء كما ذكرنا آنفاً لانه لا يتيسّر له التمتع بحرارة الشمس التي تحجبها الغيوم الكثيفة . ولما كان موقناً ان ايامه امست معدودة لذلك حاول ان يأتي بكل فن جديد ترتاح اليه نفسه وتقرّ به عيناه . وكان كلما تساقطت الامطار وهبت الرياح يتزوي في الغرفة الخامسة والخمسين من منزله ولا

يسمح لاحد ان يزوره من الاقرباء والوزراء والنواب سوى القائمين على خدمته الشخصية والاطباء الكثيري العدد الذين يغسلون جسده بالخل المعطر ويصغون صاغرين الى شتائمه البذيئة

اما الامير غايوس فقد كان يرتاح لهذا الطقس جداً ويستطيع ان يكون له نفوذ في جميع المهام الخطيرة التي عُهدت اليه .

ومن غريب امر الامبراطور ايضاً انه عند شروق الشمس تتبدّل حالته كانه شخص آخر فيستغني عن الاطباء وادويتهم ويطلب جبته وحذاءه وعصاه ثم يخرج الى الرواق المشرف على الحديقة فيصدر اوامره طالباً انجازها بسرعة فائقة لانه لم يُخلق ليكون حليماً صبوراً ولا يُنتظر منه ان يصبح هكذا وقد بلغ السنة الثانية والثامين . وبناء على ذلك ظهرت الحركة فجأة في اوائل الربيع وقد خرج الموسيقيون المكدونيون والمنجمون الهنود والفلكيون الذين من جزيرة رودس والراقصات المصريات مع آلات العزف من مخابئهم السنوي الهادي ليمثلوا امام العاهل الروماني طيباريوس

وكان يوفد الى القصر دايونيسس ليسأل عن صحة الامبراطورة ليس من قبيل الاهتمام بامرها بل على سبيل المجاملة لانه سبق له ان تآمر مرة على قتلها ولكن تلك المؤامرة كان نصيبها الفشل

واقبل الربيع هذه السنة باكراً قبل اوانه . وامتلأ قلب طيباريوس جذلاً وحبوراً واراد ان يدعو ديانا الصغيرة لكي تقاسمه افراحه بالتمتع بجمال الطبيعة فاوفد رسولاً الى نياپوليس في النهار نفسه واتبعه بعد ساعة بافخم عرباته الملوكية المزدانة بالوسائد المحشوة بريش النعام وكتب بطاقة الى پولا غولوس يقول فيها ان العربة منطلقة في طريقها لتحضرها وابنتها ديانا الى جزيرة كاپري . وقد فعل ذلك بدون ان يستشيرها اذا كان يوافقها الحضور او لا

وعند مساء اليوم الثالث وصلت پولا وابنتها ديانا الى جزيرة كاپري وحُملتا في

سرير فخم الى « الڤيلا » جوڤيس حيث كان الامبراطور الشيخ في انتظارهما على احرّ من الجمر . وحين وقع نظره عليهما رغب اليهما في ان تستحما وترتاحا في سريريهما من عناء سفرهما الطويل . فسرَّت پولا جداً بهذه الرغبة وذهبت الى غرفتها شاكرة للامبراطور لطفه . اما ديانا التي كانت في عنفوان الصبا فلم يؤثر فيها العناء كثيراً كوالدتها بل بقيت لديه طربة مرحة الامر الذي سرَّه جداً فتأبط ذارعها وسار بها الى مخدعه الخاص وهناك استلقى على سرير كبير . اما هي فانها اتت بكرسي صغير ووضعته عند اقدامه وجلست عليه ورفعت نظرها اليه

فقال لها سابنتي، اجمل دارة (ڤيلا) لديانا الجميلة المحبوبة فاشرق وجه ديانا اذ سمعت هذا الخبر السارّ وقالت له على الفور انك احب جَدّ عرفهُ العالم

— وستساعديني انتِ في انشائها ايتها الابنة العزيزة

— ألهذا الامر اتيت بي الى هنا ؟

فاومأ لها برأسه مرتين او ثلاث جواباً على سؤالها ثم قال لها سنتكلم غداً بهذا الصدد

— اذاً يجب ان اذهب الى سريري وارتاح . وللحال نهضت عن كرسيها وخاطبته قائلة اتسمح لي يا جدي الحبيب ان اتناول الفطور معك غداً ؟

— انني افطر باكراً يا بنيتي ولا اريد ان تستيقظي لاجلي في مثل هذا الوقت

— لا بأس عليَّ اذا استيقظت باكراً وفطرت معك . ثم استطردت قائلة اسعد الله مساءك يا جلالة الامبراطور واطرقت برأسها واسرعت الى غرفة نومها فانبسطت اسارير وجهه واستعد هو للنوم

* * * *

ولما نهض طيباريوس من سريره في صبيحة اليوم الثاني شعر بهزَّة طرب لم يشعر بمثلها من قبل بتاتاً . فان وجود ديانا في حضرته تلك الفتاة النشيطة جدَّد حبه

للحياة . لانه كان يحبها حباً شديداً حتى انها لو طلبت منه جزيرة كابري باسرها لما ضنَّ بها عليها . وبعد ان تناولا الفطور تمشيا معاً الى ان وصلا الى مكان بعيد يُشرف على الجهة الشرقية . وكانت ديانا مبتهجة كثيراً . والامبراطور يسير بجانبها بخطى متثاقلة وهو يلهث من التعب ثم التفت اليها وقال هنا يا ديانا نقوم بانشاء دارة (ڤيلا) جميلة فريدة في بابها لا يحجب منظرها شيء ما . ثم اشار بعصاه وقال من هناك ترين ڤسيفوس في الصباح وتشاهدين من على شرفات بوبي وهر كيونينيوم شروق الشمس وعندما تجلسين بالقرب من نافذتكِ تبصرين كل ما هو جارٍ في سورنتيتوم الهادئة

ولما رأت ديانا ان الامبراطور قد اخذ منه التعب كل مأخذ وان رجليه لا تقويان على حمل جسمه لمواصلة المشي اكثر من ذلك اشارت اليه بالجلوس حيث كانا واقفين فجلس طيباريوس هناك واخذت ديانا تلاحظ ما هو عليه من الهزال الشديد دون ان تنبس ببنت شفة اخيراً قال لها بصوتٍ ضعيف لقد اصبحتِ غادة غيداء يا ديانا وستتزوجين في احد الايام

فتنهدت ديانا تنهداً عميقاً واطرقت حياءً

– مالكِ يا ديانا اتحبين مَن ليس اهلاً بكِ وجديراً بحبكِ ؟

– انني احبّ مرسيلوس يا جَدي

– لا مانع فانه نعمَ الزوج ولكن ما معنى تنهيدك هذا ؟ حقاً لا رجل اشرف منه في جميع المملكة ثم انكِ انت تحبين لوسيا كثيراً فماذا يمنعك عن الاقتران باخيها ؟

فتمتمت ديانا قائلة : ان مرسيلوس قد أُرسل الى مكان سحيق وليس بالامكان ان يعود الان بحيث ان قيادة حملة منوع صارت في عهدته

فانبرى طيباريوس وصاح منوع ! تلك الناحية التي تعشش فيها جراثيم الامراض يهمني ان اعرف من ارسله اليها

اجابت ديانا وهي متأثرة بعامل الغضب . ان الامير غايوس بعثه الى هناك

– مَن يكون غايوس ذلك السكير الاحمق العاتي . وما الذي حمله على ان يتصرف هذا التصرف مع ابن مرقس لوقا غاليو ؟ ثم تابط ذراع ديانا وقال لنعد الآن الى القصر حيث اكتب اليه حين وصولي . وفيما هما سائران اخذ يشتم ويتهدد بعبارات بذيئة وكانت ديانا قد بلغها انه حينما يغضب يخرج عن حد التعقل لانها لم تره سابقاً في مثل هذه الحالة لذلك رجت منه ان يرتاح قليلاً قبل ان يكتب الى غايوس فلم يأبه لرجائها بل زاد صياحاً وهياجاً حتى اجتمع حوله اثنا عشر خادماً من المقرّبين اليه وعند وصوله الى الدار استقبله رئيس غرفته وسارت هي مسرعة الى غرفة والدتها التي كانت لا تزال نائمة . وبعد ان ايقظتها زفّت اليها البشرى بعزم الامبراطور على الاتيان بمرسيلوس من منوع الى البيت

– أليس هو الغرض الوحيد الذي قررتِ ان تحمليه على القيام به اللهمّ اذا لم ينسَ ذلك

– اظن انه لا ينسى هذه المرة فان غضبهُ على غايوس اخذ منه كل مأخذ . ولقد كنت اودّ لو رأيتِ حالتهُ

– لقد رأيت كل هذه الافعال منه رأي العين .

– لا ريب في ان غايوس سيرى النور ظلاماً حينما يعلم ان امره لم ينفذ وليس باستطاعته ان يفعل شيئاً

قالت پولا : ليس هذا الشيء مؤكداً الان يا ولدي ولا يخفى عليكِ ان طيباريوس امسى مسناً واجله صار قريباً

– هل يخلفه غايوس في ادارة المملكة ؟

– مَن يعلم ؟

– ان الامبراطورة جوليانا ستختار الامبراطور الجديد . ربما لا يكون غايوس

– ان الامبراطور يحب والدي ولربما يعيّنه خلفاً له بالنظر لقدره الرفيع

– انهم لا يعينون الرجال العظام قياصرة وليس لوالدك حق في ترشيح نفسه. ولا سيما انه لا يحب الخداع

ثم قالت ديانا سافضي اليك بسر وهو ان الامبراطور سيبني لي قصراً في هذه الناحية ويريد ان اسكن فيه مع مرسيلوس

– ولكن مرسيلوس لا يستطيع ان يعيش في محيط كهذا فانه لن يعيش هنا طويلاً . توجهي يا ابنتي واستفهمي هل يكتب اليه اليوم

* * * *

اوحى الى لوسيا قلبها ان اخاها مرسيلوس قادم في المركب قستريس الذي لحته في صباح ذلك النهار وقد تأخر المركب المذكور عن ميعاد وصوله . لانه حينما يزايل يافا يستغرق من الوقت ثلاثة ايام لكي يصل الى رومية . وقد كان جميع الذين في البيت ينتظرون مجيء مرسيلوس على احرّ من الجمر . والوالد يحضهم على الاعتصام بحبل الصبر ولكن كان هو بذاته جزوعاً يسأي نفسه بمسائل لا اهمية لها

وكان مرسيبور يتعهد المنزل غرفةً غرفة بحيث جعله في غاية الاتقان والترتيب والوالدة اوصت بشراء سجاد جديد لتزيد في تزيين غرفته الخاصة وقد استطاعت هذه الأم الرؤوم ان تحكم على ارادتها ولو انها بكت من الفرح عندما جاءت ديانا وانبأتها ببشرى قدومه

اما لوسيا فقد نفد صبرها وهي تتوقع قدومه يوماً فيوماً بوقوفها في شرفة القصر تراقب جميع المراكب التي تمخر عباب الماء . وما ان وقع نظرها على السفينة قستريس تقترب من الشاطىء حتى غمر فؤادها الحبور ولا سيما حين ايقنت ان اخاها في عداد الركاب . اما والدها الذي لم يكن منتظراً مجيئه في ذلك النهار فقد توجه الى سوق الخيل ليبتاع جواداً كريماً ويقدمه هدية له حين وصوله

ولكن ديانا فقد اضطرت ان تطيع اوامر القيصر وتعود الى جزيرة كابري .

قالت لوسيا في نفسها ارجو ان لا يزعجها القيصر فيا بعد . ولكن عليها ان تلاطفه لانه عندما يغضب لا يهمه احد

مُذ ان اقتربت السفينة ڤستريس من الشاطىء شعرت لوسيا انهـا لا تستطيع البقاء في البيت فتوجهت وحدها الى البوابة الكبيرة لتستقبل اخاها وما كانت لتبالي بدهش الخدم من رؤيتهم اياها هناك لان هذا اليوم في نظرها غير عادي . ولما وصلت جلست على احد المقاعد ولم تلبث هنيهة حتى وصلت عربة عتيقة يجرها جوادان نشيطان فلما رآها ديمتريوس خرج حالاً من العربة لملاقاتها وهي ايضاً اسرعت لملاقاته وبعد ان تصافحا سألته عن اخيها فقال لها : ليس هناك من عربة تليق بمقامه . لذلك اتيت الى هنا لابحث عن واحدة جديدة لائقة

– قل لي الحقيقة كيف حال اخي ؟

– ان السفر لم يوافق صحة سيدي اخيكِ

– أكان مريضاً كل مدة السفر ؟

ولما رأته مرتبكاً بكلامه ولم يجبها جواباً شافياً ألحت عليه ان ينبئها الحقيقة

– قد حدث امرٌ للقاضي شقيقكِ ساخبرك عنه فيا بعد اذا شئتِ وهو الآن ينتظر عودتي اليه

سألت لوسيا : أكان الطقس رديئاً في مدة سفره ؟

– لا . ولكن لم تكن لسيدي قابلية للاكل قط ولم يذق جفنه طعم المنام واراه يشعر بضعف وانحطاط في قواهُ

– يلوح لي انك تكتم عني معرفة حالته فأؤمل منك ان تطلعني على الحقيقة بدون تمويه

– ان اخاك مشرد الحواس قليل التكلم ولا يريد ان يُترك وحده

– ألا يهمه المجيء الى منزله

– لا يهمه شيء من الاشياء

ثم مشى ديمتريوس فمشت بجانبه واذ ذاك اخذ يتراجع ثم التفت اليها وقال ارجو منك ان تتقدمي امامي لانه لا يحق لي الا ان امشي وراءك فاجابته على الفور : انني اكره مسألة العبيد والعبودية . ثم رجت منه ثانية ان يطلعها على السبب الذي شرد حواس اخيها . فأدلى اليها بما يأتي :

لقد اصاب مرسيلوس امرٌ رعبه وعسى ان يزول تاثير ذلك بالقريب العاجل وتتحسن صحته هنا وقد تعهد لي بانه سيبذل جهده ليظهر لكم سروره بمشاهدتكم . واذا ما رأيتموه يتلجلج في كلامه ثم يسكت صامتاً فلا تتعجبوا من ذلك وان قال لكم بعدئذٍ هل كنتم هناك ؟ فلا تجيبوه : اين ؟ بل قولوا : كلّا . . وهذا ما حصل له يوم كنّا في السفينة فانه كان احياناً يتكلم بسهولة مع القبطان كانه صحيح سليم ثم ينقطع فجأةً عن الكلام ثم يسأل القبطان : هل كنت هناك ؟ فيجيبه هذا بالنفي . اخيراً يقول له : خيرٌ لك حيث لم تكن في ذلك المكان

— هل عرف القبطان السبب الذي جعل مرسيلوس يتكلم هكذا ؟

— نعم عرف السبب وهو مسبب عن حادثة طويلة سأوردها لك بعدئذٍ بحذافيرها ثم اقتربت منه وسألته بصوت منخفض أكنت انت هناك ؟

اجابها نعم : ثم قال لها ارجو ألاَّ تسأليه شيئاً يا لوسيا بل عامليه كما كنتِ تعاملينه من قبل ولا تاتي امامه على ذكر اورشليم حتى لا تنكئي جرح حاساته لانه عميق ومؤلم

وما انهى حديثه حتى تورَّدت وجنتا لوسيا لان ديمتريوس ناداها باسمها بصراحة كلية دون مجاملة ثم ناجت نفسها قائلة : لا بأس اننا جميعنا مديونون لاخلاص هذا الخادم الامين . ثم التفتت اليه واظهرت له شكرها لانه اخبرها كيف ينبغي ان تتصرف مع اخيها . فرفع رمحه الى رأسه بعد ان انتصب كالجندي وحياها . فوقفت تنظر اليه الى ان توارى عن العيان .

بعد وصول مرسيلوس بساعة كاملة لم يظهر عليه شيء مما ذكر عنه ديمتريوس للوسيا التي بعد ان تركت ديمتريوس اسرعت الى البيت وانبأت والدتها بهذا الخبر المؤلم الرائع ثم اقبل والدها وفهم الحالة كما هي فذعروا كلهم كأنهم سمعوا خبر موته فلبثوا صامتين كأنهم ينتظرون رؤية جنازته . فلما جاءهم وحياهم تحية المحب الحنون المشتاق اخذهم العجب وانقلب ذعرهم وحزنهم الى فرح وطرب ولولا امارات الضعف البادية على محياه لكان ابتهاجهم بلقاه كاملاً

ثم قال والده : ارى من الضروري تقوية جسمه بالاطعمة المغذية الكافية واتخاذ اسباب الراحة له لكي يستعيد المناعة التي كانت له من قبل . اما ما ذكره ديمتريوس بشأن حالته العقلية فبعيد . ولقد عجبوا من تخويفه اياهم بقوله لهم ان مرسيلوس كان يائساً مشرّد الحواس . والحق ان مرسيلوس كان ساعتئذٍ بعكس ذلك فرحاً مسروراً

فانه اخذ يقصُّ عليهم ما شاهده في اثناء سفره من المواني التي رست فيها السفينة وما تحققه من تحولة وحالة منوع السيئة وحياة سكانها الذميمة . على ان اسراعه الزائد في سرد ما قصّهُ عليهم ليدلُّ دلالة واضحة على تأثر شعوره بحيث انه لم يعتد التكلم بسرعة كهذه وقد نسبوا ذلك منه الى عظم سروره بمشاهدة اسرته . غير انه ما لبث ان كفَّ عن الكلام . فقالت له امهُ انت تعِب يا ولدي فاجلس هنا وخذ لنفسك قسطاً من الراحة

فجلس مرسيلوس وكان قبل ذلك يروي لهم حادثة لصوص هجموا على قافلة ثم اخذ صوته ينخفض قليلاً فقليلاً حتى نسي ما كان يتكلم عنه او كأنه سمع صوتاً يناديه فجحظت عيناه وتغيرت سحنته وكان الجميع يلاحظون ذلك وهم صامتون كأن على رؤوسهم الطير

فسألته والدته : هل تريد كأساً من الماء؟ فلم يجب بل حاول ان يتدم لكنه لم يستطع فطلب اليه والده ان يذهب الى سريره فلم يجبهُ ايضاً كأن اذنيه لم تسمعا

شيئاً . وعندئذٍ ضاقت انفاسه وتصلبت اعصاب يديه . ولما هدأت ثورة نفسه أمرّ يده على جبهته ثم ادار وجهه نحو والده وسأله : هل كنت انت هناك يا سيدي ؟ اجابه والده الشيخ لا يا بنيّ . فقال مرسيلوس ما اجهلني لدى هذا السؤال فانك كنت هنا ولم تغادر رومية . وبعد ان قال هذا التفت اليهم محاولاً الابتسام ليرى كيف كان تأثير هذا العارض عليهم فرأى والدته تبكي وتنتحب فتأوه . ثم استأذن وانصرف الى مخدعه فشاهد ديمتريوس منتظراً في الرواق فاتكأ على عضده ليتمكن من الوصول الى سريره

* * * *

كان من شيمة مرقس لوقا غاليو ان يعامل جميع الناس بالعدل والانصاف سواء كانوا احراراً ام عبيداً وقد شاء ان يكون كل انسان عارفاً وظيفته في منزله . ولما اراد ان يتكلم ديمتريوس بشأن ولده كما لو كان مساوياً له في الرتبة عيّن وقتاً كافياً لتقرير ذلك

ولقد كان غاليو يحترم ديمتريوس الكورنثي المخلص الجميل الخَلق والخُلق ويأتمنه على كل شيء في جميع شؤونه . بَيد انه كان يحافظ على ذلك الحاجز الذي بين السيد والمَسُود وقد اضطرَّ اليوم بحكم الضرورة ان يزيح هذا الحاجز لانه كيف يتمكن من سؤاله عن الاسباب التي شرَّدت عقل ابنه ان لم يفعل ذلك . هذا وقد مضى على مرسيلوس نحو يومين وهو ملازم غرفته وتفقده والده في اثنائهما عدة مرار فكان يبدو على محياه علائم الخجل منه ولم يألُ جهداً في اظهار حنوه ومحبته الوالدية له واستعلامه عن سبب تجنبهِ الناس غير انه خشي سوء العاقبة

ولما كان مفتاح سرّ هذه المسألة بيد ديمتريوس فقد استدعاه للحال الى مكتبه وقال له اريد ان اقف منك على تفصيل مسألة ولدي مرسيلوس لانك لا تقدر ان تتصور شدة غمي وهمي من الحالة التي وصل اليها وبذلك تكون خدمتني خدمة

عظيمة وصيَّرتني ممتنـاً لك غاية الامتنان . ثم اشار اليه بالجلوس امامه وقال له : اجلس اذا شئت فان الكلام سهل عليك متى كنت قاعداً مرتاحاً

فاجاب ديمتريوس بتأدب انني اكون مرتاحاً يا مولاي اذا كنت واقفاً لانني لم اعتد الجلوس امام السادة

– قلت لك اجلس لانني لا ارتاح الى رؤيتك واقفاً . ان مسألة ولدي لمسألة موت او حياة فاريد منك ان تطلعني طلعها ولا تخفِ عليَّ شيئاً منهـا . فجلس ديمتريوس كما امره سيده وقال : ان الوالي في غضون عيد اليهود كان يأمر نوَّاب القلاع الفلسطينية بالحضور الى قصر الولاية للمحافظة على الامن لان اورشليم كانت تعجّ بالجماهير الغفيرة القادمة من البلدان المختلفة لتحضر حفلة العيد — وكذلك أمر سيدي بان يأتي ايضاً بكتيبة من جند منوع اليها

– اليس بيلاطس هو الوالي في اورشليم

– بلى يا مولاي وهناك ايضاً حاكم مقاطعة مقيم في اورشليم

– انني لن انسى ذلك الثعلب هيرودس الذي فهمت انه يحسد بيلاطس

– يجب الا يحسد احد بيلاطس لانه اداة في ايدي رؤساء الكهنة فهم الذين يحكمون في الدعاوي حسب اهوائهم كما حكموا في القضية التي انا آتٍ على بيانها

– اهي القضية التي تتعلق بابني ؟

– اسمح لي قبل الجواب ان اسألك هل سمعت شيئاً عن المسيا ؟

– كلا مَن هو المسيا ؟

– هو البطل العظيم الذي يتوقع اليهود مجيئه الى العالم منذ اربعمئة سنة لكي يعتقهم من العبودية لانه مخلصهم الذي وُعدوا به . ويظن المتطرفون منهم ان ظهوره سيكون في احد اسابيع عيدهم الآنف الذكر حتى خُيّل اليهم مراراً انهم وجدوا الرجل الحقيقي الذي ينتظرونه ولكن لم يحدث شيء من هذا . اما هذه المرة فانهم وجدوا رجلاً يهودياً . ومع كونه شخصاً فائق الطبيعة فان هيئته تدل

على انه كان مستقلا

– العلك انت رأيته ؟

– لقد حاول جمهور كبير من النـــاس ان يقنعوه انه هو المسيا ملكهم وقد رأيتهم رأي العين حين وصولنا . ولكنه ابى ان يحقق رغائبهم يا سيدي • والظاهر انه كان يبشر جماهير غفيرة في مقاطعة الجليل ويدعوهم الى الامانة والحنو والمحبة ولم تهمه سطوة الحكومة

– ربما صرّح لهم بان الحكومة غير عادلة في احكامها

– لست اعلم يا سيدي ولقد كان بالامكان ان يفعل ذلك بدون مخالفته للحق عندئذ جحظت عينـــا غاليو وقال له اظنك تقول ان الحكومة غير عادلة ،

اجل وهكذا سائر حكومات العالم

– انه لامرٌ محزن جداً

– اذاً رفض هذا الجليلي الملك ولهذا السبب غضب عليه المعجبون به

اجاب ديمتريوس وكذلك الحكومة لان اليهود الاغنياء خوفاً من امتداد سطوته في جميع اورشليم طلبوا ادانته كخائن • وحيث ان بيلاطس علم حق العلم انه لم يفعل ما يُعاقب عليه حاول ان يطلقه ولكنهم اصرّوا على محاكمته فاضطر اخيراً ان يصدر الحكم عليه بالموت صلباً وامر قائد حامية منوع بان يقوم بعملية الصلب

– مَن مرسيلوس ؟ هذا امرٌ فظيع جداً

– نعم يا سيدي ولكن لحسن حظه كان فاقد الوعي من شدة سكره حين قام بذلك العمل السيء • فضلاً عن انه رغب الى ضابط منوع ان يتولى الاشراف على العمل المذكور • ومنذ ذلك الحين تمثل هذا الشيء في مخيلته ولا يستطيع نسيانه فتراه يذكر كل شيء ويراه واضحاً امامه فيشعر عقيب ذلك بالم شديد • وحيث انه امرٌ حقيقي فيخيَّل اليه ان جميع الناس يعرفون شيئاً عنه . لذلك يسأل كل واحد منهم : هل كنت انت هناك ؟

ولما اتضحت المسالة لغاليو عاد فسأل ديمتريوس اكنت انت هناك ؟

– نعم يا سيدي ولكن هذا بعض الشيء . ثم نظر الى الشيخ وخاطبه بقوله ، قبل ان اتمم حديثي : انني لست من الذين يؤمنون بالعجائب او الخزعبلات وبما انك انت لا تؤمن مثلي فيصعب عليك تصديق ما ارويه لك

– قل يا ديمتريوس وتابع حديثك

– ان يسوع الجليلي هذا كان يلبس وهو ذاهب الى مكان الصلب رداء رمادياً بسيطاً محوكاً حياكة يدوية . خلعوه عنه ورموا به الى الارض . ولما كان معلقاً على خشبة الصليب وهو يلفظ الروح كان ولدك مع بعض الضباط يلعبون بالنرد . ثم امسك احدهم ذلك الرداء والتي قرعة عليه فكان من نصيب سيدي مرسيلوس

وفي مساء ذلك النهار اولم الوالي لجميع القواد والضباط وليمة فاخرة شربوا في اثنائها الخمور المتنوعة حتى ثملوا جميعهم . ثم طلب احد الضباط من سيدي ان يلبس ذلك الرداء

– يا له من طلب مزعج . هل لبسه ؟

نعم اضطر ان يلبسه . على انه كان هادىء البال في حالة طبيعية . ولو لم يفعل ذلك لكانت مسألة الصلب الرهيبة غابت عن فكره لكنه حين ارتدى ذلك الرداء تغيرت حالته تغيراً محسوساً

سأل غاليو . في اعتقادك انت ان الرداء كان مسحوراً

– اظن ان سيدي حدث له حادث ما حين لبسه . لذلك نزعه عنه حالاً واوعز اليّ ان اطرحه في النار على انني ابقيته معي

– اذا قد خالفت امره

– نعم لانه لما امرني ان احرقه لم يكن هو شخص سيدي نفسه . وكم من مرة كنت اخالف امره عندما يتبين لي ان من وراء طاعتي ما يضره . وانا الآن مطمئن البال بحيث انني لم احرقه . ولربما يكون عدم حرقه واسطة لشفائه

– كيف ؟ أ تظن ان الرداء يكون واسطة لرد عقل ابني اليه ؟

– لا اعلم تماماً يا مولاي وحاولت ان افكر في طريقة اتوصل بها الى ابرائه مما به والى الان لم اتوفق اليها . ثم انتصب واقفاً امام سيده وقال ان فكري يدلني يا مولاي على ان السفر الى خارج رومية يكون من ورائه فائدة مزدوجة لصحة جسمه وعقله حيث اكون واياه بعيدين عن غوغاء الاهل والاصدقاء . وهذا ما يسهل له البرء العاجل لانني اراه مرتبكاً ومخجولاً من حالته الحاضرة والذي يزيده ارتباكاً هو الخوف من مجيء ديانا ومشاهدتها اياه في تلك الحالة السيئة التي تجرح عواطفها

– انني افهم ذلك يا ديمتريوس واوافق على فكرك بسفرك واياه الى خارج رومية . ولكن الى اية ناحية من النواحي يجب السفر للوصول الى ضالتنا المنشودة

– ان العادة في رومية لرجل مثقف مثله ان يتوجه الى اثينا ليحضر الخطب والمحاضرات التي تُلقى هناك . ويتمرس بالفنون اليونانية فاذا ذهب سيدي الى هناك وهو مولع بفن الحفر فلا احد يسأله عن شيء خاصّ فضلاً عن ان هوائها الطلق يساعده على تحسين حالته ولا يُشاع عنه ما لا يوافقه او لا يوافق عائلته . وبناء على ذلك اذا شئت يا سيدي فانا اقنعه بالسفر الى اثينا حالاً لان حالته تعسة واخشى اذا اتت ديانا الا تجده حياً

– ألهذا الحدّ بلغ منه اليأس ؟ اتعني انه يفضل الانتحار على رؤيتها اياه بهذه الحالة التي وصفتها

وقبل ان يتم غاليو كلامه اخرج خنجراً من منطقته وناوله اياه وما وقع نظره عليه حتى علم انه يخصّ ابنه فسأله : كيف وصل اليك ؟

– كان يحاول ان ينتحر به ولكني اختطفته منه وخبأته وقد ظنّ بعدئذٍ انه اضاعه في السفينة .

فما كان من غاليو عند سماعه هذا الكلام الا ان مضى الى مكتبه واخرج منه

طلحية من الورق وكتب عليها ما كتب باحرف كبيرة وختمه بخاتمه ثم عاد الى ديمتريوس وقال له . توجه مع ولدي الى اثينا ومهد له كل الطرق الصحية التي تؤدي الى شفائه . ولما كان من المعلوم شرعاً ان العبد لا يُعهد اليه القيام بمهمة خطيرة كهذه لذلك اسلمك هذا الصك الذي يصرّح باعتاقي اياك من الرق والعبودية فانت حرٌ منذ الآن

فتفرس ديمتريوس في مضمونه ولم يصدّق انه اصبح كسيده حرًّا . يستطيع من الان فصاعداً ان يكلم لوسيا بكل حرية ومع هذا فانه اعاد الصك الى غاليو وقال له : انني اقدّر كرمك حق قدره يا سيدي وكنت اقبله منك بفرح . لو كنت قدمته لي في غير هذه الظروف لان الحرية تعني منح اشياء كثيرة عظيمة لاي شخص كان . ولكنني اظن اننا نخطئ . اذا غيّرنا الصلة التي بين سيدي وخادمه

— اتنبذ رغبتي في فرصة كهذه لمساعدة ابني ؟

— ان حريتي ستكون ناقصة وغير مفيدة لي اذا لم يشفَ مرسيلوس شفاء كاملًا

فاجابه غاليو حقًّا انك لشابٌ شجاع . ثم مشى الى مكتبه ووضع في صندوقه الحديدي الصك المذكور وبعد هنيهة عاد الى ديمتريوس وقال له : لقد وضعته في الصندوق امانة لك فيمكنك والحالة هذه ان تطلبه متى شئت . ثم مدَّ له يده ليصافحه فكان من ديمتريوس ان تجاهل ذلك ورفع للحال رمحه الى راسه كعادته محيياً ثم استأذن بالانصراف من الغرفة فانحنى امامه غاليو كما ينحني الى رفيق مساوٍ له

* * * *

اما مرسيپور ذلك الخادم الكورنثي الامين فقد ظلَّ مضطرب البال كثيراً من جهة مرسيلوس ولم يسنح له الوقت ليفهم من ديمتريوس ما كان جارياً فلما راه خارجاً من غرفة مكتبة سيده اقترب منه وحياه ثم قال له : انبئني ما هو الحادث الذي

اصاب سيدك ؟

اجابه ان لهذا الحادث شرحاً طويلاً سابلغك اياه في هذه الليلة فتعال الى غرفتي عند منتصف الليل فتسمع كل ما تريد معرفته

بعد ان استغرق سكان (الفلا) جميعهم في سبات عميق ولا سيما مرسيلوس خرج ديمتريوس الى غرفته المجاورة حيث لقي مرسيپور في الاجل المضروب وقص عليه ما جرى لسيده اولاً وآخراً

فقال له مرسيپور ارني الرداء

فلما رآه وامسكه بيديه سأله اتظن ان في هذا الرداء قوة سحرية خاصة ؟

— لست اعلم لاني اذا اجبتك بالايجاب تقول عني اني مختل الشعور والمختل لا يقدر ان يخدم مختلاً آخر . فالاوفق ان اقول انه لا يوجد فيه شيء الا ما يتوهمه الانسان . انني رأيت الرجل رأي العين فاذا هو شخص غير عادي وفي يقيني انه روحاني

— لم اكن انتظر ان اسمع منك ذلك يا ديمتريوس اتسمح لي ان البسه

— لا اظن ان صاحبه يهمه الامر اذا لبسته لانه لم يمانع من اخذي له وانت امين مثلي

— ما هذا الهذيان كيف عرفت انه لم يمانع ؟

ان هذا الرداء كما ذكرت لك له قوة سحرية غريبة لانني حينما المسهُ فقط تتغير احوالي فاذا كنت تعباً غدوت مرتاحاً وان كنت محتقراً فانه يقويني ويعزز شاني واذا ما تحررت من عبوديتي . فانه يساعدني على احتمالها . والسبب في ذلك كله هو انني حينما امسه بيدي اذكر قوته وشجاعته . فجرّب والبسهُ يا مرسيپور اذا شئت .

وتناوله مرسيپور من يده ولبسه وما لبث ان قال يا للغرابة كم هو دافيء . ثم عاد فقال ربما اتخيل هذا الدفء . ثم استطرد قائلاً قد اخبرتني انه كان يهمه خير الناس ولا شك ان ثوبه . . . ثم أرتج عليه . اخيراً حدّق في وجه ديمتريوس وابتسم

فقال له ديمتريوس انني لست مختلًا كما اظهر لك الان ؟

ثم وجّه مرسيبور اليه السوأل الآتي بصوت اجشّ : ما هذا الذي اشعر به ؟

– ان ما تشعر به هو هناك

فقال مرسيبور أجلْ هو السلام وعقب ديمتريوس على كلامه فقال : والثقة ايضاً فعلى الانسان ان لا يهتم لان كل شيء ينتهي حسناً

الفصل الثامن

عند غروب الشمس في اليوم الاخير من شهر (يوليو) الذي سماه يوليوس قيصر باسمه ابحر مرسيلوس مصحوباً بخادمه ديمتريوس الى اثينا في السفينة « كليتيا » التي لم تكن تقل الناس فقط بل عدداً كبيراً من الحيوانات كالغنم والعجول والطيور على اشكالها علاوةً على انواع المآكل والامتعة . وكان ركابها يبتاعون منها ما يحتاجونه من المآكل لاعداد طعامهم بانفسهم وكان يقيم في كل غرفة منها نحو تسعة اشخاص . فاضطر غاليو بحكم الضرورة ان يرسل ابنه فيها لكونه لم يجد غيرها وقتئذٍ في مرسى السفن فضلاً عن انها كانت على اهبة السفر في تلك الليلة . فلو ان مرسيلوس كان ذا عقلية كاملة لتذمر جدَّ التذمر من حالة تلك السفينة وسيرها البطيء . اما ديمتريوس فلما شاهد قبة المتحف الاثيني تحركت فيه عاطفة الحنين الى وطنه

على انه من حسنات هذه السفينة القليلة انها كانت تقف في كل ميناء من الموانى التي تمرّ عليها نحواً من ثلاثة ايام تفرغ في اثنائها حمولتها وتحمل غيرها فيرتاح اذ ذاك الركاب ويتفرجون على تلك النواحي . وكان غاليو قد ارسل مع ديمتريوس كتباً عديدة ليتسلى ولده بقراءتها في غضون السفر ولكنه لم يقرأ منها شيئاً لانه فقد لذة الحياة وقد خشي ديمتريوس عاقبة ذلك الجمود الذي كان مستحوذاً عليه وهو يزداد يوماً فيوماً الا ان مرسيلوس كان حين يصفو الجو من الغيوم وتنتشر اشعة الشمس . يبادر الى سطح السفينة حيث يسرح انظاره في مياه البحر المتلالئة ثم يجلس واضعاً مرفقيه على ركبتيه ومسنداً ذقنه بيديه يتأمل ويفكر من دون ان

ينطق بكلمة ويجلس ديمتريوس بالقرب منه يقرأ بصوت عالٍ لعلّه يتمكن من تسلية افكار سيده ولو قليلاً فكان مرسيلوس يسمع بدون ان يبدو عليه شيء من ادلة الادراك على ان ديمتريوس كان يستفيد من تلك القراءة

وقد اتفق ذات مرة ان قرأ عن لوكريتوس وأعجب بحكمته وآرائه فسال سيده : هل قرأت يا مولاي شيئاً عن الحكيم لوكريتوس ؟ اجابه نعم ولكن لم اعبأ به . فقال له ديمتريوس ان لوكريتوس يقول : ان الذي يجعل الانسان تعساً في هذه الحياة الدنيا هو الخوف من الموت وانه هو بنفسه يسعى ويشتغل لاجل ازالة هذا الخوف

— كيف يعمل لازالته ؟

— افتراضه انه لا توجد حياة في المستقبل

— ان وطأة الخوف من الموت تخف عند بعض البشر علماً منهم انه لن يصيبهم اكثر مما اصابهم في اثناء حياتهم . ولكن البعض الآخر منهم يطلبون الموت لانفسهم ولا يخشونه . اما انا فلا اهابه مطلقاً . فهل للوكريتوس ما يقوله لمن يخشى الحياة ؟

فاشمأزَّ ديمتريوس من فتح باب هذا الموضوع . وحاول ان يجتنبه ولكن انى له ذلك الان . فقال ان لوكريتوس يصرّح بقوله : ان الحيـاة صعبة غير ان انتقال الانسان من حضيض الهمجية الى ذروة المدنية يخفف من صعوبتها وتكاليفها

— هل انتقل لوكريتوس من الهمجية الى المدنية ؟ او هل انتقلنا نحن كذلك فانك تعلم ما اذا كان هذا حقيقياً لانك كنت انت هناك

— نعم وكان الامر محزناً للغاية وانت تضع اللوم في ذلك على نفسك

— نعم لانه كان باستطاعتي ان اطلق حرية ذلك الجليلي لانني كان لديَّ عدد كافٍ من جند منوع ليستعمل قوّته ويفرّق تلك الجموع

فقال ديمتريوس : ربما كان بيلاطس يسوقك الى المجلس التأديبي حيث تخسر نفسك

– قد كلفني ذلك ما لا تتحمله نفسي . فكان الاجدر بي ان اخسرها بشرف

– يجب ان تحاول نسيان ذلك الان وتشغل افكارك بالعمل في اثينا الا تنتظر بفرح الوقت الذي فيه تعود الى دروسك ؟

فلم يجب قط بل ادار ظهره واخذ يتفرّس في البحر ثانيةً

وفي وقت آخر اذ اراد ديمتريوس ان يشغل سيده بالحديث قال له : ان لوكريتوس يصرّح ايضاً بقوله ان سبب تعاسة الجنس البشري ناتج عن اعتقاده ان الاشغال البشرية تختص بالالهة

– ولكن لوكريتوس احمق بلا شك ما دام يعتقد بوجود آلهة فانه اخذ يفتكر بذلك ملياً حتى فقد عقله وها انا افعل الشيء نفسه

* * * *

لو لم يكن عقل مرسيلوس مضطرباً لكان سُرَّ كثيراً بالحفاوة العظيمة التي استقبله بها مضيفه الاثيني وكان ذلك منتظراً لان مرقس لوقا غاليو لما جاء اثينا وهو في سن العشرين ليتابع دروسه نزل ضيفاً في نزل بولس الخاص الذي كان لخمسة اجيال خلت يستقبل الضيوف ويعاملهم احسن معاملة ولا سيما عندما يَعلم هويتهم فانه يبذل جهده لمرضاتهم . لقد كان يؤمُّ اثينا كثير من الطلبة وجماعة الغرباء . وكان فيها اكثر من مئة نزل غير ان ستة منها كانت مشهورة بحسن المعاملة ونزول الطبقة الراقية فيها . واما الباقية فكانت فنادق لايواء جميع الطبقات من اشقياء ولصوص وما شاكل

والظاهر ان غاليو الصغير والد مرسيلوس كان قد ترك اثراً حسناً في نفس جرجس يوبولس لانه بعد ان غادر المنزل اخذ قطعة من النقود وكسرها نصفين فاعطى

مرقس النصف الواحد اما النصف الآخر فقد علق به تذكرة ووضعه في مكان امين واوصى البواب قائلاً : كل مَن يقدّم لك نصف الدرهم الآخر فأهْلْ به تأهيلاً حسناً ولكن حذار من تضييعه

فلما جاء مرسيلوس وناول البواب نصف الدرهم المعلقة به التذكرة تبدلت حالة معاملته فرحب به ترحيباً حسناً وانحنى امامه احتراماً وتوجه الى سيده واخبره بشأنه فاسرع اليه وحياه اجمل تحية . عندئذٍ عرّفه مرسيلوس بذاته انه ابن مرقس غاليو

فسأله صاحب النزل كيف تريد ان ادعوك ؟

– انني قاضٍ واسمي مرسيلوس

– ان والدك ترك لدينا ذكرى حسنة ارجو ان يكون معافىً

– اشكرك فان صحته جيدة وهو يبعث بتحياته الى اهل بيتك ومع ان المدة التي ترك فيها اثينا مديدة فانه يهدي لوالدك تحياته ايضاً

فقال دايون : ليت والدي باقٍ في قيد الحياة . فقد توفي منذ عشر سنوات . على اني ارحب بك باسمه وانا أدعى دايون . ان نزلي لك فتلطف وادخل الى البيت . يبدو لي انك تعب . ثم التفت الى ديمتريوس وقال له سيساعدك الخادم بنقل الامتعة ويريك غرفتك

فقال مرسيلوس : ان خادمي سيقيم في الغرفة التي اقيم فيها انا

– ولكن هذا بخلاف العادة المرعية عندنا

– ولكنها مرعية عندي لانني صادفت مؤخراً اخطاراً ومصاعب جمة ولا ازال اشعر بسببها بتوعك زائد في صحتي ولهذا لا اريد ان اكون وحدي بل ارغب في ان يكون ديمتريوس مقيماً معي

فبعد ان فكر دايون قليلاً اجابه : ليكن لك ما تشاء ثم دعاه الى البيت وبينما كانا صاعدين السلّم قال له انك وحدك المسؤول عن سلوك خادمك

– لو كان هذا العبد الكورنثي مطلق الحرية لتمكن من معاشرة ارقى الناس

لانه على غاية من التثقيف والتهذيب والشجاعة الكافية

– سأذهب الان وآتيك بافراد عائلتي لكي يصير التعارف بينكم وبينهم اما الان فيمكنك ان تأخذ قسطاً من الراحة لان التعب بادٍ على هيئتك . كم تودّ البقاء هنا ؟

– ربما ابقى ثلاثة او اربعة اشهر لانني محتاج الى الهدوء والراحة ويكفيني غرفتان للمنامة ودار وغرفة للدرس والمطالعة والتلهي بفن النقش

– مرحباً بك سأعدّ لك ما طلبت وانه ليمكنك ان تسرّح النظر في الحديقة الملأى باجمل الورود من غرفتك التي تطلّ عليها . فلما خرج دايون دخل ديمتريوس وسأله عما اذا كان يريد منه شيئاً فـأوعز اليه ان ينتظر قليلاً . ثم اقبل دايون وبصحبته امرأته فيب التي رحّبت بالضيف الشريف احسن ترحيب وبعدئذٍ تمّ التعارف بين اينو شقيقة دايون ومرسيلوس . التي قالت انها رأت مَن يشبهُ شبهاً عظيماً حينما كانت في رومية

اما ديمتريوس فلم يهتم به احد الا اينو التي التفتت نحوه وسألته أأنت يوناني ؟

اجابها باحترام نعم عند ظنكِ

– من اين ؟ – من كورنثوس

– هل اتيت الى اثينا قبلاً ؟

– مرة واحدة فقط .

– هل تقرأ – احياناً

فابتسمت اينو ولكنها اذ رأت ان اخاها غير راضٍ عن هذا الحديث كفت عن الكلام . وفيما هم كذلك دخلت صبية طويلة القامة وجميلة الصورة معاً . فعرّفتها والدتها الى مرسيلوس بانه ابن مرقس غاليو الذي سمعت والدها يتكلم بشأنه كثيراً فابتسمت له ثيودوسيا ثم نظرت الى ديمتريوس وانتظرت ان يعرفها احد به فقال مرسيلوس الذي لم يشأ ان يخفض من قدره هذا ديمتريوس الامين

لكنه ندم اخيراً لانه لم يعرفه كخادم له . فاقتربت منه تيودوسيا وابتسمت له وهو بدوره اطرق احتراماً امامها . اخيراً مدت له يدها لمصافحته فتجاهل رؤيتها فقال لها والدها انه خادم

نظرت تيودوسيا اليه فرأته يحدجها بطرفه معجباً بها . فقالت اتأسف بل يحزنني وجود مثل هذه التفريقات . وكانت مرتبكة بكلامها فقال لها ديمتريوس لا بأس بذلك فلا تهتمي

ثم قال دايون لمرسيلوس ساريك الان الجناح الذي ستشغله خفياً هذا السيدات وتبع مضيفهُ وسار ديمتريوس وراءهما . فنظرت اليه تيودوسيا وتأوهت فقالت لها عمتها : لا يمكنكِ ان تعرفيه خادماً البتة ليس بالنظر فقط الى مظهره الخارجي بل لان لباسه يختلف اختلافاً بيناً عن لباس سائر الخدم فضلاً عن ان العبيد لا يجلسون في مجلس السادة كما لا يخفى

قالت فيب ليت هذا الامر لم يكن فعليكِ يا تيودوسيا ان تجانبيه من الان فصاعداً . فنظرت اليها عمتها وابتسمت

* * * *

وبعد مضي اسبوع على اقامتها في اثينا استولى على ديمتريوس اليأس من عدم تحسن حالة سيده العقلية لانه ظنَّ في اول الأمر عقيب وصول مرسيلوس الى النزل واحتفاء آل يوبولس به وسروره بتلك الحفاوة والاكرام وشكره لهم بان تغيير المناخ قد افاده كثيراً وخصوصاً لوجوده في محيط راقٍ ممتاز واقامته في غرفة موجهة لنور الشمس في الطبقة السفلى تشرف على حديقة غناء

وكانت غرفة المطالعة التي يمارس فيها الحفر ملائمة له كل الملائمة ومع هذا كلهِ فانه امسى في حالة لا تطاق من شدة وطأة السوداء على عقله ولما اشار عليه ديمتريوس بزيارة القاعات التي تعرض فيها الصور ابى ذلك حتى انه ابى ايضاً ان يزور آل

يوبولس الذين زاروه عدة مرات

في صبيحة اليوم الثامن عزم ديمتريوس ان ياتي امراً جديداً وهو اجراء بعض التجارب في الطين فالتمس من مرسيلوس ان يأذن له بذلك

– احضر الطين اذا شئت ولكنني اعلم ان هذه التجارب ستزعجك في الوقت نفسه وضع ديمتريوس مائدة الرسم في وسط الغرفة واجتهد في ان يصنع من ذلك الطين تمثالاً صغيراً · وحين ذاك دخل مرسيلوس وجلس في زاوية من تلك الغرفة واخذ يلاحظ عمل خادمه فاستبشر هذا خيراً . ولما اكمل نصف التمثال المشار اليه اقترب منه مرسيلوس وقال له ساريك كيف تشتغل وتابع كلامه قائلاً : ان الطين الذي بين يديك قذر فاحضر لي قليلاً من الماء ثم بدأ في العمل وخادمه يلاحظه . وفي مساء ذلك النهار تناول سيده عشاءه بقابلية حسنة وذهب باكراً الى فراشه

وفي صباح اليوم الثاني تناول فطوره وتوجه للحال الى غرفة الدرس فسرَّ ديمتريوس لما رآه منه وتركه وحده لئلا يزعجه ولكنه شاهده بعد هنيهة يعود الى الرواق والعرق البارد يتصبب من جبينه ويداه ترتجفان فساءته حالته هذه وقد قرَّ رايه ان يقوم بتجربة جديدة كان قد تردد مراراً في اجرائها

ولما ثاب الى مرسيلوس رشدهُ قفل راجعاً الى غرفته . اما ديمتريوس فانه نزل الى المطبخ حيث سأل الوكيل كايكون ما اذا كان يعرف حائكاً ماهراً لان لديه رداءً لسيده يريد رتقه · فدلهُ الوكيل على رجل يدعى بنيامين يشغل محلاً بجوار المسرح (التياترو) ثم قال له : سَلْ عن محله مَنْ تراه في طريقك فيهديك اليه

– ان اسم بنيامين يدل عليه ان يهودي

– نعم هو يهودي ولكنه رجل فاضل مجتهد في عمله · وما من رجل يهودي لا يريد ان يكون غنياً . وقد سمعت بعضهم يقول : اذا كان ظاهر هيئتك لا يرضيه ، فانه لا يعمل لك عملاً ابداً

– ربما يتجنب الكلام مع عبد

– هذا لا يهمهُ ألم يوسف ابناء ملته في سلاسل العبودية ؟

* * * *

جلس مرسيلوس في اليوم الثاني في كرسيه واخذ يحدّق بنظره الى الحديقة بدون ان يبدي حركة . وكان ديمتريوس على مقربة منه يشتغل بالطين . وقد استعلم مراراً من سيده عن كيفية صنع التماثيل فلم يجبه . ولما رأى ان حالة سيده اصبحت سيئة للغاية حاول ان يقوم بآخر تجربة خطرت على باله ولكنه ما لبث ان أجل ذلك الى اوقات متفاوتة اخيراً قرّر اجراءهـا فدخل الى غرفته بقلبٍ واجف ويدين مرتعشتين واخرج الرداء العزيز من الكيس الذي كان قد اودعه فيه . ولم تكن قد تيسرت له الفرصة لرؤيته منذ كان في رومية ولما لمسه ووضعه على ركبتيه شعر بالراحة التي شعر بها في اورشليم وهي راحة خاصة للروح والجسد لا يمازجها كسل او تراخٍ . بل انها تضبط النفس وتزيدها قوة ومناعة . على ان ديمتريوس لم يكن من الذين يؤمنون بالاوهام والخرافـات فكان يحتقر كل من يعتقد ان للاشياء الجامدة قوة . وينعته بالاحمق الابله الذي يجعل الوهم يسطو على عقله . ومع هذا فانه كان يعرف تمام المعرفة ان اعصابه تهدأ عند ما يضع يده على ذلك الرداء.

ومنذ اول تجربة اجراها رأى ان هذا العمل دقيق وقريب للعقل لان الرجل الذي لبس هذا الرداء كان مثالاً للشجاعة بل ان الشجاعة مجسمة فيه . وكان ديمتريوس قد رأى يسوع هادئ الروح عند محاكمته وله ثقة تامة في نفسه بينما العالم باسره كان مضاداً له والموت يواجههُ وليس هنـاك مَن يدافع عنه . أليس من الطبيعي ان يصبح لباسه عنوان البأس والاقدام

كان ديمتريوس في إبان فراغهِ يخال الحدث الذي يصيبه عند ما يلمس ذلك الرداء فاتضح له اخيراً انه شارة لقوة ادبية كما كان خاتم امه علامة حبها وحنوها نحوهُ .

والان اذ هدأت ثورة اعصابه تحقق لديه انه مصيب في تحليله وأن هناك قدرة عظيمة لا تقاوم ملتصقة بالرداء المذكور فطواه وحمله على ذراعه ومشى بخطى مكينة الى حجرة مرسيلوس المفتوح بابها . فلما رآه سيده داخلاً جحظت عيناهُ رهبةً وبدت امارات الذعر على وجههِ ورجع القهقرى وهو يهتز في كرسيه مرتاعاً من الشي الذي سلبه راحته

فقال له ديمتريوس قد سمعت برجل ماهر في الحياكة فهل تأذن لي ان اسلم الرداء اليه لكي يرتقهُ ؟

فصرخ مرسيلوس بصوت مرتفع : لقد امرتك ان تمزقه . خذه حالاً من هنا واحرقه وادفن رماده . ثم انتصب قائماً وبالكاد حملته ركبتاه الى زاوية الرواق حيث تمسك باحد العواميد وعلا صراخه ثانية بقوله : كنت اظن انك تدرك اكثر من ذلك لا شك انك تعلم علم اليقين يا ديمتريوس سبب مصيبتي فهل تريد ان تزيد الطين بلة وتأتي فتذكرني بهذا الشيء الساحر المزعج . لقد المتني كثيراً بعصيانك اوامري مع انني عاملتك معاملة صديق لا معاملة خادم : ها انني سابيعك واخلص منك وكان الغضب قد اخذ منه كل مأخذ فصاح بهِ ثالثة دعني وشأني لا اقدر احتمل اكثر مما احتملت : اغرب يا هذا من امام وجهي

فتسلل ديمتريوس الى غرفته بهدوء ولم يفهْ بكلمة لانه تيقن ان تجربته التي قام بها لم تسكن فورة غضبه ثم قال في سره لا ينبغي لي ان انفر منه لانه لا يقدم على عمل ما نطق به واعاد الرداء الى الكيس وتوجه الى السوق فلمح في الطريق ثيودوسيا في الارجوحة ولما وقع نظرها عليه اومأت اليه ان يقترب منها ففعل ثم سألته : لماذا يضنّ علينا سيدك بمشاهدته ؟ احب ان افهم السبب ؟

اجاب ان صحة سيدي ليست على ما يرام في هذه الايام وايضاً عنده ما يشغله عن الزيارات

قالت : اني اراك مهتماً كثيراً بشأنه

ولما رأى ديمتريوس ان الابنة قوية الشكيمة ولن تتركه يتابع طريقه ما لم يخبرها بحقيقة الواقع . قال انني مهتم اكثر مما تتصورين فتأثرت ثيودوسيا وقالت هل نستطيع مساعدته ؟

اجابها ديمتريوس واليأس ملء قلبه : لا

قالت لقد ظهر لي في تلك الليلة ان مرسيلوس يحاول جهده لان يتهرّب منا او لانه لا يرغب في محادثتنا . واظنك انت لاحظت ذلك منه ليس لانه لا يحبنا ولكنه اراد ان ينجو منا فعسى ألا يكون مختبئاً من وجه العدالة لان هذا المكان ليس للمخبئة

واذ اراد ديمتريوس ان ينفي الشك عن فكر ثيودوسيا قرّر ان يخبرها الحقيقة بتمامها فقال لها انها أُحدوثة طويلة ولكن لا يليق ادبياً ان تُرى ابنة يوبولس تحادث خادماً . أما لاحظتِ ان والدكِ لا يزال مستاء بحيث تلطفتِ وعاملتني بالحسنى

– لا اظن احداً يراقبنا الان وبعد ان التفتت الى جهة البيت اومأت اليه ان يسبقها الى حديقة ملاصقة لهيكل قديم حيث تستطيع ان تتحادث واياه بملء الحرية. فعند مسيره الى هناك لم يضطر الى انتظارها طويلاً لانها ما عتمت ان جاءت اليه . ثم حانت منها التفاتة فرأت احد الكهنة فادّعت بانها كانت على سابق موعد لمقابلة اخ ٍ لها . ولما غادر الكاهن المكان وخلا لهما الجوّ قالت له اصدقني الخبر ولا تنكر عليّ شيئاً : ممن يا ترى سيدك القاضي خائف ؟

فرأى ان يبتدي بالقصة من آخرها فقال : ان مرسيلوس خائف من رداء رمادي محوك حياكة يدوية وملوّث بالدم كان يلبسه رجلٌ بريء وقد أمر هو بصلبه على خشبة مع علمهِ حق العلم انه بريء الساحة ثم شرع يسرد لها الرواية كلها مبتدئاً من منوع والسفر الى اورشليم وكانت ثيودوسيا تقاطعه مراراً باسئلتها . اخيراً وجهت اليه السؤال الآتي :

ما هي الادلة التي اوضحت ان يسوع هذا كان رجلاً عظيماً مع انك انت قلت انه كان وحيداً ويائساً حين اراد الشعب ان يقيمه ملكاً عليهم؟ ترى ماذا فعل حتى دفع الكثيرين الى الاعجاب به ؟

اجابها ديمتريوس حقاً لست اعلم . بل يصعب عليَّ ان اقول شيئاً بهذا الصدد : انا اذا أتيح لك رؤيته فتشعرين انه كان حزيناً لاجل العالم قاطبةً لانهم كانوا كاولاد لا ملجأ لهم يطلبون شيئاً ولكنهم لا يفهمون ما يطلبون . وكأن هذا الجليلي قد جاء من مكان سحيق حيث الناس امناء واصدقاء بعضهم لبعض وعائشين في بحبوحة السلام واسواقهم نظيفة خالية من المتسولين واللصوص والمحتالين والفجار وحيث لا محاكم ولا سجون ولا حروب ولا جنود ولا غني ولا فقير

– انت تعلم انه لا يوجد مكان كهذا

– لقد سألوه عند المحاكمة عما اذا كان ملكاً فاجابهم ان له مملكة ولكن ليست من هذا العالم

فتفرّست فيه ثيودوسيا وقالت لا تذكر امام احد انك تصدّق كلاماً كهذا

– انني لا اصدّق ولكنني لست اعلم مـا استطيع تصديقه عن يسوع هذا فانني لم ارَ طوال حياتي انساناً نظيره

– كنى كنت اخشى ان تقول لي انه احد الالهة

– يظهر لي انك لا تعتقدين بالالهة

– لا . ولكن تمم روايتك

وبعد ان اتمَّ ديمتريوس روايته قال : كأنه يخاطب نفسه كم تأثرت حينما ارخى الظلام سدوله على اورشليم في رائعة النهار فوجمت ثيودوسيا وازدادت نبضات قلبها وترقرقت الدموع في عيونها

ثم استطرد قائلاً ومع هذا فلم يدافع عن نفسه . وقد اقترعوا على ردائه فكان من نصيب سيدي . ثم ادب الوالي مأدبة فخمة عشية ذلك النهار وقد أجبر

على لبسه .

وعند عودتهما معاً الى البيت قالت ثيودوسيا : لو لم تكن المسألة ذات اهمية ما كانت اثرت كل هذا التأثير على عقله

— لقد بذلت جهدي في مساعدته ولكن يغلب على ظني انه لم يبقَ له ثقة بي بتاتاً

— هو يؤكد ان الرداء مسحور وانت لا تظن كذلك

— انني سأقص عليك ما اذا سمعته تعتبرينه من سخيف الكلام ولكنه حقيقة اشعر بها فاعلمي انني لما كنت صغير السن كنت اذا عثرت بشيء وسقطت على الارض وجرحت اركض نحو والدتي باكياً فكانت للحال تضمني الى صدرها بدون ان تسألني شيئاً او توبخني على عدم انتباهي الى ان اكف عن البكاء ليس لعدم شعوري حينئذٍ بألم السقوط بل لاحتمالي اياه بمزيد الصبر لان والدتي قد شعرت معي بذلك . وهكذا حالة العبيد فانهم يشعرون دائماً بألم الوحدة الا انهم حينما تتألم نفوسهم يذهبون الى مَن يجدون لديهم تعزية لقلوبهم كما يجد الطفل تعزيته بين ذراعي والدته الحنونة . وهذا الرداء ليس لي مسحوراً ولكنه ... على انها لم تدعه يكمل عبارتهُ بل قالت له : لقد فهمت ما تعني بكلامك

وعندئذٍ افترقا وذهب كلٌ منهما في طريقه . اما ديمتريوس فقد تجددت عواطفهُ حين اتى على قصة يسوع ووجد نفسه كأنه في غير هذا العالم غير ان ضجة السوق نبهته من غفلته فعلم ان هذه الرواية أينما ذكرت تجعل من انسانين غريبين صديقين مخلصين وتوثق عرى الصداقة بينهما كما جرى بين ثيودوسيا وديمتريوس

* * * *

ولقد تبين جلياً لمرسيلوس ان حالته الحاضرة على هذا المنوال لا تطاق ولم يأمل كما أمل والده برءهُ من علته العقلية بمجيئه الى اثينا ولزومه الهدوء والسكينة

واراحة باله من امر الضيوف ومقابلتهم لانه جاء بحمله الثقيل معه ولا يمكن مع طول الزمن ان يُشفى من هذه العلة الاليمة وذلك اذا تابع دروسهُ وشغل افكاره باشغال يدوية متنوعة ومسلية معاً . اما وقد طال مرضه وعيل صبره فانه صمم النية على الانتحار

لا ريب في ان عائلته ستحزن كثيراً عندما تتلقى اذاعة منعاه ولكن الموت عنده خيرٌ من العار . ثم اخذ يراجع في ذهنه كيفية وداعه الاخير لعائلته المذكورة وكيف دخل غرفة مكتبة والده ورأى هناك في الحديقة لوسيا تقرأ ووالدته نائمة في غرفتها ولم يرد ايقاظها وكذلك شاهد ديانا التي ضمها الى صدره وقبلها قبلة الوداع

ثم ابتدأ ينحي باللائمة على ديمتريوس ويقول : لا شك ان ديمتريوس قد خدعه باخفاء الخنجر الفضي الذي ابتاعه من كورفو والذي اشاع وقتئذٍ انه فُقد في السفينة فستريس . وقد اوهمه انه صدّق كلامه لذلك اضطر ان يشتري غيره من كورفو باقل قيمة . وادّعى ايضاً باختفاء الخنجر الجديد على انه اخفى كليهما في كيسه ضمن غرفته

دخل مرسيلوس الى الغرفة ولما شاهد الكيس فوق سرير ديمتريوس اخذت يداه ترتجفان رهبةً من آلة الموت لانه رأى الرداء ملقى على ذلك الكيس كما وضعه ديمتريوس فقال مخاطباً نفسه انه اخفى الخنجرين تحت الرداء لكي لا اتمكن من الوصول اليهما . ولكنني سأزيحه عنهما بيديّ ولا يهمني ما يحدث بعدها لي من الحوادث

ثم اقترب بعزم ثابت من ذلك السرير ومدّ يده المرتجفة وكان العرق البارد يتصبب من جبهته وتخاذلت ركبتاه حتى استطاع بالكد الوقوف على قدميه وللحال قبض على الرداء كأنه يقبض على شيء حيّ واذ ذاك وقف مرسيلوس برهةً مشدوهاً واصابعه غارقة في وسط الرداء الممقوت ثم جلس على السرير وجذبهُ نحوه وتفرس فيه بدون اعمال فكره فيه ثم عرضهُ لجهة النور واماله بتؤدة على ذراعه العريانة ولم يستطع ان يعرب عن شعوره الخاص . عندئذٍ حدث له شيء غريب

فهدأت بعده اعصابه كأنه قد استفاق من حلم مزعج فخرج بالرداء الى الرواق حيث جلس على كرسي واخذ يلمسه وشعر اذ ذاك بسرور وارتياح لا مزيد عليهما وتساقطت الدموع الحارة من عينيه ثم اعاد الرداء الى غرفة ديمتريوس ووضعه حيث كان اولاً . وقد كاد يطير فرحاً من تحسن حالته فنزل الى الحديقة . وهناك وجده ديمتريوس الذي كان يبحث عنه في غرفته الخاصة وفي غرفة الدرس والرواق حتى اوجس خيفة عليه . ولما رآه يتنزه في الحديقة قال له : انت احسن اليوم يا سيدي

– اجاب مبتسماً لقد غبت عنك مدة طويلة يا ديمتريوس

– نعم يا سيدي ولكنك لا تقدر ان تقدّر عظم سروري برجوعك . ماذا تريد مني ان اعمل ؟

– ألم تقل لي انه يوجد حائك بارع جداً يمكنه ان يرتق الرداء ؟

فابرقت اسرة ديمتريوس وقال بلى يا سيدي

– اذاً يجب ان نجدّ بعد العشاء لنجد ذلك الحائك واذ قال هذا تقدم نحو الرواق وديمتريوس يتبعه بقلب يطفح حبوراً

– اسمح لي يا سيدي ان اسألك هل لمسته

– اجاب نعم وابتسم

– هذا الذي تمنيته

– لماذا ؟ هل تشعر بشعور غريب عندما تلمسه – نعم يا سيدي

– اما انا فلا اقدر ان اعبّر عن ذلك الشعور الذي تولاني عند لمسه لان فيه حرارة غريبة مختصة به . ألا ترى انه من الحماقة ان نقول هذا القول

– بلى يا سيدي فقد رأيته يموت وكان شجاعاً . وعندما انظر الى الرداء اريد ان اتصرف تصرف الشجاع

– هذا وحده لا يفسر معناه لان فيه اكثر مما ذكرت وانت تعرف ذلك

– نعم يا سيدي

الفصل التاسع

ولما استيقظ مرسيلوس باكراً سرّ سروراً عظيماً اذ وجد نفسه مرتاحاً من ذلك الحمل الثقيل الذي لازمه مدة من الزمن وشعر بتحسن مستمرّ في قواه الجسدية والعقلية وقد فَقه لاول مرة معنى الحرية التامة وتمنّى لو يتاح له رؤية تلك الروح العظيمة التي منحته هذه النعمة ليشكر لها جودها واحسانها . ثم وقف قليلاً وانعم النظر من خلال باب الغرفة المختصة بديمتريوس فرآه لا يزال نائماً ففرح بذلك وقال انه يستحق الراحة التامة والشكر والاعتذار منه ايضاً .

منذ كان مرسيلوس في الخامسة عشرة من عمره وشفي من الحمى التي ألمّت به في ذلك الحين وسرّ كثيراً حينئذٍ . شعر اليوم بعد شفائه من علته العقلية بغبطة وسرور لا مزيد عليهما . وقد اصغى بكليته الى تغريد الطيور وخرير الميـاه في حديقته والى كل ما يقرّ الناظر ويسرّ الخاطر آنئذٍ من فصل الشتاء الذي هبطت امطاره بغزارة فروت الارض ونظفت ما كان عليها من اقذار فتنشق مرسيلوس رائحة الزهور العطرة وشاهد المياه تتساقط كاللآلئ من اوراق الاشجار النظيفة وقال مناجياً نفسه اظن ان استروفانس في صباح جميل مثل هذا انشد قصيدتهُ الشهيرة في طيور اثينا

لم يقدر مرسيلوس ان يعتبر ما حصل له بالامس من رد الفعل امراً غامضاً كل الغموض فأخذ يحلّ ذلك بقدر استطاعته فقال ان هذا الرداء قد دلّ اولاً على العمل الفظيع المخزي الذي جرى في اورشليم لان صاحبه كان بريئاً من كل جرم وقد حُوكم بدون سبب وحكم عليه بالصلب والموت زوراً وبهتاناً وقد احتمل آلامه بصبرٍ وشجاعة فائقين لانه عالم حق العلم ما سيواجهه ويلاقيه بعدئذٍ .

وبعد هذا كله فان مرسيلوس في تلك الليلة التي أقيمت فيهـا المأدبة كان في وعيه وقد تصرف ذلك التصرف الوحشي امـام شجاعة يسوع معتبراً اياه رجلاً كسائر الرجال العاديين وعلاوة على هذا فانه لم يكفه انه ساعد في صلبه بل رضي ان يلبس الرداء لكي يرضي فريقاً من السكارى . فلا عجب اذا كانت ذكرى هذه الحادثة الفظيعة المؤلمة افقدته رشده وآلمته . ولما كان الرداء أداة لتعذيبه كان من الطبيعي ان يبغضه بغضاً جنونياً . ولكن حينما اضطرّ امس ان يلمسه في ساعة يأس شديدة فانه تعافى من علته العقلية وثاب اليه رشده . فهل كان ما اصابه عرضاً يا تُرى ؟ ام كان في الرداء قوة سحرية ؟ فاذا اقرّ بالامر الاول فقد ذهب به الوهم كل مذهب . واذا كان الثاني وهو عدم اعتقاده بشيء من هذا فقد عُوقب كل هذه المدة بسبب الرداء المشار اليه الى ان جاء الوقت الذي نجا فيه من العقوبة عند لمسه ثانية لذلك سيقدّره قدره ويحترمه

واذ كان يتأمل هذه التأملات اقبل ديمتريوس واعتذر اليه عن تأخره في النوم فاجابه مرسيلوس انني سررت كثيراً لانك استطعت النوم بعد ان رأيت سوء حالتي وما اسمعتك اياه من قوارص الكلام في غضون تألمي وقد احتملت ذلك مني بصبر زائد ولهذا آسف لما بدر مني ولا سيما نهار امس من سوء معاملتي لك

– ارجو منك يا سيدي ان لا تذكر هذا الشيء ابداً لانني مسرور جداً بشفائك

– علينـا ان نبذل جهدنا لمقابلة ذلك الحائك القدير لنرى هل يستطيع رتق الرداء

– نعم يا سيدي . هل أُعد لك فطورك ؟

– انتظر دقيقة يا ديمتريوس وأبدِ لي رأيك الخـاصّ اتظن ان هذا الرداء مسحور ؟

– لا اعلم . انه لشيء خفي . وقد ظننت انك تكون قد وقفت على سره . فهل لك ان تخبرني الى اين وصلت في اعمال فكرك لكشفه ؟ فتنهد مرسيلوس

وهزّ رأسه وقال كلما فكرت فيه زدت تحيّراً

– لا بأس يا مولاي ولكننا غير مضطرين ان ندرك كنههُ لانه يوجد امور كثيرة يخفى علينا ادراكها وربما هذا من جملتها

* * * *

كان حانوت بنيامين الحائك اليهودي تجاه مدخل المسرح (دايونيسوس) وقد نُقش اسمه على واجهة بابه ولكن هيئة الحانوت نفسه لا تدل على ان صاحبه من اقدم الحاكة وامهرهم في اثينا . اما الغرفة التي كان يشغلها فيه فكانت ذات قسمين فالاول منها يحتوي على نولين فقط ودولاب للغزل واشياء اخرى من ادوات الحياكة وكذلك على سلل ملآنة من الشرانق ورزم كبيرة من القطن واكياس من الصوف . اما القسم الآخر فيتضمن مائدة واسعة للعمل وقد جلس بنيامين ازاءها يقوم بنسيج دقيق جداً على كم ثوب من الحرير . على انه كان نحيل القامة منحني الظهر ورأسه اكبر من جسمه وصدره مغطى بلحيتهِ البيضاء الطويلة . وكان وراءه رفٌ عليه ادراج كان قد استعملها كثيراً

ولما اهتدى مرسيلوس وخادمه الى حانوت بنيامين الحائك الشهير وجداه مكباً على شغله لا يلتفت الى شيء آخر . وعند فراغه من عمله اقتربا منه فقال له مرسيلوس: ان هذا الرداء يحتاج الى رتق فهل تريد ان ترتقهُ لي ؟

– ان لديَّ من الملابس ما هو اهم من الفتق والرتق . فيمكنك والحالة هذه ان تتوجه الى غيري ليقوم باصلاحه

– ما كنت لاثقل عليك بشيء من هذا لو لم يكن هذا الرداء مهماً عندي . نعم ان ثمنه زهيد ولكنه تذكار نفيس واودّ ان اصلحه الاصلاح التام

– اهذا تذكار ؟ سأله بنيامين بعد ان تناوله من يده ليفحصه ثم قال له وكيف أُهدي لك وانت روماني وهذا لباس يهودي

– أجل اجاب مرسيلوس بتأن وصبر انا روماني ولكن هذا الرداء يخص رجلاً يهودياً

– أهو صديق لك ؟

– لا ولكنه قريب من الصديق . وكان رجلاً شجاعاً وبما انني حصلت على ردائه فاريد ان احترم هذا ايضاً . ثم دنا منه حتى كاد يلصق به فرآه يزيل لطخة من الدم سوداء في ذلك الرداء

– هل مات وهو يحارب ؟

– كلا لم يكن يحارب ولكنه مات ميتة شنيعة فظيعة لقد كان رجل السلام فجار عليه اعداؤه

– يظهر لي انك تعرف من امره كل شيء. ومع هذا فلا يهمني ان اعرف كيف حصلت على ردائه ويتضح لي انه لم تكن لك يدٌ في مصرعه وبناء على ذلك سأرتقهُ لك ولا يكلفك شيئاً

– اشكرك غير انني اودّ ان ادفع لك اجرتهُ . متى آتي لآخذه ؟ فلم يجب بنيامين بل اشار الى مرسيلوس ليقترب منهُ وعرض امامه ذلك الرداء وقال له لاحظ كيف انه منسوج نسيجاً واحداً وهذا ما يحوكهُ الصنّاع في الجليل قرب بحيرة جنيسارت . لقد مرَّ عليَّ سنون عديدة ولم يقع تحت نظري رداءٌ منسوج مثل هذا . فارجح انهُ من ضواحي كفرناحوم

– اتعرف تلك الاماكن ؟

– نعم . نعم ان شعبي من السامرة في الجهة الجنوبية . وكانت العلاقات بين السامريين والجليليين مفقودة فلم يحتجْ احدهم الى الآخر مطلقاً . لان الجليليين كانوا رجال الكهنة العظام يصرفون معظم اوقاتهم في مجامعهم تاركين قطيعهم يهتم بذاتـه بينما هم يقصدون الى اورشليم لاجل الاحتفالات وهم يفتقرون بهذه السياحات والذبائح اما نحن السامريين فلا نتشبث بمثل هذه العادات

– لماذا ؟

اجابه بنيامين جواب مَنْ يريد ان يقدّم خطاباً وقـال له لا شك انك سمعت قصة ايليـا واذ هزّ مرسيلوس راسه ونظر اليه بنيامين مشفقاً وجّه اليه السؤال الآتي : هل كان ايليا احد آلهة السامرة ؟

– ما كنت اتوقع ان احداً من الرومان يجهل هذا الجهل . ثم استطرد قائلاً : ان لليهود الهاً واحداً سواء أكانوا جليليين ام سامريين ام من سكان اليهودية ام من المشتتين منهم في اقاصي المعمورة ، فان ايليا كان نبياً وكذلك اليشع الذي ورث رداءه كان نبياً ايضاً وقد سكن كلاهما في جبال السامرة مدة طويلة قبل مجيء الكهنة ورؤسائهم الكسالى ولذلك نحن نعبد الله في رؤوس الجبال والمغاور .

سأله بنيامين : ما هو اسمك ايها الشاب وكم هي المدة التي تقضيها في اثينا ؟

– اسمي مرسيلوس وربما اصرف عدة اسابيع فيها لانني اريد ان اشاهد اشياء كثيرة

وكم لك من الايام هنا ؟

عندئذٍ أوعز مرسيلوس الى ديمتريوس ليجاوب عنهُ

– هل ذهبت الى تلة المريخ ؟

– لا لم اذهب بعد

– والى اكروبولس ؟

– ولا الى ذاك المكان ايضاً

– ماذا كنت تفعل اذاً ؟

– كنت اقضي الوقت مرتاحاً . وقد سافرت مؤخراً سفرتين طويلتين

– شاب نشيط نظيرك لا يحتاج الى الراحة . ولكن الى اين سافرت

– سافرت من رومية الى هنا ومن يافا الى رومية

– من يافا ؟ اذاً كنت في اورشليم اثناء عيد الفصح حيث أُنبئت انه حدثت

امورٌ عجيبة غريبة ؟

– حقاً ان المدينة كانت غاصة بالجماهير الغفيرة من كل الطبقات انني عائد الان الى محل اقامتي كي لا اعوقك عن شغلك

– اذاً تعال غداً ساعة غياب الشمس فيكون الرداء حاضراً . واذا شئت ان تقبل دعوتي فنشرب معاً كأسين من الخمر

اجابه مرسيلوس هذا تلطف منك واذا لم اتمكن غداً من الحضور اليك بنفسي فيمكنك ان تعتمد على ديمتريوس لتسليم الرداء اليه

– يغلب على ظني انك لا تريد الكلام بشأن هذا الرجل اليهودي

– انها لرواية مؤلمة

– كل الروايات من اليهود مؤلمة . هل انتظرك غداً ؟

نعم قال مرسيلوس

– اهلاً وسهلاً ثم رفع يده وقال السلام لك فاجابه مرسيلوس الوداع يا صديقي ولما اصبحا بعيدين عن الحانوت سأل مرسيلوس ديمتريوس قائلاً : هل من الخطأ ان اجيء غداً ؟

– الاوفق الّا تعود اليهِ لانهُ سيعود الى اسئلتهِ عن حادثة اورشليم

– اتعرف انت شيئاً عن عادات اليهود ؟

– اعرف قليلاً جداً يا سيدي

– كم من الامور يعرف هذا الشيخ عن الجليل ؟

– سينبئك هو بذلك غداً

– لن اذهب اليهِ لانني لا اريد ان يُستأنف هذا الحديث امامي ابداً

– رأيك صائب يا مولاي

* * * *

وقد تبيّن لهما ان ما عزما على عمله يجب ان يُنفّذ لذلك غادرا مسرح دايونيسوس ومشيا بين اشجار الزيزفون. وقد توقّف مرسيلوس قليلاً امام الحوانيت ليغازل الفتيات ويتصدّق على اشقائهنّ من بنين وبنات بدنانير نحاسية . ثم صعد الى تلة المريخ وقضيا ساعة من الزمن في المغارة المقدّسة حيث اقام اليونان تماثيل لعظمائهم

اخيراً جلس مرسيلوس على مقعد رخامي في زاوية منفردة من ذلك المكان ووقف ديمتريوس بعيداً عنه قليلاً وكانا يفكران في ما مرّ من الامور عليهما . وبعد هنيهة اوما مرسيلوس الى صف التماثيل القديمة قائلاً : أما لاحظت يا ديمتريوس انه لا يوجد تمثال لمحارب واحد بين عظمائكم المقامة لهم التماثيل – انكم معاشر اليونانيين محاربون افذاذ عند ما تجبرون على ذلك لكن الابطال الحقيقيين الذين يبقى ذكرهم ابداً هم رجال السلم. تذكر الندوة الكبرى في رومية حيث أُقيمت تماثيل لمرقس انطونيوس ويوليوس قيصر وكلهم مدججون بالفولاذ وسائر الاسلحة بينما اقام اليونانيون على هذا التل تماثيل لسقراط وابوقراط وهيرودتس وصولون وارسطوطاليس وكلهم من رجال العلم والفلسفة لا من ارباب الكرّ والفرّ في الحروب غير انهم يظهرون كأنهم ذهبوا الى الحرب

قال ديمتريوس مستهزئاً نحن صنعنا ذلك . اجاب مرسيلوس بسخرية فان هذا التشويه هو من صنع الجيوش الرومانية الباسلة وافرادها الأميّين . ثم جلس هنيهة واستطرد حديثهُ بحمية فائقة قائلاً : تبّاً للرجال الذين يشهرون الحرب على التماثيل. ان الزمن الحاضر يشهد للامبراطورية الرومانية بقوة الفتح ولكن الماضي لا يشهد لهم به احد

ان الامة التي تحارب تاريخ امة اخرى لهي ذات جبن مغلوبة على امرها وليس لها من كرامة اذا لم تحترم حكمة الفلاسفة ومواعظ الحكماء الذين منحوا العالم جمال القول والعمل وحلية الفضل والفضيلة . واذ اخذ منه الغضب كل مأخذ وقف تجاه تمثال افلاطون وقال هذا الرجل مثلاً ليس له وطن ولا اصل ولا تقدر مملكة

من الممالك ان تعدّه من رعاياها . ثم توقّف عن الكلام وتفرّس في وجه ديمتريوس قائلاً له : أتعلم ان هذا ما قاله الجليلي عن نفسه ؟

– انني اذكر انه قال ان مملكته ليست من هذا العالم . ولم يعرف احد ماذا يقصد بقوله

– ربما يُقام له تمثال يوماً ما . لنذهب الان فقد قرّرنا ان نكونَ فرحين هذا النهار ومع ذلك فقد تكلمنا كالفلاسفة القدماء . وبعد ساعة من غروب الشمس واقترابهما من النزل اعلن مرسيلوس عزمهُ على زيارة عائلة يو پولس قائلاً : كان يجب عليَّ ان اقومَ بهذه الزيارة قبل الآن لانني لم ارَ احداً منهم منذ ليلة وصولي

– ولا شك في انهم يكونون مسرورين برؤيتك لانهم سألوا عنك مراراً

– اذاً سأذهب لمشاهدتهم . اما انت فاسبقني الى النزل .

وقد ناجى ديمتريوس نفسه ودله تصوره ان تجدّد العلاقة بعد هذه المدة الطويلة سيكون ولا ريب مدعاةً الى سرور آل يو پولس ولا سيما ثيودوسيا . ثم تساءل عمّا يكون شعور ثيودوسيا من جهته . لان اهتمامهُ بحالة سيده جعله يطلعها على ما كابده من الامور الصعاب في سبيله والان يذهب مرسيلوس لمقابلتها كأنه لم يحدث له شيء ما في حياته . وهو الذي اظهر لها فيما مضى انه يائس من نيله الشفاء التام فهل يدور في خلدها انه لفّق لها هذه الحكاية كلها لكن لا يمكنها تصديق ذلك مطلقاً لانه ليس بوسع اي كان ان يعمل مثل هذا العمل

وبعد هنيهة اتى احد العبيد معلناً ان القاضي يودّ ان يتناول العشاء مع العائلة فبدت ابتسامة على وجه ديمتريوس عندما افتكر فيما يمكن ان يجري الحديث على المائدة لان الوقت ساعتئذٍ يتطلب الظرف واللباقة

* * * *

استيقظ مرسيلوس باكراً فتردّى بردائه وتوجّه الى حجرة الدرس حيث شرع يشتغل في الطين الناعم كمعلم ماهر . ولما رأى ديمتريوس ان سيده غير محتاج اليه التمس منهُ الاذن بالخروج من البيت ترويحاً للنفس . وفي ذاك الوقت كانت ثيودوسيا تتمرّن في الحديقة على استعمال القوس والنشاب . فلما رآها ديمتريوس اقترب منها واخذه العجب من خبرتها ومهارتها في اصابة الهدف فاثنى عليها كل الثناء ومدح عملها الذي قال عنه انهُ لا يحتاج الى التمرين فشكرت عواطفهُ بدون ان تصوّب نظرها اليه وقالت له : أيمكننا الاجتماع معاً ؟

– اجابها انني اتمنّى ذلك ولكن لا يتيسر لنا الاجتماع هنا

– اذاً توجّه الى المكان المعيّن

فذهب ديمتريوس الى حديقة الهيكل وكان الكهنة اذ ذاك منهمكين في اداء فروضهم الدينية فلم يكن احد في الحديقة . ولما رآها مقبلة خفق فؤاده لها وكان هذا برهاناً على اختباره الجديد لامر المساواة . وكان هو في احتياج الى صداقتها وليس في امكانه ان يفسر معنى الحرية التي منحتهُ اياها . أيعتبرها تشريفاً له ام حطاً بمقامها . اما ثيودوسيا فجلست بقربه بدون ان تحييهُ ونظرت اليه برزانة فسألها : ماذا جرى في حفلة العشاء ؟

اجابتهُ : أليس من العجب العجاب ان يكون قد شُفي تمام الشفاء

– خشيت ان تظني بانني لم اخبركِ الحقيقة وما كنت لالومكِ لو ظننت ذلك

– صدّقت كلامك كل التصديق واعتقد انه حدث امرٌ هامٌ

– لا ريب في ذلك . فانهُ وجد الرداء حين كنت غائباً ولما لمسهُ زال عنه الخوف وقد نام ليلة امس نوماً هادئاً وعاد اليوم الى حالته الطبيعية . ولكنني لا اقدر على كشف هذا السرّ الغامض

قالت ثيودوسيا وانا ايضاً اعملت فكري في هذا السرّ طيلة النهار فلم يتيسر لي كشفهُ . على انني اظن ان نظرتهُ الاولى الى الرداء التي آلمتهُ هي على العكس

من نظرته الاخيرة التي ابرأته . وانني من اللواتي يحتفظنَ بتدوين ما يجري لهنَّ يومياً فاراجعهُ متى شئت . فاذا قرأ احد يومياتي دون ان يعرفني شخصياً يرى على الصفحة الواحدة منها حين كنت اكتب وانا في حالة السرور ما يغيّر اعتقاده بي عندما يقرأ ما ادوّنه في الصفحة الثانية وانا يائسة حزينة . اذاً فانت ومرسيلوس قد تخالفتما بشأن هذا الجليلي . لان افكارك من نحوه كانت حزينة فلم تؤلمك كثيراً اما تذكارات مرسيلوس فكان وقعها شديداً على نفسه فسبّبت له العذاب الاليم .

لقد ذكرت لي ان يسوع هذا صفح عن الجميع فتأثر قلب مرسيلوس من هذا الحنان وربما عاد الى وجدانه هذا التأثر عندما لمس الرداء ثانيةً فشعر بقوةٍ فائقة خلصته من تبكيت الضمير . ألا ترى رأيي في حل هذه المسألة ؟

– ولكن ألا تظنين يا ثيودوسيا ان مرسيلوس بعد ما حصل له من هذا الاختبار ان قلبه يتهلل فرحاً . نعم ان مدة تهلله كانت قصيرة غير انه عاد الى حياته العادية كأنه لم يحدث له شيء .

– اظن انه يخفي احساساته وهو يشعر بغبطة اكثر مما تفتكر

– ليس من سبب يوجب كتمانه عني

– ربما يظن ان القضية خطيرة بحيث لا تستطيع انت ولا هو ادراك كنهها . لذلك عقد النية على عدم الخوض في هذا الموضوع . وقلت ايضاً انه تهلل موقتاً ثم انطفأت جذوة الفرح وهذا امرٌ طبيعي

قالت لي عمتي اينو مرة لما رأتني في حالة اليأس ان الحياة كلها تشابه رحلة طويلة سهلة في السهول ، بيد انها صعبة ومزعجة في الاماكن الوعرة العميقة . اما المناظر الخلابة فانها في قمم الجبال الشامخة . وعندما يصل الانسان اليها يشعر بالغبطة والسرور ويتمنى لو ان له اجنحة ليطير اليها غير انه لا يستطيع البقاء فيها بل عليه ان يتمم رحلته التي ابتدأها فيهبط منها الى السفح ونظراً لكثرة اهتمامه بتمكين قدميه حذر السقوط فانه لا يلبث ان ينسى تلك المناظر البديعة

– انني آسف لانكِ شعرتِ بالوحدة والتعاسة يا ثيودوسيا . قال ذلك ووضع كفه على اذنه الشرماء.

– لم تُشرم آذان كل العبيد ، ان حالتك هذه لمؤلمة يا ديمتريوس . تباً لهذا العالم وتقاليده السيئة بحيث يُجبر رجلٌ مثلك على ان يعيش كعبد . ولكن هنالك فارق اجتماعي بين حالتك وحالتي فانا ابنة صاحب نزل ، اما انت فمع كونك رُبيت في بيت علم وأُعطيت ذكاء وعقلاً وفكراً فان جماعة الاشرار قد رأوا منك عبداً. اما انا فمع ان ابي دايون رجل نزيه ومتضلع من العلوم والآداب وذو مكانة رفيعة بين رجال اثينا فانه صاحب فندق . وربما كان من الاوفق لي ان اتهذّب بطريقة تجعلني الأ ان اتمنى اشياء هي اعلى مما تقتضيه طبقتي الاجتماعية

– لكنكِ يا ثيودوسيا قد خصّكِ الله بمميزات جعلت حياتكِ غنية . فضلاً عمّا لديكِ من الكتب القيمة المفيدة وآلات الموسيقى والثياب الثمينة الانيقة التي تزيد في هنائكِ وسعادتكِ

فقاطعت كلامه بمرارة قائلة : ان لا مكان لديها لاستعمال حريتها . فاذا ارادت ابنة فندق في ان تكون سعيدة فيجب عليها ان تتبع التقاليد وتكون سريعة الحركة كثيرة الجلَبة ، عندئذٍ يمكنها ان تجد لها اصحاباً كثراً من طبقتها . ثم اغرورقت عيناها بالدموع وصاحت قائلة : يا ديمتريوس انني في بعض الاحيان افتكر بل اراني غير قادرة على احتمال اعباء هذه الحياة

ثم سألته هامسة . لِمَ لا تركن الى الفرار من هذه الديار ؟ لو كنت رجلاً مثلك لكنت فعلت ذلك سريعاً

– الى اين تذهبين ؟

– الى اي مكان اجد فيه راحتي العقلية قبل الجسدية ، ربما يكون الى صقلية الجميلة

– انها بلاد اللصوص وسفاكي الدماء . وغير خافٍ ان المعيشة في البلاد الجميلة

أصعب امرها انما في البراري والفيافي القاحلة يمكن للانسان ان يعيش بسلام حيث لا ينبت شيء ولا يشتهي شيئاً

– لماذا لا يكون الفرار الى دمشق ؟

– انني اموت من الوحدة هنالك

– يمكنك ان تاخذني معك . قالت ذلك ضاحكة لتؤكد له ان كلامها غير جدّي . ثم نهضت قائلة انهـا مضطرة للذهاب . فجلس ديمتريوس وحده يفكر بكلامها وقد رأى نفسه انه اصبح شديد الشغف بها وانه لم يبق من كلفة بينه وبينها لهذا وجد من الافضل ان لا يختلي بها مرة اخرى اذا امكنه الامر بدون مس حاساتها خصوصاً بعد ما رأى ما رآه من مسايرتها اياه ومن حسن الطريقة التي برهنت عن شعورها نحوه لان الحب الذي اظهره نحو لوسيا حتى الان كان كحب الاخ لاخته اما حبه لثيودوسيا فكان غراماً محضاً . على انه لم يرضَ ان يغتنم فرصة انفرادها معها وبيثها ذلك لانه لا يقدر ان يعدها بشيء راهن وهو عبد

واذ كان الوقت لا يزال باكراً وسيده مرسيلوس لا حاجة له اليه خطر في باله ان يتوجه الى بنيامين الحائك اليهودي فلدى مروره على الاسواق وجدها مزدحمة بالباعة والشارين على اختلاف مشاربهم فلفت نظره سلة من التين الاخضر فابتاعها واتى بها الى الحائك فلما رآه هذا مقبلاً نحوه قال له :

لقد قرّر سيدك الّا يجيء الي اليوم حيث خشي ان اكرّر سؤالي اياه عن ذلك اليهودي المسكين المائت . وانت قد جئتني باكراً لانني لم اتمم بعد رتق الرداء وها انني ما ازال اشتغل به كما ترى

– انني لم اجيء باكراً لهذه الغاية ولكن لما رأيت النهار طويلاً وليس لديَّ من عمل لاقوم به بادرت الى هنا لاصرف قليلاً من الوقت في محلك وقد اتيتك بسلة التين هذه هدية لك . فاشار اليه اليهودي ان يضعها على المائدة وكان قد اكل منها ليذوقها ثم قـال له اظنك جئتني بهذه السلة لتتمكن في هذه الفرصة السانحة من

القائك عليَّ بعض اسئلة . فها انني مستعدٌ للاجابة عليها لكنني اعلمك اولاً انني لاحظت امس انك دُهشت حينما اظهرت لك انني واقف على بعض الحوادث الغريبة التي جرت في اورشليم في اسبوع الفصح الماضي. وانت تريد ان تعلم مقدار معرفتي بها . على اني لا ارتاب انك كنت مع سيدك في اورشليم فاسمح لي ان اسألك سؤالاً بسيطاً : هل رأيت الجليلي الذي صلبوه هناك ؟

اجاب ديمتريوس على الفور نعم يا سيدي

– حسناً قلت : ثم توقف بنيامين عن عمله وقال له انت عبد وثني وقد وُهبت الذكا. فأصدقني القول هل ميَّزت شيئاً خاصاً في هذا الجليلي او هل دنوت منه وسمعت كلامه واقواله ؟

– ان المرّة الاولى التي رأيت فيها الجليلي كانت يوم دخولنا صباحاً الى اورشليم وكان يصحبهُ جمهور غفير من الناس ولما كنت اجهل اللغة لذلك لم افقه معنى ذلك الحدَث غير انه تبين لي انهم يريدون ان ينصبوه ملكاً عليهم فكانوا يصرخون « مسيا » ثم فهمت انهم كانوا منتظرين قائداً عظيماً يرفع عن اعناقهم نير الاستعباد السيامي وبناء على ذلك كانوا يصرخون « مسيا » وقد حملوا بايديهم سُعف النخل ولوَّحوا بها امامه كأنه ملك

واذ ذاك حملق بنيامين اليهودي وفغر فاهُ وارتجفت شفتاه فتوقف ديمتريوس عن الكلام هنيهة فابتدره ذاك وقال له تمم روايتك .

– قال . ثم تغلغلت في ذلك الجمع الغفير حتى اقتربت منه واوشكت ان المسه ومع ان لباسه كان بسيطاً الا ان هيئته كانت ذات تأثير عظيم على القلوب

حينئذٍ اشار بنيامين الى الرداء الذي يرتقه وسأله : هذا هو الرداء نفسه الذي كان عليه ؟

– نعم هو هو بعينه ثم استطرد قائلاً وكان واضحاً ان الرجل لم تسرّه تلك الحفاوة والحصول على شرف المُلك لما ظهر على ملامحه من شدّة التفكير والاسى

العميق . وما كاد ديمتريوس يكمل عبارته حتى قال له بنيامين انتظر قليلاً يا صديقي والتفت الى جهة الرف الذي وراءه وانزل عنه درجاً من الادراج وقرأ من نبوءة اشعياء بصوت عميق ولكنه جهوري « رجل اوجاع ومختبر الحزن » كمل حديثك اذا شئت . هل تكلم ؟

اجابه ديمتريوس لم اسمعه يتكلم في ذلك النهار

– اذاً رأيته ثانيةً ؟

– نعم في دار الولاية لما جرت محاكمته ثانية لاجل الخيانة

– كيف كان موقفه هنالك ، هل طلب العفو ؟

– كلّا فانه كان هادئاً للغاية ولم افهم ما قال ولكنه قبِلَ الحكم عليه بدون اعتراض

ثم فتح بنيامين الدرج ثاني مرة وقال اصغ يا صديقي لهذه العبارة ايضاً من نبوءة اشعياء « ظُلم اما هو فتذلل ولم يفتح فاه »

ثم تذكر ديمتريوس انه تكلم ولكن بهدوء وطمأنينة . ولما جُلد بقساوة لم يفه ببنت شفة قط الامر الذي ظهر عجيباً غريباً

فقرأ بنيامين بصوت منفعل « وهو مجروح لاجل معاصينا — وبحُبُرِهِ شُفينا »

– لاجل معاصي مَن قال ديمتريوس — ألاجل معاصي اليهود ؟

اجابه بنيامين كان اشعياء نبياً يهودياً يا صديقي وقد تنبأ عن « مسيا » يهودي

قال له ديمتريوس هذا يعني ان الآلام التي احتملها مسيا هي لاجل الشعب اليهودي لا لشعب آخر . فاذا كان الامر هكذا فلست اظن ان يسوع هذا كان مسيا المنتظر مجيئه لانه عند احتضاره سامح الجنود الرومانيين الذين صلبوه

فالتفت اليه بنيامين متعجباً وسأله كيف عرفت ذلك ؟

– هذا ما قاله الذين كانوا واقفين بالقرب منه وسمعته تلك الجموع

– ان هذا الامر غريب . وفي امكانك الآن ان تسأل عمّا تريده

اجاب ديمتريوس . اظنك قد اجبت عن كل اسئلتي بما يتعلق بشأن المسيأ بانه سيأتي حسب نص الكتب مدافعاً عن اليهود . اما مسيأ الرجل الذي رأيته فلم يرضَ ان يكون بَطَلهم ولما الحّوا عليه لكي ينصبوه عليهم لم يكن مرتاحاً الى الحاحهم بل قال لهم عند المحاكمة ان له مملكة ولكنها ليست من هذا العالم

فسأله بنيامين : اين موقعها اذا لم تكن في هذا العالم ؟

– انت احكم مني فلا تنتظر من عبد وثني ان يفسر لك معنى هذه العبارة

– انت تستهزىء بي يا صديقي

– حاشاك فانا مخلص الك ولكنني في حيرة يغلب على ظني ان المسيأ كان يهمه امر كل انسان بدون استثناء بل كان حزيناً على جميع البشر . عفواً اذا تكلمت معك بصراحة

– لك الحق ان تتكلم ما شئت . انني يهودي واؤمن ان الهنا ابو الجنس البشري قاطبةً . وعند مجيء المسيأ ليملك على اليهود ربما يوطّد دعائم العدل والمساواة لجميع الناس

قال ديمتريوس ليتني استطيع ان ادرس كل النبوءات القديمة

– حسناً تفعل لانك ذو فطنة ودراية . فاذا كان لديك متسع من الوقت فلا تتأخر عن درسها

فسأله ديمتريوس : كيف ؟

– ربما اساعدك انا . ثم نهض وقال اعذرني الان حيث يجب ان أُعدَّ غدائي وهكذا غادر الغرفة بدون استئذان وتوجه الى الغرفة الاخرى

* * * *

كان بنيامين قد اكمل شغله اليومي لان المائدة التي كان يشغلها كانت فارغة وكان وراء النول الكبير باب لم يَرَه مرسيلوس في اثناء زيارته الاولى لانه كان

مغلقاً اما اليوم فكان مفتوحاً على مصراعيه فدخل مرسيلوس منه ورأى نفسه في غرفة مرتبة الاثاث وارضها مفروشة بسجادة واحدة ملوّنة الاشكال وفي زواياها كراس كبيرة وصغيرة ومقعد وغير ذلك من الرياش الضروري. وتجاه هذه الغرفة دار مغطاة باغصان الكرمة

وبينما كان بنيامين في لباسه الاسود الفضفاض يهيء المائدة دخل عليه مرسيلوس وقال له ارجو ان لا اكون طفيلياً لديك

– لا يُعدّ طفيلياً مَنْ رأى في اثينا باباً مفتوحاً ودخله فاهلاً بكَ من زائر كريم ثم دعاه الى الجلوس وعند جلوسه وضع امامه كاسين من الفضة

ولما لم يكن لمرسيلوس ما يقوله افتتح كلمته بقوله لم اعلم قبلاً ان مسكنك في حانوت اشغالك

– جعلت مسكني هنا لسببين . اولاً يجب على الانسان ان يكون حكيماً وثانياً ان يقوم بحراسة حانوته بنفسه في هذه المدينة الواسعة

– وفي كل بلد اعرفها كرومية مثلاً فانها ملأى بالعبيد وهم على الجملة لصوص مشهورون لا يهمهم امر التعدّي على حقوق الغير .

– نعم ان العبد هو لصّ ماهر بحيث يسلبك احد نعليك لانك سلبته حريته الثمينة واذ ذاك رفع كأسه وقال لنشرب الان على ذكر اليوم الذي يصبح فيه العبيد احراراً

– بكل سرور فان والدي يقول : سيأتي يوم تدفع فيه رومية ثمناً غالياً لاسترقاقها العبيد

– وبما انه لا يستصوب هذه العادة فيغلب على ظني بانه لا يملك عبيداً

– اذا أُلغي الاسترقاق يوماً مــا فان والدي يكون في طليعة المصوّتين المستصوبين

– ان والدك يعرف تمام المعرفة ان هذا العمل خطأ ولكن غيره ممن هم في

مقامه الاجتماعي لا يقرّون بذلك البتة وبرأيه ان يكون الانسان مخطئاً لا شاذاً

– ان والدي ليس كما يُخيَّل اليك فانه كريم عادل ويعامل خدامه معاملة حسنة بحيث تتيسر لهم اسباب الراحة عندنا اكثر مما لو كانوا احراراً

– انا اصدّق ذلك وهذا ما يُقال عن معاملتكم لخيلكم وكلابكم انما اريد ان اسأل : هل الانسان والحيوان من طبقة واحدة ؟ ألا يوجد فرق رئيسي بينهما من حيث العقل والقيمة ؟ اذا كان ثمن حمار قوي عشر دراخمات وثمن رجل بقوته وزنتين فضيتين فاذاً تكون القيمة بينهما من حيث قوة البدن فقط . انني تجاه هذا القياس ارى ان استعباد البشر امرٌ ممقوت كما انه حاطّ بقدر الروح البشرية لانه اذا كان الانسان يعتبر روحه وعقله كما هما في الحيوان فلا تبقى له إذَنْ من كرامة وعزّة وجاه .

اما انا فاني اعتقد واؤمن ان جميع البشر خلقهم الله تعالى على صورته ومثاله

فسأله مرسيلوس أهذا ما يعتقده اليهود ويؤمنون به ؟ على ان هذا السؤال الذي بدر منه قد دلّ على عدم اهتمامه بجواب بنيامين عليه الا ان بنيامين اجابه بقوله : نعم

– ولكن اليهود الاغنياء يملكون خداماً

– ها قد برهنت برهاناً جلياً على سبب اتعابنا . فاليهودي يدّعي انه يؤمن بان جميع البشر خلقوا على صورة الله ولذلك يثبت ان الله هو ابوهم الروحي ولكن هذا القول يمكن تصديقه عندما يقرّ كل اليهود بان الناس قاطبةً هم اولاد الله . اما انا فاعتقد انهم كلهم سواء . لذلك عندما استعبد انساناً ما واعتبره كاحد الاغنام التي ترعى في الحقول فلا يسعني عندئذٍ الا ان ارمي باعتقادي هذا عرض الحائط

فهنا اقرّ مرسيلوس انه لا ينبغي للانسان ان يستعبد اخاه الانسان ولو عامله بلطف ومحبة لانه يجب عليه الاّ يعتبر نفسه حيواناً

قال بنيامين حينما تشتري عبداً وتربطه بين الثور والحمار للفلاحة فانك

لا تستطيع ان تسلبه مبدأه الروحي حيث لا يزال حرًّا باعتقاده الروحي ان الله هو ابوه الروحي . لنضرب لذلك مثلاً . هنا خادمك هذا الاثيني الجميل الذي يسير خلفك . فان العبودية لم تمنعه من ان يكون احد اولاد الله اللهم اذا شاء ان يعتبر نفسه هكذا . ولكن استعبادك له يجعلك انت من اقارب الحيوانات بسبب مساواتك بين الانسان الناطق والحيوان غير الناطق

– انني لست فيلسوفاً لكن ربما يمكنني بعد ان امكث مدة في اثينا بتلة المريخ ان احلّ مثل هذه المسائل العويصة

– ان هذه مسألة حيوية . ان امبراطوريتك الرومانية ترسل جيوشها العتاة الى كل جهة لتضطهد وتغتصب الولايات المغلوبة على امرها . ناقلة معها افضل ابنائها واعزّهم في مراكب قذرة وموجبة على الطاعنين منهم في السن ان يشتغلوا اشغالاً شاقة ليدفعوا جزية الظلم وهذا ولا شك فيه سيسقط عرش المملكة الرومانية

– والذي يظن ذلك ويقول ايضاً ان الرومانيين امسوا كسالى وسماناً من استخدامهم العبيد ليقوموا مقامهم في الاعمال الشاقة لذلك سيأتي يوم يندمون فيه ولات حينَ مندم

– نعم سياتي اليوم الذي تنسحق فيه اهل رومية . ليس لانهم امسوا في حالة الكسل والبدانة ولكن لانهم يعتبرون ان جميع الناس والحيوانات على حدٍ سوى . ولا يُدركون ان استعبادهم لسواهم من البشر يجرّد انفسهم من العزّة والكرامة الروحية . فلا عجب اذا كانت آلهتكم هُزأة وسخرية في نظر شعبكم المثقف . ماذا تنتفعون من الآلهة انتم الذين تفتكرون ان الناس كلها تُساق كالاغنام

ثم أتمّ بنيامين حديثه قائلاً : انا رجل يهودي ولست مطّلعاً على شؤون ديانة غيري ، ومع هذا اقول : لقد كان اجدادكم في الزمن الغابر ينظرون الى آلهتهم نظر الاحترام كجوبيتر مثلاً . ثم دار الزمان دورته فاصبح يوليوس قيصر الهاً

لكم اعظم من جوبيتر فلم يكترث لثواب او عقاب الآلهة التي سيطرت على الشمس والمطر وعدَّات الهواء لسير المراكب في البحار وملأت الكرمة من العنب ما عدا الشعب المغلوب على امره فانه كان يؤمن بالآلهة . ولماذا ؟ ألأن القيصر الآنف الذكر ازدرى بالديانة الرومانية وجعلها هزءا وسخرية . لقد كان ذاك حينما اصبح لدى الامبراطورية الرومانية قوة بحرية كبيرة لا يستهان بها تستعبد الامم الاخرى فتشتري رجالهم وتبيعهم في سوق المزايدة وتقودهم كقطعان الغنم وما شا كل . وبهذا العمل برهنوا على انهم وسائر الناس ليسوا من الآلهة . واصبح القيصر العاتي المغرور بنفسه الهاً وهذا لاعتباره بقية الناس في نظره من العجماوات فقال مرسيلوس معارضاً انا لا اعتقد ان احداً من العقلاء يفكر يوماً من الايام ان يوليوس قيصر كان الهاً

فوافق بنيامين على معارضته قائلاً : نعم ما من انسان عاقل اعتقد انه اله ولا هو نفسه يعتقد هذا الاعتقاد

– هل يدور في خلدك ان الرومانيين اذا اقدموا على الغاء تجارة الرقيق انهم بهذا يحترمون آلهتهم وباحترامهم اياها يشرفون انفسهم ؟

– ان سؤالك مستهجن . ما هي نظريتك في هذا العالم ؟

اجابه مرسيلوس : يسرني ان اصدق ان لهذا الكون خالقاً فوق الطبيعة يكون اهلاً لمركز كهذا فان وجوده يحل مشاكل كثيرة . امس قلت لي ان قومك السامريين يتعبدون على رؤوس الجبال . انني اتمنى ان افعل ذلك اذا لم يكن مطلوباً مني ان امثل الشمس والاشجار

– اننا لا نمثل الاشياء المنظورة في الطبيعة . اننا نؤمن باله واحد روح خالق جميع الاشياء

اجاب مرسيلوس قد سمعت ذلك قبلاً ان اليهود ينتظرون مجيء قائد عظيم بل ملك وانه سيحررهم ويؤسس لهم مملكة دائمة . هل انتم السامريون تصدقون ذلك ؟

– نعم نحن نصدق ذلك لان جميع انبيائنا تنبأوا بمجيء المسيا

– كم لكم من السنين وانتم تتوقعون مجيئه ؟

– من سنين طويلة

– ألا تزالون آملين مجيئه

فاجاب بنيامين مفكراً ان درجة الانتظار تعلو وتهبط . لقد تحدثوا بذلك كثيراً في اوقات المصائب الوطنية . وايام المصائب والاضطهادات حيث كان اليهود يحاولون ان يجدوا احداً بينهم يبرهن على انه المسيا فلم يجدوا احداً وكل طائفة منهم كانت تنتظره حتى ان الكهنة والرؤساء انفسهم زعموا انهم كانوا بانتظار المسيا

وتابع بنيامين حديثه لذاته بدون ان يعير اهتمامه لمرسيلوس فقال : ان الرؤساء مكتفون بالشؤون الحاضرة فان الولاة الرومانيين يفرضون الضرائب الثقيلة على الفقراء ولكنهم يخففونها على الاغنياء والكهنة . فاذا ظهر المسيا فان الكهنة يرتبكون في امورهم لانه لا بدَّ من ان يُجري بعض اصلاحات

كاخراج التجار مثلاً الذين يبيعون الحيوانات المعدَّة للذبيحة الى الفقراء باثمان باهظة . سأل مرسيلوس ذلك السؤال بدهاء .

ولما استفاق بنيامين من تأملاته سأله قائلاً : كيف اتفق لك ان تقف على هذه الامور ؟

– سمعتهم يتحدثون بها في اورشليم وقد اعلنوها رسمياً

– ماذا كنت تعمل هناك حتى سمعت ذلك ؟

– كنت اقوم بخدمة الحكومة . ثم وقف وقال : تلطف باعطائي الرداء الذي اصلحته لي . ولما جاء به وتأمله مرسيلوس بتدقيق قال له : لا يمكن احداً ان يعلم انه كان قبلاً ممزقاً . لقد احسنت رفأه

قال بنيامين ولكني بذلت جهدي لازالة لطخة الدم عنه فلم استطع . لم تحدثني كفاية بشأن هذا اليهودي المسكين . ذكرت لي انه كان شجاعاً ومات بين

يدي اعدائه . هل كان جليلياً ؟

– اظن ذلك

– أكان اسمه يسوع ؟

– نعم هذا كان اسمه . من اين عرفت ذلك ؟

– قال بنيامين : من رجل اثيني يدعى پوبيكوس كان في اورشليم يبيع الاطياب في غضون الحادثة

– ماذا يهمك من امره ؟

احنى بنيامين راسه وقـال عذراً عن جرأتي . انني رجل مُسنّ بدون عائلة ومغترب عن وطني . ان ادراجي هذه هي تاريخ ابناء جنسي وان كلمات انبيائنا العظام هي اكلي (لحمي ودمي) بل هي يا صديقي سراج حيـاتي الوهاج وتراثي الثمين . اما شغلي اليوم فلا اعدُّه شيئاً فمن دخله اتقوَّت واعيش ولكن نفسي تحيا بالكلمة المقولة في محلها فانها لتفاح من ذهب في مصوغ من فضة

– انت محظوظ يا سيدي وانا مثلك مولع بالاقوال والامثال الحكمية التي خلفها لنا رجال رومية العظام

– نعم انكم تعلمتم القراءة بواسطتها ولكنكم لم تتعلموا كيف تعيشون اما الذين تعلموا اللغة العبرانية فانهم يفهمون معنى كلمات الحياة . ان في هذه النبوءات وعداً شافياً وهو انه سيقوم يوماً من الايام مسياً وملك . ويُدعى اسمه عجيباً ولا يكون لملكهِ نهاية . ولم يحدّد وقت مجيئهِ . أتعتبر الان ان ذلك تطفل مني ان استفهم باهتمام عن يسوع هذا الذي يعتقد الجميع انه المسيا

– احب ان اسمع اكثر من ذلك بصدد هذه النبوءات

– لِمَ لا . يسرّني جداً ان اخبرك بها ولكن ارى من الموافق ان تقرأها انت بنفسك

– هل اللغة العبرية صعبة يا تُوى ؟

— انها سهلة كاللغة اليونانية التي تتكلمها بسرعة ولكنها اصعب من اللاتينية على ان اليونانية ربما تتطلب تعمقاً في درس اصولها اما رومية فلها شعراؤها من مقرظين وهجائين. ولشيشرون احد خطبائها عدة خطب ومقالات لذيذة رائعة في وصف الطبيعة ولكنها لا تتجاوز السحاب . ثم تنـاول درجاً وفتحه وقرأ . «اذ ارى سمواتك عمل اصابعك القمر والنجوم التي كوَّنتهـا . فمن هو الانسان حتى تذكره وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله» . ان في حكمة العبرانيين لغزاً يجب ان نفكر فيه وتتفهمهُ .

فاجابه مرسيلوس انني مرتبك في الوقت الحاضر في نحت تمثال ولا بُدَّ لي من انجازه سأكتفي بما تقصه عليَّ من حين الى آخر . ثم اخرج كيساً حريرياً مملوءًا نقوداً فضيَّة ووضعهُ على مائدتهِ

فقال بنيامين لا اريد ان اقبض اجرةً ما

— ادفعها اذاً الى الفقراء

— اشكرك . وقد خطر في بالي الان انك اذا شئت ان تعرف شيئـاً عن الديانة اليهودية وليس لديك متسع من الوقت فاسمح لخادمك اليوناني ان يتعلَّم اللغة العبرانية وانا مستعدٌ ان ادرسهُ اياها في وقت الفراغ لانه ذكي فطن كما لا يخفى عليك

— نعم ان ديمتريوس ذكي ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— لانه امضى عندي زهاء ساعة من هذا النهار

— ما العمل الذي جاء به اليك ؟

— كان يتجول في السوق فزارني زيارة حبية وقد احضر لي معه قليلاً من التين وسألني بعض اسئلة

سأل مرسيلوس قائلاً : ما هي

– ربما يقولها لك فانه رهين امرك ومُلك يديك

– لكنني لا املك عقله لقد نسبت اليَّ القساوة التي انا بعيد عنها

– انت لست قاسياً يا ابني ولكنك مقيَّد بعادة عنيفة

– ربما يأتي المسيا بتحسينات قيِّمة حين مجيئه . ثم مشى نحو الباب فتبعه بنيامين وسأله : كم من المدة بقيت بعد الصلب ؟

– لقد غادرتها في اليوم الثاني قبل شروق الشمس

– ألم تسمع اذاً شيئاً اكثر من ذلك ؟

– ماذا تريد مني ان اسمع وهو قد مات على الصليب ؟

– امؤكد انت ذلك ؟

– نعم بلا ريب

– هل كنت هناك ؟

– لقد رأيته في حالة النزع وقد طعنوا قلبه بحربة قبل ان ينزلوه عن الصليب ليتحققوا وفاته

– فاشرق وجه بنيامين سروراً . فدهش مرسيلوس من مرآه

– اشكرك يا صديقي كل الشكر لانك انبأتني ذلك

– ما ظننت ان كلماتي المؤثرة تُسرك . ان يسوع هذا كان رجلاً شجاعاً وقد كان جديراً بطول الحياة

– قد شئت ان تتحقق مماته اليس كذلك ؟

– نعم لانه سرت هنا اشاعات كثيرة وهي ان الجند الروماني النشوان برح المكان قبل ان يموت فاتى تلاميذه وخاصوه

– علمت ان جميع هذه لم يكن لها ظلٌ من الحقيقة . نعم ان الجند كان ثملاً جداً ولكنه قتل بالفعل ذلك الجليلي

قال بنيامين انك تتفوّه بكلام مهمّ رصين يا صديقي وقد سُررت بمجيئك اليَّ اليوم فارجو ان تزورني كلما سنحت لك الفرصة · قال هذا ورفع يده الضعيفة الى هامة مرسيلوس ودعا له قائلاً : ليباركك الرب ويحفظك وليضئ. الرب وجهه عليك ويرحمك. ليرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً. وبعد ذلك حصل سكوت تام ولما كان مرسيلوس لا يعرف ما كان منتظراً منه ان يقول حنا رأسه باحترام وخرج من الحانوت وتوجَّه الى المنزل لا يلوي على شيء.

الفصل العاشر

ولما كانت ديانا قد وقفت من الامبراطور طيباريوس على ميعاد وصول السفينة فستريس الى رومية لذلك كان مجيئها منتظراً من ساعة الى اخرى لتشاهد مرسيلوس الذي اشتاقت جداً الى رؤيته فكان من الضروري لآل غاليو ان ينتحلوا عذراً مقبولاً لسفره السريع الى اثينا وعلى لوسيا ان تبلغ ديانا حين حضورها ان صحة مرسيلوس لم تكن حسنة فاضطرَّ الى السفر لتغيير الهواء . اما اذا سألت ديانا عمّا يشكو منه فماذا يُقال لها ؟

فاستحسنت كورنيليا ان يُقال لها لقد سُمع ان اطباء اثينا ابرع من اطباء رومية ولكن هذا الامر لا يبدو معقولاً لان المعروف عند الجميع ان اشهر الاطباء الذين كانوا هناك أُستدعوا الى رومية :

اخيراً قال غاليو يجب ان نقول لها الحقيقة لانها يحقُّ لها اذا كانت تحب مرسيلوس حباً شديداً ان تقف على كل ما يشكو منه . واذ قال هذا نهض واستعد للخروج فأوقفته لوسيا وسألته قائلة لنفرض انني أُنتدبت لتبليغها الخبر فماذا يجب عليَّ ان اقول ؟

— قولي انه عُهد الى اخيك حينما كان في اورشليم ان يتولى صلب يهودي ثائر وهذا الامر الخطير أثَّر اشدَّ التأثير في اعصابه وقد امسى منذ ذاك الحين في حالة يأس مستمرة لذلك رأينا من الواجب تغيير المناخ له

— لا حاجة بي ان اذكر لها شيئاً عن الرعاش الذي يحدث له والرعب الذي يملأُ قلبه حتى ولا عن السؤال الذي يسأله عقيب ذلك

اجاب والدها : يكفي ان تقولي ان مرسيلوس شارد العقل يائس

– لا اظن ان ديانا تكتفي بهذا الايضاح الوجيز حتى ولو لم يكونا متحابين فان سعيها لدى الامبراطور باحضاره من قلعة منوع يستوجب ان تتلقى جواباً مقنعاً وانها لترى من الغريب ان قاضياً رومانياً يهاب تولي إجراء الصلب

– كلنا نعلم هذا . على ان ابني لم يكن قطّ جباناً بحيث تذهب بصحته رؤية الدم

– قد وعدني بانه يكتب اليها

– لكننا لا نقدر ان ننتظر كثيراً فلربما يستغرق ذلك بضعة اسابيع ولا شك ان ديانا تريد ان تعرف كل شيء. فنرى من الواجب الا نخفي عنها شيئاً يا لوسيا لان شابة نظيرها استطاعت ان تحصل على ما تريد من طيباريوس الشيخ لا تقف مكتوفة اليدين واجمة دون ان تعلم كل ما جرى لمرسيلوس .

وبعد خروج غاليو من الغرفة قالت زوجته كورنيليا اظن ان ديانا اذا كانت تحب مرسيلوس حقيقة فانها تغفر له ما اعتراه من الضعف

– فاجابتها ابنتها اظنكِ لا تعرفين ديانا حق المعرفة يا والدتي فانها لم تتثقف طباعها بحيث تجعلها تسامح الضعفاء. فان جرأة والدها في قتل اي شخص ما كأنه يقتل ادنى حشرة جعلتها تكون جسورة هي ايضاً

– لم اكن انتظر منكِ هذا الشرح فهل تظنين ان اخاكِ ضعيف ؟

– لست اقول لا او نعم ولكن ما اخاله يا أماه اننا خسرنا مرسيلوس الذي احبه حتى العبادة

* * * *

اذا كان البوح بهذا السر لديانا محيِّراً فقد جرى ما هو اشد تحيراً فانه حضر في اليوم الثاني من قبل القيصر رسول يحمل رسالةً الى مرسيلوس وقد قال : انه ينتظر جوابها وان العربة الملوكية تكون غداً صباحاً هنا لتقلّه

فقال غاليو لكن ابني ليس هنا فقد سافر الى اثينا

– هذا من سوء البخت

– الظاهر انك واقف على مضمون الرسالة

– نعم يا سيدي ان القيصر نصّب القاضي مرسيلوس رئيساً لحرس قصره وترانا جميعاً مسرورين بهذا التنصيب الذي صادف اهله

– انني متأسف جداً لغياب مرسيلوس . ساتوجه بنفسي واتشرف بمقابلة الامبراطور وابلاغه الجواب شفاهاً

– حسن يا سيدي ألا ترى من الموافق ان يكون السفر غداً عند الفجر ؟

وما طلع فجر اليوم الثاني حتى ركب غاليو العربة الملوكية وسارت بهما تنهب الارض نهباً . على انه لم يكن لغاليو في هذه السفرة شيء يلذه فان مثوله بين يدي الامبراطور بغير دعوة موجبة سيكون مزعجاً له فضلاً عما يلاقيه من التعب ووجع الراس بسبب سرعة الخيل القوية

لذلك ما ان وصل الى كابري حتى ترجّل فادخله الحاجب للحال الى حجرة انيقة الاثاث حيث قعد في كرسي كبير وهو منهوك القوى . فتقدم منه خادمان مكدونيان واخذا يحلّان رزمة امتعته . ثم جاء الخادم الثالث وشرع يفكّ سيور حذائه ثم وفد الرابع وقدّم له كاساً من الخمر وبعدئذٍ عاد الحاجب يقول ان الامبراطور يريد ان يراك لانه كان قد اصدر امراً بان يمثل مرسيلوس بين يديه حال وصوله . ولما قيل له ان غاليو حضر عوضاً عن ابنه قال انه يأذن لك بمقابلته حالاً

– حسن . ونهض غاليو بصعوبة وتبع الرسول الى غرفة الامبراطور الثمينة الرياش فلما رآه مقبلاً امر ان يخرج من لدنه خدامه الستة الذين كانوا منتظرين اوامره . اما هو فكان مضطجعاً في سريره الفخم الناعم . فقال ما هذا ؟ يا غاليو لقد اولينا ابنك شرفاً عظيماً مع انه لم يعمل شيئاً يستحق مثل هذا العطف الخاص وقد غادر العاصمة باشارة منك فاوضح لي السبب حالاً ؟

فاطرق غاليو وقال يا جلالة الامبراطور ان ابني سيكون مستاء جداً عندما يبلغه الخبر انه اغضب عن غير قصد امبراطوره المحسن اليه

– لا بأس اوجز كلامك لانني بحاجة كلية الى الراحة والنوم وكذلك انت بعد سفرك الطويل . اجلس الآن ولا تقف كالتمثال لانك شيخ ، اجلس لئلا تقع .

فشكر له غاليو نعمته وجلس في الكرسي الفخم الذي كان بالقرب من سرير الامبراطور المذهَّب ثم قال : لقد تفضلت جلالتك فامرت ان اوجز كلامي بحيث اظلم الليل فعليه اقول باختصار ان ابني مرسيلوس كان قد تنصَّب قائداً لحملة منوع

– نعم نعلم ذلك وقد الغينا تلك القيادة واستدعيناه الى رومية . وما جدَّ بعدئذٍ ؟

– أستدعي من منوع يا مولاي الى اورشليم ليساعد القيِّمين على صيانة الامن وحفظ النظام في غضون عيد اليهود السنوي فكان ان حدث وقتئذٍ شغَب بين الشعب وحُكم على زعيمهم بالموت صلباً

– صلباً ؟ اذاً كان الرجل مشاغباً ثائراً

– لقد فهمت انه كان بعكس ذلك مسالماً وهو شاب يهودي من احدى ولايات الجليل الخاضعة لجلالتكم . محبٌ للسلام ، ذو اخلاق دمثة حكيم حليم بعيد عن الشرور لكنه على ما يظهر اثار غضب رؤساء الهيكل

– ماذا عمل حتى حملهم على الغضب ؟

– من عاداتهم ان يبيعوا حيوانات الذبائح في دار الهيكل . فيستفيد الكهنة من وراء ذلك لانهم يطلبون اسعاراً باهظة من الفقراء . فاشمأز هذا الجليلي من عملهم المكروه واخذ سوطاً وطرد به كل مَن كان في تلك الدار من كهنة وحيوانات وغيرهم

فصرخ القيصر بصوت مرتفع جعل الحاجب يدخل سريعاً فاوعز اليه ان احضرْ كاسين من الخمر لي وللشيخ غاليو . ثم استطرد قائلاً : ليس من الغريب ان

يصلبوا ذلك اليهودي بعد ان طرد الكهنة من الهيكل ولكن ما الذي دفع ابنك الى التدخل في هذا الشأن ؟

— لقد عُهد اليه القيام بصلبه وهذا الامر ازعجهُ كثيراً فاذا شئتم فاني اخبركم الرواية كما فهمتها

ولما اجابه القيصر بالايجاب اخبره عن يأس ابنه مرسيلوس وتعاسته وسلوكه الشاذ الذي اضطرهم الى ارساله الى اثينا ظناً منهم ان حالته العقلية تتحسن

— فقال له طيباريوس اذا كان ابنك لا يستطيع احتمال رؤية الدم فلن نجبره على المحافظة على شخصنا . على اننا فهمنا من قبل من فم ابنة غولوس بانه شهمٌ شجاع لانها تقدره قدره وتحترمه كثيراً ولكي نُسرُّها اتينا به من منوع وجعلناه رئيساً لحرس الدارة ولكن يجب ان نتطلّع على حقيقة حالته لئلا يسبب لنا الخزي والعار فيما بعد

كان لهذا الكلام اسوأ وقع في نفس غاليو فاجابه على الفور ؟ لقد جعلتني يا مولاي الامبراطور في مأزق حرج اذ ليس لي الحق ان أبدي رأياً معاكساً لرأي جلالتكم على انكم تعتبرونني جباناً اذا كنت لا ادافع عن لحمي ودمي

فقال الامبراطور : لا بأس دافع عن ابنك

— ان مرسيلوس ليس ضعيفاً بهذا المقدار بل انه شجاع مقدام وجديرٌ بالانتماء الى الرعية الرومانية وحسبهُ منصبه فيها قاضياً . غير انني لم اعلم حق العلم كيف تأثرت حاساته بصلب ذلك اليهودي الا لكونه اعتقد ان ذلك الجليلي بريء من الجرم الذي عاقبوه عليه مثل هذا العقاب العنيف مع ان الوالي نفسه اعلن براءته وحاول الاحتجاج بشأنه

— وهل حُكم عليه بعدئذٍ بالموت ؟ العدالة التي تحكم بموجبها المملكة الرومانية في اورشليم . ومَن هو الحاكم في الآونة الاخيرة ؟ أليس هو هيرودس المحتال ؟

– نعم انهم حاكموه امام محكمة هيرودس ولكن الوالي بيلاطس البنطي هو الذي حكم عليه بالموت صلباً

– بيلاطس البنطي الذي بنى القنوات اكراماً لخاطر امرأته التي طلبت اليه انشاء حدائق واذ لم يكن لديه مالٌ كافٍ لجرّ المياه اختلس الدراهم من خزانة الهيكل . فقامت قيامة اليهود عليه وحدثت عندئذٍ مذبحة فظيعة قُتل في اثنائها الوف من الجند . واذا حدث مثل هذا مرة أخرى فعلى بيلاطس ان يستعد لدفع الثمن غالياً لانه انقاد الى مشيئة امرأته التي خشي شرّها

وهيرودس يعيش كالعلقة الكريهة يمتصّ دماء ابناء جلدته . اسمع يا غاليو لقد شهرت حروباً على بلدان عديدة واخضعت تحت سلطتي شعوباً كثيرة وتغلبت على جماعة المدافعين ومع انني جعلت المحاربين طعمةً للسيف فلم يسعني الا احترام بسالتهم اما هيرودس ذلك الثعلب فانه يدّعي انه يعمل لمصلحة ابناء جلدته ولكنه ازاء مصلحته الشخصية يتواقع على اقدامنا . يا له من وغدٍ لئيم . أيجوز لخير الامبراطورية ان يتولى مناصب في ولاياتها اشخاصٌ يبيعون شعبهم بيع الاغنام ؟ اني لاكره الخونة كل الكره

ولما ظنّ غاليو انه يُنتظر منه ان يقول شيئاً قال كنت افكر احياناً فيما اذا كان لخير مملكتنا ان يدير شؤون ولاياتنا أُناس خائنون كهيرودس فانّ رعايانا يكونون مظلومين ولكن غير مخدوعين . وان البعض منهم يحترق ولكنه لا ينطق .

– دعهم يبغضوننا ما استطاعوا فان الامبراطورية الرومانية لا تطلب من رعيتها المحبة بل الطاعة العمياء . فليبغضنا العالم كله وهذا لا يهمنا بتاتاً . ثم استطرد كلامه قائلاً : لقد سهونا فتمم القصة

– ان مسألة مرسيلوس غامضة كل الغموض على ان هناك امراً صغيراً لم اتكلم بصدده حتى الان وهو رداء ذلك اليهودي الذي صلبوه

فانحنى طيباريوس مصغياً اليه وقال : مسألة رداء

— قد فهمت ذلك من ديمتريوس خادم ابني الذي كان مرافقـاً له في غدراته وروحاته . وهو شاب ذكي لا ينطق بغير الصواب فقد روى لي انه لما صُلب ذلك الجليلي كان رداؤه مطروحاً على الارض واذ كان ابني والضباط يتلاهون بلعبة النرد القوا قرعة عليه فكان ذلك الرداء من نصيب ابني مرسيلوس

وفي تلك الليلة أدب الوالي مأدبة للقواد والضباط وقد كان مرسيلوس حسب رواية خادمه العبد ديمتريوس في حالة اليأس والقنوط ولكن سلوكه لم يكن شاذاً لا قبل القيام بالصلب ولا بعده وعلاوة على ذلك كان عقله صحيحاً سليماً . غير انه في غضون الوليمة طلب اليه احد الضباط السكارى ان يلبس رداء اليهودي الذي كان من نصيبه

فسأله طيباريوس وهو مهتم للامر هل لبسهُ ؟

— نعم لبسه ومنذ ذلك الحين تغيَّر تغيراً محسوساً

— أتظن ان ابنك يعتقد ان ذلك اليهودي لعن ذلك الرداء ؟

— يصعب عليَّ ان اخبرك لانني لا اعلم ما يعتقد لانه كتوم جداً

— ألهذا السبب بعثته الى اثينا ليستشير الفلكيين والمنجمين والسحرة . لِمَ لم ترسله الى رودس او بالاحرى الى هنا حيث يوجد كثير من امثالهم

— عفواً يا جلالة الامبراطور انني لم ادعه يذهب الى اثينـا لهذا الغرض . قد رجونا منه ان يتوجه الى خارج رومية لوقت ما كي لا يرتبك امره لدى رؤية اصدقائه وهو في تلك الحالة التعسة المؤلمة

— إذَنْ رداء اليهودي فيه شيء من السحر . وكأنَّ هذا الحديث طـاب لطيباريوس سماعه فقال : ان اليهود شعب غريب الاطوار ديّن يؤمن باله واحد . والظاهر من امر هذا الجليلي انه متعصب في دينه بحيث أغاظ رؤساء اليهود فخشوا من ان يكون جاءهم بمذهب جديد

– هل سمعت جلالتكم بمجيء المسيا ؟

– نعم سمعت ان المسيا سيجيء. وقد قال «تليارخس» انهم ينتظرونه منذ الف سنة وانه سيؤسس مملكة لا نهاية لها وتكون الرئاسة على كتفه ويكون عرشه في رومية . ولو لم يكن تليارخس مسناً لكنت امرت بجلده لتفوهه بهذا الكلام . فهل سمعت انت اكثر من هذا عنه ؟

– لم اسمع شيئاً خصوصياً انما قال خادم ابني ان الشعب يعتقد ان هذا الجليلي هو بنفسه المسيا الموعود به

– اتصدّق ذلك يا غاليو

– انني لست ديّناً يامولاي

سأل طيباريوس غاليو ايضاً : ألا تؤمن بالالهة ؟

– ليس لي ما اقوله بهذا الموضوع

– ربما تقول ايضاً انك لا تعتقد ان الامبراطور إله فما رأيك فيه ؟!

– اذا كان الامبراطور يعتقد نفسه انه اله فليس من داعٍ لاحد من رعيته ان يثبت له ذلك

وبعد هنيهة قال له طيباريوس ان في كلامك لخشونة ومع هذا فانك رجل امين وقد راقني حديثك فاذهب الان الى فراشك وسنواصل حديثنا . واني آسف جداً لكون ابنك لا يتمكن من قبول المنصب الذي اخترناه له

لحيّا غاليو ومضى نحو الباب فنظر اليه طيباريوس واخذته الشفقة عليه فقال له قفْ قليلاً فاننا سنجد مركزاً لابن غاليو الفاضل . دَع اليوم مرسيلوس يتمم دروسه في فن الحفر والنقش ويسمع محاضرات الخطباء. وبعدئذٍ يعود الينا فائزاً بقسط وافر من علوم المعاني والبيان والفلسفة لانه يوجد في هذه الدار امورٌ اهم من حراسة الابواب وسيكون ابنك مدرساً يخطب فينا فقد سئمنا خطب الشيوخ القديمة . ولا بدَّ ان مرسيلوس سيتحفنا بخطب جديدة طريفة . أبلغ مسامع ابنك

امرنا هذا

– ان جلالتكم مظهر الفضل واللطف وسأخبر ابني بكرَمك . ربما هذا المركز الجديد يساعده على استعادة قواه العقلية

– واذا لم يملك عقله تماماً فلا بأس لان اغلب الفلاسفة مرضى العقول على انه ما انهى كلامه حتى غرق في سبات عميق

وفي صباح اليوم التالي علم غاليو ان طيباريوس لا يزال مستغرقاً في النوم لذلك تناول فطوره في غرفته ثم خرج الى النزهة . لانه مضى عليه عدة سنين طوال لم يزر فيها كابري اي منذ الوقت الذي فيه طيباريوس شيَّد ودشَّن الدارة جوفس وادب المآدب الانيقة العديدة التي كلفت الخزينة مبلغاً كبيراً لا يُستهان به . ومع انه فهم ان بناء الدارات في ارض الجزيرة يكلف مبالغ جمة غير انه لم يخطر بباله انها تصل الى هذا الحدّ . ربما كان جلالته ضعيف الشعور لكنه كان مهندساً بارعاً

سار غاليو عاجلاً على الرخام العريض اللامع الى جهة الشرق ثم مال الى مظلة هناك وجلس في كرسي كبير واخذ يلاحظ الدخان الكثيف المتصاعد من فوهة الجبل فيزوف المشهور بقذف حممه الجهنمية فانه يشابه تمام المشابهة المملكة الرومانية لان له قوة عظيمة تحت الضغط اذ يقذف احياناً كبريتاً ومعادن شتى ذائبة . على ان حرارته لم تكن لتعطي دفئاً كافياً للراحة ولا مقذوفاته لتفيد الزرع . فكان فيزوف هذا آلة للخراب واداة أذى للسكان المقيمين في جواره فضلاً عما يصيبهم دائماً من الذعر والقلق

وهذا يماثل حالة الامبراطورية الحاضرة فان طيباريوس قال ليبغضنا العالم قاطبة وهكذا قال قبله الفرس والمصريون واليونان وكانت نهايتهم العبودية . فاخذ غاليو يناجي نفسه بقوله : هل ابقى حياً يا ترى لاشهد خراب الامبراطورية الرومانية واشاهد مَن يباشر هدم القصور والابنية العظيمة التي شادها القياصرة العظام . فقد ظهر على طيباريوس ليلة امس انه يوجس خيفةً من نبوءات الانبياء « انه سيأتي »

نعم قد رأى الخراب مقترباً ، لذلك قرّب جماعة السحرة والمنجمين اليه وقد قال : ان شخصاً سياتي وتكون الرئاسة على كتفه . ولكن لا يمكن انيكون ذلك الشخص يهودياً

واذ كان غاليو غائصاً في تأملاته هذه لم يشعر بمجيء ديانا حتى اقتربت منه ووقفت قبالته وهي فتاة طويلة القامة رقيقة الخصر نشيطة الحركة فابتسمت له ومدّت نحوه يدها مصافحةً فتلقاها بالترحاب وكانت هذه المقابلة الاولى التي اتاحت له الفرصة بالتحدث اليها لانها حينما كانت صغيرة السن تاتي لزيارة لوسيا لم يعرها اهتمامه لكنه لما وقف على العلاقة التي بينها وبين ابنه مرسيلوس اخذ يهتم بامرها . وقد احسّ اليوم بدهشة شديدة من رؤيتها كأنه لم يرها سابقاً لانهـا نمت نموًّا سريعاً فبلغت اشدّها فضلاً عن جمالها الرائع . لذلك لم ياخذه العجب بحب ابنه لها

ولما نهض حياها احسن تحية فكانت ترنو اليه بعينين جميلتين تزينهما اهداب طويلة ومن فوقهما حاجبان مقوّسان وقد عصبت راسها بعصابة حريرية حمراء ملائمة لشعرها الاسود وللون جبهتها الناصعة البياض ووجنتيها الورديتين . ثم تأمل عينيها فرآهما كعيني ابيها لا تهابان شيئاً لان غولوس اباها كان شجاعاً جداً وتدل عيناه على قوة ارادة لا تقاوَم فلم يستطع الشيخ غاليو الا احترام ديانا . وبعد ان تبادلا السلام قالت له اتسمح لي ان اجلس بقربك يا حضرة الشيخ

– بلا شك ، اجلسي يا عزيزتي . ثم استطرد قائلاً : كنت ارجو ان نتحادث معاً ، واذ قال هذا جلس في مكانه . فاجابته ديانا بالايجاب مبتسمة . فبدأ حديثه قائلاً : ان مرسيلوس عاد من سفرته الطويلة الى البيت متوعكاً يائساً فهو ونحن نشكر لكِ سعيكِ واهتمامكِ بارجاعه الينا وكان يودّ جداً لو يتاح له ابداء شكره بنفسه لاننا لما رأيناه على هذه الحالة لا يستطيع القيام بمهام مركزه ارسلناه الى اثينا آملين ان تغيير الهواء في تلك الناحية الجميلة يكسبه راحة لعقله وجسده معاً

وعند هذا توقّع غاليو ان تبدو عليها علائم الحيرة والدهش ولكن لم يحدث

شيء من ذلك . ثم تابع حديثه قائلاً : لقد طرأ على مرسيلوس امرٌ هامّ

– أجلْ قد عرفت ذلك

– اتعرفين هذا الامر كل المعرفة ؟

– اعرف كل ما قلته للامبراطور

– ولكن الامبراطور ما يزال نائماً

– ان الحاجب الذي قابلته اطلعني على كل شيء .

– يظهر لي ان نيقيوس الحاجب كثير الكلام

– ألم يكن في نيتك ان تخبرني كل شيء ؟ انا نيقيوس ليس ثرثاراً كما تبادر الى ذهنك فانه قلما يستطيع احد ان يفهم منه ما هو جارٍ في الدارة (الفلا)

– بما انك تعرفين هذه الحادثة فلم يبقَ من لزوم لاعادتها

– امرٌ غريب جداً . ما كنت لاصدق ان تنفيذ الحكم بالقتل يقلق بال مرسيلوس الى هذا الحد لانه اعتاد ان يرى اموراً عنيفة تجري امامه . بل ليت شعري ألم يرَ دماء تُسفك في ساحات الوغى . فعلامَ الحزن واليأس . ويغلب على ظني ان لهذه القضية سبباً اهمّ مما فهمت

– لم يكن السبب الاّ تنفيذ حكم الصلب

– ان ذلك لغريب ومؤلم معاً . وقد قال الحاجب ايضاً : ان الرجل كان بريئاً وان مرسيلوس لم يكن مذنباً لانه لم يعيّن هو نوع الموت ومع هذا وذاك فان كثرة الاهتمام والاغتمام لا تعيد الحياة الى ذلك اليهودي . وقال الحاجب علاوة على ذلك ان هناك ثوباً مسحوراً وان الظلام ارخى سدوله في رائعة النهار وان الرجل هو المسيًا المتنبأ عنه . فهل يخيّل الى مرسيلوس انه اهلك شخصاً له مثل هذه الاهمية العظيمة . اظن ان هذا لا يزعجه

اجابها غاليو : ساخبركِ بما اعرفه بشأن هذا الحادث لان ما لا يُدرك كله لا يُترك جُله وعليكِ ان تحليه حسب معرفتكِ

– لا لا ليس الان لربما نجد طريقة اخرى لانني لا اريد ان اعرّض والدتي للخطر

– ولكنكِ لا تستطيعين البقاء هنا

– ارجو منك ان تكتم ذلك ولا تفعل شيئاً . واذ قالت هذا اخذت ترتجف

– فسألها ممن تخافين ؟

فاسرّت اليه قائلة : انني اخاف من غايوس

الفصل الحادي عشر

عند شروق شمس اليوم السابع من شهر ايلول جاء الى مسكن أسرة يوبولس بائع فاكهة وخضرة واخبرهم ان السفينة فستريس رست في مياه بيريه . واذ كان مرسيلوس موقناً ان له فيها رسائل وليس في استطاعته ان ينتظر مركز ولاية المدينة لايصالها له لذلك توجّه بنفسه الى هناك في احدى العربات مصحوباً بخادمه الامين ديمتريوس وكان من العادة المألوفة ان يجلس الخادم بلصق السائق ولكن ديمتريوس في المدّة الاخيرة صار يجلسهُ سيده بالقرب منه لانهما كانا يتحادثان باللغة الارامية التي لم يكن استعمالها سهلاً وكان الناظر اليهما في هذه الحالة لا يمكنهُ ان يميّز الخادم من المخدوم

كان ديمتريوس صباح كل يوم بعد الفطور يذهب الى محل بنيامين الحائك اليهودي ليتعلّم منهُ اللغة الارامية ويفعل مثل هذا بعد الظهر ولم يكن بنيامين المذكور ليطلب منهُ إجرة مقابل اتعابه بل صرّح قائلاً : انه يجد نفسه مسروراً بتدريسه هذه اللغة مجاناً . الا انهُ مع توالي الايام اصبح عضواً نافعاً له . وكان ديمتريوس مساء كل يوم يعلم سيده الدرس الذي حفظهُ لكن مرسيلوس لم يرضَ ان يكون مديناً لبنيامين فكان ان اهدى اليه مقابل ذلك رزمتين من القطن المصري وعدّة اكياس من الصوف الممتاز في جبال قبرس حيث يُفرز في الاماكن الباردة منها

ولقد نجح ديمتريوس نجاحاً باهراً في اللغة الارامية ونسب ذلك النجاح الى الطريقة المُثلى التي يتّبعها بنيامين في التعليم ولكنَّ هذا قال اذا كان المرء يريد ان يتقن لغةً ما فعليه ان يباشر تعليمها لغيرهِ كما فعل ديمتريوس اذ جعل سيده يتقن

اللغة الارامية غاية الاتقان

وكانا في طريقهما الى بيريه يتناقشان في شأن الوصايا العشر فكان مرسيلوس يستصوبها وديمتريوس يخالفه فيقول انها غير عادلة وهو متحمس ومتمسك برأيه حتى انه كان يسهو عن التكلم احياناً باللغة الارامية فيعدل عنهــا الى اليونانية لغته الاصلية فيقول له مرسيلوس : لا تتحدث عن الوصايا العشر بلغةٍ وثنية

– ولكن يا سيدي هذه الوصايا غير عادلة فطوراً يُقال فيها « لا تسرق » . ان هذه الوصية حسنة بحد ذاتها ولكن أليس من وصية اخرى توجب على صاحب الملك ان يحسن الى الفقير ويكرمهُ كي لا يضطرهُ الى السرقة ؟ وتارةً يُقال « لا تشتهِ » كذلك هذه نصيحة حسنة ولكن هل من الحق ان تقول للفقير لا تحسد الغني على خيراتهِ وتنسى ان تنبّهُ انه لا يجوز ان يكون محباً لذاتهِ

اجابه مرسيلوس : انت تنظر الى الوصايا نظر الخادم الى مخدومهِ اما انا فأرى ان الخطأ الوحيد فيها هو التوصية بعدم صنع تمثال ما فيظهر ان يهوه (اسم خالق الكون) لا تهمهُ الفنون

– لقد كانت الغاية من وصيتّهِ هذه منع الناس من صنع الاصنام

– ولكن ما ذنب الاصنام ؟ انها غالباً من جملة الفنون وعلى الشعب ان يعبد شيئاً فمن اللائق ان يكون جميلاً رائعاً . ان زيوس الاله الشيخ لم يعترض للنحاتين اليونان حين صنعوا آلهة كثيرة متنوعة الاشكال والاجناس وقد كان على تلة مريخ اربعون تمثالاً منها واحد كانوا يسمونه « الاله المجهول »

– ماذا قال زيوس بهذا الاله يا تُرى ؟

– ربما ضحك انت تعلم انهُ يضحك احياناً . اما « يهوه » فانه لا يضحك

– ربما لا يظن « يهوه » ان في العالم ما يوجب الضحك

– هذا خطأهُ فاذا كان هو قد خلق العالم فمن الضروري ان يجعل في العالم ما يوجب الاستهجان . فسكت ديمتريوس ولم يجب عندئذٍ قال مرسيلوس : ان هذا

اسخف كلام قلتهُ في حياتي . ان هذا الدرس الارامي جعل دوام التقرُّب بين الخادم والمخدوم صعباً . اجاب ديمتريوس ليس الى هذه الدرجة ثم ضحك كلاهما

* * * *

لما وصل مرسيلوس الى ظهر السفينة كان ربانها ملقيوس يصدر اوامره الى الخدم ثم حانت منه التفاتة فرأى مرسيلوس لكنه لم يعرفه حق المعرفة الا بعد ان حدّق ببصره اليه واذ ذاك طفح السرور على قلبه وحيّاه باحسن تحية قائلاً له : انني بالجهد عرفتك لما انت عليه اليوم من حسن الصحة وقد افتكرت بك مراراً عديدة حينما كنت فيما مضى مريضاً يائساً

– يغلب على ظني انني سببت لك القلق والتعب حينما كنت مريضاً امـا الان وقد تماثلت للشفاء فلا يسعني الا ان اشكر عواطفك الكريمة . ثم وقع نظرهُ على ديمتريوس فصافحه محيياً وخاطبه قائلاً : مـا كنت لانسى الخدمة التي اديتها اليَّ يا بنيَّ حين كنا مسافرين من يافا ولما سمع مرسيلوس هذا الكلام دُهش فالتفت نحو ديمتريوس وقال له : لم اسمع بتلك الخدمة مطلقاً

– لم تكن تستحق الذكر لابلغك اياها

فصرخ ملقيوس قائلاً : كيف لا تستحق الذكر وقد انقذني من الخطر . ثم التفت الى مرسيلوس وقال له لم نشأ وقتئذٍ وانت مريض ان نخبرك بتلك الحادثة التي جرت لي اما الان فقد تماثلت الى العافية فانني اقصُّ عليك ما حصل تماماً : وهو ان في الطبقة السفلى من السفينة حرٌّ لا يُطاق . ففي احدى الليالي خطر لعبد مختل الشعور ان يقتلني ففكَّ اصفاد يديه واخذ مسلَّة كبيرة وتحفَّز لغرزها في دماغي وما شاهد ديمتريوس منه ذلك حتى وثب عليه وانتزعها من يده وبذلك يكون قد خلَّص حياتي

– انني لفرح يا سيدي لانني كنت هناك في ذلك الوقت . اجابه الربان ليهنأ

كلٌ منا بالسلامة . ثم اعلمك ان لك هنا عدة رسائل يا مرسيلوس وقد كلفت احد اعضاء المجلس الذي يحمل اليك كتاباً من لدن الامبراطور ان يسلمك اياها بطريقهِ فامتنع عن ذلك قائلاً : انه ليس من شؤون وظيفتهِ توزيع البريد وامارات الكبرياء ظاهرة على وجههِ

– اذاً يجب عليَّ ان اسرع الى البيت كي لا ادعهُ ينتظرني كثيراً

– هو رجل مسموع الكلمة بعيد الهمة ودأبه تبليغ الاوامر وانا متكدّر لانه سيذهب الى اورشليم ويسلّم ايضاً رسالة من الامبراطور الى بيلاطس البنطي ثم يعود في السفينة عينها . وهذه الرحلة تستغرق نحواً من خمسة وستين يوماً . ثم قال له اتسمح لديمتريوس ان يبقى معي اليوم في المركب ؟

– لا بأس سيأتي غداً اذا شئت . لانني افتقر اليه في هذا النهار اذ ربما يتضمن كتاب الامبراطور ما يغيّر الخطة التي وضعناها لهذا اليوم . اما ديمتريوس فانه شكر للربان لطفه وظرفهُ

فتح مرسيلوس في اثناء طريقهِ رسالة والدهِ فسرَّ بها ولا سيما عند ما وجد ايضاً رسالتين احداهما من والدتهِ والاخرى من لوسيا . اما رسالة ديانا التي تلقاها فكانت من كابري وقد ادهشهُ امرها فحاول ان يقرأها اولاً ثم ما لبث أنْ فضّل ابقاءها ريثما يصل الى البيت غير انه تراءى له قبل ان يفضّ غلافها ان يدقق نظرهُ فيهِ ثانية فوجد في محل الختم اثراً يدل على فتحهِ واعادتهِ الى ما كان عليه فقال له خادمهُ : لا شك في ان يد امرأة فتحتهُ وقرأت مضمونهُ . ثم اعادت ختمهُ وهاك علامة اصبعها فاستاء مرسيلوس عند رؤية ذلك لكنهُ اخذ الرسالة ووضعها تحت ردائهِ

ثم ابتدأ يقرأ اولاً كتاب والدهِ الذي يخبرهُ فيهِ بانهُ رجع الان من كابري حيث توجّه ليعرب عن سبب تغيبهِ الفجائي . ثم تابع كلامهُ قائلاً : وقد اضطررت ان اطلع الامبراطور صراحةً على موقفك الحالي لان الرسالة المتضمنة امر تنصيبك

وصلت الينا وانت ما تزال راكباً البحر

اخيراً التفت الى ديمتريوس وقال اصغِ الى ما يقول والدي . ان الامبراطور قد ولاّني قيادة الحرَس في كابري هذا هو الخبر المهمّ في هذه الرسالة . فما هي يا تُرى واجبات القائد هناك ؟

– هي ان يأكل طعامهُ وينام في لباسه الرسمي ويفتح احدى عينيهِ في اثناء النوم كما قال الشاعر :

ينامُ باحدى مقلتيهِ ويتقي بأُخرى المنايا فهو يقظانُ نائمُ

قال مرسيلوس : بينما عبدهُ ينام وعيناهُ مفتوحتان . ان الحق معك يا ديمتريوس لان الجزيرة ملأى بالجواسيس والحسّاد . ثم تابع قراءة الرسالة ان للقيصر عملاً آخر يتعلّق بك . فقد لذَّهُ سماع ما حدث لك في اورشليم ولما افهمتهُ ان بعض اليهود يعتقدون ان اليهودي المصلوب هو المسيا . عند هذه العبارة توقف مرسيلوس عن اتمام الرسالة وحدّق الى ديمتريوس وسأله من اين عرف والدي ذلك ؟

– انا اخبرتهُ لان الشيخ غاليو الحّ عليَّ ان اعلمه كل ما جرى هناك ورأيت من حقك انت ان تخبرهُ بذلك . ولما كانت حالتك الصحية آنئذٍ لم تمكنك من اعلامهِ فقد توليت انا الامر بالنيابة عنك

– كلامك حق يا ديمتريوس لكن عسى ألا تكون قد بُحتَ له بشيء من امر الرداء

– لقد اوقفتهُ على ذلك يا سيدي لان الرداء المذكور هو سبب مرضك وبدون اطلاعه على حقيقته يكون تفصيل الحادثة ناقصاً

– لنتمم اذاً قراءة الرسالة . يقول ان الامبراطور اهمتهُ هذه القضيَّة جداً لانه مطلّع على شؤون جميع المذاهب وقد سمع كثيراً بنبوءات انبياء اليهود بمجيء المسيا . لذلك هو يرغب في ان تتمم علومك في اثينا ولا سيا علم الاديان وعندئذٍ تعود الى كابري كاستاذ ماهر . فابتسم مرسيلوس لدن قراءتهِ هذه الجملة وقال : أمن

الممكن ان تتصوَّر شخصي واقفاً اعلّم واخطب في دار البرابرة ؟

اجابه ديمتريوس : ان هذه الوظيفة لا تستوجب الضحك والازدراء لانها مصيبة تؤثر في الافكار والقلوب معاً . ولان لدى الامبراطور كثيراً من السحرة والمنجمين والفلكيين . فيكون عملك فيها مخزياً يا مولاي

– أتظن انه يرجو مني ان اعلّم هؤلاء اشياء وهمية وترَّهات لا طائل تحتها

– اخال انه يرجو منك ايضاحاً كافياً بخصوص ذلك الرداء.

– قال مرسيلوس ولكنه حقيقي غير وهمي؟

– ليس ذلك في مخيلتي او مخيلتك لكن عندما يتحدث عنه الامبراطور او السحرة لا يلبث ان يمسي اكثر من خرافة . على اني لا اريد ان يستهزئ به ذلك الشيخ الممقوت ولا اتباعه المختلو الشعور .

– وقد جاء في ختام الرسالة ما يأتي :

اني لا ادري هل تهمك هذه الوظيفة يا تُرى ؟ وحيث ان عقل الامبراطور كما لا يخفاك متقلّب فاذا كانت هذه ارادتهُ فليس لك الا الطاعة . ولقد أذِنَ لك لحسن حظك ان تبقى في اثينا مدة طويلة ريثما تنهي فيها دروسك . ومع اننا جميعنا نتمنى لك الرجوع الى رومية فاني لا اشير عليك ان تسرع في المجيء.

لم يشر غاليو بكتابه الى شيء من امر ديانا حال كونها كانت في كابري حينما كان والدهُ هناك . قال مرسيلوس انني متكدّر لان ديانا ليست في مأمن هناك حيث فتحوا رسائلها وتجسسوا اخبارها

* * * *

لقد حدث فجأةً اضطراب في دار يوبولس حيث لم يكن يدخل اليها رجل بلباس رسمي من قِبَل امبراطور رومية الا نادراً . فلما شاهد دايون مرسيلوس مقبلاً قال له وهو يضطرب من الخوف ارجو منك الاسراع في الدخول لان الامبراطور بعث اليك برسالة مع كنتوس احد اعضاء مجلس الاعيان وان هذا لا

يزال منذ مدة منتظراً وقد قال لنا : ان لم يحضر سريعاً فانه يشكونا الى الوالي .
فاجابه مرسيلوس هدّي روعك يا دايون فانّ السبب في ذلك ليس عليك بل عليّ
وبعد ان نزل من العربة وسار في المشى رأى الخدم ينظرون اليه نظرات الخوف والشفقة وكانت ثيودوسيا في الارجوحة ووالدتها وعمتها جالستين بقربها . وكان عضو المجلس المشار اليه يتمشى ذهاباً واياباً امام مدخل البيت وعلى وجهه العابس علائم الافتخار والاعتزاز

– آه هوذا كنتوس مرافق غايوس قال مرسيلوس وقد ادرك حالاً السبب الذي جعل كنتوس يغتاظ من جرَّاء هذه المهمة الرسمية ويظهر ان غايوس كان في قلق زائد لان الامبراطور كتب اليه يعلمه باصدار اوامره المشددة بارجاع مرسيلوس من منوع . اما غايوس الذي رأى ان انتقامه لم ينفذ فقد كان غيظه لا يُحدّ ولا يوصف فقال كنتوس الى متى ينتظر رسول الامبراطور ؟

– لم أحطْ علماً بوصول مرسوم اليَّ من لدُنْ الامبراطور . وبما انني قدمت الان من السفر فاقترح عليك ان تقوم باجراء مهمتك على الوجه الذي يليق تجاه روماني آخر . اعني الندّ للندّ وفي الحال سلّم كنتوس الى مرسيلوس رقيم الامبراطور المذهب

– اما تنتظر جواباً عليه ؟

اجابه كنتوس بَلى لكني انصح لك ألا تعيقني اكثر من ذلك لان رُسُل الامبراطور لم يعتادوا تمضية اوقاتهم في نزال اليونانيين . اغتاظ مرسيلوس ولكنه كظم غيظه وقال : اني سأقرأه بنفسي واجاوب عليه . فهل لك ان تنتظرني قليلاً من الوقت او ان تعود اليَّ بعد هنيهة لاعطيك الجواب . . لك الخيار في الحالتين ولما دخل مرسيلوس غرفته التفت كنتوس الى ديمتريوس وقال له أ انت خادمه ؟ اجابه نعم – قل لي مَنْ هي السيدة الجميلة الصورة التي في تلك الارجوحة

– هي ابنة يو بولس

– يجب ان نتعرَّف اليها ريثما ننتظر هنا . وما فاه بهذه العبــارة حتى توَّجه مختالاً نحو الارجوحة

اما دايون والد الابنة المومأ اليها فقد سبقه ووقف امامها وقد تبعهما ديمتريوس ولما اقترب كنتوس من ثيودوسيا وقف تجاهها وسألها بكل وقاحة عن اسمها . اجابه دايون هي ابنتي

– انك لسعيد ومحظوظ بهذه الابنة البديعة الجمال ثم قال له : يجب ان نعرفها اكثر من ذلك وللحال مدَّ يده ليصافحها عندئذٍ قال له ابوها ارجو منك كل الرجاء ان تعلم ان بيت بوبولس تحترمه الخاصة والعامَّة فبناء على ذلك لا تكدّر ابنتي

– مَنْ انت يا هذا حتى تتصدَّى لرسول الامبراطور وتعلمه ماذا يجب ان يعمل؟ ثم أوعز الى والدتها وعمتها فيب واينو ان يذهبوا ايضاً في الحال فغادروا المكان وصفرة الموت بادية على محياهم ثم استلَّ خنجره من منطقته والتفت الى ديمتريوس وقال له : ماذا تعمل هنا يا عبد السوء ؟

– ان سيدي امرني ان ابقى هنا . ثم ان ديمتريوس اشار الى ثيودوسيا وقال لها : الاجدر بكِ ان تتبعي والدتك

فامتلأ كنتوس غيظاً ورفع يده ليضرب بها ديمتريوس غير ان هذا هجم عليه كالاسد المصور وقبض على كلتا يديه بكل ما مُنح من قوة الى ان اضطره الى رمي الخنجر الى الارض ثم انهال عليه باللطم واللكم في كل جهة من جسمه حتى وقع تحت اقدامه والدم يسيل منه واذ ذاك رفع عينيه الى ديمتريوس مهدداً وقال : انك يا عبد السوء ستموت اشنع ميتة فما كان من ديمتريوس ساعتئذٍ الا ان كسر انفه وفكه وتركه على الارض مغشياً عليه

ثم قال لدايون لا تحاول الفرار فما كان لاحد ان يظلمك او يؤذيك لانني انا المذنب لا انتَ . آته بطست مــاء ومنشفة فانه بعد هنيهة يستفيق من غشيته وينهض واذا حاول القتال ثاني مرة ادعني فأنذره بسوء العاقبة قال هذا وذهب نحو

غرفة مرسيلوس

فلما شعر بمجيئه قال له من دون ان يلتفت اليه . اتعلم يا ديتريوس ان الامبراطور يامرني ان اعود الى فلسطين حيث ازيده بياناً بشأن الجليلي . اما تحسب انني كنت أسرّ جداً لو انه انتدبني لغير هذا المنصب . ان طيباريوس يروم ان يعلم هل كانت الاشاعات عن يسوع بكونه المسيأ نفسه حقيقيَّة او باطلة . اما انا فلا يهمني شيء من هذا انما اريد ان اعرف هويته وهذه فرصة ثمينة لنا وعلينا ان نتابع درسنا الارامي بكل نشاط واجتهاد وفي اوائل فصل الربيع نرحل الى الجليل . واذ قال هذا ختم الجواب بخاتمه ووضع قلمه على المنضدة ثم نظر الى ديتريوس ولما رآه اصفر الوجه سأله ماذا كنت تعمل ؟

– كنت اتعارك انا وكنتوس لانه اهان اسرة يو پولس ولا سيما ثيودوسيا

– ولكن يتبيَّن لي من يديك الملطختين بالدم أنك ادميته وبالغت في اذاه وهذا شيء فظيع للغاية بحيث لا يحق لعبد يوناني ان ينازل عضواً رومانياً

– انني اعلم هذا حق العلم يا سيدي لذلك يجب ان اركن الى الفرار

– يجب ان تهرب حالاً ولكن الى اين ؟

– الى ملجإٍ في الجبال اختبيء به قبل ان ينتشر الخبر

– امتألم كنتوس كثيراً ؟

– ضربته بيديَّ فقط ولكن حالته تستدعي الشفقة والاهتمام

– اذهب حالاً واغسل يديك واجمع امتعتك للهزيمة من هذا المكان وبعد ان اوصاه بذلك دخل الى غرفته وملأ كيساً من النقود الذهبية والفضية والنحاسية ثم كتب صكاً يتضمَّن عتق ديتريوس من رق العبودية وسلَّمها اليه وقال له : خذ هذه الدراهم لتنفقها في السبيل الذي تحتاج اليه وتسلَّم ايضاً هذه الشهادة بانك اصبحت من الان فصاعداً حرّاً مطلقاً . اما انا فسأبقى هنا الى اوائل فصل الربيع ثم اتوجَّه الى اورشليم واقضي فيها كل ايام الصيف او اكثر منها ثم اقفل راجعاً الى

جزيرة كابري لكي ابلغ الامبراطور حقيقة الاشاعات

– ليتني اكون بصحبتك يا سيدي لانه يعزُّ عليَّ فراقك كثيراً

– وانا سارى ببعدك عني يا ديمتريوس وحشة زائدة . فاكتب اليَّ حالاً حيث تكون واخبرني عمّا تحتاج اليه واذا ما قُبض عليك فانني لا أدَع مكاناً من الامكنة دون ان افتش عنك واسعى لخلاصك

اشكر لك لطفك وحنوك والآن التمس منك ان تسمح لي باخذ كيس الدراهم فقط اما صك حريتي يا سيدي فارجو ان تبقيه عندك خوفاً من ان يراه احد فيظن انك كافأتني به على الحاقي الاذى بكنتوس – فالوداع الوداع يا سيدي العزيز الحنون . اني ارى نفسي حزينة حتى الموت اذ ربما يتعذر علينا الاجتماع ثانيةً ولي ملء الرجاء ان تعلم ثيودوسيا السبب في عدم وداعي لها

وبعد رحيل ديمتريوس وخروج مرسيلوس من البيت لقيه دايون الذي اخذ الخوف منه كل مأخذ فقال له هل سمعت ما حدث ؟

– كيف حال الجريح ؟

– في حالة يرثى لها وقد هدّدنا برفع شكواه الى الوالي

– لا تخف يا دايون لكن اخبرني عن الحادث بتمامه

– ان العضو كنتوس اظهر قلة احترام لثيودوسيا فتدخل بامرها عبدك ديمتريوس واذ ذاك شهر عليه كنتوس خنجره فكان من ديمتريوس ان ضغط على يده فاسقطه منها واخذ يضربه على فمه وعينيه وانفه حتى اثخنه بالجراح وتركه بحالة سيئة جداً مغشياً عليه

واذ اقتربا من كنتوس وجداه لا يزال على تلك الحالة التعسة فلما وقع نظره عليهما حملق بعينيه ورفع يديه مهدداً ومتوعداً بانه سيشكو امره الى الوالي الذي لا يلبث ان يطرح المعتدي الاثيم في غيابة السجن ويأمر بقطع رؤوس كل مَن في البيت فقال مرسيلوس للجريح . بمَ افتكرت ان تخبر الوالي ؟ بل ماذا تتصوَّر ان

يُقال عنك في دار الولاية عندما يسمع الوالي والقضاة انك اهنت شابة محترمة وحاولت ان تطعن الخادم الذي تدخّل بشأنها وكيف حملته مروءته على ضربك بيديه ورجليه حتى تركك على الحالة التي انت فيها لا تقوى على النهوض . تعال لارافقك الى الولاية وهناك يفهمون ان العضو الروماني لا ينازل عبداً يونانياً

– فاجابه على الفور اني لا ارافقك ولست بحاجة ماسّة الى معونتك

قال له دايون : اذا شئت ان تبيت عندي ريثما تسافر السفينة فستريس فلا يمكن ان يراك احد

قال مرسيلوس انه رأي مصيب فيجدر بك ان تعمل به وتقبل نصيحته

– انني ساقطّع عبدك إرباً إرباً

أتريد ان اذهب في الحال وارسله اليك اذ لعلّك تشاء ان تقطعه الآن

* * * *

كانت الايام قصيرة باردة ومزعجة تحقق مرسيلوس في غضونها أن لا غنى له عن الاعتماد على ديمتريوس خادمه الوفي ليس بالنظر فقط لاشغاله الخاصة بل للصداقة والمنادمة. لذلك شقّ عليه بعاده عنه وشعر كأنه ضائع لا دليل له. على انه لم يحدث شيء جديد في خلال غيابه عنه بل كانت الاحوال تجري على وتيرة واحدة فكان صبيحة كل يوم يتوجّه الى محل بنيامين ليواصل درس اللغة الارامية وعند الظهر يعود الى النزل ويصرف بقية نهاره في غرفة الدرس شاغلاً وقته بدون لذّة في صنع راس من الرخام وهو يعتقد في نفسه انه يشابه كل المشابهة رأس ديانا غير انه في حقيقة الامر لا يمثله مطلقاً لانها اولاً كانت بعيدة عنه كثيراً وثانياً لكونه لم يعلق في ذهنه الا القليل من هيئة وجهها الحقيقي

كان قد ورد عليه رسالتان منها احداهما من كايري مكتوبة بعجلة تقول فيها انها وقفت على الامر الصادر من لدن الامبراطور بابقائه في اثينا وذهابه بعدئذٍ الى

اورشليم ليمدّه بالمعلومات الحقة بشأن الشاب اليهودي الغامض . اما ما ذكرته بشأنها هي فملخصه :

١ - ان الامبراطور قد الحّ عليها بالبقاء في كابري بضعة اسابيع وقد لبّتْ امره اولاً بالنظر الى انعاماته القيّمة نحوها وبالتالي لانه يشعر بسآمة في هذا الاوان . واما الرسالة الثانية فكانت من البيت وقد استنتج مرسيلوس من خلال سطورها ان العربة تنتظرها على الباب وان شخصاً يقرأ ما تكتب اليه حرفياً . امـا الرسالة المذكورة فكانت لطيفة بحد ذاتها غير انها لم تشر قطّ الى الحب المتبادل بينهما وقد اعاد قراءتها مراراً عديدة ولكنه لم يستطع ان يستنتج منها بعد اعمال فكرته سوى ان ديانا كانت خائفة حذرة من ان شخصاً ثالثاً سيطّلع على ذلك اوان محبتها له ذهبت ادراج الرياح فعلى كلا الامرين امسى في قلق وسآمة ويأس

في صبيحة ذات يوم بينما كان مرسيلوس واقفاً تجاه النافذة ينظر الى الغيوم السوداء وقد تلبدت في الافق عقيب الثلوج التي تساقطت ليلاً اذا به يناجي نفسه ويسأل : أيذهب كعادته الى محل بنيامين الذي يكون في انتظاره ام لا . اخيراً قرّر ان يتوجه اليه وعند وصوله حيّاه بنيامين وقال له : هذا كتاب وارد اليك بواسطتي وقد سلمه اليَّ زينوس الاثيني الذي يخدم صديقي پوپيكس . ولديك الان فرصة لتمارس اللغة الارامية ثم قال مفتخراً ان لغة ديمتريوس حسنة . فللحال احضر مرسيلوس كرسياً صغيراً ووضعه قرب سقيفة الحياكة وجلس عليه ثم فضّ الكتاب واخذ يتلوهُ بصوتٍ عالٍ على مسمع من بنيامين وكان هذا يصلح له الاغلاط ويفهمه معنى الكلمات الصعبة بكل رغبة وارتياح وهذا نصه :

« كتاب ديمتريوس الى سيده مرسيلوس »

سيدي المحترم :

اكتب اليك هذا الكتاب في يوم سبت اليهود وانا ساكن في علية بيت قديم

تطل على قرية قدرون التي ليست بعيدة عن ساحة الهيكل ويقيم فيها معي شاب يهودي يوناني يدعى استفانوس وهو صديق صدوق وذكي مهذب . وقد امضى ليلة امس خارج البيت بمهمة سرية فلم ار وجهه الى ان لاح الصباح

لقد وصلت الى اورشليم منذ ثلاثة ايام فقط . واذ كنت واثقاً بصداقة الربان فلفيوس قصدت الى بيريه ومنها الى السفينة فستريس حيث اخبرته بما جرى لي فخبأني في جوفها . ولما اقلعت السفينة في اليوم التالي اخرجني الى ظهرها حيث اخذت حريتي وكان مستخفياً هناك رجل رفيع المقام يشكو من امر ألمّ به وكانت السفينة قد تجاوزت بنا مدينة الاسكندرية فما ان وقع نظره عليّ حتى اوعز الى الربان ان يكبلني بالقيود غير ان هذا رفض اجابة سؤله قائلاً له : اني دفعت اجرة سفري مع اني لم ادفعها ومع هذا فانه يسلمني في الميناء الذي تصل السفينة اليه

ولما رست السفينة ليلاً في خليج غزة انزلني فلفيوس حالاً الى الشاطئ. فابتعت ما يلزمني من الحاجيات وسرت مشياً في الطريق عينها التي سافرنا فيها من منوع الى اورشليم . ولما وصلت الى وادي اشقلون هجم عليّ بعض البدو وسلبوا مني بعض امتعتي ثم اطلقوا سبيلي . واذ كان الطقس بارداً ولباسي خفيفاً اضطررت الى النزول في بيت احد السكان الفقراء . وقد اعتدت ان اشرب حليب المعزى الساخن وان آكل القمح الجافّ . ووجدت بعد الاختبار ان شرب البيض بواسطة غشائه الخارجي لذيذ جداً . وان البقرة عندهم لا تضنّ على الغريب بمشاطرته مكان سكنها

وفي آخر يوم من رحلتي تيسر لي ان ابيت في اصطبل حانة من حانات بيت لحم . وقد بعث اليّ صاحبها عند الصباح بقليل من الحساء الساخن وبرغيف من الخبز الابيض

وقد اخبرني الخادم ان من عادة صاحب هذه الحانة ان يصادق المسافرين الفقراء . وقد لاحظت على حاشية المنديل الذي وُضع فيه الخبز رسم سمكة فتعجبت من ذلك لانني رأيت الرسم عينه منقوشاً على باب الاصطبل . وبعد ان غادرت بيت لحم

شاهدت ايضاً رسم سمكة على الرمل كاشارة لمن يريد من خاصة الناس ان يسلك تلك الطريق الرملية . ولما كنت اجهل معنى هذا الرسم لم اهتم بشأنه وقد نسيته

وحين وصولي الى اورشليم كنت جائعاً ومتألماً من وجع رجليَّ. لذلك عزمت على الذهاب الى محل حائك لعلي اتمكن من الاشتغال فيه بكسب اجرة تساعدني على تأمين معيشتي الى ان يتيسر لي عمل اكثر موافقة من الحياكة وقد قادني الحظ حينذاك الى مشغل حياكة بن يوسف وتعرفت هناك الى رجل يوناني يدعى استفانوس ولما علم انني يوناني وقد اشتغلت في اثينا بمحل بنيامين الحائك المعروف عنده وعند غيره ، ناطَ بي عملاً كانت اجرته زهيدة مع ما اكسبه من الخدمة التي اقوم بها . وقد شاء ان انام في بيته ولا شك ان اهتمامه بشأني ناجم عن كوني يونانياً . على ان في اورشليم يونانيين كثيرين وقد نزحوا اليها يوم أُخضعت مكدونيا . ولما علم انني ملمٌّ بالعلوم سرَّ كثيراً

وفي اول ليلة من اجتماعنا معاً اخذنا بعد تناول العشاء نتحادث عن الاشياء المختصة باليونان التعساء . وكان استفانوس قد رسم صورة سمكة على لوح صغير وعرضها على نظري كأنه يطلب مني ايضاح معناها . فاجبته انه لا يهمني امرها مع انني رأيت مثل هذا الرسم سابقاً فلم اعبأ به . ثم سألني هل كنت علمت شيئاً بخصوص يسوع الجليلي فاجبته بالايجاب وقلت له : انني اودُّ ان اقف على اكثر مما وقفت ثم اكمل قائلاً : ان الذين آمنوا بتعاليم يسوع قد اضطُهدوا كثيراً حتى اضطرهم الامر ان يجتمعوا ويتباحثوا في مكان خفيّ امين . وهذه السمكة تدل على التعارف فيما بينهم . على انه لم يخبرني كيف اصطلح اليونانيون على استعمال هذه العلامة لان يسوع لم يكن صياداً بل كانت حرفته النجارة . وقد قال ايضاً ان يسوع منح الحرية لكل الناس . ولما رأى استفانوس مني شدة الرغبة في الاستفادة بصدد هذا الموضوع وعدني بان يفيدني اكثر من ذلك عند سنوح الفرصة له

وقد اكتشفت ان مسكن بن يوسف لم يجعله للحياكة فقط بل لاجتماع اصدقاء

يسوع وكان مكاني فيه وضيعاً بحيث ان الذين يأتون للاجتماع لم يبالوا بامري بل انهم يلتفون حول الشيخ الذي يشتغل على منواله القديم

وقد اتى امس الى هنا رجل ذو لحية كثيفة مديد القامة قوي العضلات وصرف زهاء ساعتين يتحدث مع شابين باحدى زوايا المحل وقال استفانوس ان هؤلاء الاصدقاء جليليون وكانوا يسمون ذلك الرجل « الصياد الكبير » والاخوين الصغيرين « وَلديْ الرعد ». ويلوح لي ان الرجل الكبير هو زعيم الجماعة . غير انني لا ادري كيف يعقدون اجتماعهم سراً ما دام يسوعهم قد صُلب ومات . والذي يدهشني منهم ان اضطرابهم ليس صادراً عن خوف وجزع بل عن اغتباط وسرور وان تصرفهم بامورهم في حالة التستر لما يدل على وجدانهم شيئاً ثميناً يريدون اخفاءه عن العيون

وقد قدم من البلد في هذا النهار رجل طويل القامة يُدعى برسيباس يستوس من صفورة في قرى الجليل فحيَّاه الجميع بعاطفة الشوق كأنهم لم يروه منذ امد طويل . ولما كنت واستفانوس عائدين الى منزلنا اخبرني ان يسوع اتخذ منهم اثني عشر تلميذاً له احدهم يهوذا الاسخريوطي الذي خان عهده وسلمه الى الكهنة وبعد ذلك ندم على ما فرط منه فشنق نفسه فكان ان اجتمع رفقاؤه الاحد عشر ليختاروا تلميذاً جديداً بدلاً منه فالقوا القرعة على شخصين من اتباع يسوع احدهما يدعى متياس والآخر يسمى برسيباس يستوس وهما اللذان كانا يسمعان بلذة وشغف عظاته وتعاليمه السامية المفيدة للشعب وقد شاهدا اعماله العجيبة المدهشة التي سيخبرني عنها استفانوس حينما يجد فرصة تمكنه من ذلك . واظن انه يريد مني باديْ ذي بدء ان أحسن ظني فيه واحترم كلامه

وانا التمس منك حسبما يتراءى لي يا سيدي انك عند مجيئك الى اورشليم لكي تستفهم اكثر عن يسوع ان تتعرف بكل تحفظ الى رجل مثل برسيباس يستوس الذي عنده كل الخبر لان المراقبة على اتباع يسوع وانصاره لشديدة جداً

بحيث يوجسون خوفاً من انتشار صيته وامتداد سطوته . لا سيما وان رؤساء الهيكل يشعرون ان تعاليم الجليلي تحتوي على بذور الثورة ضد ديانتهم . والولاية تعتقد انه حالما ينسى الشعب يسوع يستطيعون ان يعيدوا عيد الفصح الثاني بدون شغب وفتنة سياسية

لقد كنت اردّد في فكري في خلال الثلاثة الايام الاخيرة انك تقدر ان تجيء الى قرى الجليل دون ان تقع الشبهة عليك وترحل منها الى اورشليم كتاجر له خبرة كافية بالمنسوجات اليهودية وميل خصوصي الى الحياكة الجليلية البيتية ودعهم يفهمون ان منسوجات كهذه مرغوب فيها جداً بمدينة رومية. ولا بأس اذا سألت في المخازن التجارية عن اصناف مثل هذه ودفعت ثمنها غالياً ولو كانت قيمتها الاصلية رخيصة وتظاهر بالسذاجة في الشراء واذ ذاك ينتشر الخبر ويصبح سعرها غالياً .

وفي اثناء تفتيشك عن النسيج الجليلي لا بدَّ من انك تمر بمحلّ بن يوسف حيث تظهر للقوم انك تريد السفر الى نواحي كفرناحوم لشراء شيء من ذلك النسيج وفي الوقت نفسه تسألهم عما اذا كان يوجد دليل خبير تقدر ان تعتمد عليه لقضاء هذه المهمة . واظن انك ستختار من بين جماعة الجليليين الكثيرين الذين يجيئون الى ذلك المحلّ برسيباس يستوس فانهُ افضل دليل لك وبذلك تكون احرزت النجاح والتوفيق في مهمتك التي تسعى اليها .

واعتقد ان الشعب يتشتت شمله عندما يقترب اسبوع الفصح الثاني لان الجند يكون متيقظاً ونشيطاً لمنع اي اعتداء وحوادث جديدة فأرى من المناسب ان تاتي الى هنا قبل الفصح بشهر واحد حيث يكون فصل الربيع قد اقبل واكتسبت المدينة حلة قشيبة جميلة لكني ارى من الحكمة الا تتظاهر بمعرفتك اياي ولو تقابلنا وجهاً لوجه لان استفانوس يكون في ذلك الحين قد استوثق مني ولا يكون موافقاً لك او لي ان يعرف انه توجد علاقة فيما بيننا كما انه لا يعلم بانني جئت قبل هذا الوقت الى اورشليم . واذا تمكنت من ايجاد وسيلة لاجتماعنا هنا معاً فان سروري

يكون كاملاً . ولا بدَّ ان اعلمك بذلك باقرب ما يكون من الوقت

وبعد ان اتمَّ مرسيلوس قراءة كتاب عبده ديمتريوس التفت الى بنيامين وضحك ثم سأله ما رأيك ؟ اجابهُ : ان عبدك لذكيّ حاذق ينبغي ان يكون يهودياً

– اظن ان اللغة الارامية غيَّرت افكاره كثيراً لانني ارى نصائحه حسنة . فهل تظن انني اذهب الى هناك كتاجر كما قال ؟

– ليس لك فرصة سانحة

– حتى ولو دفعت الى يستوس اجرتهُ

– اظن انه يخبرك اموراً كثيرة مجاناً

– اتنصح لي بالذهاب ؟

– يمكنك ان تجرب اذا شئت . ربما يكون سكان الجليل ابسط مما نعتقد

الفصل الثاني عشر

بعد ان تناول يستوس ومرسيلوس غداءهما معاً تحت شجرة تين جلسا في الظل من دون ان ينبسا ببنت شفة فاضطجع الاول على العشب الاخضر مسنداً راسه بيديه ومحدّقاً ببصره الى سماء شهر نيسان الجميلة ودلائل الحيرة بادية على وجهه

اما الآخر فكان متكئاً على جذع شجرة ومتمنياً لو كان في غير هذا المكان لان نبوءة بنيامين بان سفره الى السامرة والجليل سيكون عقيماً قد صحّت

كان مرسيلوس قد وصل الى اورشليم منذ اسبوعين وتصرّف حسب نصيحة ديمتريوس له فانه اكترى غرفاً في احسن نزل محاط بحديقة في وسط التلة التي تؤدي الى ضاحية بيت عنيا حيث سمى نفسه «م. لوقا» وسجله ولقد حيّر اصحاب المشاغل باسئلته العديدة عن المنسوجات والاثواب المحوكة حياكة يدوية ولا سيما الاصلية التي من صنع الجليل .

اخيراً طفق يسير من محل الى آخر وهو يشتري ما تيسر له من الاثواب والشالات ويدفع ثمنه بدون مساومة وعقيب ذلك اخذ يتمشى في الحديقة وهو يقرأ سفر اشعيا الذي كان قد اهداه اليه بنيامين وقد عزّ عليه ما بينهُ وبين خادمه ديمتريوس من شقة البعاد التي تحول دون مذاكرته بهذا الخصوص لانه خطر على باله مرة ان يذهب الى مصنع بن يوسف ويقول له انه يريد ان يستعلم من اتباع يسوع اشياء جديدة عن ترجمة حياته لكنه عاد عن فكرته هذه قائلاً بنفسه ان ذلك يمكن ان يعرقل اعمال ديمتريوس ففضّل التربّص والانتظار

وفي اليوم الخامس من الاسبوع الثاني توجّه مرسيلوس الى بيت بن يوسف ووقف خارجاً يفتش عن ديمتريوس . غير ان تفتيشه عنه بطريقة لا يشعر بها احد

ومقابلته اياه مقابلة رجل غريب عنه كما اوصاه ليس بالامر الهيّن عليه ولا سيما بعد ذاك الفراق الطويل . وقد مرّ كثيرون امام عينيه ولم يكن ديمتريوس فيما بينهم .
ثم سار متجهاً نحو اليهودي الشيخ بن يوسف وذكر له احتياجاته بايجاز فكان جوابه له ان ليس لديه شيء مجهز فاذا اراد ان يوصيه بعمل ثوبٍ ما فانهم ينسجونه له بطيبة خاطر اما ان احبّ نسيجاً محوكاً باليد فلن يجده الأ في القرى . قال هذا وعاد الى شغله

وكان يشتغل على منوال بالقرب منه رجل ذو هيئة لطيفة ظنهُ مرسيلوس لاول وهلة انه استفانوس صديق ديمتريوس . وقد جلس خلف منواليهما شابان متشابهان في خلقتهما ولباسهما البسيط فأيقن مرسيلوس انهما الاخوان اللذان يسميان ابنى الرعد . على ان هذه الكنية لم تكن مطابقة لهيئتهما البسيطة اللطيفة

اما الرجل الرابع فكان جالساً في زاوية من المحل وله من العمر نحو ستين سنة وهو يلاحظ ويسمع ما يدور من الحديث بين بن يوسف ومرسيلوس .

ولما وقع نظر مرسيلوس عليه ظنهُ لاول وهلة الصياد الكبير الذي حدثهُ عنه ديمتريوس غير انه حينما حدّق اليه ثانية ورأى ابتسامته الحلوة وهدوءهُ تبيَّن له انه ليس ذاك الصياد الكبير قائد الجماعة صاحب الحركات المتواصلة بل هو برسيباس يستوس بعينه

وبما ان بن يوسف أعلم مرسيلوس ان الحياكة اليدوية تكون غالباً في القرى فقد وجد هذا حجة يتذرَّع بها ليسأل : هل من احد بينهم يريد ان يرافقه الى تلك الجهات . فالتفت اذ ذاك الرجل اليوناني الذي اعتقد انه استفانوس نحو الرجل الكبير الذي في الزاوية وقال له انت تستطيع مرافقته يا يستوس لانك كنت عازماً على الذهاب الى بيتك في تلك الجهة . فسأل يستوس مرسيلوس بعد التفكير قليلاً : كم يوماً تريد ان تبقى هناك ؟

— ربما ابقى اسبوعين او ثلاثة او شهراً الأ اني حين وصولي واستدلالي على

الطرق يسوغ لك ان تتركني وشأني ، اللهمّ اذا كان لك اشغـال مهمة تستدعي رجوعك لانجازها

قال له يستوس متى تريد ان تسافر ؟

— قريباً عند سنوح الفرصة — أيوافقك ان نسافر بعد غد ؟

ولما سمع بن يوسف هذه العبـارة من مرسيلوس قال مبكتاً : هو يوم سبت الرب الهنا

— عذراً لقد سهوت عنهُ

— ألا تحفظون انتم الرومانيين يوم راحة ؟

ولما رأى يستوس ان مرسيلوس تبسم ولم يبالِ بتبكيته قـال ان الرومانيين يرتاحون اكثر منا . فلم يكن من بن يوسف لدى سماعهِ هذا الكلام الاَّ انه تفرّس في وجه يستوس وقال له : لكن ليس اكثر منكم

ثم خرج يستوس وجلس على مقعد خشبي قبالة البيت فتبعهُ مرسيلوس وقعد بقربه واخذ كلاهما يستعدان للسفر فقال يستوس اننا بحاجة الى اربع دواب لنقل كل امتعتنا لاننا لا نـأمل اقل مساعدة من سكان تلك القرى بالنظر الى فقرهم المدقع

اجابه مرسيلوس اتريد انت ان تبتاع الدواب وما نحتاج اليه في هذه الرحلة . فكم يعوزك من الدراهم ؟

— كيف تؤمنني على شراء كل ذلك وانت لا تعرفني ؟

— لو لم تكن رجلاً اميناً ما انزلك بن يوسف في محلهِ الشهير

— ماذا تعرف عن بن يوسف ومصنعهِ ؟

— انَّ له ولمصنعه شهرة حسنة فقد صار له مدَّة سنين طويلة يتعـاطى هذه الصناعة

فقال يستوس ليس من لزوم لشراء الدواب فيكفي ان نكتريها ونستأجر غلاماً

ليقودها

– ارجو منك ان تهتم بهذا الامر وعسانا ان نسافر في اول الاسبوع المقبل . وكم تريد في مقابل خدمتك ؟

– كما تشاء انت . لكنك سمعت استفانوس يقول : انني على كل حال عازم على التوجه الى بيتي في صفورة من قرى الجليل وليس لي ما يسد حاجتي في هذه الايام لذلك اطلب طعاماً لآكل ومكاناً لابيت فيه وحذاء لرجلي

– هذا شيء زهيد ففي نيتي ان اؤدي لك اكثر مما طلبت

– إذن تعطيني ثوباً جديداً لان ثوبي هذا عتيق جداً

قال مرسيلوس بكل سرور . ثم سأله بصوت همس ألست يهودياً ؟

– اجابه ديستوس نعم اني لكذلك

وقبل ان يفترقا اتفقا على اللقاء عند مدخل دمشق في اليوم الاول من الاسبوع بعد غياب الشمس . وقد امل مرسيلوس خيراً من وراء هذه السفرة لاعتقاده ان ديستوس سيفضي اليه بكل ما غمض عليه ولما اطمأن باله الى هذا الامر المهمّ اخذ يجول في الاسواق وهو يصغي باشمئزاز الى الشتائم التي كان يتفوه بها التجار عند البيع والشراء وما شاكل ذلك من الامور كما يفعل الباعة الذين يدورون حول البيوت . ثم حانت منه التفاتة فرأى في احد الاسواق الغلام الذي شاهده في مصنع بن يوسف

ولما اكتفى بكل ما رأى وسمع رجع الى النزل وبعد هنيهة من وصوله اطلّ من غرفته على الطريق العام فرأى الغلام نفسه يسير ذهاباً واياباً . غير ان مرسيلوس لم يتزعج لانه كان متبوعاً وتأكد لديه انه لو كان نازلاً في دار الولاية لما تعرّفوا اليه قط

بينما كان مرسيلوس مساء ذلك النهار عينه في الحديقة يطالع السفر المهدى اليه من بنيامين التفت فجأة فرأى استفانوس امامه

فسأله هذا : اتسمح لي ان افضي اليك بامر سرّي يهمك الوقوف عليه . فابدى مرسيلوس علامة القبول ثم اخذه بيده الى آخر الحديقة حيث اشار اليه بالجلوس

فجلس استفانوس وقال له :

لا شك انك دُهشت من عدم رؤيتك ديمتريوس هنا فان عبدك هذا بعد ان كتب اليك ذلك الكتاب كان من سوء حظه انه اتى في طريقه عضو المجلس الذي جرى بينهما ذلك العراك الشديد في اثينا . ومع انهم لم يحاولوا القبض عليه لكنه خشي ان القاضي ينتقم منه وبذلك يسبب متاعب الى بن يوسف ونحن ليس لنا من يدافع عنا

سأل مرسيلوس بتحمس واهتمام الى اين ذهب ؟

– لست اعلم يا سيدي فانه عاد الى المنزل حيث انتظر مجيئي اليه وقد احيينا الليل بالتحدث عن شتى الحوادث . وكان عدد كثير من رجالنا مجتمعين سراً في محل بن يوسف فذهبنا الى هناك واجتمعنا معهم قبل ساعة من بزوغ الفجر . ثم ودعنا ديمتريوس فسار عنا بالسلامة ولم تكن الشمس قد طلعت بعد ولعلهُ يعود الينا حين يُصبح في امان .

فاذا شئت ان تكتب اليه شيئاً فانا اتعهد بايصال ذلك اليه ثم انه اسرَّ اليَّ انك آتٍ الى هنا ورجا مني ان اوضح لك سبب تغيبه . على انه لم يعلم احد شيئاً بهذا الامر وقد اسرَّ اليَّ ايضاً سبب زيارتك لقرى الجليل

– كم من الامور المهمة عرفت او تعرف عن زيارتي لها ؟

– اخبرَني كل شيء . رغبةً منهُ ان يتحقق ذهاب يستوس معك وشعر بانَّ في امكاني القيام بخدمتك في هذا الموضوع . ثم ابان لي انه يهمك زيادة المعرفة عن حياة يسوع لذلك الحت عليه ان يخبرني بكل شيء . وقد فعل ذلك . فكن على ثقة بانني سأحفظ سرَّك

– هل يوقع رجال بن يوسف الشبهة عليَّ فقد ظهر لي انهم اوفدوا من قبلهم مَنْ يراقبني في هذا اليوم

– أتعني فيليب الصغير هو ابن اختي يا سيدي وقد اوفدتهُ انا ليخبرني بحل

اقامتك فلا يكن لك ادنى ريب فيه . ولا اخفي عليك انني خشيت ان يعرفك يوحنا فيظهر ان امارات وجهك خفيت عليه تماماً

– كيف يمكنهُ ان يعرفني ؟

– لقد كان في عداد الذين حضروا عمل الصلب

– واظن انك تتذكر ذلك الشاب الذي حاولْ ان يعزّي ام يسوع

– هل كانت امهُ هناك ؟ يا لهُ من خطبٍ جسيم . فخنى مرسيلوس رأسه مفكراً

– نعم انه كان رزءًا فادحاً . كنت انا هناك ايضاً فقد عرفتك حين دخولك الى المشغل

– انت لطيف جداً يا استفانوس فهل من طريقة استطيع بها ان اساعدك ؟

– نعم يا سيدي . ثم خفض اليوناني صوتهُ بحيث اصبح همساً وسأله هل الرداء عندك ؟

– اجابه : نعم

– اتسمح لي ان اراه

– نعم . تعال معي

* * * *

وقد سارا معاً مسافة تستغرق ثلاثة ايام لم يذكرا في غضونها اسم يسوع اذ كان يستوس متكتماً جداً مع كل مظاهره اللطيفة واستعداده لاجابة سؤل مرسيلوس الشاب الروماني . لذلك لم يصح قط اعتقاد مرسيلوس ان رفيقه يستوس سيظهر غيرته ويتحدث ملياً عن حياة يسوع واعماله المجيدة خصوصاً انه علم وتعلّم ان الرجل الروماني مهما كان غنياً ومتردياً باجمل الثياب النفيسة لا يمكنه مطلقاً ان يدَع احداً يتكلم بشأن يسوع

على انه لم يخطر على باله ايضـاً ان جنسيته الرومانية لا تفيده في وقت من الاوقات اكثر من افادتها له في هذا الوقت . بحيث لو كنت رومانياً غنياً لامكنك الحصول على ما تشتهيه في العالم كله اذ تُفتح امامك الابواب على مصاريعها وتندك الحواجز . وينهض الغرباء عن مقاعدهم ويدعونك الى الجلوس عليها . وترى جماعة التجار وقوفاً لتحيتك وتلبية امرك ولو شئت ان تسافر ووصلت الى الميناء متأخراً عن ميعاد السفينة لرأيت ربابنة تلك السفينة ينتظرون حضورك حتى ولو لم يكن فيها سوى غرفة واحدة لا غير فان الغني اليهودي المقيم فيها يدعها لك بطيبة خاطر اكراماً لمقامك عنده . وخلاصة القول انك صاحب الامر والنهي لدى العموم

ولكن لو عزمت على السفر ماشياً على قدميك الى ولايات اورشليم الشمالية الفقيرة لكي تشتري نسيجاً وتبيّن عندئذٍ انك تودّ الوقوف على ترجمة حياة نجـار يهودي بائس يتجول في تلك النواحي فان جنسيتك الرومانية هذه تضرّك كما ان كثرة مالك وغناك لا تعينك البتة

كان مرسيلوس يعتقد تمام الاعتقـاد ان يستوس الذي هو من انصار يسوع الناصري والمعجبين به لا يمكنه السكوتِ والامساك عن ذكر اعمـاله وعجائبه العظيمة التي صنعها غير انه لم يفعل شيئاً من ذلك .

ان سكان الجليل استقبلوهما في اكواخهم بجفاوة وحبور وعرضوا على انظارهما منسوجاتهم على اختلافها واباتوا لهما اثمانها حسب طلبهما . لكن مرسيلوس الرجل الغريب شعر بوحشة زائدة بينهم . مع ان يستوس كان يعرّفهُ الى كل عائلة منهم ويذكر لهم سبب مجيئه اليهم فكانوا هم يسرعون بعرض احسن انواع الاقمشة عليه. ثم يخرج رب العائلة وزوجته من الكوخ ويتركانه وحده مع سائر افرادها

حتى جوّ تلك البلدة كان مليئاً بالاسرار حيث كنت ترى ايضاً علامة سمكة محفورة على شجرة من الجميز او مرسومة على الرمل او مصوَّرة بالطباشير على حاجز من الحجارة او منقوشة على مائدة في نزل القرية . اخبر عنها ديمتريوس انها اشارة

الى ممارستهم لتعاليم يسوع

وفي اليوم الثاني من وصولهما شاء مرسيلوس ان يحمل يستوس على الكلام فسأله قائلاً : ما الغاية من وضع صورة السمكة في هذه المواضع كلها ؟ فاجابه يستوس ان ما نعيش به هنا هو السمك

ولما سمع مرسيلوس منهُ ذلك اضرب عن سؤاله اسئلة مثل هذه

* * * *

كان مرسيلوس وهو متكئ. تحت شجرة التين يدرس افكار يستوس من نظره الى وجههِ النحاسي وتعجب من تفرّسه في الفلك . ثم انتصب بعد هنيهة على قدميه واقترب من الدواب التي تركها قائدها ترعى ونام في ظل احدى الاشجار على مقربة منها . ولما لاحظ مرسيلوس ان أرسانها كانت قصيرة جداً حيث سببت لها جراحاً دامية في اشداقها جاس على الارض واخذ يطيل الارسان المذكورة وما كاد يفعل ذلك حتى استيقظ الغلام من نومه ورفع اليه نظرهُ

فقال له مرسيلوس تعال الى هنا ايها الغلام انني لا احتمل ان ارى الحيوان في هذه الحالة المؤلمة فخذ هذه الدراهم واذهب حالاً الى اقرب محل واشترِ مرهماً لنطلي بهِ جراح الدواب ولا ترجع الا به . ثم نهض مرسيلوس من مكانه واخذ يربت على آناف الدواب المشار اليها ولما رأى يستوس منهُ ذلك سأله :

– أتحب الحيوانات ؟

– أجل احب البعض منها ويؤلمني ان اراها تُعامل معاملة سيئة

– وهل تحب الازهار ؟

– لا شك في ذلك ولمَ لا احبها

– ان هذا البلد ملآن ازهاراً برية وقد كثرت في هذا العام خصوصاً في الأكام . وشرع يستوس يبين لهُ اجناسها

– يظهر لي انك مولع جداً بالطبيعة

– كنت قبل هاتين السنتين امرّ بمواضع الازهار ولا ابالي بها . وكنت بغير شك اعرف النباتات النافعة كالقمح والشعير وما شاكل لكنني بعد ان تعرفت اخيراً الى رجل خبير بجميع اجناسها وخواصها احببتها واهتممت بها . قال يستوس هذا ثم عاد فتمدد على العشب وصار يغمغم كانه في منام حتى خُيل لمرسيلوس ان الرجل يتحدث عن صديقه يسوع كما كان يأمل .

ثم قال : في احد الايام ونحن سائرون معهُ طلب الينا ان نقف ونتأمل زنابق الحقل كيف كانت مكتسية اثواباً بديعة تقرّ برآها النواظر وقال انها لا تتعب ولا تغزل حتى ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها

– الظاهر انه كان محباً للجمال اكثر منهُ للاعمال . ألم يعتبر العمل ؟

– انه كان يعتبره ولكنه اراد ان يشير الى ان اغلب الناس يقضون وقتاً طويلاً في خدمة اجسادهم من مأكل ومشرب مع الاحتفاظ بقتنياتهم

– يظهر لي انه كان مقتصداً

لم يكن مقتصداً او متوانياً لانهُ كان بامكانهِ لو شاء ان يحصل على كل ما يروم . كانت مهنته النجارة وكان ماهراً فيها وكان الناس يأتون من نواحٍ بعيدة ليروا اعماله العجيبة . وقد تبعهُ كثير من الاولاد ، لقد كان كل شي. تحت امره ولكن لم يكن ليقتني شيئاً بل كان يقول مراراً عديدة انه يشفق على الناس الذين يجدّون ويجتهدون ويتعبون ويخدعون بعضهم بعضاً ليحصلوا على اشيا. كثيرة ثم يسهرون عليها خوفاً من السرقة والغش والصدأ

– يلوح لي انه كان شخصاً شاذاً لا يريد شيئاً لنفسهِ

اجاب يستوس لانه لم يخطر في باله انه كان محتاجاً الى شي. وكان له روح الحق الذي لم يستطع ان يحصل عليه اناس كثيرون

– هذا كلام مستهجن غير معقول

– ليس مستهجناً اذا فكّرت طويلاً فيه لانّ عطية الحق لهي المُلك الحقيقي . اذا احبَّ احدٌ الحق اكثر من الاشياء الزائلة الباطلة فانك ترى الناس تتبعهُ الى حيث يكون . كل انسان منا يتمنّى ان يكون اميناً لكنك لا تحصل على هذه النعمة اذا كان قلبك يجدّ وراء الاشياء الفانية . وهذا هو السبب الذي جعل الناس يجتمعون حول هذا النجار ويصغون الى تعاليمهِ . ولقد شعر كل واحد منهم لدى سماعها بالسعادة والحرية كالولد الصغير لانهم لم يستطيعوا ان يتفوّهوا بغير الصدق امامهُ . وحالما شعر الناس بذلك القوا اسلحتهم وطفقوا يتكلمون الصدق وكان هذا اختباراً جديداً لبعضهم بحيث جعلهم يشعرون بحرية اكثر . اذ تكلموا الحق والحق حرّرهم

– هذه فكرة جديدة اظن ان صديقك هذا كان فيلسوفاً هل درس الاداب ؟

– كلّا لم يدرس شيئاً ولكنه يعرف كل شي .

– لا اعتقد انه كان له بين الطبقة العالية كثير من المعجبين بهِ لانه ندّد بالملوك

– لقد كنت تعجب يا سيدي حين ترى كيف ان جمهوراً غفيراً من الاغنياء كانوا يصغون الى كلامه بل . قلوبهم . انني اذكر ان احدهم تبعهُ مسافة يوم كامل وكان قبل ذلك قد سأله : كيف استطيع ان احصل على مثل ما عندك ؟ اجابهُ يسوع انك غني جداً فاعطِ مالك للفقراء والمعوزين وتعال اتبعني

– هل تبعهُ ؟

– لا لكنه قال يا ليتني استطيع وذهب حزيناً وجميعنا حزنا لانه كان شاباً لطيفاً . ولا شك انها المرّة الاولى التي تمنّى فيها هذا الغني شيئاً ولم ينلهُ

– يظهر ان هذا النجار له سجيّة فائقة الطبيعة كأنه احد الرجال الخياليين او الانبياء . هل رسم او حفر شيئاً ؟

اجاب يستوس ان اليهود لا يرسمون ولا يحفرون

– اذاً كيف يعبّرون عما في نفوسهم ؟

– دأبهم الترتيل وقصّ القصص

سأل مرسيلوس : ما هو نوع تلك القصص

– سِيَر انبيائنا وعظمائنا التي يعرفها الكبير والصغير منا . فان لي حفيداً اسميناه يوناثان تبرّكاً باسم ابن الملك شاول لان رجله كانت عوجاء كرجله ولم يكن عمره سوى سبع سنوات . كنت اودّ لو تسمعهُ يسرد امامك عن ظهر قلبهِ قصة الخليقة والطوفان العظيم وخروج بني اسرائيل من مصر

قال مرسيلوس اتذكر انني سمعت ان المصريين اخرجوا الاسرائيليين عنوة من ديارهم

– هذا كلام لا طائل تحتهُ فان ملك مصر اراد استخدام اليهود ليبنوا له ولوعيتهِ قبورهم ويحرثوا اراضيهم فلم يجيبوا سؤاله

– سأدعُ يوناثان يقص امامك كل ذلك عند وصولنا الى صفورة

ثم قال يستوس اذا كنت تريد ان تصل الى سوخار قبل غياب الشمس فعلينا ان نرحل الان . لان ليس فيها من فندق فينبغي لنا ان ننصب خيامنا قرب بئر يعقوب . اسمعت بذكر هذه البئر ؟

– لم اسمع بامرها شيئاً من قبل

– ليست افضل من غيرها من الآبار غير ان لها شهرة بعيدة في هذه الاقطار لانها قديمة العهد فقد اتى عليها اكثر من خمسة عشر قرناً

وبعد ان سارا مسافة ثلاث ساعات او اكثر وصلا الى سوخار وتقدما الى المكان الذي كانت البئر المذكورة في وسطهِ وقد كانت دائرتها كبيرة ومحيطها واسعاً وقد استطاع كلٌّ منهما ان يجلس عليها مواجهةً ريثما يستريحانِ من عناء السفر

وبعدئذٍ نهض يستوس ونصب خيمة وفرش عليها بساطاً لرفيقه . واذ كانا يتهيئان للجلوس حانت من مرسيلوس التفاتة فرأى امرأة مقبلة تصحبها فتاة في ريعان الصبا فهبَّ يستوس لمقابلتهما ولكنه لم يشر الى مرسيلوس ليتبعهُ وقد استدرك مرسيلوس حالاً الغرض الذي بينهم وهو مسألة يسوع فقال مناجياً نفسه : اذا كان غرضهم هذه المسألة فان الرجل النجار قد صار في عداد الاموات وما من احد بعد يضطهدهم فلماذا لا يتحدثون بذلك امامي وبما ان يستوس لا يأتمنني ولا يتكلم على مسمع مني بشأن يسوع فانا كذلك لا اسمح له بالرداء

الفصل الثالث عشر

اصرّ يستوس على حفظ يوم السبت في قانا الجليل لذلك اضطرّ هو ومرسيلوس ان يسيرا مسافة يوم كامل من نايين وكان ذلك من اصعب الايام التي مرّت على هذا الروماني وقد بدت لهما قانا عند غروب ذلك اليوم

وفي صبيحة اليوم التالي السبت توجّه يستوس الى الكنيس من دون ان يدعو رفيقه للذهاب معه ولو انه دعاه لما أحجم عن تلبية طلبهِ لان بقاءه وحده وخصوصاً في هذه البلدة لما يورثه الملل جداً لكونه غريباً لا يعرف احداً من اهلها بعد ولا ينتظر من يستوس ان يعرّفه الى اصدقائهِ اذ لم يدرك جيداً الغاية من زيارته هذه النواحي البعيدة لانه انما جاء كتاجر يستبضع نسيجاً . فكان يذهب به الى البيوت التي تشتغل به حيث يعرّفه الى اصحابها ببشاشة وارتياح

وفي صباح اليوم الذي بعد السبت تناولا فطورهما باكراً وتجهزا للمسير لان الجوّ كان حاراً وقد شاء يستوس ان يصلا الى مكان يستظلان فيه من حرارة الشمس فسرّ مرسيلوس بذلك ولا سيما حين علم ان يستوس اشار الى غابة من اشجار الزيتون . ثم سأله يستوس : هل بالامكان ان يتغدّيا في ذلك المكان فاجابه مرسيلوس بالايجاب وسأله على الفور أتعتبر ان بلدة قانا مهمة جداً حتى نجدّ اليها المسير سريعاً ؟

— انني ليسوءني ان ازعجك بهذه السرعة ولا ابيّن لك الغرض منها فقد نويت ان اجعلك مسروراً في آخر النهار بتعريفك الى فتاة رخيمة الصوت في هذه الناحية تترنم ترانيم بديعة قرب نبع ماء في كل ليلة

— ارجو ان تكون شابة حسنة السيرة والسريرة

– نعم انها لكذلك . ثم استطرد قائلاً : ان سكان قانا يتمشون عند المساء ثم يُقبلون كباراً وصغاراً الى ذلك النبع ليستمعوا الى ترانيم الفتاة مريم التي يحبها شعبنا

– شيء غريب . فكيف تقول انت إذنْ انها كسيحة . أنني اريد ان اجالسها فلعلَّ لي سبباً يدعو الى ذلك

– ان مريم شابة جميلة ليس لها من العمر سوى اثنتين وعشرين سنة وقد أُصيبت بالفالج منذ سبع سنوات فقط . وكان هذا المرض الذي اعتراها من اشدّ المصائب عليها لانها كانت فرحة مرحة تحب الطرب واللهو . فامست اليوم تنوح وتنتحب حتى لم يبقَ لوالديها لذّة في الحياة ولا لها ايضاً

– وكيف يلذُّ لها الترتيل بعد كل هذا ؟

– نعم انها ترتل ولكنني لست قادراً ان اوضح لك سبب هذا التغيّر ولا احد يقدر على ايضاحهِ بحيث لا تريد البحث في هذا الموضوع حتى ان والديها لا يعرفان سببه

– لا شك انهما صادقان لانهما لو كانا يعلمان السبب لما ضنّاً على احد بالايضاح عن تحسّن حالة ابنتهما النفسانية . ربما مريم نفسها لا تعرف ذلك

– وانا لا اعرف بالتمام . انما حدث في احد الايام ان احدى صديقاتها التي لم ترَها منذ سنين كانت على وشك الزفاف وقد الحّوا على مريم لحضور حفلة العرس فلم ترضَ بل ظلت كل النهار تبكي بمرارة ولكنها حين عاد والداها من العرس استقبلتهما بالترنيم

– هذا من العجب العجاب . هل صوتها جميل ؟

– متى تسمعه تقدرهُ قدرهُ . على انه يمكنك ان تجتمع واياها غداً في بيتها وهناك ترى والدتها نعمة تنسج نسيجاً جميلاً . وربما يكون لديها منه ما يهمك

رؤيته . اما الان فاذا كنت قد استرحت كفاية فهيا نتمم سفرنا اذا شئت

* * * *

ولما اقتربا من ضواحي قانا نصبا خيمتهما ثم تعشيا على عجل واتجها الى منتصف القرية حيث كان يتقدمهما الى تلك الناحية اناس كثيرون . غير انهما ما كادا يصلان الى النبع حتى رأيا خمسين نفساً او اكثر قاعدين القرفصاء في صفوف متساوية بين كبار وصغار

— فقال مرسيلوس اعتقد ان هذا هو النبع الذي يشرب منه اهل القرية ؟

— كلّا يا سيدي فان ماءهُ حار واغلب مياه هذه الارجاء سخنة ايضاً ويُقال انها تشفي من علل كثيرة ولكنها لا تشفي اهل الجليل بل جماعة السيَّاح الذين يقصدون اليها من اماكن بعيدة ليستحموا فيها

— اذاً فقانا ترى سياحاً كثيرين

— كلّا لان اكثرهم يقصد الى طبرية التي على بحيرة جنيسارت فانها مدينة اهم من قانا واغنى منها فيؤمها ذوو الثروات فقط للاستشفاء من امراضهم

— لماذا يؤمها الاغنياء فقط . ألا يؤمن الفقراء بمنفعة تلك الينابيع الحارة ؟

فقهقه يستوس لدى سماعه هذا السوآل حتى شاركه جميع الحاضرين ثم اجابه : ان الفقراء يا سيدي لا يمرضون غالباً بل الاغنياء الذين يكثرون من جميع اصناف المأكولات والمشروبات في وقت واحد ولا يهمهم معرفة الضارّ من النافع . اما الجليليون فليس لديهم شيء من ذلك

— بالصواب نطقت يا يستوس اذ هي الحقيقة بعينها وان المياه الحارَّة مفيدة لكبيري البطون وشربي الخمر . واتذكر انني سمعت شيئاً من هذا يتعلق بمدينة طبرية الواقعة على بحيرة جنيسارت

– انها تُدعى غالباً بحر الجليل
– أهي كبيرة ؟
– نعم كبيرة جداً وقد يحدث فيها عواصف وزوابع كالبحار

سأل مرسيلوس: ايصطادون منها السمك؟ عند هذا السؤال سُمع صوت من احد الاولاد المصطفين يقول : لقد اصطادوا مرةً سمكاً كثيراً . فانتهره صوت قريب منه وقال : صَهْ صَهْ : ثم حوَّل الجميع ابصارهم نحو النبع فابصروا الفتاة الكسيحة مريم محمولة على فراش فوق سرير خشبي بحيث تمكن الجمع من رؤيتها . واذ ذاك حدث سكوت رهيب فتأثر مرسيلوس من المشهد الرائع وودَّ لو يبقى هكذا

ولكن مريم امرَّتْ يديها النحيفتين البيضاوين على اعواد القانون وقد لمع محيّاها وتطلعت بعينين براقتين الى ما هو ابعد من الغيوم . وكان صوتها الجميل كأنه جرس يرنّ في ذلك المكان حتى كاد حلق مرسيلوس يجفّ من شدة الانفعال وتساقطت الدموع من عينيه . وهذا نصُّ الترنيمة التي رنمتها مريم « انتظرت الرب بصبر . فاصغى اليَّ وسمع صراخي » وكان الجمع كله اذاناً صاغية اما مرسيلوس فانه اخذ يتفرَّس في هيئة الابنة الداهشة وهو يمسح دموعهُ .

وتابعت مريم ترتيلها على الوجه الآتي : « وجعل ترنيمة في فمي حينئذٍ قلتُ ها أنذا اجيء. كما هو مكتوب عني لافعل مشيئتك يا الهي سُررت وشريعتك في وسط احشائي » .

وما اتمت العبارة الاخيرة حتى بدا التأثر على وجوه الحاضرين وكان مرسيلوس قد استظهر من هذه الترنيمة بعض كلمات . واذ اوشكت مريم ان تنهي ترنيمتها كانت الشمس قد مالت للمغيب . استأنفت ترنيمتها بما يناسب المقام فقالت« لتعطي نوراً للجالسين في الظلمة وظلال الموت ولتقود ارجلنا في طريق السلام »

وعندما تصرَّم الشَّفق حمل الرجال مريم وعادوا بها الى بيتها وتفرَّق الجمع عائدين

الى بيوتهم . وقد سرّ مرسيلوس لان يستوس لم يسأله هل اعجبهُ صوت مريم او أثّر في نفسه هذا الاجتماع

* * * *

كان بيت رأوبين ونعمة ابوي مريم في الجهة الشمالية من القرية يحيط به فسحة دار واسعة اكثر من سائر بيوت تلك القرية : وكانت جدرانه محجوبة عن الانظار باشجار الجميز وفي وسط الدار كثير من اشجار الفاكهة المزهرة وعلى جانبيها كرمة مثمرة

اما مرسيلوس فقد كاد يفقد صبرهُ وهو ينظر الساعة التي يتمكن فيها من الاجتماع بالفتاة ذات الوجه المضيء والصوت اللذيذ الرخيم الذي اخذ بمجامع فؤاده . ولما وصل الى بيتها قال يستوس له : دعنا نتكلم مع مريم اولاً فانني اراها جالسة تحت المظلّة فلما اقتربا منها شاهداها لابسة ثوباً بسيطاً وفي جيدها سلسلة من الفضة وفي اسفلها سمكة صغيرة مصنوعة من صدف البحر وكان بالقرب من فراشها القانون الذي تعزف عليه وعلبة صغيرة محتوية على رسائل واذ رأتهما مقبلين نحوها التفتت الى يستوس وابتسمت مرحبة به .

ثم قالت بعد ان عرّفها الى مرسيلوس لا شيء يوجب ان تبين لنا سبب قدومه الينا لاننا جميعنا هنا مهتمون بزيارته — قالت هذا والتفتت نحوه مبتسمة — اذ لا يقدم احد الى هذه الناحية للاتجار والسياسة الاّ نادراً . وقد كانت رنة صوتها رقيقة منخفضة بحيث امسى مرسيلوس بعدها مدهوشاً . لانه كان قد تعرّف الى نساء كثيرات فرأى بوناً شاسعاً بين رنة صوتها ورنة اصواتهنَّ

ثم سألها : هل والدتكِ نعمة في البيت

— نعم واوقن انها ووالدي ينتظرانك . ولما كان مرسيلوس حائراً فيما يفعل اومأت اليه بالجلوس على الكرسي ولما استقرّ به المقام قال لها : سمعتك ترتلين .

فسألتهُ كيف تعلمت اللغة الارامية ؟

اجابها : لا اعرفها جيداً . وقد لاحظت ان اهالي قريتكِ يصعب عليهم فهم ترنيماتكِ . اما انا فقد تاثرت منها كثيراً

– لقد سررتني جداً حيث اخبرتني بذلك . واني شاهدتك امس ورفيقك يستوس في الجمع وهذه هي المرة الاولى التي رتلت فيها امام رجل روماني . ثم لم اكن لاعجب من اظهار اعجابك بترتيلي ولو لم تقل ذلك لكنت اتألم

– اظن ان لنا نحن الرومانيين سمعة رديئة في هذه الولايات ؟

– لا ريب في ذلك لاننا نرى الجنود يطوفون في الشوارع بعظمة وافتخار كأنهم يقولون –

فلم يدعها تكمل كلامها لانه استدرك ما ستقوله فناب عنها وقال : نحن سادتكم واساتذتكم . فضحكا كلاهما ثم سألتهُ هل يوجد رومانيون كثيرون على شاكلتك يا مرسيلوس غاليو

– اجلْ يوجد كثيرون ولست انا الوحيد بينهم

– انا لم اكلم في حياتي رومانياً البتة وكلهم يشبهون بعضهم بعضاً

– نعم في لباسهم الرسمي لكنهم بدون هذه التروس والخوذ تربنهم كعامة الناس لا يهمهم التجول في اسواق البلدان الغريبة بل يفضلون ان يكونوا وعيالهم يحرثون حقولهم ويرعون مواشيهم

– سررت باطلاعك اياي على هذا اذ ليس من الحق ان يكره الانسان اخاه الانسان . غير اننا نحن الجليليين يشقُ علينا كثيراً ان نحب الرومانيين اما الان عند وقوفي على ما ذكرته فقد تغيرَ اعتقادي فيهم لذلك ارجو لهم نيل امانيهم وعودهم الى عيالهم واراضيهم

– اتريد ان تخبرني عن اهل منزلك ؟

اجابها مرسيلوس : بكل فرح . ان عائلتنا مؤلفة من ابوين واخت تُدعى

لوسيا وانا فقط

– هل يهتم والدك بحديقة منزلكم في اثناء غيابك ؟

– لا يهتم كثيراً بشأنها . ولما نظرت اليه نظرة اخت لاخيها سألها أمرتاحة انتِ ؟ اجابتهُ

– نعم لكني احب ان اعرف ما اذا كان عندك عبيد

– ان عندي عبيداً ولكنهم يعاملون احسن معاملة

– يلوح لي من هيئة وجهك انك تحسن معاملتهم فكم عبداً عندك ؟

– لم اعدّهم لكن اظنهم عشرين عبداً

– هل تقفل عليهم الباب بعد اتمام واجباتهم في المنزل ؟

– كلّا فانهم احرار ان يذهبوا الى حيث شاءوا

– ألعلهم يشعرون كأنهم في سجن ؟

العالم قاطبة هو سجن لكل انسان . تُرى مَنْ هو مطلق الحرية تماماً فيه بل ممَّ تتكوَّن الحرية

– من الحق لان الحق يحرّر كل فرد من البشر . ولولا ذلك لكنت اشعر كأنني مقيدة بسلاسل . لان بلادي يا مرسيلوس غاليو يسيطر عليها سيّد اجنبي وبما انني مقعدة فربما يتراءى لغيري ان حريتي محدودة ولكن روحي مُرَّة ما دمت على قيد الحياة

– اتمنى انا ان احصل على الحرية نفسها ولو فقدت كل عزيز وغالٍ في سبيلها فقولي لي هل كانت الحرية سبباً لمرضكِ ؟

– كلاَّ بل ان مرضي جعلني تاعسة كل التعس غير انني مالكة حريتي ثم استطردت قائلة : ارجو منك ان تضرب صفحاً عن تدخلي في امورك الشخصية . انني اجلس هنا طول النهار بدون ان ارى شيئاً جديداً او اسمع مـا يلذّ لي سماعه فهل لك ان تخبرني عن شقيقتك لوسيا . هل هي اصغر منك ؟

– انها اصغر منكِ بست سنوات

– مَنْ اخبرك عن سني ؟

– يستوس

– لماذا اخبرك عنهُ ؟

– كان يحدثني عن حسن ترنيمك قبل ان وصلنا الى قانا الجليل فقال : انكِ لم تعلمي قبلاً ان لكِ مثل هذا الصوت الرنان الى ان جاء اليوم الذي علمتِ فيه ذلك حين رتلتِ فكيف جرى هذا الامر . ارجو ان تنبئيني بالخبر اذا لم يكن سراً

– بلى انه سرٌ من الاسرار

واذ ذاك اقبل يستوس متبعاً برأوبين ونعمة والدي الفتاة . فقالت نعمة بعد ان حيّت مرسيلوس : كنا نذهب حسب عادتنا المألوفة في كل سنة الى اورشليم لنحضر عيد الفصح في مثل هذا الفصل ولكن ليس باستطاعتنا ان نذهب في هذه السنة لذلك لدينا الآن اشياء كثيرة جاهزة نريد بيعها

فأرى مرسيلوس من نفسه انه تاجر ومسك ثوباً وقال لا شك ان هذا الثوب جليلي لانه منسوج نسجاً واحداً وحياكته متينة ممتازة ولا بدَّ من ان صنعه استغرق وقتاً طويلاً . ثم قال : انني عرفت حائكاً في اثينا اصلهُ من السامرة اخبرني شيئاً عن هذا الثوب وله المامٌ كافٍ بمنسوجات الجليليين

فقال يستوس : وانا اعرف شاباً يونانياً كان يشتغل في محل بن يوسف منذ مدة وقال انه كان في اثينـا عند رجل يدعى بنيامين وقد تعلم منهُ اللغة الارامية . أيمكن ان يكون هو الحائك نفسه ؟

– نعم هو بعينهِ ويحترمهُ اهل اثينا وانه استاذ ايضاً ويرى من الواجب ان يتكلم باللغة الارامية مع الذين يعرفونها

– لا شك انه رأى منك رفيقاً ممتـازاً يا سيدي . لاني الاحظ انك تستعمل

عبارات كثيرة كعبارات السامريين

قال يستوس لو انني فهمت انك تعرف بنيامين لكنت اخبرتك شيئاً عن ديمتريوس اليوناني فانه شاب ذكي وقد غادرنا بغتة حيث كان يجول تائهاً في كل مكان

وقد تظاهر مرسيلوس بان حادثة ديمتريوس لا تهمه فقال اريد ان ابتاع هذا الثوب وكذلك هذا الشال .

ولما خرجوا جميعهم وظل مرسيلوس ومريم وحدهما التفتت اليه وقالت بصوت مهموس لماذا كذبت على يستوس ؟

— أانا كذبت عليه ؟

— نعم كذبت عليه من جهة ذلك اليوناني لانك ابيت ان تتحدث عنه بشيء .. اخبرني يا مرسيلوس مَن انت ؟ فانت لستَ تاجراً وقد تبين لي ذلك . انت لست مهتماً البتة بحياكة والدتي . وقد انتظرت منه ان يجيبها ولكنه لبث صامتاً لا ينبس ببنت شفة اخيراً قالت له : قل الحقيقة الآ اذا كان في الامر سرٌ تخشى افشاءه . لاي مهمةٍ جئت الى هنا ؟

اجابها قائلاً : نعم انه سرٌ لا يمكنني ان ابوح به

الفصل الرابع عشر

كان يستوس لطيفاً في هذا اليوم لكنه شاء ان يلازم الحياد لانه ما لبث ان اشتبه عليه امر مرسيلوس . فقد حدث امس في بيت رأوبين والد مريم امور طفيفة بيدَ انها لو جُمعت لكانت مهمة وذلك ان مرسيلوس الذي كان يتكلم باللغة الارامية كانت لهجته لا تختلف عن لهجة اهل السامرة . وقد اخبرهم انه يعرف بنيامين الحائك الشهير السامري الاصل الموجود في اثينا

وقد تبين ايضاً ان ديمتريوس الشاب الجميل الصورة الذي كان يشتغل في محل بن يوسف له معرفة تامة ببنيامين حيث كان عنده سابقاً وكانت لهجته باللغة الارامية سامرية محضة . فبناء على هذا كله اتضح جلياً ان بين مرسيلوس وذلك الشاب اليوناني التائه علاقة حقيقية لا يشوبها ريب . مع ان مرسيلوس تظاهر بانه لا يعرفه فضلاً عن انه لم يُظهر ادنى اكتراث لترك ديمتريوس المذكور محل بن يوسف بسرعة زائدة . فاذاً لا شك بان مرسيلوس كان لديه اسباب جوهرية جعلته ان يتحاشى عن ذكر ما يختص به . واذ ذاك تيقن يستوس ان الشاب الروماني هذا لا يوثق به

لذلك عند غروب الشمس نهار امس توجه الى الاسواق وحده واخذ يجول فيها لانه لم يشأ ان يرافق مرسيلوس الروماني . اما هذا فانه ذهب توّاً الى النبع ليسمع صوت مريم ثانيةً . لانه بعد ان تعرّف اليها نهار امس اعتقد بعد ما دار بينهما من الاحاديث التي اصبحا بعدها صديقين وفيَّن ان ترتيلها في هذه المرة الثانية سيكون له تأثير اكثر على نفسه فكان منه ان انتحى مكاناً يسمع فيه كل كلمة من ترنيماتها . فكان اهالي البلدة جميعهم جالسين على الارض كعادتهم غير انهم لم

يلحظوا مرسيلوس لان ابصارهم كانت متجهة نحو مريم التي وصلت اليهم في الوقت المعين

واذ كان جالساً في الظلام يصغي الى صوتها الرخيم شعر بارتياح الى حقيقة ايمانها الحي ورأى من نفسه ان غريزته التي طُبع عليها قد تحوَّلت الى شوق عظيم خصوصاً عندما رنَّمت « في ظل جناحيك احتمي . . . ثابت قلبي . . . استيقظ يا مجدي ! استيقظ يا عودي » . ومع ان مريم كانت عاجزة عن المشي لكنها استطاعت ان تطير بالروح

وكان يستوس قد ابلغ مرسيلوس انه يجب عليهما مغادرة قانا في الصباح الباكر ليتمكنا من الوصول الى بيته في النهار نفسه

فسأله مرسيلوس : أيرجعان فيما بعد الى قانا الجليل ؟

— اجابه كما تشاء . ولكننا قد زرنا كل من عنده نسيج معروض للبيع

لقد شاء مرسيلوس ان يجتمع ايضاً بمريم اذ ربما يتسنى له ان يفضي اليها بالسبب الذي احوجه الى زيارة الجليل ولكنه لم يقل ذلك ليستوس

فلما انهت مريم ترتيلها انتظر ريثما يتفرق الجمهور فاذا به يشاهد يستوس ذاهباً الى السوق مع رأوبين . وقد كان مراده ان يقابل مريم ليودعها قبل سفره . لكنه عدل عن ذلك خشية من ان يكون ابواهـا قد اشتبه عليهما امره كما اشتبه على يستوس

ثم انه انحى باللوم على نفسه لانه فتح لهما باباً لوقوع الشبهة عليه بغير قصد وقد استدرك هو نفسه بعد فوات الفرصة انه كان من الموافق له ان يطلع يستوس على الغاية من سفره الى الجليل فربما كان رفيقه هذا يعدل عن مرافقته . اما الآن فقد امست الحالة حرجة ولو كان ديمتريوس معه في هذا الاوان لكان اشار عليه فيما يقتضي عمله بل كان فهم ايضاً سبب تكتمهم

* * * *

وعند ظهر اليوم الثاني سارا معاً حتى افضى بهما المسير الى بيت امصيا ودبوره وهناك استقبلتهما امراة بدينة الجسم ثم اخبرتهما ان زوجها سافر الى اورشليم ليحضر عيد الفصح ويبيع في اثناء مدة العيد بعض منسوجات ليس لديها منها الان سوى إحرام لسرج جسبر (اسم الحمار) فقط وانها مستعدة لبيعهِ منهما اذا شاءا

فسألها مرسيلوس بكم تبيعينه ؟

اجابتهُ انها تريد ان تبيعه مع الدابة المذكورة لان ليس لها حاجة بها

فسألها ثانية بكم تبيعينهما معاً ؟

قالت باثني عشر شاقلاً لغاية خمسة عشر

– انني ادفع لكِ خمسة عشر

– هذا سعر موافق ولديَّ ايضاً اذا شئت سرج ولجام فلما احضرتهما له دفع اليها خمسة وعشرين شاقلاً بدلاً لكل واحد منهما

وبعد ظهر النهار عينهِ وصلا الى صفورة وهي قرية من قرى الجليل ايضاً . فحيأهما كل من شاهدهما من اهاليها واذ ذاك ركض ولدٌ صغير من بين الاولاد وتمسك بيستوس فاخذه هذا بين ذراعيه واخذ يقبله ثم التفت الى مرسيلوس وقال هذا يوناثان حفيدي . وكان هذا الولد جميل الطلعة وشعره الاسود متدلياً على كتفيه . فلما وقع نظرهُ على الدابة نزل من بين ذراعيه وسأله : ألك هذه الدابة ؟

– اجابه الشاب الروماني اظن انك ترغب في ركوبها فرحباً بك

وبعد ان تسلّم الولد رسنها سأله عن اسمها وعلامات الابتهاج بادية على محياه فاخبره ان اسمها جسبر وقد اصبحت منذ الان ملكاً لك يا يوناثان

– هل صارت مختصة بي انا قال هذا ونظر ملياً الى جدهِ وقلبه يطفح جذلاً وحبوراً

– فقال له جده واشار الى رفيقه : هذا صديقي السيد مرسيلوس غاليو الذي لا يقول كلمة الأ في محلها واذا قالها فلا يرجع عنها ثم التفت الى مرسيلوس

واصوات الاولاد الملتفين حولهم تكاد تصم الاذان وقال له هذا فضل عظيم منك يا سيدي . ثم سأل يوناثان جده : أهو يا تُرى واحدٌ منا ؟

فنظر الرجلان احدهما الى الاخر وكان الاول منهما متكتماً والثاني مرتبكاً . ثم التفت يوناثان الى المحسن اليه وقال لو لم تكن من انصارنا لما تفضّلت علينا بهذه العطية . ثم سأله أأنت غني ؟

فضحك مرسيلوس من كلامه وقال له : ما من احد يجيب بكلمة نعم عن هذا السوال

– لو لم تكن غنياً ما تبرعت بذلك مطلقاً . فهل اوحى اليك يسوع ان تفعل هذا ؟

فتفرّس مرسيلوس في وجهه وقال له : هل تعرف انت يسوع ؟

فاجابه هل اخبرك جدّي ان يسوع قوّم رجليّ حتى اصبحت قادراً على المشي والركض ؟

– نعم ان جدّك اخبرني عن رجلك وقد سرّني شفاءك

ثم رغب يستوس الى مرسيلوس بالذهاب معهُ الى البيت لمشاهدة ابنته فسارا معاً نحو البيت وقد تبعهما جمع غفير من الاولاد . وكان هذا المسكن من حيث النظافة والترتيب في الدرجة القصوى وقد رحبت بهما سيدة في الخامسة والثلاثين من عمرها . فبعد ان عرفها يستوس الى مرسيلوس قالت هذا تلطّف عظيم منك يا سيدي لتقديمك هذه الهدية الثمينة الى ولد صغير

قال يوناثان وهو يكاد يطير فرحاً . انظري يا والدتي ان هذه الدابة صارت مختصة بي

واذ كانت رفقة ترافقهما الى الدار قالت هذا يوم سعيد ليوناثان

– اجابها يستوس : نعم انه لكذلك ولكن لا تنسي ان وراء هذه الدابة المهداة اليهِ خطراً عظيماً

قال مرسيلوس ولكنه قادر ان يعتني بها لانها حمار هادئ ولا يؤذي احداً

ثم قال يستوس لابنته رفقة ينبغي لنا ان ننصب خيمة للسيد مرسيلوس بجانب البيت لاراحته وتناول طعامه معنا

– لا بُدَّ من هذا . ثم سألت مرسيلوس هل ديانتك كديانتنا تحرّم عليك أكل بعض الاطعمة ؟

– لا ان ديانتي لا تحرّم على احد شيئاً

– اتعني انه ليس لكم ديانة ؟

– ان لنا ديانة وعندنا آلهة في كل ناحية

– آلهة ! اتعني اصناماً ؟

– كلاَّ بل هي تماثيل جميلة الصنع أنيقة واكثرها من بلاد اليونان لان لليونانيين موهبة في صنعها

– وهل يعبدها شعبكم ؟

– اظنهم يعبدونها

– ولكن انت نفسك لا تعبد هذه التماثيل

فابتسم مرسيلوس واجاب كلاَّ ثم كلاَّ

– اذاً انت لا تعتقد انه توجد قدرة فائقة الوصف والادراك

– انني ارى ان كل الاديان التي سمعت بها من اناس كثيرين غير مقنعة على اني مستعد من كل قلبي للاقتناع متى وقفت على براهين قاطعة تثبت لي ان الديانة التي اعتنقها تكون ظاهرة كالشمس في رائعة النهار فان سروري عندئذٍ يكون عظيماً وايماني قوياً لا يتزعزع

ولما رأت رفقة انهما لا يحتاجان اليها بشيء . خرجت تقول سأعدّ لكما الطعام

– قال مرسيلوس بلهجة الاسف انني لم اتعمَّد قط تكدير صفوكما . انت رجل ديّن يا يستوس ولم يكن من الحكمة ان اتكلم بشأن الاديان هكذا

– لم يسبب كلامك أيّ ضرر لنا فانت رجل ذو نيّة حسنة وتريد ان تؤمن كما ظهر لنا من فحوى كلامك فما عليك اذاً الآ ان تفتش بجدّ واجتهاد لانك تستحق ان يكون لك ديانة من الديانات . واذ قال هذا انتصب واقفاً وقال يجب ان ننصب الخيمة الآن

* * * *

وبعد تناول العشاء بهنيهة من الوقت وقف يوناثان في باب خيمة مرسيلوس فلما رآه وهواجس الافكار بادية على محياه قال له . آمل ان تكون صرفت نهاراً سعيداً بشأن حمارك جسبر . اجابه نعم ولكنني متكدّر

– من اي شيء ؟ اجابه لان توما الولد الاعرج سألني هل أدعه يركب الدابة فرفضت طلبه . فقال له : لا تغتم دعْه يركبها غداً

– ولكنهما ذاهبان غداً الى كفرناحوم

– اذاً تكلم مع جدك بهذا الامر وهو بغير شك يخبرك ما يجب ان تعمل

لقد استطاع مرسيلوس ان يسمع الحديث الذي جرى بين يوناثان وجدّهِ لان النافذة التي كانا جالسين ازاءها كانت قريبة من خيمة مرسيلوس . فقد سمع يوناثان يسأله بقوله : ان يسوع عندما أوعز الى الناس ان يعطوا اموالهم الى البائسين هل قال ذلك للاغنياء فقط يا جدي ؟

اجابه يستوس لست اعلم ربما قال ذلك للاغنياء فقط

– لماذا لم يشفِ يسوع رِجل توما ؟

– لست ادري ربما لم يعلموهُ بامرهِ

– يا ليتهُ ابرأها

– لو انه فعل ذلك كان ذلك احسن لك

– انني مسرور لانه قوَّم لي رجلي

– كان هذا الامر اعجوبة وبما ان يسوع قد رحمك فيجب عليك ان تعمل شيئاً له

– كيف يمكنني ان اعمل شيئاً لا اقدر عليه

– أظن انه يوجد ذلك الشيء الذي تستطيع انت ان تعمله . فلما سمع يوناثان هذا الكلام اخذ يبكي . ثم حصل سكوت فتخيّل لمرسيلوس ان يستوس اخذ يوناثان بين ذراعيه . وبعد مرور نصف ساعة وقف يوناثان ثانية في باب الخيمة وسأل مرسيلوس : هل يسوؤك اذا اهديت جسپر لانسان ما ؟

– اتريد ان تهديه الى توما ؟

– كلاً لست اريد ومع هذا فانني سأهبه له

– انك ولد كريم شجاع يا يوناثان

واذ سمع يوناثان هذا الثناء توارى حالاً

فلما بقي مرسيلوس وحده ابتدأ يناجي قائلاً : ان يسوع هذا قد مات منذ سنة وهو بلا ريب كان ممتعاً بقوة ادبية فـائقة الوصف لانه بثَّ روحه في قلب يستوس واسرته خصوصاً في قلب هذا الولد الصغير وكأن يسوع اخذ طابعاً ومطرقة وطبع صورة روحه بطـابع لا يُمحى في هذا الذهب الجليلي وحوّله الى نقود ملكوته . ولقد كان من الواجب ألاَّ يموت هذا الانسان بل يبقى مثلاً صالحـاً للناس كافة مدى الدهر . اذ لو دام في قيد الحياة لجعل الكون كله مسكناً للصلاح والصالحين ولكن بما انه مات فسيذكره القوم الجليليون سنين معدودة ثم ينطفي ذلك النور العظيم من امام اعينهم . ان ملكوت يسوع هو لجميع البشر غير ان نقوده كانت في قرى الجليل الرثة الخاملة الذكر . وسيكتب بهذا الصدد الى ديمتريوس غداً

* * * *

وفي الصباح الغد تناول مرسيلوس وحده فطوره وقد اجابت رفقة على اسئلته بايجاز اما يستوس ويوناثان فانهما فطرا باكراً

وبعد ان انتهى مرسيلوس من فطوره عاد الى خيمته واخذ يستأنف كتابة رسالته الى ديمتريوس. واذ ذاك رأى يستوس واقفاً في باب الخيمة فأومأ اليه بالدخول فدخل وجلس على كرسي من كراسي المخيم. وبعد ذلك وجّه مرسيلوس الحديث اليه قائلاً: اظن ان يوناثان عمل اليوم عملاً كبيراً مشكوراً فوق طاقته سبب له بلا شك انزعاجاً لذلك آسف كل الاسف لانني كنت السبب في هذا

– لا تلم نفسك يا مرسيلوس ربما يكون ذلك لخيره. نعم انه ما يزال فتياً نشيطاً ليختبر اموراً قاسية كهذه فيجب علينا الانتظار لنرى كيف يخرج من هذا المأزق

– ولكنه قد خرج منه منتصراً. ألم يعطِ دابتهُ توما الاعرج؟

– نعم اعطاه اياها ولو كنت هناك لرأيت توما فرحاً راكباً عليها ووالدته سائرة بازائه وسمعت باذنك استحسان النسوة لعمله هذا قائلات: ما احنّه والطفه واكرمه. فلم استطع اسكاتهن ولذلك عدت الى هنا

– ولكن من الطبيعي ان يُمدح يوناثان في مقابل التضحية العظيمة التي ضحى بها

– نعم ان هذه التضحية كلّفت يوناثان ثمناً غالياً ومن الحق ان يكافأ عليها اذ لا شيء يُفسد اخلاق الانسان كافتخاره باعماله الصالحة لانه حينما يفتخر الانسان بصلاحه فانه يجني على نفسه. ان يوناثان هذا ما يزال صغيراً غراً بدون اختبار لذلك برّه الشخصي يدمر حياته دون ان يعلم ذلك

اجاب مرسيلوس قد فهمت ما تعني وانا استحسن ذلك وامدحه فدعنا نترك هذا المكان قبل ان يتمكن الناس من افساد روحه

فسرّ يستوس ورضي بهذا الرأي المصيب وقال انه سيُعلم والدته بذلك ثم

يحزمون امتعتهم ويرحلون

– حسناً جداً لقد سرّني قبولك رأيي

– وسنأخذ الولد معنا ونساعده بقدر امكاننا لاننا نحن المسؤولون بامره على ما اظن

وما ان ذهب يستوس حتى جاء يوناثان ووقف في باب الخيمة . فقال له مرسيلوس : سمعت انك سلمت جسپر الى توما ليذهب الى قريته . ما حاجتك انت الى الدابة فان رجليك صحيحتان . ان الولد الذي كان كسيحاً وشُفي يجب ان يفرح ويمشي لانه يستطيع المشي الآن ولا يحتاج الى ركوب الدواب

– ولكن جسپر كان حماراً جيداً وقد تعجب الجميع كيف تمكنت من التخلي عنه

– لا يهمنا ما يقول الناس يجب ان ننسى ذلك

وكان يستوس بدخوله قد سمع ما قال مرسيلوس فقال ليوناثان :

سنأخذك معنا في هذه السفرة لقضاء بضعة ايام وها والدتك تحزم ما تحتاج اليه من الاغراض

– ستأخذاني معكما. ثم اخذ يدور حول الخيمة ويصيح من شدة الفرح

– قال مرسيلوس قد تكلمت معه كلاماً قاسياً

– قال يستوس « امينة هي جروح الصديق » سيكون له شيء جديد يفرحه

– الى اين ذاهبان نحن ؟

– الى كفرناحوم

– ليس من الحكمة ان نذهب الى كفرناحوم ربما نلتقي هناك توما وجسپر فدعنا نرجع الى قانا حيث اعتقد ان رؤية مريم تنفعه

– كما انها تنفعك يا مرسيلوس ولكنك ستضيع وقتك سدى لاننا رأينا كل ما كان هناك معروضاً للبيع

فالتفت اليه مرسيلوس وقال له قد اشتريت كل ما اردته من النسيج . اما ما سمعته عن يسوع فهذا يجعلني اهتم ان اسمع عنه اضعافاً . فعساك تعرفني الى اناس يعرفون عنه علاوة عما سمعت ولا يحجمون عن افادتي

– لا اخفي عليك ان هذا الامر صعب جداً لانه يشق على شعبنا ان يتكلم مع اناس رومانيين . ربما تجهل ان الرومانيين اماتوه ولا تعلم ان الجند واقف على حذر خصوصاً في اورشليم ليتحقق ويرى أكان اصدقاءه يُباشرون تاسيس جمعيات ما

– هل يلتبس عليك امري فتخالني جاسوساً ؟

– معاذ الله ان اخالك بهذه الصفة لانني لا ادري مَنْ انت ولانني واثق ان غايتك التي ترمي اليها حسنة لذلك تراني مستعداً لان اخبرك بعض اشياء عن يسوع

– اشكر الك تلطفك هذا ثم اخرج الكتاب الذي كتبه الى ديمتريوس ورجا منه ان يرسله الى استفانوس في مصنع بن يوسف

– اذاً تعرف ذلك العبد ديمتريوس ؟

– نعم هو عبدي

– لقد لاحظت ذاك وعرفت ايضاً انك مــا جئت الى الجليل لكي تبتاع منسوجات بل لكي تعرف حقيقة حالة يسوع بتمامها . وقد تعلمت اللغة الارامية لهذه الغاية فهل انت واحدٌ منا

– قد جئت الى هنا للغاية نفسها . فهل لك ان تساعدني ؟

– على قدر استطاعتي بل بحسب ما تستطيع انت ان تدركه . ان معرفة يسوع وحدها لا تكفي بل يجب ان تؤمن ولو بالبعض من قصصه

ثم قال له اذا كنا نريد ان نصل الى قانا قبل الغروب يجب ان نرحل منذ الان ثم خطر بباله هاجس جديد فقال هلمَّ بنا الى الناصرة فانهــا اقرب الينا من قانا فضلاً عن انها وطنه وهناك ترى امه التي ما تزال مقيمة فيها واعتقد انها تخبرك كل شيء عنه . خصوصاً عندما تعلم انك انت الشاب الروماني الذي رايت ابنها وتحمست

تحمساً شديداً للوقوف على حقيقة امره

اجاب مرسيلوس لا لا اريد ان اراها ابداً لان قلبي يحدثني انها ترفض الحديث عن ابنها امام رجل روماني

* * * *

كان يوناثان في اثناء الساعات الثلاث من سفرهما قوياً نشيطاً جداً ولكن ما دنت الشمس الى المغيب حتى ظهر عليه اثر التعب فامسك بيده جده وسار بجانبه

ولما كان مرسيلوس ويستوس منهمكين في حديثهما لم ينتبها الى يوناثان الا حينما اوشك ان يقع لخطأ رحالهما ريثما يرتاح الغلام ثم اعدا دابة واركباه عليها . فقال يا ليتني ابقيت الخرج فقط قال له مرسيلوس : الذي يعطي شيئاً يجب ان لا يندم عليه . ثم انهم تناولوا طعامهم واستأنفوا مسيرهم

فقال يستوس لو انك رافقت يسوع وسمعت اقواله لكنت اغتبطت كثيراً من افكاره فكم من مرة اشار بكلامه عن العطاء . اذ كان يقول انه لا يوجد احطّ من العطية الدنيئة وهذا ما يسهل عليك بلا شك قبول تعليمه لانك رجل كريم

– هذا لطف منك يا يستوس . غير انني اؤكد لك اني لم أعطِ فيما مضى من حياتي شيئاً امسيت بعده مفتقراً اليه . واني اعتقد كل الاعتقاد ان يسوع اعطى كل ما عنده

– لقد اعطى كل شيء . مع انه لم يكن لديه سوى الثياب التي كانت على جسمه . وفي السنة الاخيرة من وجوده بيننا كان عنده ثوب رائع كان بامكانه ان يعطيه للمحتاجين اليه لو لم يهدَ اليه في مناسبات خصوصية وذلك انه كان في الناصرة امرأة اشتبه على الناس امرها بحيث كانت تعمل لهم السحر وكانت قزمة قبيحة الصورة لا صاحب لها ولا صاحبة فكانت تسير وحدها من مكان الى مكان

والاولاد يتبعونها بالصياح والجلبة وشاع عنها وذاع ان عينهـا شريرة . ففي احد السبوت سمع الجيران صوت المنوال الذي تحوك عليه وقامت قيامتهم عليها لانهـا خالفت الشرع حيث ان اكثر اليهود يحترمون نهار السبت اكثر ممـا يحترم بعضهم بعضاً . ثم شكوها الى رجال الحكومة الذين اوفدوا مَنْ فاجأها في صباح السبت التالي وكسر لها المنوال الذي كان سبب معاشها الوحيد وانت تعرف باقي قصتها

قال مرسيلوس اعرف ان يسوع كان نجاراً . ولكن مـاذا قيل عنه بشأن شعوره نحو الذين لا يحفظون السبت هل شكاه الشعب الى الهيئة الحاكمة ؟

– نعم شكوه وقد اتفق ذلك يوم كان الكهنة واقفين له بالمرصاد ليدوا منه خطيئة والشعب يرجو منه ان يتكلم في المجامع ولكنَّ الربانيين (الحاخام) استاؤا من ذلك . وحرَّضوا الشعب على دفع العشور والتقدمات . امـا يسوع فكان يتكلم دائماً بشأن المصادقة واضافة الغرباء ومساعدة الفقراء

– ألم يعتقد الربانيون الصداَقة والصدَقة ؟

– نعم كانوا يعتقدونها نظرياً ويتحدثون عن المادة بدون ان يكترثوا لامر الروح .

اما ما جرى لتامار القزمة الساحرة فان يسوع اصلح لها منوال الحياكة وفي مقابل ذلك حاكت له الثوب الرائع الذي كان يلبسه الى ان مات

– هل كنت حين موته ؟

اجابه يستوس كنت وقتئذٍ في السجن بسبب الحادث الذي حصل في الهيكل قبل محاكمة يسوع ببضعة ايام اذ طرد جمـاعة الصيارفة منه وكنت انا في جملتهم وزجونا في اعماق السجن . وكانت شكواهم علينا اننا جمعنـا النقود التي كانت مبعثرة في دار الهيكل واستولينا عليها على ان دعواهم هذه لا اساس لها من الصحة وقد مكثنا في السجن مدة اسبوعين ولم يطلقوا سبيلنا الأ بعد ان كان كل شيء قد تمَّ وانتهى

اما ما حصل من جهة الثوب فان الجند الروماني اقترع عليه واخذه معه ونودُّ كثيراً ان نعرف ما جرى به . لان لا قيمة له عند الذين اخذوه

ولما اقترب الظهر فرشوا امتعتهم وتغدوا اما يوناثان الذي انهكه التعب فقد نام حالاً بعد الغداء . ولكن مرسيلوس ويستوس فانهما اخذا في اكمال حديثهما همساً فقال يستوس كان يظن البعض من الناس ان يسوع كان يكره التجارة ولا يقدر الحرائة والزراعة حق قدرهما

– سمعت انه كان يحض الناس على اعطاء حاجاتهم المحتاجين. فكيف يستطيع الانسان ان يعيش بدونها ؟

– دعني اوضح لك هذا . ان يسوع ضرب للاغنياء مثلاً في موضوع العطاء هذا لانه كان دائماً يتكلم بامثال موجزة العبارات فقد قال مرة انه كان لرجل كرمة ولما حان قطافها ذهب الى السوق وجاء برجال بطالين ليقطفوا ثمرها بعد ان اتفق معهم على ان يدفع لكل واحد منهم اجرة عمله كل النهار ديناراً واحداً ولما رأى انه يحتاج الى رجال اكثر منهم عدداً توجه الى السوق ثانية واتى بهم فسألهم كم يطلبون اجرة على عملهم اجابوه ادفع لنا ما تشاء . وعند المساء دفع لكل واحد منهم ديناراً واحداً حتى للذي لم يشتغل الا ساعة واحدة في النهار

– لا شك انهم تذمَّروا ؟

فقال لهم صاحب الكرم ما بالكم تتذمَّرون ؟ ألم أتفق واياكم على الاجرة ؟ اما هؤلاء العَمَلة الآخرون فقد فوَّضوا اليَّ امر اجرتهم فدفعت لهم ما شئت . وهذا الشيء نفسه ينطبق علينا تماماً في حياتنا اليومية وتجارتنا

قال مرسيلوس : حبذا لو تعوَّد الناس ان يتصرَّفوا مثل هذا التصرُّف في معاملاتهم فلا يبقى اذ ذاك خصومات ولا مشاكل في الحياة فيعيش الانسان بسلام مع اخيه الانسان وعندما يختبرون هذه الحياة الجديدة السعيدة التي علَّمهم اياها يسوع لا يهمهم بعدئذٍ الرجوع الى حياتهم القديمة – على ان هذا لا يمكن ان

يكون لان الاكثرية الساحقة ترغب عن هذا التعليم وتستهزيء باصحابه ناسبة اليهم الضعف في حماية حقوقهم فضلاً عن خسارتهم كل شيء.

– هذا حق انهم يخسرون كل شيء ما عدا الغاية العظيمة فانه كحبّة الحنطة لا تنفع شيئاً ما لم تزرعها في التراب وتغذيها بالماء.

قال مرسيلوس اني امثـله في ذهني برجل محسن اتى بقبضة من القمح الجيد الجديد الذي يهب الانسان قوة ونجاحاً وسلاماً اذا اقتات به

– ولكن تلك القبضة من الحنطة لا تكفي ان لم تُزرع وتُحصد مرات عديدة وقد اشار يسوع الى هذا حيث قال ان كثيراً من هذه البذور لا ينبت فالبعض يسقط بين الاشواك والاعشاب وبعضها يسقط على الارض الحجرة ولكن القليل منه ينمو

– هل تؤمن ايماناً حقيقياً بان تعليماً كهذا سيكون له تاثير فعّال في مستقبل هذا العالم الجشع ؟

– نعم انني اؤمن لان يسوع اعتقد ذلك فقد قال ان البذرة المزروعة في الارض الجيدة تفعل فعل الخميرة في العجين . ومتى تأصلت فلا شيء يوقفها عن النمو

– ولكن لماذا ابتدأ زرعها هنا في الجليل الضيق الحقير البعيد عن المراكز الاصلية في العالم الواسع ؟

اجاب يستوس يجب ان تُزرع في ايّ مكان كان . فهل يدور في خلدك انها كانت تتأصل وتنمو اكثر لو سقطت في اسواق رومية ؟

ثم قال لنذهب الآن الى قانا . وفيما هما ذاهبان قال يستوس لرفيقه مرسيلوس كم من مرة سرنا معاً في هذا الطريق لان يسوع كان يحب قانا اكثر من كل قرية في الجليل

– اكثر من الناصرة ؟

– نعم لان اهليها لم يقدروهُ في الناصرة حق قدره حيث لا كرامة لنبيّ في وطنه. وزد على ذلك قولهم كيف يمكن ان تكون له هذه الحكمة ألسنا نعرفه ؟

– كان هذا طبيعياً لانه رُبي بينهم . فلم يصغوا الى تعاليمه كاهالي قانا وكفرناحوم . واول آية صنعها حين كان في قانا الجليل حيث أُقيمت حفلة زفاف لحنة بنت جريف وراحيل . وكان والدها خزّافاً متوسط الحال فاراد ان يهيئ عشاء لاقربائه واصدقائه الكثيرين

اما انا فلم اكن هنـاك ولم اعرف بعد يسوع وعندما طرق اذنيَّ خبر هذه الاعجوبة لم اصدّقها بادئ بدء وكان يسوع قد جاء متأخراً الى العرس حيث كان المدعوون على المائدة وكانت الخمر التي اعدّها قد نفدت . وما ان سمع يسوع بذلك حتى خرج من الغرفة التي كان فيها ودخل غرفة المعدّات فرأى فيها ستة اجران فارغة فقال للخدام املأوها ماء وقدموا منها الى الضيوف وعاد هو الى الغرفة التي كان فيها ولما شربوا منها كان الماء قد تحوّل الى خمر

– لا يا يستوس لا . هذا الامر يفسد قصة يسوع . يقتضي ان تعبّر عن الماء والخمر بغير هذه الطريقة . فتقول ان يسوع دخل العرس بشخصيته الممتازة المشرقة التي يحبها الجميع فاصبح طعم الماء الذي شربوه في حضرته كطعم الخمر

– عبّر عن ذلك كما تشاء يا مرسيلوس انك تقدر ان تؤمن بحكمة يسوع وصلاحه بقطع النظر عن هذه الرواية

– ألم تقل لي ان مريم تيقّنت ان لها صوتاً لا مثيل له حينما كان والداهـا في العرس ؟

– نعم وكان العرس عرس حنة وقد تأخر يسوع في مجيئه الى الحفلة لانه كان بلا شك عند مريم وربما اوصاها حين منحها هذه الموهبة ألاّ تقول لاحد

– هل اعطى المسيح عطية ما واوصى المُعطى له ألاّ يخبر احداً بشأنها

– نعم يوجد براهين كثيرة على ذلك . ان يسوع لم يستحب العطايا علانية لانه لو كان يستحبها او يستحسنها لما كان اوصى بكتمانها فقد قال في احد المجتمعات لجمهور من الناس اجتمع على تلة ليسمع كلامه : اذا صنعت صدقة فلا تدع احداً

يراك ولا تنفخ بالبوق لكي يمدحك الناس . بل لا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك . وابوك يكافئك

سأل مرسيلوس : ماذا يعني بقوله وابوك يكافئك اذا لم يعرف احد بذلك العطاء ؟ تُرى من كان يكافئ يونانان على صنيعه لو لم يعلم انه اعطى حماره الولد الكسيح ؟ هل يكافئه ابوه سرًّا ؟

– لا شك بذلك لانه لو بقي امر عطائه مستوراً لكان قلبه يفيض سعادة ولا يخامره ادنى ندامة كما اتضح من قوله : حبذا لو ابقيت الحرج

– اتظن ان مريم التي احاط بها النور الخاصّ قد حفظت سرّه في قلبها مع انها لم تكن هي المانحة بل الآخذة ؟

كذلك اذا كان الآخذ العطية لا يُخبر بها فان المُعطي يكافأ من قلبه على احسانه وبذلك يساعد الآخذ ليحصل على المكافأة

– اما الآن وقد مات يسوع أ ليست مريم اصبحت حرّة ان تعلن سرّها ؟

اجابه يستوس : الارجح لا ، لانها لو كانت حرّة لكانت اعلنته

الفصل الخامس عشر

وصلوا متأخرين الى قانا الجليل فلم يسمح لهم ضيق الوقت ليقصدوا الى النبع ويسمعوا ترانيم مريم فقال مرسيلوس لا بأس بذلك خصوصاً بعد ان رأيا يوناثان منهوك القوى بحيث لا يتمكن من رفع راسه وبعد ان نصبا الخيمة سمعا اصوات الناس العائدين من ذلك النبع

وبعدئذٍ خرج يستوس الى السوق اما مرسيلوس فانه تمدّد في الخيمة وقد سمع رفيقه عند خروجه يتكلم مع صديق له ولم يغب يستوس الأ قليلاً حتى رجع واخبره ان حريف قال ان يسى مسافر غداً صباحاً الى اورشليم وسيسلّم الكتاب الى ديمتريوس عندئذٍ ناوله مرسيلوس ذلك الكتاب ثم اخرج كيس نقوده وسأله كم يريد اجرته

– يكفيه عشرة شواقل

قال مرسيلوس اذن كلمه انت لانني عازم على النوم . وبعد قليل من الوقت افاق من نومه اذ سمع بعض أناس يتحدثون بصوت منخفض فاصغى اليهم بكل جوارحهِ فسمع يسى يتكلم بشؤون تجارته بالجمال في اورشليم ويستوس مصغٍ اليه. ولما انهى كلامه سأله : كم تريد من الاجرة لايصال الكتاب ؟

– اجابهُ ثمانية شواقل فقط

– سيعطيك عشرة لا ثمانية قال هذا وافرغ الدراهم بين يديه

– يكفيني ثمانية كما قلت لك فابقِ لنفسك شاقلين

– اني لم اعمل شيئاً يستوجب الكراء فاظن ان مرسيلوس يحب ان تقبضها كلها

– متى كان الرومانيون يتكرمون علينا ويعطفون ؟

– اننا نقدر ان نثق بمرسيلوس لانه رجل صالح اذ ليس كل الرومانيين سواء يا يشى

– أجل أجل كما يقولون فلكل يهودي روماني اما انا فلي هورتنسيوس

– اهو قائد المئة في كفرناحوم الذي شفى يسوع غلامه المفلوج

– نعم

– هل عاملته في البيع والشراء

– نعم بعته اربعة جمال وافهمته ان احدها يعرج وأرجعت له من الثمن . فتعجب من ذلك وقال اذا كان يسوع يمكنه ان يُقنع يهودياً بان يتكلم الصدق فانه يقدر ان يشفي المرضى . وقد كنت انا هناك حين جاء ببزته الرسمية الى يسوع فكان مملوءاً ايماناً وقال ليسوع ان غلامي مشرف على الموت فاذا شئت ان تشفيه فقل كلمة واحدة فانه يبرأ . لانني لا استحق ان تدخل تحت سقفي . فسرَّ يسوع من ايمانه وقال للجمع لم اجد ولا في اسرائيل ايماناً بمقدار هذا . ثم قال له اذهب فانَّ ابنك حيٌّ

ثم سار الجميع الى بيت هورتنسيوس فقال احدهم ان المريض شُفي حالاً وخرج لمقابلة سيده . وقال غيره انه لما وصل قائد المئة كان المريض قد شُفي ونهض من فراشه وقد اذاعت ألسنة الناس اشاعات كثيرة كهذه

– هل شُفي الغلام حقيقة من مرضه ؟

– نعم وقد سمعته يقول ذلك

– اتظن ان هورتنسيوس يُنصَّب قائداً لحامية كفرناحوم بعد ان حلَّ جوليان الشيخ محلّ بيلاطس في الولاية ؟

– لا شك ان ذلك سيكون من حظ الجليل لان هورتنسيوس رجل يحبه الجميع بالنظر الى استقامته وسيكون صديقاً لجماعتنا . اما هيرودس ذلك الثعلب الكبير فسُيرشَّح لمنصبه مَن هو اكثر قوة وجدارة منه

– ان الذي يدهشني هو تنصيب جوليان والياً في اورشليم

قال يستوس ربما يتم ذلك لان جوليان الشيخ رجل كسول وقد اختاره جماعة الهيكل ليكون والياً عليهم لانه كلما كان الوالي كسولاً متوانياً قويت سطوة رئيس الكهنة وعندئذٍ يسمح لقيافا ان يعمل ما يريد ولو بقي بيلاطس والياً لكان الامر موافقاً لحزبنا

– ماذا حدث لبيلاطس ؟

– أُعيد الى كريت لانني سمعت انه مريض ولم يَرَهُ احد منذ سنة ربما مناخها يلائم صحته اكثر

– انّ ذلك يعود الى حادثة الصلب . ويظن بن يوسف انّ مرضه عقلي . ويقول حريف انه سمعهم يقولون انهم سينقلون قائد حامية منوع الى كفرناحوم

– هذا لا يمكن ان يكون مطلقاً لانهم لا يجسرون على امرٍ مثل هذا لان جند منوع هو الذي صلب يسوع

– يقولون ان بولس قائد منوع سيكون قائد حاميتنا فعلينا ان نكون متيقظين

لما دخل يستوس الى الخيمة تظاهر مرسيلوس بانه نائم واخذ يردّد كل ما سمعه تلك الليلة ثم قال في نفسه اذاً لا يزال دم يسوع عالقاً على يدي بيلاطس مع انه غسلهما . وسيتصرف قيافا في اورشليم حسبما يشاء . لان جوليان الوالي لا يعرف شيئاً ولا يهمه وقع الاضطهاد على تلك الجماعة القليلة التي رغبت في حفظ ذكر يسوع حياً وميتاً . وربما بولس الذي سيأتي الى الجليل لا يكون قاسياً كما يعتقدون عليه لانه لم يكن راضياً عن الصلب ولكنهم لا يتخذونه صديقاً لهم مهما اظهر اهتمامه بقضيتهم اذ كل مَنْ كان له يدٌ في صلب يسوعهم المحبوب هيهات ان يكون له اقل امل باكتساب رضاهم ولو عاملهم احسن معاملة

ولهذا السبب الهـام ادرك مرسيلوس الان انه لا يستطيع ان يعترف لمريم

الملاءمة شعوراً وحنواً نحو يسوع باشتراكه في جريمة الصلب مع ان ذلك كان على رغمه . وربما كانت تغتفر له هذا الامر لو انه اقرّ به لان الغفران كان من طبيعتها وليس من الضروري ان يأتي على ذكر القصة بكاملها بل يكفيه ان يقول انه حضر محاكمة يسوع وشاهد حالة موته وقد اكد الان ان اعترافاً كهذا اصبح غير ممكن

وكان يعتقد ايضاً ان يستوس يؤتمن على سره ولا يثير اقلّ شغب وضجة اما الان بعد ان رآه يثور لدى سماعه ان قائداً من منوع سيتولى القيادة لحفظ الامن في الجليل صمم النية على عدم الاقرار لمريم بشيء. ورأى من المناسب ان يقابلها وحدها

* * * *

اما ما كان من امر حريف الخزّاف الذي اعتمدت عليه قانا الجليل لاخذ المعلومات الكافية بشأن الحوادث الجارية فقد استيقظ باكراً وتذكر ان رأوبين اوصاه بصنع اجران لوضع الخمر وافتكر انه يُسر اذا اعرف ان برسيپاس يستوس قد وصل الى قانا مع حفيده يوناثان الذي كان كسيحاً والروماني الجميل الصورة الذي كان يبتاع منسوجات باثمان غالية لسبب خفيّ وانه اوصى يسى ليوصل له كتاباً مهماً الى اورشليم وان يستوس سيأخذ حفيده لمشاهدة مريم

لذلك عندما وصلوا الى بيت رأوبين رأوا العائلة تتوقع قدومهم واذ شعرت مريم ان يوناثان الصغير يسرّه ان يلعب مع احد اترابه ارسلت تستدعي ابن عمها اندراوس مع العمة مرتا والدته التي لم تحظَ برؤية يستوس من زمان طويل وهي تروم ان تسأله بعض اسئلة

وقد كانوا جميعهم مجتمعين حول مريم التي كانت السعادة تتلألأ من نور محياها الجميل الذي ازداد جمالاً اكثر من قبل وبعد ان حيتهم بابتسامتها اللطيفة الطبيعية جلسوا في الاماكن المعدّة لهم .

ثم قالت ليوناثان انك ولد نشيط قوي ولولا ذلك ما استطعت ان تماشي

الرجلين القويين

– لقد كنت راكباً حماراً في اغلب الوقت . ولكن كان عندي حمار افضل منه يُدعى جسپر . ثم اشار الى مرسيلوس وقال هو الذي اعطاني اياه وانا بدوري وهبته لتوما الاعرج

– انني اعتقد ان توما كان مفتقراً اليه وانك كنت مسروراً جداً بذلك

ثم التفتت الى اندراوس وقالت له اذهب مع توما وأرهِ الارانب

ثم سأل يستوس راوبين عن الكرمة فاجابه ان حالتها الحاضرة احسن منها في الماضي

– هلمَّ معي لاريكها . ولما ذهبا تبعتهما نعمة ومرثا وبقي مرسيلوس ومريم وحدهما . فابتدأت تحدثه قائلة : كنت افكر كثيراً في امرك يا مرسيلوس

فاجابها : وانا ايضاً ولولا ذلك ما عدت ثانية

– عمَّ تريد ان تسأل الآن ؟

– انه يلذّ لي ان اسمع من فيكَ قصة ذلك النجار الذي افاد شعبكِ افادات جمة

فحدقت اليه ببصرها ملياً لما خامرها من السرور وقالت قد عرفت ذلك

– كيف تمكنتِ من هذه المعرفة ؟

– بوقوفي على عدة اسباب : اولاً لانك لم تكن تعرف شيئاً من امر النسيج وثانياً لعدم تعوّدك المساومة في البيع . وكان من الواضح الجلي ان مجيئك الى الجليل كان لغاية اخرى

– هذا صحيح ولكنني اريد ان اسألكِ : كيف عرفتِ انه يلذّ لي سماع قصة يسوع ؟

– لانك اخترت يستوس دون غيره رفيقاً لك في سفرك بحيث انه رأى من اعمال يسوع اكثر مما رآه كثير من الناس ما عدا سمعان بطرس وابني زبدي الذين كانوا معه دائماً . ولقد عجبت كيف ان يستوس رضي ان يصحبك الى هنا لان الرومانيين

مشتبه فيهم .

ثم سمع انك تعرف اليوناني الذي كان يشتغل في محل بن يوسف وهو بلا شك ساعدك على اختيار يستوس لهذه المهمة لان الرجال الذين يشتغلون في مصنع بن يوسف كلهم من اصدقاء يسوع . ثم انني استنتجت من هذه الامور انك استخدمت يستوس خاصة لتعرف منه عن يسوع اكثر مما عرفته سابقاً .

– ان استنتاجك حقيقي ولكنني ادركت ان يستوس يعلم اكثر من الذي اخبرني اياه

– هل اطلعته على قصدك من اهتمامك بشأن يسوع ؟

– ليس تماماً غير انه مشتبه في قصدي

– لو انك انبأته كيف اتفق لك التعرّف الى يسوع لكان حديثه معك بغير تكلّف . على اني انا ايضاً احب معرفة ذلك تمام المعرفة

– انها رواية طويلة ولكنني سأفضي بها اليك فاسمعي : انني منذ سنة كنت في اورشليم أشغل وظيفة في دار حكومتها لكنني لم البث هناك سوى بضعة ايام . وفي اثناء ذلك قُبض على هذا الجليلي بدعوى الخيانة وكنت انا في عداد الذين رأوه وسمعوا محاكمته ووعوا نص الحكم عليه بالموت صلباً مع ان براءته ظاهرة كالشمس في رائعة النهار حتى ان الوالي نفسه قال ذلك وقد دلّ كل شيء. على ان يسوع كان شخصاً عجيباً ولما اتاحت لي الاحوال ان آتي مرة اخرى الى اورشليم قرّرت ان اتوجه الى الجليل والتحدّث عنه اكثر

– فسألته مريم بخشوع ما الذي أثّر تأثيراً شديداً في قلبك من مزاياه السامية ؟

– شجاعته النادرة المثال التي أبداها امام الحكومة ورؤساء الهيكل والتجار والصيارفة لان الجميع كانوا اعداءه له فلم يدافع احدٌ عنه حتى ان اصدقاءهُ تخلّوا عنه ومع ذلك فانه كان تجاه ذلك الحكم العنيف وعذاب الصلب المخيف غير هيّاب ولا وجل ; فيجب على كل انسان احترامه واحترام مَنْ كان على شاكلته

لذلك اريد من صميم قلبي ان ابحث واقف على معلومات كثيرة عن هويته

– ألم تقل ليستوس كل ما قلته لي ؟

– بلى قلت له كل ما تبادر الى ذهني . غير انه اخفى عليّ بعض ما يهمني الاطلاع عليه بشأن الجليلي لانه اعتقد انني لم اكن مستعداً لقبول ذلك مثلاً . اعجوبة تحويل الماء الى خمر

– كيف اتيتم على ذكر عرس حنة ؟

اجابها مرسياوس : لاننا كنا ننتظر بشوق اقتراب الوقت لنشنف مسامعنا بصوتك العذب . وكان يستوس قد اخبرني قبلاً ان اختبارك الجديد من جهة ايجاد صوتك كان يوم عرس حنة

– لقد ظهر لي انه لم يصعب عليك تصديق ما اخبرك اياه فقد غيّر صوتي ما كانت عليه حالتي الروحية كل التغيير . اذ كنت فيما مضى حزينة يائسة مريضة سيئة الخلق . وفي هذا الوقت تراني سعيدة غير محتاجة الى شيء

ثم التفتت مبتسمة وسألته : ايٌّ من الامرين يسهل عليك الايمان به . أهذا التغيير الذي حصل لي ام تحويل الماء الى خمر ؟

– هل استنتج من سؤالك هذا ان الذي غيّر حالتك النفسية هو عجيبة من العجائب ؟

اجابته قائلة : كما تريد

– انا اعلم انك لا تريدين الخوض في هذا الموضوع لذلك لا أكثر عليك الاسئلة ولكن لنفرض ان يسوع نطق بكلمة جعلتك ترغبين فلمَ لم يفهْ بكلمة اخرى تجعلك قادرة على المشي فانه قوّم رِجل يوناثان كما سمعت

فنظرت اليه مريم عابسة وقالت له لا اقدر ان ابرهن لك كيف حصلت لي هذه الموهبة ولا يهمني الامر اذا كنت عرجاء اذ ربما اتمكّن من مساعدة اهالي قانا بترنيمي وانا على فراشي اكثر من مساعدتي اياهم وانا سليمة من هذه العاهة . ثم

لا اكمتك ما هم عليه من المتاعب والمصاعب فلو اسمعتهم ترنيمي وانا صحيحة الجسم لكانوا قالوا ليس لمريم اقل هم واهتمام فلترنم وتفرح

— حقاً انكِ ابنة شجاعة

— انني اشعر بعدم استحقاقي هذا المديح لان حياتي الماضية كانت مصيبة عليَّ وعلى والديَّ واصدقائي . اما الان فقد اصبحت بركة لي ولهم جميعاً بحيث ان الناس صاروا يشعرون معي ويزورونني ويهدون لي الهدايا

وقد قال يسوع « مغبوط العطاء اكثر من الاخذ » انني محظوظة يا صديقي لانني اعيش في جوّ من الحب والطمأنينة . ان الناس يخاصم بعضهم بعضاً الا انا لانني لا اخاصم احداً ولا احد يخاصمني . ألست إذَنْ غنية ؟

هل تريد مني ان اقص عليك قصة غريبة اخرى يا مرسياوس . لا شك ان يستوس يكون قد اعلمك ان يسوع صنع عجائب كثيرة في قرى الجليل وان الاخبار بها عنه انتشرت في طول البلاد وعرضها وقد تبعتهُ حيث ذهب جماهير غفيرة تُعدّ بالالآف كانت قد اتت اليه من اصقاع مترامية تبعد مئات الاميال . وكان هذا الحفل كلما مرَّ بطريقه على مزرعة ما يبادر الرجال الذين يشتغلون فيها فيتركون معاولهم وينضمون اليه ليبقوا معهُ اسبوعاً او اكثر في البرية لا يهمهم برد او جوع ما داموا بقربهِ .

ففي ذات يوم بينا كان يسوع داخلاً الى اريحا التي كانت من اكبر المدن في اليهودية دخلت وراءهُ كالعادة جموع غفيرة ولما بلغ مسامع اهاليها انه آتٍ اليهم خرجوا الى الطريق العامة زرافات ووحداناً لمشاهدتهِ . وكان رئيس العشارين في ذلك الوقت رجل يدعى زكيوس

— اظن انني سمعت به فان اسمه الحقيقي الياس زكاً وقد غيَّرهُ يوم انخراطهِ في سلك رجال الحكومة الرومانية وهو رجل ظالم خائن لحكومته ولابناء جلدته وغيرهم . على انه يوجد عدد عديد من رصفائه على هذا الشكل . فان الولايات تقوم اعمالها

على الخونة الظالمين . لو ان ضباطها كانوا امناء في عرفهم لذهبت الامبراطورية ايدي سبا

– ارجو منكِ ان تتممي لي رواية هذا العشار

– لقد كان زكا غنياً جداً وكان سكان اريحا يكرهونه ويرهبون جانبه بالنظر الى جواسيسهِ المنتشرين في كل مكان . فكل من اشتبه عليهم امرهُ بانه انتقد اعمال الحكومة او تذمّر عليها كانت تُفرض عليه ضرائب ثقيلة مختلفة واذا شاء الاعتراض او المقاومة حكمت عليه حالاً كخائن . وقد بنى زكا هذا قصراً جميلاً على رابية عالية وعاش عيشة الامراء ولديه كثير من الحشم والخدم وكانت ينابيع المياه تمر بحدائقه النضيرة الزاهية

فقال مرسيلوس : وفي اعتقادي انه لم يكن له اصدقاء البتة .

– نعم لم يكن له من صديق لا بين الاغنياء ولا الفقراء . ولما سمع ان يسوع آتٍ الى اريحا في ذاك النهار ركب عجلته ونزل مسرعاً ليراه واذ لم يتيسر له موقف بين ذلك الجمع الغفير المزدحم حول يسوع حاول الصعود الى شجرة عالية لكي يتمكن من رؤيته . وكان هذا الشيء مخالفاً للقانون غير ان الجنود الذين عرفوه ساعدوه على الصعود اليها فلما اقترب يسوع من الشجرة نادى زكا المذكور الذي كان يجهل اسمهُ من قبل وقال له : اسمح لي ان اتناول العشاء معك اليوم

– ماذا قال سكان اريحا بهذا الخصوص ؟

– لقد اغتاظوا جداً ولا سيما اصدقاؤه لان زكا كان رجلاً ساقطاً وقد اختاره يسوع لخدمته الخاصة حتى قال بعضهم . ان هذا الجليلي ليس احسن من الكهنة الذين يلاطفون الاغنياء . وكان من زكا حين قال له يسوع هذا الكلام ان نزل من الشجرة ومشى بأبّهة وافتخار بقربهِ

ولما وصل يسوع الى منزل زكا الجميل اوعز هذا الى الشعب الذي كان يرافقه ان يدخل الى فسحة الدار ريثما يتناول مع ضيفه طعام العشاء

اما ذلك الشعب فقد غاظه ما رأى ولكنه انتظر مضطراً وبعد مضي ساعة من الوقت خرج زكا واشار الى الشعب ان يقتربوا منه لكي يسمعوا ما يقول فاذا بهم يرون ان اثار الغطرسة واللؤم قد زالت من هيئته فلبثوا ينظرون اليه مشدوهين اما يسوع فقد كان واقفاً بعيداً عنه قليلاً لا يُبدي ولا يعيد

اخيراً تكلم زكا باتضاع ووداعة قائلاً : انني مستعد ان اهب املاكي للفقراء وأعوّض الذين ظلمتهم مما خسروه تعويضات كثيرة

– ولكن ماذا حدث وماذا قال له يسوع ؟

– لا احد يعلم . ربما لم يقل له شيئاً بل اكتفى بتحديق نظره اليه حتى انه انعكست صورته اللطيفة عليه كما يجب ان يكون

– قال لها مرسيلوس لست افهم ما تعنين يا مريم ؟

– كثيرون اختبروا هذا الامر وحصلوا على هذه النعمة فلو كنت واجهت يسوع وأنعم نظره في عينيك بحيث لا تأتي بحركة لما كان امكنك الأ ان تؤمن بقوته العظيمة الفائقة اذ يستطيع ان يعمل ما يشاء . مثلاً : لو قال لك الق عكازتك من يدك لالقيتها حالاً . او أرجع الدراهم التي سرقتها لارجعتها الى محلها

– ولو قال لكِ يا مريم رنّمي الان . لرنمتِ أليس كذلك ؟

فابتسمت مريم ولم تُجبْ . على انها قالت له بعد هنيهة لنتحدّث قليلاً عن ذلك اليوناني الذي لو لم تلذّ له قصة يسوع لما حصل على ثقة بن يوسف ليشتغل في محله

– ان ديمتريوس اليوناني صديقي المقرَّب اليَّ . وهو شاب شجاع جميل الصورة طويل القامة قوي العضلات فضلاً عن انه متعلّم وذو اخلاق كريمة وقد اهداه اليَّ والدي حين بلغت السنة السابعة عشرة من عمري في عيد ميلادي

– ألم يكره استعبادكم اياه طول هذه المدّة ؟

– لا يُنتظر من احد ان يحب العبودية ولكن عندما يمسي حرًّا لا يعرف

كيف يتصرف بحريته . امـا انا فقد منحت ديمتريوس حريته بحيث يستطيع ان يذهب ويجيء كيف شاء .

– لا شك ان معاملتك له معاملة صديق لصديقه لا معاملة سيّد لعبده

– ليس في كل الاوقات لانني في السنة الماضية حينما كنت تعساً ضعيف العقل عاملته بقساوة زائدة لا يقدر على احتمالها غيره

– ولِمَ ذلك ؟ اتريد ان تطلعني على السبب ؟

– لا مانع بذلك : انما في غير هذا النهار الجميل . ومع هذا فلا اريد ان احملك همي لانني قد شُفيت

– كما تشاء . ولكن اخبرني كيف توصَّل ديمتريوس الى العمل مع بن يوسف ؟

– لمـا كنا في اثينا تعدّى على ديمتريوس رجل ذو مركز سياسي لمدافعته عن اناس ليس لهم مَنْ يدافع عنهم فحصل بينهما قتال شديد فرأينـا من الحكمة ان نبعده عن اثينا نجاه الى اورشليم حيث اخذ يشتغل بالحياكة في محل بن يوسف وكان قد مارس قبلاً هذه المهنة في اثينا عند احد الحاكة وقد تعلم منه ايضاً اللغة الارامية

– وانت تعلمت ايضاً من الحائك نفسه اللغة الارامية ؟

– نعم استعداداً لهذه السياحة

– ما الذي تريد ان تفعله بعد تعلمك ما يلزمك معرفته عن يسوع ؟

– لا اعلم تماماً . يجب ان اذهب الى رومية ومع هذا فانني ساجد نفسي غريباً في تلك البيئة حيث أثّرت فيّ كثيراً تعاليم يسوع بشأن العلاقة البشرية التي يقبلها العقل فلو عمت جميع الاقطار لاصبح العالم جديداً سعيداً .

وقد اتاحت لي الفرصة في اثناء هذه الايام القليلة لكي انظر الى العـالم من وجهات مختلفة . مع انني فكرت قبلاً فيما يحدق به من الظلم والعدوان ولكنني في هذا البلد الهادي، انظر الى النجوم واتذكر رومية واذكر فوق كل شيء جشعها وشرها وفقرها وانحطاطها الذي يزداد يومـاً فيوماً الى ان يصل الحد

السجون الرطبة وما شاكلها . ومع ذلك فان رومية تملك العالم ومليكها مختلُّ الشعور ووليّ العهد وغد لئيم وجيوشها تتسلط على ملايين من الشعوب التاعسة ثم ختم حديثهُ قائلاً : اغفري لي يا مريم لانني ازعجتكِ

ثم سأل بلهفة : ألا يكون امراً عجيباً اذا جلس يسوع على العرش ؟

اجابته قائلة : هذا غير ممكن

عندئذٍ أنعم نظره في وجهها ليتحقَّق هل كانت مجدَّة في كلامها وقد اخذه العجب من رصانتها واخلاصها فقال لها : ماذا يفيدنا هذا الحديث ويسوع قد مات

– أانت متأكد من ذلك ؟ قالت هذا دون ان ترفع نظرها اليه

– انني اوافق ان تعاليمه لم تمت معه انما يجب ان تبثَّ في الصدور وتنتشر في اقاصي المعمور

– اترغب في ان تخبر عائلتك عنهُ عند ما تصل الى البيت ؟

– انها تحسبني مختلّ الشعور

– وهل والدك يظن بك ذلك ؟

– ان والدي عادل ذو قلب سليم لكنه يكره مَنْ يهتم بشأن الاديان فاذا جئت على ذكر شيء من هذا امامه فانه يسأم ويتزعج

– ألا يعدك شجاعاً

– كلَّا

– أيمكن ان اراك غداً ؟

– لا يمكن ذلك ولكن في وقتٍ آخر لانني متوجّه غداً الى كفرناحوم . لان يستوس يرغب اليَّ في مقابلة رجل يُدعى نثنائيل . هل سمعتِ به ؟

– نعم وانك لتسرّ بمقابلته . واذ رأت يستوس مقبلاً قالت لمرسيلوس دعني اتكلم مع يستوس على حدة فودَّعها واخلى لهما المكان

فقالت مريم ليستوس لماذا لا تخبر مرسيلوس بكل شيء عن يسوع ؟ فقد

اتضح لي انه اصبح متأثراً جداً . على انه لا يعلم من بداءة سيرة حياة يسوع حتى مماته الأ القليل

– سأخبره اياها حينما أراهُ على تمام الاستعداد لقبولها . ولِمَ لا تخبرينه انتِ ؟

– أوشكت ان اطلعه عليها لكنني ظننت ان يكون لديك مانع ما لتأجيل ذلك الى وقتٍ آخر

– من رأي مرسيلوس : انه يجب ان تُرتَّب خطط لانتشار تعاليم يسوع لانه لا يعلم احد طريقة التبشير التي يتمشون عليها في اورشليم ويافا وقيصرية

– سأخبره كل شيء .

– اليوم . ثم سألها قائلاً : هل تحبين مرسيلوس اجابته : ان مرسيلوس ليس غريباً عني

* * * *

ان يسوع قال : « ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » ولما لم يفهم مرسيلوس معنى هذه العبارة سأل يستوس عنها قائلاً . ماذا عنى يسوع بضرورة خلاص النفس وهو لم يهتمّ بامر نفسه بل جازف بها حتى خسرها ؟

– لم يخسر يسوع حياته حينما اسلمها الى الصلب ولكنه كان يخسرها حقيقة لو قفل راجعاً الى البيت

قال مرسيلوس لم افهم بعد ما تقول تماماً انا الذي افهمه هو ان الانسان يخسر حياته حين مماته . نعم ربما يجازف بها لغاية حسنة فيبقى ذكر اعماله الصالحة في ذاكرة الذين آمنوا به واحبوه . لكن الموت عينه هو خسارة الحياة

– ليس ضرورياً لان يسوع قال : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد بل خافوا من الذين يقتلون الروح » لان الجسد ليس شيئاً بالقياس الى الروح

فقال مرسيلوس بلهجة خطابية : انني اعتقد فلسفة صديقك المائت يسوع

واهتمّ بها غير اني ارجو منك رجاء خاصاً ان تعيد على مسامعي اقوالاً مثل هذه . وليكن مؤكداً عندك انني احترم افكار ذلك الرجل ولا احبّ ان تذهب من بالي

– ان الخطأ خطإي فقد سرت معك شوطاً بعيداً . بحيث قدمت لك اللحم قبل الحليب

* * * *

واذ كان مرسيلوس مطرقاً يتأمل هذه الامور رفع رأسه فرأى امامه رجلاً ضعيفاً واقفاً في باب خيمته فدعاه الى الدخول وبعد جلوسه على كرسي منخفض ذكر انه يُسمّى حريف

فقال له مرسيلوس : اظن انك خزّاف . اجابه بالايجاب

– وانك لا تضع ماء في اجران معدّة للخمر ؟

عندئذٍ ادرك حريف ما يقصد فسأله : هل اخبرك يستوس بامر تحويل الماء الى خمر ؟

– نعم اخبرني ولكنني لم اصدّق . فهل صدّقت انت ذلك ؟

– اعرف اننا احتجنا في ذلك العرس الى خمر فاتى يسوع وجعل من الماء خمراً

– أكان لونه احمر ومذاقه طيباً ؟

– كان لونه ابيض غير اننا لم نذق في حياتنا الذّ منه واطيب

– قيل لي ان كل انسان كان يحب يسوع محبة عظيمة .

– اجل لقد احبوه كثيراً فلو انك كنت بينهم حينما دخل حفلة العرس لكنت رأيت رأي العين كيف كانوا يحدقون اليه ويحيونه باصوات عالية على ان اغلبهم جاؤا من انحاء بعيدة واحاطوا به احاطة الهالة بالقمر . وهكذا كان دأبهم في كل مجتمع . ثم استطرد كلامه فقال : وليست هي المرة الاولى التي صنع فيها تلك الاعجوبة بل كانت تجري على يده عجائب متنوعة منذ ذلك الوقت الى يوم مماته الرهيب على الصليب

– هل رأيت بعينك احدى عجائبه . او سمعتها باذنك ممن تثق بهم ؟

– ألم يخبرك احد كيف ان يسوع اشبع خمسة الاف نسمة من بضع سمكات وخمسة ارغفة ؟

– لا لم يخبرني احد . فارجو منك ان تخبرني عنها بالتفصيل

– عليك بيستوس فانه كان على مقربة منه وهو يقصها عليك تماماً لانني كنت وقتئذٍ في الصف الاخير

– اريد ان اسمعها من فمك فارجو ان تسردها لي

– اجتمع حوله جمهور غفير وكان كل واحد منهم يزحم الآخر لكي يكون قريباً منه ويرى كيف يصنع تلك العجائب وكان كلما شاهد بينهم رجلاً مسناً يجهد نفسه ليسمع ما يقول أومأ اليه باصبعه دون ان يتوقف عن الكلام فكان ذلك الرجل يصرخ وهو متهلل الوجه ويقول : انني صرت قادراً ان اسمع وافهم كل شيء!

– حدثني الآن اذا شئت عن اشباع يسوع الخمسة الاف نسمة

حدثت تلك الاعجوبة في كفرناحوم وكان يسوع قد صنع كثيراً من امثالها في اماكن اخرى فتبعته جموع عديدة بينهم العرج والكتع والبرص والعمي وكل من ابتلي بمرض ما . ولما رأى ان عددهم يزداد كثيراً صعد الى احدى السفن مع تلاميذه الاثني عشر فتكدر الشعب لابتعاد يسوع عنهم حتى ان بعضهم بكوا وبعضهم وقفوا هادئين يراقبون ثم قال احدهم ان السفينة متوجهة جهة الشمال نحو بيت صيدا فركضوا جميعاً الى الشاطئ.

– هل انزعج يسوع من وصولهم اليه ؟

– كلا . لكنه اغتمّ لما نالهم من التعب وبعد ان قعدوا على الارض واخذوا قسطاً من الراحة وقف يسوع في وسطهم وابتدأ يحدثهم قائلاً : اننا جميعاً جيران كأسرة واحدة وما ان فاه بهذه الجملة حتى لزموا السكوت . وانا يا سيدي لست

ممن يغيّر مبدأهم شيء. ولكن كلامه البليغ أثر في عواطفي حتى افاض الدموع من عيوني وكان مرهماً لجراحنا . ولما سمعته يتكلم قلت في ضميري انني لم اعرف كيف عشت قبلاً فكأن الله نفسه كان يتكلم والشعب منصت له يذرف الدموع السخينة

وبينما كان يسوع ماضياً في حديثه اذ شاهد احدهم يحمل مريضاً على عاتقه فتوقّف عن الكلام واشار اليه بالاقتراب منه فاتى ذلك الرجل به ووضعه عند قدميه غير اني لم اسمع ما قاله يسوع المريض المذكور بل فهمت انه شفاه من علته فنهض في الحال سليماً مُعافىً مسروراً . ثم حدّق حريف ببصره الى مرسيلوس وسأله : اتؤمن بما اقول ؟ وكذلك جاء الى يسوع كثير من المرضى فشفاهم جميعاً

واذ كنا بعد فوات وقت الظهر متأثرين بما سمعنا لم نشعر البتة بالجوع وكنت انا وراوبين قد ابتعنا قليلاً من الخبز والسمك لغدائنا واخيراً حينما عادت الينا القابلية لتناول الطعام وقد شاهدنا حولنا اناساً جائعين عدلنا عن الاكل بحيث تذكرنا ما قاله يسوع : يجب ان نقتسم حاجاتنا بيننا وبين غيرنا من الناس المحتاجين . وبما ان حصتي من الخبز والسمك لم تكن لتكفيني وحدي فقد امتنعت عن الاكل .

وكان تلاميذ يسوع يلحّون عليه لكي يصرف الشعب حتى يتيسر لهم الذهاب الى القرى لابتياع ما يحتاجون اليه من الطعام . ولكن يستوس ذكر لي ان يسوع قال انه سيطعمهم فارتبك تلاميذه وتعجبوا . وكان جالساً بالقرب منهم ولدٌ صغير السن يصغي الى حديثهم وكان غداؤه موضوعاً في سلّة لديه . فتوجه حالاً الى يسوع وقال له : انني مستعدّ ان اقتسم طعامي بيني وبين غيري من الناس المحتاجين. فلما سمع مرسيلوس هذا الكلام قال له : ان هذا لامر غريب

— نعم قال حريف كان هذا امراً غريباً لان يسوع أمسك بالسلّة ورفعها الى فوق واخبرهم كيف ان الولد الصغير اراد ان يقتسم طعامه مع بقية الناس . ثم رفع عينيه الى السماء وشكر الله على عطية الغلام الصغير . وكان سكوت تامّ

يا سيدي • اخيراً اخذ يقسم الارغفة الى كِسر صغيرة وكذلك فعل بالسمكات وناولها تلاميذه لكي يقدموها للشعب

– هل ضحك الشعب

– كلاً • غير انهم دُهشوا وقالوا : كيف يمكن ان تُشبع هذه الكسر الصغيرة جماهير كبيرة •

وقد كنت انا قبلاً مخجولاً من اظهار طعامي القليل اما الان فقد اظهرته واهديت منه الى الرجل القريب مني • وشبع كل واحد في ذلك اليوم واخيراً جمعوا الفتات الباقي عنهم فكان ملء اثنتي عشرة قفة

قال مرسيلوس يا لها من قصة عجيبة

فسأله حريف : اتصدقها يا سيدي ؟

– نعم اني اصدقها وأومن انها كانت أولى العجائب التي صنعها هذا الرجل العظيم الذي استطاع بحكمته ان يجعل هذا الجمع الغفير أسرة واحدة • ثم استطرد حديثه فقال : انني لم افهم حادثة الشفاء بعد ولكنني فهمت هذه العجيبة جيداً فاشكر لك اعلامي بها

الفصل السادس عشر

وفيما كانا مسافرين من قانا الى كفرناحوم سلكا في سيرهما الطريق الوعرة التي سببت لهما اتعاباً شديدة اضطرا معها مراراً الى القعود للاستراحة . ولكن عندما اقتربا من القمة ارتأى يستوس ان تُنصب الخيمة في ظل صخرة كبيرة مجاورة لينبوع ماء زلال يحيط به الكلأُ الكثير من جميع جوانبه وقال ان يسوع كان يحب رؤية هذا المكان الجميل

على ان مرسيلوس لم يهتم كثيراً في اثناء جولاته بمقاطعة الجليل بتلك المناظر الطبيعية بل كان جلّ قصده ان يستطلع طلع ذلك الرجل الغريب الاطوار الذي سار على الطريق نفسه والذي تبعته جماهير كثيرة لا تُدرك غايتها ولا يُحصى عددها وقد جاءت اليه من اماكن بعيدة لان سكان كفرناحوم كانوا قليلي العدد

وكان جو تلك الناحية مشبعاً بالاشاعات العديدة عن العجائب المتنوعة التي صنعها يسوع حتى ان بعض الناصريين قالوا ان يسوع لما كان في زمن الحداثة يلعب معهم صنع طيوراً من الطين وقد طارت في الحال من بين يديه . وكانت تلك الاشاعات تزداد مع توالي الايام ، ويزداد معها عدد الذين يتبعونه من مكان الى آخر غير مبالين بالجوع والعطش . وكان الكثير منهم عندما يمرّ يسوع في نواحيهم يتركون حالاً اشغالهم جانباً فيحملون مرضاهم ليشفيهم وكانت نظرة واحدة منه كافية لتخليصهم من امراضهم وعاهاتهم وهم مؤمنون غاية الايمان بفائق قوته العظيمة وطهارته المتناهية

اما الآن فقد زال ذلك النور الساطع وتفرّق الجمع ومات الرجل العجيب وبموته جلّل الخمول قرى الجليل . بَيد ان مرسيلوس احبَّ ان يعلم تماماً هل سطوة يسوع

الناصري باق، تأثيرها في قلوب اهالي تلك الانحاء . واعتقد انه ربما يتوفق الى معرفة ذلك من الذين ردّدوا ذكره ويرددونه ما داموا في قيد الحياة

وقال له يستوس ان فريقاً من هؤلاء الجليليين قد تغيرت حياتهم واحوالهم تغيراً محسوساً فالذين كانت اشغالهم غير حسنة تعلموا صناعات جديدة اكسبتهم منافع عديدة والذين كانوا يعيشون من التسوّل توصلوا الى تحصيل معاشهم بتعب ايديهم . اما جماعة العشارين المكروهين فقد اصبح البعض منهم محبوبين ومحترمين . وكذلك بعض النساء البغايا امسين صالحات عفيفات يعملنَ اعمالاً خيرية .

ثم انهما تابعا سيرهما الى ان اقبلا على بحيرة طبرية التي تكلم عنها يستوس مطولاً والتي صرف يسوع اكثر ايامه في جوارها

وبعد ان استراحا قليلاً قال مرسيلوس ليستوس لا شك ان هذه البحيرة تعيد الى ذاكرتك بعض الذكريات اللذيذة : فقلْ لي بكل صراحة : هل تغيرت سيرة الناس وسريرتهم قاطبة من تعاليم يسوع ؟

– ليس في وسعي ان انبئك بالحقيقة لان لرجال القلعة الرومانية القريبة من هذا المكان آذان واعية تلتقط كل كلمة نتفوّه بها اذ لكل ساقطة لاقطة كما يقول المثل وبناء عليه لا يستطيع احد من الشعب ان يتحدَّث بشيء عن هذا الامر لئلا يفقد حياته بطرفة عين . غير انه يكتفي بمعرفة التغيّر الحقيقي الذي حدث في حياة اصدقائه ومعارفه ولا بُدَّ لي من زيارة بعضهم لمناسبة وجودي في هذه الناحية

– أيؤذن لي انا ان اراهم ؟

اجابه يستوس جواباً صريحاً : لا تقدر ان ترى الآ افراداً منهم لكن يمكنك ان تجتمع بالشيخ برثلماوس الذي حدثتك عنه من قبل فان لديه قصة ارغب اليك جداً ان تسمعها وذلك بعد ان اعرفك اليه فانه يقصها عليك جهاراً بغير وجل . ثم التفت اليه مبتسماً وقال : لا شك عندي انه يلذّ لك ان تسمع وتعلم كيف التقى يسوع ببرثلماوس لاول مرة

– ارجو منك ان تخبرني كيف كان ذلك

– كان الشيخ جالساً صباح احد الايام في حديقته تحت شجرة تين فمرّ يسوع وفيلبس على تلك الجهة ولما وقع نظر يسوع عليه لوَّح له بيده محيياً وقال السلام عليك يا نثنائيل

– ولكنك قلت لي ان اسمه برثلماوس

– نعم وهذا هو الشيء الطريف في هذه الرواية ٠ فان العادة المتبعة هنا ان لا يُسمى الرجال المحترمون باسمائهم الاولى واظن ان برثلماوس لم يسمع احداً يدعوه بنثنائيل منذ عشرين سنة الاّ يسوع وحده

– هل غضب من هذا النداء ؟

– لا اظن انه غضب ولكنه دهش ٠ وفي الحال دعا يسوع اليه وربما قصد بدعوته اياه ان يبيّن له انها جرأة بعيدة عن اللياقة ٠ وقد روى لي فيلبس هذه الرواية وزاد عليها بقوله :

ان برثلماوس كان عابساً مقطب الجبين ينتظر اقتراب يسوع اليه ٠ ولكنه لم يلبث عندما وقع نظره عليه ان اتسعت حدقتا عينيه وابتسم له قائلاً : قد عرفت اسمي . نعم ، اجاب يسوع ٠ لان معناه « عطية الله » وانت اسرائيلي حقاً لا غش فيه

قال مرسيلوس : لا شك ان هذا المديح سرّهُ

– اجاب يستوس : بكل تأكيد فقد جعله هذا المديح تلميذاً ليسوع

– أتعني انه أصبح من اتباعه ؟

– نعم . وقد استغربنا نحن ذلك لان برثلماوس هذا كان قد اعتزل اشغاله ولزم كرسيه لاعتقاد ضميره ان ايام عمله قد انتهت ٠ ولهذا نهض حالاً تاركاً كل شيء وراءه وتبع يسوع وذلك منذ ثلاث سنوات تقريباً

فسأل مرسيلوس سؤالاً آخر ودلائل الشك بادية عليه . هل عادت اليه قوته ؟

– انه بقي عاجزاً . وقد رأى من الصعوبة ان يجاري غيره في المشي بحيث كان يشعر بتعب شديد ككل رجل مُسن ومع ذلك فانه لم يتوقف قط عن السير. ولم يجسر احد ان يدعوه نثنائيل الا يسوع وحده وقد احب هو ذلك

– ربما دعاه يسوع باسمه هذا لكي يقوّي عزمه ونشاطه

– لكن برثلماوس هذا لم يشعر وحده كأنه فتى امام يسوع بل كل رفاقه التلاميذ كانوا يشعرون بذلك . ومع ان يسوع كان اصغرهم سناً ما خلا يوحنا فانه كان يناديهم بقوله لهم احياناً يا اولادي . وبالحقيقة انه كان على جانب عظيم من الانس والدعة بحيث كنت تحسّ من نفسك بضرورة الانحياز اليه والاحتماء به . لذلك كان الجمع يتراكض اليه ويلتصق به حتى لا يُبقي له متسعاً لتحريك قدميه

قال مرسيلوس اظن ان هذا الازدحام ضايقه . ألم يشعر بعده بتعب ؟

– كان يشعر طبعاً بمزيد العناء والتعب الا انه لم يتذمر مرة البتة ولم ينتهر احداً مهما اتى من الاعمال المزعجة للوصول اليه . ألم ترَ ولو مرة يا مرسيلوس كيف ان الفراخ تتسابق نحو امها الدجاجة حتى ليعلو الواحد على ظهر الآخر لاجل الوصول بسرعة اليها والاحتماء بظلها وهي تفتح جناحيها لهـا بكل شوق وارتياح دون ان تعبأ بادنى عناء . هكذا هي حالة ومعاملة يسوع نحو ابنائه تماماً

– اظنني افهم ما تعني

اجاب يستوس لا اخالك تفهم تماماً ان لم ترَ بنفسك يسوع نفسه وتتمثله بمخيلتك لتدرك ما اعني . لقد كان البعض منا يُحسب نفسه بمنزلة اب له . اما اليوم ونحن بالقرب منه فنعدّ كاولاد له ليس الا

ان برثلماوس كان يحتمل التعب بقوة غريبة وكان بين التلاميذ الذين حضروا العشاء الاخير في الليلة التي أسلم فيها يسوع . غير ان هذا الخطب الجسيم نهك قواه فلم يقوَ قلبه على احتماله فمرض وحُمل الى فراشه ولما شفي كان كل شيء قد تمّ

– اظنه امسى عاجزاً في هذا الاوان ؟

اجاب يستوس لا بل يتخيل له انه لن يموت ولا بدّ له حين يصحو الطقس من الجلوس تحت تينته حيث ينظر الى الطريق منتظراً ان يرى يسوع مقبلاً اليه

واذ رأى مرسيلوس يوناثان الصغير آتياً وعلائم السرور بادية على محياه التفت الى يستوس وسأله : ما الذي غيَّره كل هذا التغيير يا ترى ؟

– ان هذا نجم عن تأثير كلمات مريم في قلبه واقتناعه بها اشدّ الاقتناع، لذلك لم يبق من حاجة للاهتمام بامره فيما بعد

يا ليت في العالم كله امرأة ثانية كمريم

قال له يستوس : ان في كفرناحوم امرأة ارملة فاضلة تدعى ليديا ربما تمكنك الاحوال من رؤيتها فانها تقضي ساعات الفراغ في عيادة المرضى . ويغلب على ظني انك ستسر من سماع حديثها عن يسوع

فقال له مرسيلوس : ارجو منك ان تطلعني على امرها

قال يستوس ان ليديا هذه رزئت بوفاة زوجها وهي في ريعان الصبا . ومن العادة المألوفة هنا انه عندما تفقد المرأة زوجها تعتزل العالم وكانت ليديا من اجمل الفتيات في كفرناحوم وكان زوجها قد ترك لها ثروة لا يستهان بها

الا انها بعد وفاته اصابها مرض من الامراض النسائية اضرَّ بصحتها ونغّص عيشها وعيش ذويها الاخصاء . فاستدعوا لمعالجتها اشهر الاطباء دون مبالاة بالنفقات الباهظة التي تكبدتها ولما اعيا الاطباء مداواتها اشاروا على ذويها ان يمضوا بها الى حيث الينابيع المعدنية التي كثيراً ما شفت ذوي الامراض باستحمامهم بمياهها الحارة . فامتثلوا اشارتهم ونقلوها الى اماكن الينابيع المذكورة ولكنها لم تستفد شيئاً فضلاً عن انها انفقت في سبيل تمريضها كل ما خلّف لها زوجها من الاموال الطائلة . اخيراً بعد التيأ والتي استطاعت ان تنهض قليلاً من فراشها وتتمشى في غرفتها من زاوية الى زاوية

وفي ذلك الحين انتشرت في كل صوب اخبار العجائب الكثيرة التي كان يسوع

يصنعها بابرائه المرضى . وغنيٌ عن البيان انه كان من الصعب على الاغنياء مقابلته . اما الفقراء الذين اعتادوا الاستعطاء فقد سهل عليهم هذا الامر ولا سيما عند احتياجهم اليه

اما اصحاب الاموال فكان يشقّ عليهم ان يدوسوا كبرياءهم ويندفعوا كاولئك زرافات ووحداناً وراءه . على ان هذا الشيء سبب له حزناً شديداً . ومع ذلك فان يسوع البارّ المتواضع لم يأنف بل لم يمتنع عن مقابلة ذوي المقامات الرفيعة والتحدث معهم في اثناء الليل مع ما هو عليه من الاحتياج الى الراحة

فسأله مرسيلوس : هل كانوا يهرعون الى مقابلته او يدعونه لدى احتياجهم الى الشفاء ؟

اجابه يستوس لا شك في ذلك لانني اعرف عدة امور مهمة حصلت فيما بينهم الجأتهم الى دعوته الى منازلهم للتحدث طويلاً بشأنها . واذكر اننا انتظرنا يسوع مرةً امام باب المنزل الكبير الذي يسكنه نيقوديموس بن غوريون الذي هو من اعظم واشهر المحامين في هذه الناحية الى ان بزغ الفجر . وقد اخذت المحادثة مجراها بينهما بدون ان يكون لنيقوديموس المشار اليه داعٍ للشكوى من علةٍ ما

– اتظن ان نيقوديموس في حديثه مع يسوع حذره من عاقبة امتداد اعماله ؟

– كلا ثم كلا . لان نيقوديموس شيّعه في تلك الليلة حتى الباب الكبير لداره وكان يسوع يتكلم معه بحماسة . ولما افترقا وضع كل منهما يده على كتف الآخر كشخصين متساويين في الرتبة

– قال مرسيلوس ارجو منك ان تتمم لي رواية ليديا

– قلت لك قبلاً ان ليديا كانت مشهورة بغناها واحسانها غير انها الآن تحتاج الى قوة في جسمها وجسارة كافية لكي تمرّ بين تلك الجموع الغفيرة وتصل الى يسوع

– هذا امرٌ جلي

ولما كان يسوع في احد الايام يتكلم في الدار العمومية بكفرناحوم جاءه رجل مشهور يدعى يايروس وعند ما ذُكر اسمه فسح له الجمهور طريقاً لمروره وكان متأثراً جدَّ التأثر ولما اقترب من يسوع اخبره قائلاً :

ان ابنتي الصغيرة مشرفة على الموت فارجو اذا شئت ان تمضي حالاً لتشفيها .

فمضى يسوع معه دون ان يسأله شيئاً ما ومرَّا في الزقاق المؤدي الى منزل يايروس حيث كان الجمع يزداد كثيراً . ولما اقتربا في طريقهما من منزل ليديا المريضة الآنفة الذكر اخذت تراقبهما من نافذة منزلها . فرأت يايروس الذي كانت تعرفه ماشياً بازاء يسوع

ولما فرغ يستوس من حديثه سأله مرسيلوس : اين كنت وقتئذٍ يا يستوس . فقد تبيَّن لي انك ملمٌ بكل شاردة وواردة من هذه الامور ؟

— كنت بجوار منزل ليديا وقد انضممتُ الى الجموع لانني جئت لاخبر سمعان ان حماته قد اشتدَّت عليها وطأة الحمَّى وكنت قريباً من يسوع كما انا قريب منك الآن

وقد تشجعت ليديا لدى رؤية يايروس بازاء الناصري العظيم فاظهرت من الضعف قوة وتولت عن سلَّمها . وبعد الجهد الكلي استطاعت الوصول الى ضالتها المنشودة لكنها لم تجرأ ان تكلم يسوع كلمة واحدة بل لمست ثوبه وفرائصها ترتعد خوفاً ثم عادت من حيث اتت . فوقف يسوع في مكانه وسأل الجمهور : مَن لمسني ؟

فقال له سمعان وفيلبس : لا بدَّ ان يكون واحد او واحدة من هذه الجماهير قد لمسك . فلم يكتفِ بكلامهما بل استمرَّ على تكرير سؤاله : مَن لمسني ؟

واذ ذاك سمعنا صوت امرأة تصرخ مجيبة : انا يا سيدي . عندئذٍ افسحنا لها الطريق للوصول اليه وكانت تلك المرأة ليديا التي قلنا سابقاً انها اعتزلت الناس عقيب موت زوجها فقد صعب عليها اظهار نفسها بهذا المظهر . واذ ذاك حدث سكوت عظيم

فعليه اقول لك يا مرسيلوس بصراحة : انني شهدت مناظر كثيرة مؤثرة في تلك الايام ولكن مثل مشهد هذه المرأة لم ارَ البتة . فانها دنت من يسوع مطرقة الرأس تغطي عينيها بكلتا يديها وقد خرّت ساجدة عند قدمي يسوع وكررت قولها له انا التي لمستك يا سيدي . ثم ازالت يديها عن عينيها وحدقت اليه وكانت الدموع تتساقط منهما بغزارة ثم صاحت قائلة : يا معلم انني برئت من دائي الدفين

فتأثر كل الجمع الحاضر من هذه البشرى وترقرقت الدموع في عيونهم وكان يايروس يبكي كالطفل . حتى ان يسوع الذي كان يستطيع ان يملك نفسه اغرورقت عيناه بالدموع لدى ذلك المنظر المؤثر

ثم تفرّست ليديا بوجهه فرأته يتلألأ كنور الشمس وكانت هي تتنهد ولكن محياها اضحى جميلاً مضيئاً . فمدّ لها يسوع كلتا يديه وانهضها بتؤدة عن الارض وتحدّث اليها كتحدثه الى فتاة صغيرة باكية قائلاً : لا تخافي يا ابنتي . ايمانكِ قد شفاكِ اذهبي بسلام

هذه اجمل أطروفة سمعتها في حياتي

– لست ادري لماذا اخبرتك بها اذ لا ينبغي لي ان اتوقع منك ان تؤمن بشفائها من مرضها عند لمسها ثوب يسوع . وبعد ان تفوّه بهذه العبارة سكت لحظة لكي يسمع ما يجيب مرسيلوس عليها فما كان من هذا الا انه غضّ بصره خاشعاً وخفض صوته قائلاً انني اؤمن بكل كلمة منها يا يستوس

فدهش اذ ذاك يستوس ايما دهش وتأثرت عواطفه من ايمان رفيقه وعذوبة كلامه

* * * *

ومع ان التعب كان بالغاً من مرسيلوس اشدّه فقد قضى تلك الليلة في ارق وقلق لا مزيد عليهما . لان قصة ليديا أثارت عواطفه كثيراً بعد اختباراته العديدة

لذلك الثوب . ولا سيما بعد ان مضت عليه مدة طويلة لم يذكر في خلالها حوادثه

وكان قد انتحل من قبل اعذاراً مختلفة بشأن النتائج الباهرة التي سببها له الثوب المذكور حتى انه اعتقد اخيراً انه مسحور . لكنه بعد مراجعة ما جرى له من تأثير الرداء عليه انتهى الى القول بوصفه انه كالشجرة التي تكون جذوعها ممتدة تحت احد الجدران المكينة فتأخذ بالدفاع عن نفسها سنين عديدة فيسقط . ليس لان لها قوة تفوق الطبيعة بل لان دفاعها ومقاومتها البطيئين مع مرور الزمن قد قد أثرا رويداً رويداً في ذلك الجدار المكين فتصدّعت جوانبه حتى هوى وتحرّرت هي من نيره الثقيل اي انها خرجت من السجن المظلم الى عالم النور

وعندئذٍ اكتفى مرسيلوس بهذا الوصف الرائع واخذ يقنع نفسه به قائلاً : ان ما جرى له جعله يؤمن بما فوق الطبيعة غير انه عاد فقال : ان العقل السليم لا يؤخذ بايمان كهذا . اخيراً حان له الوقت الذي تجلى فيه لعقله نور المعرفة الساطع فبدّد عنه ظلمة الارتباك فشفي من مرضه وتحرّر . كتلك الشجرة التي تخلصت من ثقل ذاك الجدار الذي كان يضغط على جذوعها

ثم اخذ يفكر بليديا ويقابل حادثته بحادثتها . وقال ربما كانت ليديا على وشك الشفاء . فمن الممكن ان يكون شدّة انفعالها قد أتاحت لها زوال علتها وليس لمسها للثوب ولما لم يكتفِ بما عرض له وقد اخذ منه التعب كل مأخذ انطرح على سريره ونام ملء جفونه

على انه ما قرب وقت السحر حتى نهض فجأةً من فراشه اذ سمع وقع اقدام بجوار خيمته فحدّق ببصره يميناً وشمالاً فرأى شخصاً طويل القامة ملتحياً واقفاً على حدة لكنه لم يستطع ان يستوضح هيئته تماماً ولا يعلم أهو لصّ ام من قطّاع الطرق . اخيراً ترجّح رايه فيه انه يحاول معرفة مَن يقيم في الخيمة . ولما اعياه الامر انتحى ناحية بعيدة قليلاً وكمن فيها ريثما يبدو نور الصباح

اما مرسيلوس فقد كان نهوضه من فراشه بحذر لا مزيد عليه فانه احتذى

حذاءه بخفة وخرج من خيمته بغير ان يشعر به ذلك الشخص الغريب . وقد حذا حذوه بجلوسه في مكان خفي يرقب حركاته وسكناته

ولما لاح نور الصباح وجده لابساً ثياباً رثة خاله لاول وهلة صياداً او واحداً من سكان تلك الناحية جاء لمقابلة يستوس فتنحنح كي لا يباغته . ولما وقع نظر الغريب عليه وثب من مكانه وتقدم نحوه فبادره مرسيلوس بالسؤال : مَن انتَ يا هذا ؟ وما شأنك ؟ فنزع الرجل في الحال لحيته المستعارة ورفع قبعته وناجى نفسه قائلاً : حقاً ان تنكري هذا جاء طبق المرام

فصرخ مرسيلوس مَن ارى ؟ ديمتريوس . وفي الحال اسرع كلّ واحدٍ منهما نحو الآخر وامارات الحبور والاشتياق بادية على وجهيهما

ثم سأله مرسيلوس : هل من احد يقتفي اثرك يا ديمتريوس ؟ وما هذه الثياب الرثة التي عليك ؟ اجائع انت ؟

— لقد بلغني امس يا سيدي انك سائر في طريقك الى كفرناحوم فاسرعت في سيري لاتمتع برآك . ولست جائعاً مطلقاً لان سائق ركوبتكم قدم لي طعاماً كافياً واعطاني سجادة لاجل منامي

— لماذا لم تنبئني بمجيئك امس ؟

اجاب ديمتريوس : لانني شئت ان انتهز هذه الفرصة لمقابلتك والتحدث اليك وحدك

— إذَن أوجز في كلامك وقل لي كل ما اريد معرفته لان يستوس يوشك ان يستيقظ من نومه

قال ديمتريوس : من المعلوم ان استفانوس اخبرك عن هربي من اورشليم . ثم ارسلت له رسالة تنطوي على الاستعلام عنك وهو الذي انبأني بمحل اقامتك وبعدئذ واصلت الفرار الى يافا آملاً ان اراك هناك عندما ترسو سفينتك . وقد اخذ مني الجوع كل مأخذ ونمت في الفلاة وبحثت كثيراً عن عمل التمس منه كفافاً من

القوت فلم اجد

اخيراً رأيت احد الرجال يجرّ رزمة من الجلود الطرية . فحملتها على ظهري على الرغم من مقاومته لي . ولما وصلت بها الى السوق دفع اليّ فلسين . فقلت له انت لم تستخدمني . ثم سألني : كم تريد اذن من الاجرة لتواصل نقلها الى المدبغة؟ اجبته حالاً انني اريد الحصول على طعامي فقط وكان هذا الرجل سامرياً . ثم سألني عمن اعرف من اهالي السامرة لان اللغة الارامية التي اتكلم بها هي من اصل سامري . فاجبته انني اعرف بنيامين الحائك من اثينا وقد اشتغلت عنده . ولما اخبرته انني اشتغلت ايضاً في مصنع بن يوسف سرّ كثيراً ثم قدّم لي ثياباً نظيفة بعد ان أوعز اليّ بالاستحمام

فقال له مرسيلوس . ساقدّم لك احسن منها لان لديّ كثيراً من الثياب . والآن ماذا تخبرني عن سمعان المذكور ؟

— لما ذكرتُ له انني اشتغلت في مصنع بن يوسف سألني : هل كنت انا واحداً من حزبهم

— وانا اسألك بدوري : هل انت حقيقة واحدٌ من ذلك الحزب ؟

اجابه ديمتريوس انني اسعى جهدي لكي اكون في عداده ولكن ذلك صعب جداً لانه يجب على الانسان ان يكون مسالماً لا مخاصماً في كل حالة من احواله

— ألا يسمح لك ان تدافع عن نفسك ؟

— كلا لان يسوع لم يدافع . وسيصعب عليّ جداً القيام بهذا الامر لانني في صباح اليوم نفسه الذي تركت فيه اورشليم وعدت استفانوس ان اطيع تعاليمه ولكنني لم ابرّ بوعدي بل خالفت تلك التعاليم بعد ساعة من الزمن . وقد عمّدني سمعان بطرس رئيس التلاميذ الذي يسمونه الصياد الكبير بحضور جميع الذين كانوا في مصنع بن يوسف

فسأله مرسيلوس : ماذا تقول ؟ عمّدك ؟

– نعم انهم يغطسونك في الماء او يسكبونه عليك حسب مقتضى الحال . وبعدئذٍ يعلنون جهاراً انك اصبحت باسم يسوع نظيفاً طاهراً ، يعني ذلك انك بتَّ واحداً منهم ليس الا . ويُنتظر منك ان تتبع تعاليمه

ثم اكمل ديمتريوس كلامه وهو عابس الوجه وقال : ولكنني تخاصمت انا وأحد الناس قبل ان ينشف شعر رأسي

وقد حاول مرسيلوس ان يعبس مثله فلم يتمكن من ذلك فاخذ يقهقه : ثم سأله ما السبب اخبرني ؟

فاقرَّ ديمتريوس بذنبه وقال اعتاد الجند ان يكلفوا الشعب احمالاً ثقيلة فامرني احدهم ان اقوم بواحد منها فعصيت امره فكان منه ان رفع رمحه وضربني به ولكنه لم يصب المرمى . لانني حدت عنه باسرع من لمح البصر وتناولت ذلك الرمح وكسرته ووليت هارباً . وبما اني قد خالفت وعدي باتباع تعاليم يسوع اتظنني بعد قادراً ان ادعو نفسي مسيحياً واعتمد ثانيةً

– لا اعلم . ولكن ماذا تعني بكلمة . « مسيحي » ؟

– هو اللقب الجديد الذي اتخذه المؤمنون به لانهم يلقبون يسوع بالمسيح ومعناه « الممسوح »

– ولكن هذه الكلمة يونانية وهؤلاء الناس جميعهم يهود عبرانيون

– نعم من غير بُدّ يا سيدي لان هذه الفكرة تنتشر بسرعة زائدة ويقول سمعان الدباغ ان هناك نحواً من ثلاثمائة نفس ينضمّ بعضهم الى بعض في مدينة انطاكية

– يا له من امر غريب . هل يعرف ذلك يستوس ؟

فاجابه ديمتريوس لا شك في ذلك

– هذه اخبار مهمة يا ديمتريوس لانني اعتقدت ان كل شيء قد انتهى بموت يسوع

حدّق ديمتريوس في وجه سيده المرتبك وسأله ألم تدرِ ام لم تسمع بهذا يا سيدي؟ ألم يخبرك يستوس ؟ وقبل ان يجيبه سمعا صوتاً قوياً فالتفتا نحو ذلك الصوت فرأيا ولداً قادماً اليهما فسأل ديمتريوس مَن هذا الفتى ؟

فاخبره مرسيلوس عنه بايجاز . ولما اقترب منهما التصق بمرسيلوس وقال له ان جدّي يدعوك لتناول الطعام على مائدته . فتوجها معاً الى مائدته وديمتريوس يتبعهما ولما وصلا كان يستوس يهيء الطعام فتطلع فرأى ديمتريوس مقبلاً معهما فابتسم له ابتسامة حارة وحياه . ثم سأله ديمتريوس : هل تريد ان اساعدك فاجابه انني اعددت كل شيء .

عندئذٍ وقف ديمتريوس جانباً وابتدأ الآخرون يتناولون طعامهم . وفي اثناء ذلك سأل يوناثان مرسيلوس قائلاً : لماذا يتناول هذا الغريب طعامه وهو واقف ؟

اجابه مرسيلوس لا تهتمْ بشأنه يا بني فانه يفضّل ذلك . واذ قال هذا القول عنه شعر بغلطه لان يستوس الذي كان جالساً قبالة ديمتريوس ادرك ان هذا اليوناني كان عبداً لمرسيلوس فقطب جبينه وحمل صحنه ووقف بقربه

فقال له ديمتريوس بعد ابتسامه له : يجب ان لا يزعجك يا سيدي امر الاسترقاق لان مولاي حنون ولطيف جداً وهو بكل سرور يفديني بكل مرتخص وغالٍ كما اني انا افديه بحياتي . وغير خافٍ عليك ان القانون يحظر على العبيد الجلوس مع سادتهم على المائدة

اجابه يستوس . يجب ان يُلغى هذا القانون الجائر . لقد حسبتُ انّ مرسيلوس غاليو لا يكترث لشيء من ذلك

– اذا شئت ان تهوّن عليَّ مسألة عبوديتي فأرجو منك رجاء حاراً الا تفكر فيها البتة

ولما رأى يستوس ان ديمتريوس مكتفٍ بحالته هذه ضرب صفحاً عن الاهتمام بهذه المسالة

ثم خلا ديمتريوس بسيده وقال له : ارى من الموافق ان اذهب وحدي الى كفرناحوم حيث ارجو ان اجتمع بك فيها بعد ظهر هذا اليوم

قال مرسيلوس حسنٌ رأيك انا سَلْ يستوس عن المكان الذي يريد ان ينزل فيه . ولكن هل ترى من الحكمة ان تنزل الى كفرناحوم وفيها قلعتها الماثلة امام الانظار

— ساحترز جدَّ الاحتراز

اذنْ خذ هذه النقود لنفقتك وابتعد ما امكنك الابتعاد عن عيون رجال القلعة المذكورة

* * * *

نزل ديمتريوس بسهولة من القمة الى طريق الوادي وقد كان الهواء حاراً فتأبط رداءهُ المرقَّع وقبعته القبيحة الشكل ولما وصل الى شاطئ البحيرة وجد تلك الجهة منها خالية من الناس فللحال خلع ثيابه وغطس في مائها يستحمُّ حتى شعر بالراحة والنشاط التامَّين

وكانت اشعة الشمس المحرقة تغشي قصر هيرودس انتيباس وتبهر الانظار ولذلك تحقق لدى ديمتريوس ان سكانه قد تركوه ليقضوا الصيف في مكانٍ باردٍ . وقد ابقوا فيه الخدم الكثيري العدد يرتعون فيه كما يشاؤون الى ان يتحسَّن الطقس في اوائل الخريف فيعودوا اليه

ولما وصل ديمتريوس اخيراً الى المدينة وهو سائر بازاء شاطئ البحيرة راى جماعة من الصيادين يفرغون شباكهم من السمك ثم يعرضونه للبيع في الاسواق . ومع انه تناول فطور الصباح باكراً فقد شعر بالجوع فوقف امام محل بائع الاطعمة . وما ان شاهدهُ هذا بتلك الثياب الرثة حتى اومأ اليه بمواصلة طريقه

غير ان ديمتريوس لما شاهد منه ذلك الازدراء بلباسه وضع يده في جيبه واخذ

يرن النقود التي فيها . ولما قرع رنينها اذن بائع الاطعمة تغيّر لون سحنته وابرقت اسرته فدعاه الى محله مرحباً به لان اليهودي اذا عرف ان لديك نقوداً فلا يلبث ان يصبح بمثابة عبد لك . فيناديك على الفور يا سيدي مراراً عديدة ويحسن معاملته معك

وما كاد هذا الطاهي اليهودي ينتهي من اعداد الطعام وتقديمه لديمتريوس حتى اقترب منهما جندي قذر الهيئة وطلب طعاماً مجاناً . وبعد ان اجاب طلبه سأل ديمتريوس هل اقدّم لك يا سيدي من هذا الطعام ايضاً ؟ اجابه اذا لم يكن لديك الذّ منه فانني لا اريد شيئاً قال هذا ودار ظهره ومشى

عندئذٍ قال له ذلك الجندي : انني لاعجب كل العجب من هذا المتسول الذي أبى ان يأكل من هذا الطعام الذي قدمته لي

اجابه الطاهي : ليس هذا الرجل متسولاً ففي جيبه نقود كثيرة . واذ ذاك نادى الجندي ديمتريوس وسأله ان يعود اليه وقال له كيف اتفق وجودك وحدك في طبرية ؟ لا تقل انك لست عبداً . اين سيدك ؟

– ان سيدي في طريقه الى كفرناحوم وقد بعثني على عجل لكي اهيء له مكاناً لينصب خيمته فيه

– من هو سيدك يا غلام ؟ وما غرضه من القدوم الى كفرناحوم ؟

– هو تاجر يتعاطى شراء السجادات والمنسوجات وبيعها

– أتظنني احمق لاصدقك ؟ انك لص . تعال اتبعني

سأل ديمتريوس ماذا فعلت حتى اتبعك ؟

– يمكنك ان تعلن امرك الى رجال القلعة التي نسوقك اليها

توقف ديمتريوس هنيهة ثم ناجى نفسه قائلاً : لا فائدة لي من الهرب لكنني ابعث برسالة الى مرسيلوس

ولما وصلا الى القلعة فسح لهما الحارس طريق المرور فقال الجندي له : خذ

هذا العبد الى السجن . على ان الحارس قبل ان يمضي به الى سجن القلعة الرهيب سأله ما ياتي :

– ما اسمك ايها الغلام ؟ اجاب : ديمتريوس

– ما اسم سيدك ؟

– لوقان من الجنسية الرومانية

– اين محل اقامته ؟

– اجابه ديمتريوس : في رومية . ثم التفت الى ذاك الجندي وسأله : اي ذنب اقترف ؟

– وقوع الشبهة عليه في السرقة فعليكم بسجنه اولاً ثم دعوه يبيّن لكم بعدئذٍ غرضه من جولانه في الشوارع وهو مبتعد عن سيده ومرتدٍ ثوب صيد وفي جيبه نقود عديدة

فقال الحارس للجندي اكتب اسمه على اللوح الاسود لان قائد المئة مشغول الان

وحيث ان الجندي لم يعرف يكتب ولا يقرأ فانه ناول ديمتريوس الطبشورة يكتب بها اسمه بعد ان سأله : هل يعرف ان يكتبه فسطّر ما يأتي :

ديمتريوس اليوناني عبد رجل روماني يدعى لوقا ضارب خيمتهُ في كفرناحوم

– ماذا سطرت ؟

اجاب : اسم سيدي واسمي

– انزلوه الى السجن . وكان السجن مظلماً فلم يستطع رؤيته تماماً غير انه بعد ان استقرَّ به قليلاً من الوقت تبيَّنت له هيئة حجرته فاخذ ينظر الى الباب المقابل لها فرأى من خصاصه عيني سجين روماني تنظران اليه فسأله ديمتريوس متى يأتونه بالطعام والماء . لان العطش كاد يقضي على ديمتريوس

اجابه الروماني انهم لا يأتوننا بذلك الاّ مرتين في النهار

– لا يمكنني الانتظار الى غروب الشمس

قال الجندي : ستنتظر ذلك على الرغم منك

– لماذا وضعوك في هذه الحجرة ولم يسجنوك في سجن الخفراء ؟

– لانه ملآن بهم . لا بسبب ثورة او عصيان بل لان القائد جوليان نُقل الى اورشليم . والقائد الجديد الذي خَلفهُ احضر معه خمسين جندياً من منوع للمحافظة على حياته وفي اثناء الاحتفال بقدومه شربوا خمراً كثيراً كما انه سُفك دمٌ غزير

– هل القاضي بولس هو قائدكم الجديد ؟

– نعم وانه قاسٍ جداً بالنسبة الى جوليان الشيخ اللين العريكة . وفي غضون القتال شُرمت اذن احد جنود منوع وقد علم ان ذلك حدث صدفة عن غير عمد . ثم نظر الى اذن اليوناني وقال له : كيف شُرمت اذنك انت أاتفاقاً ام عمداً ؟

– فسكت ديمتريوس قليلاً ثم اجاب : عمداً

عند ذلك فهم الجندي الروماني انه عبد فسأله : هل هربتَ من سيدك ؟

– كلاَّ لم اهرب فاني توقعت الالتحاق به هنا

– كن مطمئن البال ولا تخشَ شيئاً فانه سيخرجك من السجن لانه روماني مثلهم

– ولكنه لا يعلم انني رهين السجن في هذه القلعة . ليتك تساعدني بايصال رسالة مني اليه بحيث ان مدة سجنك قد انتهت وانا مستعدٌ ان ادفع لك شيئاً في مقابل تعبك مع الشكر

– اتعطيني دينارين ؟

– اعطيك عشرة شواقل

– انني لا اريد ان ألمس دراهمك بيدي

– لماذا ؟ انني لم اسرقها قط بل سيدي الروماني الكريم جاد بها علي.

– ابقها لك. واذ قال هذا ابتعد عن الباب

فجلس ديمتريوس على المقعد الخشبي الذي لا اثاث غيره في تلك الحجرة وقد بلغ منه العطش كل مبلغ وهو يتوقع ساعة الفرج

الفصل السابع عشر

لم يكن ممكناً لاحد ان يرتاب في تصديق الحادثة التي جرت لبرثلماوس مع يسوع وان ينكر عليه شهادته للعاصفة التي رآهـا رأي العين لان هذا الشيخ لم يكن قط واهماً ولا كاذباً ولا احمق

وقد روى الحادثة كما هي لمرسيلوس حين كانا جالسين تحت شجرة التين في حديقته .

فقال : ان يسوع انتهر العـاصفة التي هبّت في بحر الجليل فاطاعت مشيئته وهدأت في الحال . ولو انها كانت اشاعة وسمعها برثلماوس من غيره لكان في الامر مـا فيه . لكنه كان هو بنفسه في السفينة وقد سمع ورأى كل شيء . ومع هذا فللانسان الخيار في ان يصدّق هذا او ان ينكرهُ

وبعد ان فرغ برثلماوس من روايته اخذ يفكّر ملياً في تلك المعجزة الرائعة . اما مرسيلوس فانه اخذ يتمعّن بما قيل تحت مراقبة عيني يستوس وعرف انهما انتظرا منه ان يُبدي رايه في المعجزة المذكورة . على انه لم يمضِ على سكوته عدة دقائق حتى قال : امرٌ غريب بل غريب جداً

لم يحاول برثلماوس اقناعك بصحة هذه الاعجوبة بل لان يستوس طلب منه ان يخبرها لمرسيلوس بحيث جرت على مرأى منه ومسمع . لذلك وجد الفرصة مناسبة ليذكرها لشخص لم يسمع بها قبلاً

وبعد ان نزل ديمتريوس وحدهُ عند الصبـاح سارت القافلة الصغيرة ببطء الى الوادي ثم تحوّلت من الشاطىء المأهول الى طبرية حيث القصور الرومانية المشيّدة فوق الآكام قبالة مياه البحيرة . ومن ثمّ تابعت سيرها الى وسط المدينة وقد عرجت

في طريقها على القلعة القديمة ثم دخلت كفرناحوم

هذا وقد رخص ليوناثان الصغير ان يصرف ليلته مع توما ويبيت عنده وا كد الجميع ان الحمار جسبر عرف صاحبه لدى رؤيته .

ولما مرا في طريقهما بقرب بيت ليديا خطر ليستوس ان يزورها فلم يرَ مرسيلوس زيارته لها مناسبة في ذلك الحين لانه كان وقت الظهر

ثم وصلوا الى كنيس اليهود الذي بناه هورتنسيوس فكانت هندسة بنائه رومانية اكثر منها يهودية . وقد امتدت درجاته الرخامية التي تشبه المروحة بوضعها الى حدود الفسحة المربعة الشمالية كما تصورها مرسيلوس . فان يسوع كان قد خطب في الالوف من سامعيه من على تلك الدرجات . فامست اليوم خالية من الناس ما خلا بعض البؤساء المعوزين الذين ليس لهم مأوى

فخيل لمرسيلوس كأنه كان من قبل في هذه الاماكن وقد اشتغلت افكاره في تحقق اثارها حتى انه سها عن ذكر موعد الالتقاء بينه وبين ديمتريوس في هذه الناحية

عندئذٍ ذكّرهُ يستوس بذلك فتذكر واخذ يبحث عن خادمه الامين فلم يجدهُ. وقد خشي ان يكون قد قبض عليه وزُجّ في السجن

ولم يرغب مرسيلوس في رؤية القائد جوليان لانه كان منهمكاً بشؤون مهمته الخاصة التي قدم لاجلها الى هذه الناحية . فهدأ يستوس اضطراب باله وقال له : انه اخبر ديمتريوس انهم سينصبون خيمتهم بجوار تل شالوم ثم تمشوا نحو الشاطىء وتركوا هناك سائق الدابة يراقب مجيء ديمتريوس . ولما وصلا الى هناك جلسا وتناولا طعام الغداء . وبعد الانتظار نحواً من نصف ساعة جمعا امتعتهما وسارا الى جهة التل آملين ان يجدا ديمتريوس وهناك حطأ امتعتهما في فسحة رحبة بقرب التل الآنف الذكر واخذا يبحثان ويسألان عن ديمتريوس ولما قيل لهما انه لم يرَهُ احد اسرعا الى بيت برثلماوس . وكان هذا الشيخ قد اكمل لهما القصة التي جاءا لاستماعها ومفادها :

• ان يسوع كان تعباً جداً فنام في مؤخر السفينة ولما اتضح لهم انها امست عرضة للغرق ايقظوهُ من نومه وقد استدعى تعب يسوع الشديد تفسيراً . لذلك اخذ برثلماوس يسرد لهما حوادث ذلك النهار قائلاً :

ان الناس الكثيري العدد الذين وفدوا من جهات سحيقة وتبعوا يسوع كانوا حفاةً جياعاً متعبين تماماً . فانضموا بعضهم الى بعض كأنهم أُسرة واحدة وخصوصاً حين تقسيم الخبز

ثم استطرد قائلاً كأنه يخاطب نفسه : وضعت ليديا زاد حفيدها في سلّة صغيرة لانه كان مقيماً عندها . وقد تذكر بذكر ليديا حادثة شفائها العجيب فقصّها على مرسيلوس ثانية غير ان يستوس لم يبدِ اقلّ اشارة انه اخبره سابقاً عنها . وكذلك عن شفاء ابنة يايروس الذي يدعو الى الدهش

ثم استأنف كلامه بشأن حادثة الوليمة في البرية فقال . لا شك ان الولد كان جالساً وقتئذٍ عند قدمي يسوع وسمعهُ يقول يجب ان نتناول العشاء وظهر فجأةً بسلته الصغيرة

وقد استغرق سرد تلك الرواية الطريفة ساعة بكاملها لان برثلماوس اخذ يتكلم بشأن تقسيم الخبز ثم ذكر ما حصل من التعارف الجديد بين اولئك الغرباء المتبايني المشارب والطبقات ومن عطف بعضهم على بعض . وبعد الفراغ من كلامه هبّت ريح هوجاء كادت تقلع البيوت .

ثم ظهرت في افق الجهة الشمالية الشرقية غيوم سوداء غطّت وجه السماء فضلاً عمّا تخلل ذلك المشهد من وميض البروق ودمدمة الرعود حتى هلعت قلوب اولئك الاقوام فاختطفوا اولادهم وقفلوا بهم مسرعين الى بيوتهم .

ولا تسل بعد ذلك عن هطول الامطار الغزيرة المتواصلة على تلك البقعة ولا سيما على الرمال المحرقة فاستعدَّ فيلبس للالتجاء الى قرية تُدعى بيت صيدا اما بطرس فقد افتكر ان يحوّل السفينة الى جهة الشاطىء ويتخذ من اشرعتها غطاء لهم

وبعد ان انتهوا من هذا التدبير قال يسوع أعدّوا السفينة للسفر الى كفرناحوم اذ ليس من امر يدعو الى الخوف . اما نحن مع هذا كله فقد استولى علينا الذعر . والبعض من تلاميذه اخذوا يحاجونه اما انا فلم اقل شيئاً . لانه يجب على الرجال البكيري السن عند مواجهة الخطر الأ ينبسوا ببنت شفة

عند ذلك أبدى مرسيلوس ملاحظته قائلاً : ان اختبار الرجل المُسن يكون مفيداً في اية حالة كانت

اجابه قائلاً : نعم يقدر شيخٌ مسن مثلي ان يخوّلك نصيحة صادقة ويرشدك الى ما فيه صلاحك وذلك تحت شجرة تين في اليوم المشمس ولكن ليس في يوم العاصفة . ثم انهى حديثه بقوله :

رست السفينة بهم في خليج صغير . وبعد ان قاوموا الامواج مقاومة عنيفة تعب يسوع تعباً شديداً فنزل الى مؤخر السفينة واضطجع على مقعد خشبي فغطوه بطرف شراع مبتلّ بالمطر حيث نام نوماً عميقاً

ولما بدأوا يجذّفون ارتفعت العاصفة ارتفاعاً مخيفاً وعلت الامواج وطغى السيل فوق رؤوسهم حتى اوشكت تلك السفينة الصغيرة ان تمتلىء ماء وقد نزعت الامواج والرياح مجاذيفها من ايديهم وألقتها في البحيرة ما خلا اربعة منهـا بقيت معهم لكنهم لم يستطيعوا ان يتقدموا بها او ان يقاوموا الامواج وقوة المياه الطاغية ومع هذا كله فقد ظلّ يسوع نائماً لا يُبدي حراكاً

اخيراً ايقظناه والتفت برثلماوس الى مرسيلوس وقال له نعم انا ايقظته وقلت له يا معلّم ألا يهمك اننا والسفينة سنغرق معاً ؟

فتحرك يسوع بعد دقيقة وجلس ثم مدّ يديه القويتين ومسح شعره المبتلّ باصابعه

فسأل مرسيلوس : هل راع هذا الحدَث يسوع يا تُرى ؟

اجابه برثلماوس : كلاّ ان يسوع لا يروعه شي . البتة فقد انتصب على قدميه

في ذلك الوقت وتقدم الى الامام خائضاً المياه ومستعيناً بيديه من السقوط . ثم تسلق عمود السارية الثقيل وأمسك الشراع متطلعاً نحو الامواج الهائجة

اخيراً رفع يديه الى العلاء. فظنناه سيهوي في قاع البحيرة وخاطب تلك الامواج الثائرة كأنه يهدئ حيواناً مذعوراً وقال لها : مكانكِ اسكتي ! اهدإي . . .

حملق مرسيلوس ببصره الى برثلماوس ونبضات قلبه تكاد تُسمع وسأله ماذا حدث بعدئذٍ ؟

– هدأت الريح حالاً . على ان فيلبس يقول ايضاً ان النجوم ظهرت في ذلك الحين ولكنني انا لم الاحظ ذلك

قال يستوس ان البعض يقولون ان المياه التي غمرت السفينة نشفت للحال

– قال برثلماوس لا لم تنشف ولكننا اخرجناها منها الى ان وصلنا الى كفرناحوم

فسأل مرسيلوس كيف كان شعوركم بهذه الحادثة الطريفة الرائعة ؟

– لم نقل شيئاً ولكن اخذ منا الدهش كل مأخذ لان المياه امست راكدة كأنها في بركة عادية . اما انا فقد احسست بسكينة خاصة في قلبي

– وماذا فعل يسوع بعدئذٍ ؟

– عاد الى مكانه وجلس ولف ثوبه المبتلّ حول جسمه وهو يرتجف من البرد. وبعد يسير من الوقت نظر الينا مؤنباً وخاطبنا مخاطبة الاب لاولاده قائلاً : لماذا خفتم ذلك الخوف كله ؟

واذ قال هذا عاد واضطجع ثانية واغمض عينيه . ونحن لم نتكلم كثيراً . لكنني اذكر ان فيلبس قال « مَنْ هو هذا الرجل حتى ان الامواج والرياح تطيعه»؟

اما مرسيلوس الذي ذكروا له هذه الحادثة لفائدته الروحية فقد بقي منحنياً في كرسيه يناجي نفسه قائلاً : ان برثلماوس لم يتعمّد الكذب ولا هو مختلّ الشعور ولكن مَن يستطيع ان يصدق ان رجلاً ينتهر عاصفة ويأمرها بالهدوء

قتطيعة . ان هذا ضرب من المستحيل ولما لاحظ ان عيني يستوس تراقبانه عاد فقال : حقاً ان هذا الامر لغريب وغريب جداً

* * * *

وعند المساء نزل رئيس الحرس الى السجن واخرج الجندي الذي قطع اذن زميله من جنود منوع

وبعد وقت قصير حدثت حركة عظيمة في السجن حينما جاءوا بالعشاء والماء الى المسجونين فاستبشر ديمتريوس بذلك خيراً لان حلقه جفَّ من العطش ورأسهُ تألم من الوجع بحيث لم يتفق له مرة في حياته أن اصابه مثل هذا العطش الشديد وخشي ان يفرغ الماء قبل ان يصل الدور اليه

اخيراً رأى بغتة على باب حجرته عبدين وطنيين . فاشار احدهما اليه ان ينزل الصفحة عن الرف . فوضع له فيها حصته من الطعام وطرح امامه على المقعد الخشبي رغيفاً يابساً . ثم وسَّع ممراً للذي كان حاملاً جرة الماء على كتفه .

ولما كان ديمتريوس قد جفَّ حلقهُ من شدَّة الظمأ كما ذكرنا سابقاً فقد اسرع اليه ورفع قدحه الى فم جرة الماء ليملأهُ له . وقد سرَّ كثيراً هذا العبد ان يرى رجلاً يونانياً في حالة سيئة كهذه يقاسي الذل والهوان . فكان منه بعد ان ملأ قدحه ان افرغ شيئاً من الماء على ثيابه فبللها وادار ظهره له ومشى نحو الباب فقال له ديمتريوس : اعطني ايضاً ماء لاروي عطشي فما كان من ذلك العبد الا ان افرغ ما بقي من الماء في الحجرة على رجلي السجين المسكين

عندئذٍ هاج غضب ديمتريوس فلم يدرِ ما يفعل بخصمه وكان القدح لا يزال في يده فضربه به على راسه ولولا شعره الكثيف لكانت تلك الضربة القوية كسرت جمجمتهُ .

فما كان من العبد الا ان استلَّ خنجره من منطقته وهجم عليه ولما لم يكن

لدى ديمتريوس سلاح يقاوم به تقدم منه وصبَّ على وجهه باسرع من لمح البصر ما في الصفحة من مرقة الحساء الساخن (الشورباء) وضربه بتلك الصفحة على يده فاسقط الخنجر للحال من يده

فالتقطهُ ديمتريوس بسرعة زائدة عن الارض . ولما رأى رفيقه ان اليوناني قد تسلح بذلك الخنجر رجع القهقرى حالاً واغلق الباب خلفهُ

واذ خشي ديمتريوس من ان العبد يعود اليه ويفتح ذلك الباب على غفلة منه ويرشقه برمح او بشيء آخر عمد الى دفعه بكلتا يديه القويتين الى الخارج ولما فعل ذلك وجد نفسه في الممشى وعندما شاهد سائر المسجونين منه هذه البطولة اخذوا يشجعونه بصياحهم .

وفي الحال اقبل نحوهم جميعاً رئيس الحرس وثلاثة من اتباعه فعاينوا المعركة التي نشبت بينهم . وقد اسفرت عن جرح اليوناني في يده جرحاً بليغاً وجرح واحد من الاخرين في عنقه ويده معاً . ثم أوعز الرئيس المشار اليه الى ذينك الجريحين ان يمسحا جراحهما بالماء ويتبعاهُ الى مقام قائد الجنود

ولما وقعت عينا ديمتريوس على إناء الماء وهو يمسح جرحه لم يكترث لامره بل اخذ يشرب من الماء حتى ارتوى وشبع

وعندما وصل رئيس الحرس بالجريحين وغيرهما الى حيث يقيم القائد بولس وجده يلهو بلعبة النرْد مع نائبه سكستوس واخيراً عند ما انتهيا من اللعب التفت القائد الى الرئيس المذكور وسأله : ما المسألة ؟

اجابه : لقد رأيت هذين العبدين وهذا اليوناني يتقاتلون الى ان جرح بعضهم بعضاً جراحاً دامية .

وحينما وقع نظر القائد بولس على ديمتريوس أومأ اليه بالاقتراب منه واخذ يراجع ما في ذاكرته من الرسوم فتذكر انه رأى وجهه من قبل فاسرَّ سكستوس الى القائد ما جعله يعرفه . عندئذٍ قال القائد للرئيس : اخرج هذين العبدين وجماعة

الحراس خارجاً لانني احب ان اكلِّم هذا اليوناني على حدة . ولما خرجوا سأله قائلاً : هل انت متألم كثيراً يا ديمتريوس ؟

اجاب ديمتريوس : لا يا سيدي . على انه ما كاد يتلفظ بهذه العبارة حتى شعر بدوار شديد في راسه . فأُعطي كاساً من الخمر . وبعد ان استراح قليلاً سأله ايضاً : اين سيدك ؟

– هو هنا في كفرناحوم يتعاطى تجارة المنسوجات

– هل يتمتع بصحة تامة ؟ اعني هل عقله سليم ؟

– نعم يا سيدي

– لقد ذاعت اشاعة عنه –

أجلْ يا سيدي اجاب ديمتريوس وذلك حين لبس الرداء تغيّرت حالته تغيراً سيئاً ولكنه ذهب الى اثينا وبرىء تماماً

– ما هي دعواك انت ؟ وكيف اتفق وجودك هنا ؟

فاخبره ديمتريوس بكل ما جرى له.

– وما سبب القتال ؟

– طلبت ماء لاروي عطشي فلم أُعطَ

حينئذٍ دعا بولس الذين اخرجهم وخاطب رئيسهم قائلاً : اجلد العبد الذي لم يعطهِ ماء تسعاً وثلاثين جلدة . واحبس الآخر في غرفة بدون ان يذوق طعاماً . ثم امر الأ يبقى احدٌ في حضرته حتى ولا سكستوس لانه يرغب في ان يتحدّث مع ديمتريوس وحده

* * * *

عاد مرسيلوس ويستوس بغير ان يتفوّها بكلمة واحدة في طريقهما اليه ولكن اعـادة برثداوس ذكر عجائب يسوع على مسامعهما جعلت ايمان يستوس ومحبته

وعواطفه نحو يسوع تتجدد فمشى بخطى ثابتة

اما مرسيلوس فقد أثر في نفسه ذكر هذه العجائب وازعج خاطره ايضاً . فلو لم يسمع من اناس كثيرين لكانت اعجوبة العاصفة الرائعة امست في خبر كان . لذلك تأخر قليلاً عن المسير وهو يناجي افكاره وكان يستوس قد سبقه الى المكان المقصود

فاذا اعترف الانسان مرة بصحة هذه العجائب فلا يمكنه بعدئذٍ الا متابعة تفكره فيها لانه يحتاج في البعض منها الى ايضاح عقلي . خذ مثلاً حادثة حريف . فان الاجران الفارغة لم تخلُ من اثر الخمر فكان عليك ان تسلم فقط بتأثير شخصية يسوع على الضيوف الذين أعجبوا به واحبوه ووثقوا بقوته العظيمة حتى تعترف بتحويل طعم ذلك الماء في ذوقهم الى طعم الخمر

ولو ان حادثة هذا التحويل كانت الوحيدة في ذاتها لكنا ضربنا بتلك العجيبة عرض الحائط . ولكن تغير حالة مريم الصحية وصوتها فجأة في النهار عينه يجعلك تقف امام هذه العجيبة الثانية حائراً مدهشاً

واذا اقررتَ بصحتها لزمك الاقرار ايضاً بصحة تحويل الماء الى خمر وكذلك اشباع الخمسة الآلاف من بضعة ارغفة . فان حلُّ هذه الحادثة لبسيط لان يسوع لما حدث الشعب عن الاخوة البشرية اثر حديثه في قلوبهم فاقتسموا الطعام فيما بينهم. فما عليك والحالة هذه الا ان تسلم وتعترف بقدرته الفائقة الوصف وشخصيته العجيبة لانهم قاموا باتباع تعاليمه السامية خير قيام وهم في غمرة من الفرح والغبطة لالتماس رضاهُ

وكذلك ابراؤهُ رِجل يوناثان بحيث عادت صحيحة كالاخرى لان سكان صفورة جميعاً يعلمون علم اليقين انه خرج من بطن امهِ كسيحاً . فاذا سلمنا ان يسوع أبرأ رجله يكون قد فعل كما يفعل مَهَرة الاطباء.

ولكن ما قولك بشفاء المرأة الارملة ليديا من مرضها المزمن يوم لمست ثوبه .

فاذا آمنت بقدرة يسوع العظيمة على ابراء المرضى عقلياً وجسدياً بلمسهم ثوبه فقط. فما هو اعتذارك عن شكّك في تهدئته العاصفة . فذلك مـا لا تدركه العقول البشرية ومن المعلوم ان العاصفة ليست شخصاً ذا حياة بل هي ريح هوجاء تحمل مطراً او ثلجاً . فـاذا سلمت بكون يسوع يملك تلك القوة الغريبة لصنع تلك المعجزة فانه يكون بلا ريب الهاً

وبعد ذلك دخل يستوس وقال لمرسيلوس قد طلبت انا من شالوم صاحب النزل ان يعدّ لنا سمكة لغدائنا . اجابه مرسيلوس : حسناً فعلت . ثم سأله : هل سمعت شيئاً عن ديمتريوس ؟

اجابه لا . فقال له لا تخشَ من شيء عليه فانه قادر ان يدافع عن نفسه اذا قُبض عليه . اما الان فهلمّ بنا الى النزل لتناول طعام الغداء.

اما غرفة المائدة في ذلك النزل فلم تكن تسع الأ عشرين شخصاً فقط . غير ان اسباب الراحة كلها كانت متوفرة فيها . وقد جلس في الوسط من الجهة الشرقية ثلاثة رجال فريسيين ذوي رتبة عالية وجلس في الجهة الغربية قائدان كبيران .

ولما عرف شالوم رتبة مرسيلوس انحنى امامه . ثم اعدّ له ولرفيقه مائدة خاصة في زاوية القاعة فجلسا عليها . وكان شالوم قد سأل يستوس عن مرسيلوس قائلاً له : أهو مسيحيّ ؟

فاجابه يستوس : نعم ولكن بصوت منخفض كي لا يسمعه احد من الضيوف ثم التفت الى مرسيلوس وقال له : يجب ان تحترز من اولئك الفريسيين نعم ان قلوبهم صغيرة ولكنّ اذانهم كبيرة

فسأله مرسيلوس : أكنت تجيء غالباً الى هنا ؟

اجاب يستوس : جئت منذ سنة ونصف حين دعا شالوم يسوع وتلاميذه الى العشاء في نزلِه هذا وقد لحق بهم نحو مئة شخص فعشاهم جميعهم

– إذنْ لم يكن وراء ذلك العشاء سرٌ من الاسرار

– كان الكهنة فقط يحاولون ان يجدوا سبباً يشتكون به عليه

– هذا امرٌ غريب لان يسوع لما كان في قيد الحيـاة كانت اعماله ظاهرة كالشمس في رائعة النهار . اما اليوم وقد مات فلمَ تتحدثون عنه همساً لا جهاراً . ثم بدا ليستوس ان يسرّ اليه شيئاً غير انه ارجأ ذلك الى وقت آخر

ثم سأله مرسيلوس : هل جلست بالقرب من يسوع في اثناء العشاء ؟

اجابه يستوس : لا لم اجلس بقربه

– اين كان مكانه من المائدة ؟

– في مكانك عينه

فارتعش مرسيلوس وقال يجب ألاّ يجلس احدٌ في مكانه ؟

– انك تتكلم كأنك مسيحي . فهل اعجبتكَ حادثة العاصفة يا تُرى ؟

– قد تركتني في حيرة شديدة لانه لا يستطيع احد ان يهدئ العاصفة ما لم يكن آلهاً

ثم لنفرض ان يسوع الهٌ فلمَ سمح لغيره ان يقبض عليه ويسومه الذلّ والهوان اي ان يُصلب ويموت ويُقبر . فلو كان آلهاً حقاً ما استطاع احد ان يمسّهُ بشيء البتة

فهمس يستوس في اذنه بعض كلمات تناسب المقام

قال مرسيلوس : لا يا يستوس لا . انني لست احمق لاصدّق ما تقول ولا انت تصدّق ذلك

– لكنني انا رأيته بنفسي

عندئذٍ هزّ مرسيلوس رأسه وكاد يغص بريقه ثم قال : بما انني اعلم علم اليقين ان هذا الامر غير حقيقي فلماذا تقوله لي ؟ انك تقدر ان تقولهُ لغيري لانني انا رأيتهُ بكلتـا عينيّ يموت وشاهدت ايضاً الحربة نفذت في قلبه وابصرتهم ينزلون جسدهُ عن الصليب ككل ميّت

– كلٌّ منا يعرف انه نهض في صباح اليوم الثالث من قبره كأنه لم يمتْ وقد

رأوهُ رأي العين ماشياً في بستان

سأل مرسيلوس : اذا كنت تؤمن ان يسوع حيّ فاين هو اذاً ؟

اجاب يستوس : لست اعلم اين هو ولكنني اؤمن انه حيّ وانتظر ظهوره دائماً

– لقد لاحظتك مراراً انك كنت تترقب ظهور شخص ما . أفلا تأخذك الدهشة يا تُرى اذا جاء يسوع الان وسأل شالوم ان يُعدَّ له عشاء ؟

– لا ادهش البتة . ثم اعترف لك انني لما رأيته في المرة الاولى شككت في صحة نظري بحيث خشيت ان اكون فقدت عقلي لان حوادث كهذه لا تجري مطلقاً

سأله مرسيلوس : اين حدث ذلك ؟ وقد سأله هذا السوال كانه مصدّق ما سمع

– اجاب يستوس : في بيت بن يوسف حيث اجتمع عدد قليل بعد وفاة يسوع بعشرة ايام لتناول عشاء خفيف وذلك بعد غروب الشمس ولم نكن آنئذ اضأنا القناديل وكان مدار حديثنا عن ظهور يسوع وقد ادّعى عدد من تلاميذه انهم شاهدوا شخصه باعينهم اما انا فلم اصدق ولا نبست ببنت شفة . على ان بعض النسوة قلنَ انهنَّ ذهبنَ في اليوم الثالث الى القبر فوجدنه خالياً

وكذلك قالت واحدة منهنَّ انها رأته في البستان وكلمها . ثم قال اثنان من اتباعه انهما صادفاهُ وهما سائران في سبيلهما . ورغبا اليه في ان يتناول العشاء معهما في احد الفنادق

– هل يوثق بكلامهما ؟

– انني لا اعرفهما لكنني سمعت ان واحداً منهما يسمّى كليوباس

– ان هذه الشهادة ضعيفة

اجاب يستوس وانا اقول مثل قولك . غير ان فريقاً من التلاميذ شهدوا انه ظهر لهم تلك الليلة في العلية حيث كانوا جالسين وانا اعتقدت ان شخصه تخيّل لهم فقط

قال مرسيلوس : اكمل لي بقية حديثك عما جرى في بيت بن يوسف ؟

اجاب يستوس : كان يوحنا يبيّن لنا وقتئذٍ كيف كانت هيئتهُ ويخبرنا عمّا قال لهم . وبعد ان انهى كلامه وقف توما وخاطب يوحنا قائلاً له : انني لا اصدّق كلمة واحدة مما ذكرت إن لم أرهُ رأي العين وألمس بيدي أثر جرحه العميق . وما ان انهى عبارته هذه حتى وقف يسوع بازائه وهو يبتسم كعادته

– لا تقل يا يستوس . لقد ظهر خياله له

– كلّا . بل ظهر هو نفسه الأ ان هيئته كانت ضعيفة قليلًا بالنظر لما عانى من سوء معاملتهم له . فضلًا عمّا سبب له اكليل الشوك الذي كان على هامته من الجروح . ثم مدَّ يديه امام توما

فسأله مرسيلوس وهو جافّ الحلق . هل اجتمعتم كلكم حوله ؟

– لا لم نجتمع لكننا ذهلنا . وبعدئذٍ قال يسوع لتوما : تعال انظر والمس آثار المسامير البادية في يديَّ . فخجل توما خجلاً لا مزيد عليه وغطى وجهه بيديه وصرخ صراخ الاطفال .

وبينما هما في هذا الحديث دنا شالوم منهما ليسأل عما اذا كانا بحاجة الى شيء ؟

اجابه يستوس انني كنت أُخبر مرسيلوس بعض الامور عن يسوع

نعم نعم قال شالوم انه شرّف نزلي مرة وتغدّى فيه وكان جلوسه في مكانك هذا

– هل وقف وخطب آنئذٍ في جمهور الحاضرين ؟

– نعم فقد ضرب لهم المثل الآتي : والظاهر ان واحداً منهم ساله عن معنى كلمة القريب التي وردت في وصيته « أحبب قريبك كنفسك » والتي هي مكتوبة في سفر شريعتنا فقال : كان رجل مسافراً من اورشليم الى اريحا في طريق مخطرة فوجده اللصوص فعرّوه من ثيابه بعد ان نهبوا ماله وجرحوه وتركوه بين حيّ وميت

فاتفق ان كاهناً كان منحدراً في تلك الطريق فابصره ومضى . ومرّ ايضاً لاوي فتوقف امامه قليلاً وتابع طريقه . ثم جاء سامريّ ونحن لا يهمنا شيء من امر السامريين هنا يا سيدي. فعطف عليه وضمد جراحاته وربطها ثم حمله على دابته واتى به الى فندق واعتنى به . ثم سأل : أيّ هؤلاء الثلاثة يُعدّ قريباً للذي وقع بين اللصوص ؟

اجاب مرسيلوس هذا سؤال بسيط ولو كنت انا لسألت سؤالاً آخر . لقد قيل لي ان يسوع ينهي عن النزاع والقتال فلو اتفق لهذا السامري الشجاع ان وصل الى حيث كان اللصوص يجرحون ذلك المسافر المسكين ويجردونه من ثيابه . فما الذي يُفرض عليه ان يفعله أيقف مكتوف اليدين لا يقاوم الشرّ بالشرّ ام يدعهم يسلبونه ماله ويجرحونه ويركنون الى الفرار آمنين غانمين ؟

اجاب يستوس ان يسوع كان يلذّ له ضمد الجراحات لا تسبيبها ألا يروقك هذا الجواب على سؤآلك ؟

– لا . اجاب مرسيلوس . يجب ان نذهب الان فقد اقبل المساء. فناولهما شالوم الفانوس ليسيرا على نوره الى خيمتهما .

ولما وصلا وطاب لهما المقام سأله مرسيلوس ايضاً : ومـا حصل بعد ان عاين توما بعينيه اثر جراحات يسوع ؟

– ملأ بن يوسف صحناً من السمك المشوي وقدمه ليسوع مع رغيف صغير وقليل من العسل فجلس يسوع يأكل

– إذَنْ لم يكن شخصاً بالروح

اجابه يستوس : لا اعلم انما الذي اعلمه انه اكل من ذلك الطعام . عندئذٍ اشار فيلبس ان تُضـاء القناديل فاتى اندراوس بعود كبريت واضاءها واذ ذاك فتشوا عن يسوع فلم يجدوه

فسأل مرسيلوس متعجباً : هل اختفى

– كذلك لا اعلم . ولم يسمع احد ان الباب فُتح

– أدخل من الباب ام كيف ؟

– ولا هذا الشيء اعلمه ايضاً لانني لم اسمع صريف الباب . اما الذي عاينته منه فانه كان واقفاً بالقرب من توما

– هل ظهر ثانيةً ؟

– أجلْ بعد مضيِّ شهر واحد وكان قد حدث شيء محزن لا مزيد عليه في الليلة التي أسلم فيها . ولما اتوا به الى حنانيا كان سمعان واقفاً في الدار حيث كان الجند يصطلي بقرب النار فسالته جارية كانت هناك ألست انت من لصدقاء الجليلي؟

اجابها سمعان لا . لست اعرفه

قال مرسيلوس لكنني ظننت انه كان زعيماً للتلاميذ

– وهذا الذي جعل الامر اليماً محزناً . فقد كان سمعان عادة جسوراً ولكنهم لما مضوا بيسوع الى دار الولاية وقف بعيداً في اثناء محاكمته ، بل لست اعلم الى اين ذهب حينما خرج الجمع بالجليليّ الى مكان الصلب ولا في اية جهة قضى تلك الليلة والتي بعدها . وقد سمعته يعترف بهذا كله

سأل مرسيلوس قائلاً : إذَن لم يكن سمعان بين التلاميذ عندما ظهر لهم يسوع في المرة الاولى ؟

اجابه يستوس : لا . لكنه اوصاهم ان يخبروا سمعان عن ظهوره

– هل عرف ان سمعان انكر صداقته

– بدون شك نعم . ولذلك كان مهتماً ان يجعل سمعان يعرف انه سامحه

وفي صباح اليوم الثاني عزم ابنا زبدي وتوما ان يوصلوا برثلماوس الشيخ الى بيته فاركبوه دابة وذهبوا الى الجليل حيث رأوا بطرس حزيناً في حالة الارتباك فاخبروه بكل ما جرى . فاستعد للعودة حالاً الى اورشليم ولكنهم نصحوا له ان ينتظر ريثما تكف الكهنة عن الاسئلة المتعددة عنه . لان خبر رجوع يسوع الى

الحياة قد انتشر كثيراً وكانت المراقبة حول مصنع بن يوسف شديدة جداً

لذلك ذهبوا تلك الليلة الى الصيد . وقد قال برثلماوس انهم غادروا ذلك المكان عند طلوع الصباح وتوجهوا الى الشاطىء الشرقي . واذ كانوا على مسافة مائتي غلوة منه سمعوا صراخاً قوياً اسفر عن سقوط شخص في البحر – ولما التفتوا شاهدوا يسوع واقفاً بازاء الشاطىء ينظر اليه وكان هذا المشهد مؤثراً للغاية فقد بات سمعان ذليلاً جداً وكاسف البال

– وهل توارى عنه يسوع كالعادة

– لا . ليس في ذلك الوقت لانهم باشروا شيَّ السمك الذي اصطادوه لتناول الفطور . وفيما هم ياكلون ابتدأ يسوع يعظهم وقد استغرق كلامه نحو الساعة وكان سمعان مصغياً له اشد الاصغاء

– ماذا كان فحوى العظة ؟

– حرّضهم على القيام بواجباتهم نحو الانسانية جمعاء واخبرهم عن رجوعه اليهم غير انه لم يعيّن لهم اليوم ولا الساعة التي ياتي فيها

ولما عادوا الى السفينة وجذّفوها ليذهبوا الى كفرناحوم لم يُرَ يسوع بينهم ولكنه ظهر لهم مرّة ثانية وكنت انا بين التلاميذ في ذلك الحين وكانت المراقبة لامورهم دقيقة جداً . فما كان يتيسر لهم الاجتماع الاّ في جنح الليل الحالك في اماكن منفردة فكنا نجتمع في الاماكن المظلمة حيث تكون العين بعيدة عن مراقبتنا . وكان رؤساء الهيكل يرسلون الجند الى الاسواق للتفتيش عنا . وهنا في الجليل كان هيرودس انتيباس والقائد جوليان يهددان بالموت كل مَنْ يتلفظ باسم يسوع

– هل يصدّقون انه بُعث حياً ؟

– لا اعلم . ربما لا يصدقون ولكنهم عرفوا حق المعرفة انهم لم يتخلصوا منه . وقد تبادر الى اذهانهم ان الناس ينسونه حالاً ويعودون الى اشغالهم كالعادة ولكن

ساء فألهم لان يسوع أرهقهم بقوة ما تزال تعمل

سأل مرسيلوس : ماذا تعني بقوة ما تزال تعمل ؟

اجابه يستوس : اولاً لان دَخل الهيكل قد نقص مقداره . لان مئات من الشعب كانوا يدفعون العشر ولما قامت قيامة الكهنة على يسوع تمنعوا عن دخول الهيكل ودفع البدل

وكذلك تجار السامرة واليهودية والجليل كانوا يعتقدون انهم بتخليهم عن يسوع يرضون السلطة غير ان تجارتهم ضعفت وسلعهم كسدت فاصبحوا يقاومونها بل يكرهونها لان المسيحيين كانوا يداً واحدة. وقد قاطعوا التجار غير المسيحيين. وبناء على ذلك اصدرت الحكومة اعلاناً تحظر فيه على اتباع يسوع الاجتماع في كل مكان . لذلك اتفقنا ان لا نجتمع في الوقت الحاضر

– كم كان عدد المسيحيين في اورشليم في ذاك الحين ؟

– الذين اظهروا انفسهم منهم كانوا خمس مئة . ففي احد الايام بعد الصلب بخمسة اسابيع جاء احدهم الى منزلي واخبرني أنَّ سمعان دعا الى الاجتماع . وقال اننا بعد اسبوع سنجتمع على رأس التلة حيث نكون بعيدين عن الطريق العامة كما اعتدنا ان نقضي يوماً واحداً في الاسبوع لالتماس الراحة والسرور مع يسوع

وقد سافر كل شخص وحدهُ حذراً مما يحيق بنا من الخطر اذا رافق شخصاً واحداً او اكثر . ولما وصلت الى الحقول التي تؤدي الى التلة عند طلوع الفجر شاهدت كثيرين امامي ولكنني ما عرفت منهم جميعاً سوى سمعان بطرس لانه كان مديد القامة .

ثم التقيت برثلماوس الذي كان يتوكأ على عصاه ويلهث من التعب

– هل قطع مسافة الطريق كلها ماشياً الى كفرناحوم ؟

– أجلْ لقد امضى اسبوعاً كاملاً متوكئاً على عصاه حتى وصل اليها على انني اشرت عليه ان يبقى في اسفل التلة فلم يصغِ الى كلامي . ثم مددت له ذراعي

وسرنا معاً وما ان وصلنا الى نصف الطريق المؤدي الى راس التلة حتى وقف برثلماوس وقال انظر الى جهة الصخرة التي امـام عينيك فرأيت يسوع بنفسه متسربلاً ثوباً ابيض يلمع من نور الشمس . وكان واقفاً في اعلاها ينتظر . وبعد هنيهة وصلنا الى سهل صغير فرأيناه ُ ماداً يديه يهب البركة لتلاميذه الساجدين عند موطىء قدميه ووجه سمعان ماساً وجه الارض .

اما برثلماوس فانه لم يستطع ان يخطو خطوة اخرى واحدة الى الامام بعد هذا المشهد الرائع فخرَّ ساجداً في مكانه وهكذا فعلت انا . ثم حنونا رؤوسنا وقد بلغ منا التأثر كل مبلغ . وبُعيدَ ذلك سمعنا غوغاء فمددنا نظرنا الى حيث كان واقفاً فلم نرَ احداً

الى اين ذهب يا يستوس ؟

— لست اعلم يا صديقي انا الذي اتيقنه انه حيٌ ويتراءى لي احياناً انه بقربي واذ قال هذا دمعت عيناه ُ

ثم استأنف حديثه قائلاً : انني جد مؤمن انه بالقرب مني ولا اقدر ان اغشَّ احداً . او ألحق بأحدٍ ادنى أذى

قال مرسيلوس : اظنني لا اكون مستريحاً اذا وجدت احداً يراقبني

— انك تشعر براحة تامة عند ما تعلم ان ذلك الشخص يمدّ لك يد المساعدة لتدافع عن نفسك بنفسك . وتكون مسالماً لجميع الناس مـا استطعت الى ذلك سبيلاً

ثم قُرع الباب ففتحه يستوس فاذا بجندي يدخل قائلاً : انني احمل رسالة من القائد بولس الى القاضي مرسيلوس لوقا غاليو

فغمغم يستوس مضطرباً وقال في نفسه : ألقاضي !

ثم تقدّم الجندي باحترام قائلاً : ان سيدي القائد بولس يقدّم تحياته ويرجو من صديقه الحميم القاضي مرسيلوس ان ينزل ضيفاً عليه هذه الليلة في القلعة . وانا مستعدٌ اذا

شئت ان أنير الطريق امامك بصباحي هذا

– حسناً . انتظرني عند الباب الخارجي

ثم التفت مرسيلوس الى يستوس وقال له فرحاً مستبشراً . يظهر لي ان ديمتريوس في مكان حريز

– وانا سلمت شعبي ودفعتهم الى ايدي اعدائهم

فوضع مرسيلوس يده على كتف يستوس وقال له . لا تخف لانني اؤكد لك انني لست جاسوساً ومن الممكن ان اصبح صديقك وصديق شعبك . ساعود غداً عند الظهيرة

فجلس يستوس ويداه على وجهه الى ان غاب مرسيلوس عن نظره . وقد امضى ليلته في كآبة وتبكيت ضمير . ولما لاح الفجر جمع امتعته وتوجه الى السوق وهناك جلس على احدى درجات الجامع الى ان اشرقت الشمس فسار الى المنزل الذي ترك الفتى يوناثان فيه

كانت ام توما في المطبخ تهيء طعام الصباح فقالت له لم يخطر على البال انك تجيء باكراً هكذا . قل لي ما بالك ؟

اجابها : انني اريد ان اعود من حيث اتيت على الفور

– ولكن اين الروماني الشاب . وقافلتك الصغيرة ؟

– كلهم باقون هنا . اما انا ويوناثان فيجب ان نرجع الى البيت

الفصل الثامن عشر

تسلم بولس قيادة قلعة كفرناحوم منذ اسبوع فقط ولم يجد من نفسه دافعاً قوياً للقيام بشؤون هذا المركز الجديد مع انه مضى على قيادته لقلعة منوع نحو اثنتي عشرة سنة وهو يرجو يوماً بعد آخر التخلص منها: لان من العادة ان لا يلبث القائد فيها هذه المدة الطويلة بحيث ان الحكومة كانت ترسل اليها مَن تريد ان تحط من كرامتهم . فضلاً عما يصيبهم من الامراض بسبب رداءة مناخها وشدة حرارة شمسها التي تذيب الاجسام وتخمل العقول

ولا تسل عن ابنيتها الخربة القديمة العهد وشناعة هيئتها وازقتها المليئة بالغبار والاقذار وليس فيها من شجرة يستظلون بظلها ويتنشقون رائحتها

اما رجال حاميتها فقذرون وكسالى معاً ولا شغل لهم سوى الاغارة من وقت الى آخر على جماعة البدو . ولا يعرفون من التدبير والتدريب شيئاً من الاشياء بل كانوا ينحدرون الى مدينة غزة لشرب الخمرة وقضاء اوقاتهم في محلات الملاهي وما شاكل ذلك

وكانت غزة في قديم عهدها معتركاً للمخاصمات والفتن التي كانت تحدث بين القبائل الكبيرة العاتية والصغيرة المستضعفة . وكان اهلوها يترصدون الغرباء الذين يقصدون اليها فيسلبون اموالهم وامتعتهم في رائعة النهار . ومع هذا كله فقد كان لها ميناء حسن واسع تسير فيه المراكب التجارية وغيرها ذهاباً واياباً بحيث يشعر الناظر اليه انه من ارقى مواني البحر المتوسط

فلما عهد الى بولس بقيادة حامية كفرناحوم سرّ سروراً لا يوصف مع انه لم يأتِ اليها سابقاً بل سمع بشهرتها من حيث حسن ادارة الاحكام وهدوئها المتناه

وعلم ان سلفه حسده الناس كثيراً على منصبه فيها

وكانت قلعة كفرناحوم بعيدة قدر نصف ساعة فقط عن طبرية التي يقيم فيها حاكم الجليل وبيرية هيرودس انتيباس المثري العظيم الذي كان يولم الولائم لضيوفه ولا يهمه اذا احبه الناس او ابغضوه بل يهمه ان يقدموا له الطاعة وفروض الاحترام.

اما القائد بولس فكان يكره الذين يضحون باخوانهم لينالوا حظوة لدى السلطة الرومانية

وكل انسان كان يعرف ان موقع كفرناحوم جميل للغاية بحيث تحيط بها الروابي الخضراء الزاهية وتكلل قمم جبالها الثلوج . فضلاً عن ان في داخلها بحيرة تقرّ العيون بمرآها . اما سكانها فانهم ليّنو الجانب دمثو الاخلاق وقد احزنهم موت يسوع حبيبهم غير انهم لم يكونوا يعرفون الغضب او الحقد . وكانت إقامة القائد جوليان مع جنوده هناك لاجل المحافظة على الامن

ولقد رأى القائد بولس ان السلام مستتب اكثر مما كان يتوقّع على انه لم يشعر به الأ قليلاً في بادئ الامر لانه كان منهمكاً باعداد ما يلزم القلعة من الشؤون الضرورية . وقد سرّهُ كثيراً الزورق البديع الزخرفة الذي اهداه له هيرودس انتيباس وسرّته كذلك الحمامات النظيفة الفخمة التي في تلك القلعة والتي يوقن ان القائد جوليان لم يستعملها قط

كانت الحركة في القلعة على اشدّها فان جند حامية منوع جاء مع بولس لحمايته من خطر الطريق ولتعزيز الاحتفال الرسمي بوصوله الى كفرناحوم . وقد أدب له هيرودس مأدبة عظيمة دعا اليها الكثيرين من ذوي المناصب والاعيان . وقُدمت في اثنائها الخمور الفاخرة .

وبعد ثلاثة ايام عادت حامية منوع الى مركزها ما عدا سكستوس واستتبّ الهدوء والسكينة . فاذا كانت هذه هي الحالة في كفرناحوم فهي اذاً احسن في منوع

وبعد اسبوع افتكر بولس ان يتوجه الى اورشليم لقضاء بضعة ايام لكنه ما لبث ان عاد عن فكرتهِ هذه اذ تبادر لذهنه ان كنتوس الذي يكرهه كل الكره ربما يكون باقياً فيها

* * * *

وفي مساء احد الايام بينما كان بولس وسكستوس يلعبان بالنرد اذ دخل عليهما تاميوس قائد الحرس مصحوباً بثلاثة عبيد متنفشي الشعور . فلما رآهم بولس شعر انه يعرف ذلك اليوناني الطويل القامة . فوصفه له سكستوس . وكان بولس يحب ديمتريوس لحسن اخلاقه وشدة بأسه وذكائه واحترام الناس له . ثم تذكر انه رأى اعلاناً ملصقاً على باب دار الولاية في اورشليم مفاده انه تُعطى مكافأة لمن يتمكن من القبض على عبد يوناني يختص بالقاضي مرسيلوس غاليو . وقد جاء في قرار محكمة الجزاء ان اليوناني المذكور هجم على رجل روماني في اثينا ويُظن انه مختبيء في اورشليم .

ولكن عندما دقق في امره وجد انه قُبض عليه لانه مشتبه به حينما كان يتجول من مكانٍ الى آخر وهو مرتدٍ رداء عتيقاً وفي جيبه بعض النقود . وقد تقاتل هو وعبدين سوريين في السجن لانهما لم يعطياه ماء ليروي غليله . واراد بولس ان يعرف عن مرسيلوس الذي شاع عنه انه كان مختلاً وسرَّ جداً حينما فهم انه في تلك الناحية

ولكن بولس اراد قبل ان يطلق سراحه ان يقف منه على الدعوى المقامة عليه بسبب ضربه رجلاً رومانياً

فسأله : ماذا تجيب عن دعوى الرجل الروماني عليك بضربك اياه واهانته في اثينا ؟

— انني رأيت من الحقّ ان انتقم من القاضي كنتوس انتقاماً شديداً يا سيدي

فصرخ القائد قائلاً : اصحيح ما تقول ؟

اجابه ديمتريوس : نعم يا سيدي

– اخبرني ما دعاك الى ذلك ولا تخفِ عليَّ شيئاً

– جاء القاضي كنتوس الى نزل آل يوپولس برسالة الى مولاي مرسيلوس واذ كان ينتظر الجواب تحرَّش بابنة صاحب النزل وهي من فضليات الفتيات واسرتها كريمة محترمة فصعب الامر عليها جداً وعلى ابيها الذي كاد يهمّ بضربه ولكنه خشي عاقبة الامر بسوقهم جميعاً الى السجن . اما انا فلم اخشَ العاقبة فعاقبته على تحرّشه ووقاحته

– ألست تعلم انك تُساق الى الاعدام اذا لمست بيدك قاضياً رومانياً فقط ؟ ولما اجابه ديمتريوس بالايجاب قال له اخبرني كيف عاقبته

– اولاً لطمته على وجهه وقد عرفت عندئذٍ اني اقترفت ذنباً يؤدي الى الموت لذلك لطمته ثانياً وثالثاً عدة لطمات متواصلة لم يكن لينتظرها . ولما بلغ مني الغيظ كل مبلغ ضربته على عينيه حتى اغمضهما ثم ركنت سريعاً الى الفرار

ولما كانت احدى السفن على أهبة الابحار خبأني ربانها فيها على انها ما كادت تقلع بنا حتى رأيت كنتوس على ظهرها . فلما رآني طلب من الربان ان يسلمني الى السلطة . لكن الربان مهّد لي سبيل الفرار في سفينة اخرى في اثناء الليل الى غزة حيث توجَّهت منها الى اورشليم

ألم يدرك الربان انه يستحق المعاقبة على هذا الفعل ؟ ما هو اسمه ؟

– نسيت اسمه يا سيدي

– لا شك انك تكذب ومع هذا فاني اشكر لك ما اظهرته من المروءة والوفاء نحو تلك الابنة . والآن قل لي لماذا جئت الى اورشليم ؟

– لان سيدي اراد ان يجيء اليها

– ماذا صنعت فيها ؟

— اشتغلت في مصنع حياكة

قال القائد بولس : علمت انَّ هناك مصنعاً لحائك يدعى بن يوسف يجتمع فيه قادة انصار يسوع . فهل انت احد اولئك الانصار الذين يسمّون انفسهم مسيحيين ؟

اجاب ديمتريوس نعم يا سيدي واني اؤمن كما يؤمنون

فزجره بولس قائلاً له : لا يمكنك انت ان تكون في عدادهم او أن تؤمن ايمانهم لانك تدرك جيداً ان ما يشيعونه عن يسوع انه عاد بعد موته الى الحياة وانهم شاهدوه في حالات كثيرة واماكن متعددة انما هو اختلاق محض وليس له ظلٌّ من الحقيقة

— لا تقلْ هذا يا سيدي فكل ما سمعته حقيقي لا ريب فيه

— عجباً لقد كنت انت بنفسك هناك وشاهدت موته

اجاب ديمتريوس : نعم شاهدت موته ولكنه الان في قيد الحياة وقد سمعت هذه الشهادة من فم رجل شريف صادق في قوله وفعله رآه رأيَ العين حياً . وانا لم تاخذني اية دهشة من شهادته هذه لانه ليس مثله انسان على وجه الارض وقد لاحظت انت يا سيدي انه لم يكن رجلاً عادياً

— كيف لم يكن رجلاً عادياً : أتعني بقولك انه كان آلهاً ؟

— نعم يا سيدي انه كان الهاً وما يزال

قال له القائد بولس : الستَ تعلم اننا نودع السجن كل مَنْ يقول هذا القول عن الجليلي الميت

ثم اخذ القائد يسير ذهاباً واياباً في الغرفة وبعدئذٍ التفت نحوه قائلاً : انني ساطلقك الان يا ديمتريوس اكراماً لسيدك مرسيلوس . فاخرج من الجليل حالاً ولا تقل شيئاً عن يسوع . واذا سمعت انك ذكرت لي شيئاً عما دار بينك وبين كنتوس فاني اجلدك حتى امزّق لحمك عن عظامك

ولما شكره ديمتريوس على مراعاة جانبه صفّق بولس بيديه فدخل الحاجب حالاً

فقال له خذ هذا اليوناني وأعدّ له سريراً لمنامته وقل للطبيب ان يضمد جروحه لانني ساطلق سراحه . ثم عدْ اليَّ سريعاً متى انتهيت من هذه المهمّة لتحمل رسالة مني الى نول شالوم

* * * *

لقد سُرَّ مرسيلوس كثيراً حين لاحظ ان ترقية صديقه بولس الى منصب القيادة الجديد الذي كان يعلّل نفسه بالحصول عليه لم يغيّر شيئاً من اخلاقه ولا من صداقته له بل انه جدَّد صداقتهما القديمة حالاً ومكنها

فقد اعدَّ بولس له في غرفته الانيقة مائدة لطيفة صغيرة فوقها صينيّة فضية مملوءة بانواع من الحلواء والفاكهة اللذيذة وفي وسطها زجاجة من الخمر . وكان هو لابساً افخر لباس فقابل ضيفه ببشاشة وحماسة وحيّاه تحية الشوق والمحبة قائلاً :

– اهلاً بك يا مرسيلوس الصالح . فان الجليل كلها ترحب معي بشخصك الجليل

فاجابه مرسيلوس : لقد طفح السرور على قلبي لدى مشاهدتك وسماع ترقيتك فاتمنّى لك النجاح وطيب الاقامة في مركزك الجديد

ثم سأله بولس : هل لك ان تخبرني عن سبب مجيئك الى الجليل ؟

– ان الاخبار عن سبب مجيئي تستغرق ساعة من الوقت ولكنني ساوجز بكلامي . وهو ان الامبراطور طيباريوس ارسلني لاستعلم اكثر عن الجليليّ الذي صلبناهُ

– ان هذا العمل الذي أُنتدبت اليه لشاقّ ومؤلم معاً وانا ما ازال ألوم نفسي حتى اليوم لاجل المركز الحرج الذي وضعتك فيه لانني كنت ثملاً . وقد اردت بعدئذٍ ان اعتذر اليك لكني لم أرَك . فآمل ان تقبل عذري الان

– اجابه مرسيلوس : لقد كنا جميعنا سكارى في ذلك الحين غير انني ما

كنت اضمر لك في قلبي اقل ضغينة

– لم يكن السكر الذي آلمك يا سيدي انما الطريقة التي خرجت فيها من تلك الوليمة . فانه حدث لك شيء عند ما لبست ذلك الرداء وقد حسبت انك رأيت شبحاً . ولكن ما لنا وهذه الاحاديث المزعجة انك الان في احسن حال من الصحة يا مرسيلوس فدعنا نشرب من هذه الخمر الوطنية التي ارسلها اليَّ هيرودس انتيباس حاكم الجليل وبيريه مختلس اموال الفقراء . ومع انه دنيء النفس فخمره جيدة نفيسة

وعلى ذكر الخمر اقول ان الناس يقولون ان يسوعنا هذا حوَّل الماء خمراً في احد الاعراس . ربما تكون قد سمعت بهذه القصة وبغيرها كثيراً

فاجاب مرسيلوس نعم سمعتها ولكن صعب عليَّ ادراكها

– لا تقل صعب عليك ادراكها . أليس عندنا كثير من هذه الخزعبلات في رومية نفسها ؟ ثم استطرد قائلاً : ارجو ألاَّ تقول لي ان ما يُروى عن هذا الجليلي هو حقيقي لان ليس من احد في كامل عقله يصدّق ذلك

– ان يسوع هذا كان رجلاً عجيباً غريب الاطوار

– لو لم يكن كذلك لكان كغيره من الرجال . لانه كان متجلبباً بعظمة وشجاعة نادرتين . لكنني ارجو ألاَّ اسمع منك انك تصدّق تحويله الماء الى خمر

ثم قال مرسيلوس : لقد امسيت في حيرة من جهة هذا الجليلي يا بولس غير اني رأيت رأي العين ولداً كان كسيحاً منذ ولادته وهو الان نشيط يمشي ويركض كسائر الاولاد رفقائه

سأله بولس : كيف عرفت انه وُلد كسيحاً ؟

– ان سكان قريته كلهم يعرفون ذلك . ولم تكن لهم فائدة قط من اعلامي لانهم كانوا مشتبهين بامري ولا سيما جَدّ الولد فانه اخبرني عنه بجهدٍ كلّي

– يجب ان نبذل قصارى جهدنا للوقوف على هذه الامور . لانهم يقولون ايضاً ان يسوع عاد بعد وفاته الى الحياة وقد شاهدوا شخصه باعينهم

قال مرسيلوس لقد سمعت هذه الرواية منذ ساعة فقط . وانه لامر يحيّر العقول يا بولس

— بل انه غير معقول البتة . فيجب ان يكتفي الشعب بتصديق القول انه حوّل الماء الى خمر وشفى المرضى لا ان يتيقنوا انه حي بعد

فهذا الامر لا يصدقه العقل السليم لانني انا طعنت صدره بحربتي . ثم قال له بصوت عالٍ : يُستدل من هيئتك يا مرسيلوس انك مصدّق عودة يسوع الى الحياة

عندئذٍ رفع مرسيلوس نظره الى بولس وقال له : لست اعلم ما اصدّق . ان في هذه المسالة سراً غامضاً يا صديقي . فلو كانت هذه الرواية غير حقيقية لما عرّض الذين رَوَوْها حياتهم للخطر اذ ليس لهم من ورائها فائدة ما

اجابه بولس انني اسلّم معك بذلك ولكنني اقول ان الذي تغلّب على الموت كان باستطاعته لو شاء . فقاطعه مرسيلوس وقال بالنيابة عنه : ان يحصل على مرغوبه بتأسيس مملكة له هنا . أليس هذا الذي تريد ان تقوله ؟

اجابه بولس انني اتذكر جيداً ان بيلاطس سأل يسوع في اثناء محاكمته . هل انت بالحقيقة ملك ؟ فاجابه نعم . بيدَ اني فهمت بعد ذلك ان يسوع صرّح مراراً عديدة بان مملكته ليست من هذا العالم . فهل لهذا من معنى ؟

— لو كنت انا قلت ذلك لَما كان لكلامي معنى ولكن حين يقوله رجل قام من بين الاموات ولا نعلم اين كان فلا شك ان كلامه صحيح صريح بكَوْن مملكته ليست من هذا العالم

— اذن انا اتمنى لرجل كان مَيتاً فعاش ان تكون له مملكة في هذا العالم ايضاً . لا ان تكون لكنتوس ولا لجوليان ولا لبيلاطس ولا لغايوس ولا لطيباريوس الشيخ

— قال مرسيلوس هذا رأي حسن لا غبار عليه اذا كان يملك علينا ملك يعرف ان يتغلب على جميع الملوك ويقوم مع هذا باعمال خيرية مجيدة بعيدة عن الشرور والآثام

ولما رأى مرسيلوس ان الحديث لذَّ لبولس سماعه قال : تمعَّن في هذه الروايات التي تشيع عن يسوع . فقد شاع عنه انه فتح اعين العميان ولم يُسمع قط انه اعمى احداً . وذاع ايضاً انه حوَّل الماء الى خمر . ولم يدَّع انه حوَّل الخمر الى ماء . وكذلك رُوي عنه انه اقام ولداً كسيحاً مقعداً ولم يُروَ البتة انه اقعد ولداً سليماً معافىً

قال بولس كلامك صواب فكثيراً ما سمعنا ان الملوك دمَّرت البلاد واهلكت العباد فصيرت البعض عمياناً والبعض كسحاناً والبعض بعلل مختلفة . أفلا يغمر العالم السرور اذا اتيحت له حكومة تهتم بالعمي والمرضى والعرج . فيا ليت هذه الرواية عن يسوع كانت حقيقية

فسأل مرسيلوس بولس قائلاً : أجادٌّ فيما تقول يا بولس ؟

اجابه بولس نعم . انني جادّ في كلامي بقدر ما تضمن لي ذلك . ولكن ألستَ ترى يا مرسيلوس انه ليس من مصلحتك الاهتمام كثيراً بمسألة يسوع ؟ فلم يجب مرسيلوس على ذلك

— اخبرني ماذا يشيعون اكثر مما شاع عن اعمال يسوع . لانك بحثت بحثاً دقيقاً في هذه النواحي كما فهمت

— يقولون انه كان في قانا ابنة كسيحة كانت في بداءة امرها تعسة جداً ولكن يسوع منحها بقوّته صوتاً جميلاً فاخذت ترتل لسكان القرية . وقد اصبحت من ذلك الوقت سعيدة مسرورة

فقال له بولس ألّا تعلم ان كثرة اهتمامك بهؤلاء المسيحيين ربما توقعك في حيرة شديدة فاسمح لي اذا شئت ان اكلمك في هذا الشأن بكل حرية بشرط ان تحمل كلامي محمل الاخلاص لاني لا اقصد سوى تنبيه افكارك الى ما اقوله لك :

انني اعتقد انك عرفت الحوادث التي جرت في فلسطين في غضون السنة الماضية. لانه بعد موت الجليلي تفرَّق قادة جماعته . وهذا التفرُّق سرَّ قلوب اصحاب السلطة

لاعتقادهم ان مسألة يسوع امست في خبر كان . ثم حدثت اشاعة مفادها انه بعد وفاته شوهد في اماكن مختلفة لكن السلطة لم تعرها اذناً صاغية لتيقنها انها لا تلبث ان تمسي نسياً منسياً

ولكن هذه الاشاعة جرت مجرى الكهرباء في الاجسام فكان القادة يجتمعون سراً . ثم تبين للكهنة في ذات يوم انه خفَّ عدد الشعب في المجامع وامتنعوا عن دفع العشور . وقد شعر التجار ايضاً ان حالة تجارتهم تصير من سيء الى اسوإ . واصبح في امكان جماعة يسوع ان يجتمعوا علانية . وكان عددهم في انطاكية يزداد يومياً

ولم تتألف الجماعة المذكورة من الفقراء فقط كما سرَت الاشاعة اولاً بل كان في سلكها كثير من الاغنياء ولا سيما في اورشليم التي لم يعرف احد ما وصل اليه عدد المسيحيين فيها . لذلك ترى رؤساء الهيكل مغتاظين لتشتيت شملهم والقضاء على مجتمعاتهم في اي مكان كان . وهبَّ الكهنة والتجار هبة واحدة يهدّدون جوليان الشيخ باعلانهم له : اما ان يعمل عملاً حازماً مثمراً او يستقيل من منصبه

فسأله مرسيلوس قائلاً : ماذا يُراد من جوليان ان يفعل لقمع هذه الحركة ؟

اجاب بولس : الظاهر ان هذه الحركة يصعب تسكيتها وقد تظهر لاول وهلة انها بسيطة لسائح نظيرك . ولكن سكان اورشليم المحترمين يقولون انها حركة خيانة وتجديف وعصيان وتفريق عام لطرقهم المنظمة . وجوليان يعزُّ عليه ان تحدث ثورة دموية في ايامه ولذلك قد نفد صبر رؤساء المدينة

– فاعترض مرسيلوس قائلاً : من المؤكد انهم لا يجدون خطأً في تعاليم يسوع لانه علَّمهم التواضع والمحبة والمعاملة الحسنة . ألا يعتقد ذوو السلطة الفلسطينية في جعل الناس يعاملون بعضهم بعضاً معاملة حسنة

– ليس هذه علة الخلاف الاساسية يا مرسيلوس . ان المسيحيين رفضوا المعاملة مع غير جماعتهم وعقدوا بينهم عهداً موثقاً حتى هنا في كفرناحوم اذا لم يكن على

باب حانوتك رسم سمكة فلا يوافق ان تفتحه . ثم تمعن في وجه مرسيلوس وقال : انني اعتقد انك تدرك معنى هذه الاشارة

لحنا مرسيلوس راسه وابتسم

لحذّره بولس قائلاً : ليست المسألة هزلية كما تتصوَّر فعليه انصح لك ان تاخذ خادمك وتذهب لاننا سنثير ثورة شديدة على كل المسيحيين مهما كان مركزهم الادبي رفيعاً . ولا يهمهم أكنت قاضياً رومانياً او لم تكن

– اجاب مرسيلوس ولكنني لست اعلم اين مقرّ خادمي

فابتسم بولس وقال ولكنني انا اعلم . هو الآن في فراشه في مكان هنا في القلعة

– هل هو مسجون ؟

– لا بدّ من ذلك . ثم اخبره عما جرى في النهار وسأله : هل رأيت خادمك يضرب كنتوس ؟

– لم أرهُ في بداءة الامر ولكنني رأيته فيما بعد وقد اشبعه لطماً على وجهه وعينيه

– سرّني كثيراً ما سمعت لانني لا احترم كنتوس مطلقاً . ومصائبهُ لا تهمني . ولكن هذا الاعتداء ليس بالامر السهل . وقد اطلقت لديتريوس حريته لكن يجب ان يغادر هذه البلدة بما امكن من السرعة لان بقاءهُ يضرُّني . ويضرُّك خصوصاً انك صديق للمسيحيين . فتروَّ في الامر يا مرسيلوس . ان عبدك مطلوب لاجل مهاجمته قاضياً رومانياً وثانياً لاشتراكه مع المسيحيين في اورشليم فتكون قد آويت في بيتك مجرماً ومسيحياً فقل لي ماذا تريد ان تفعل ؟

– كان مرادي ان ابقى في فلسطين عدَّة اسابيع ثم اتوجه بعدها الى رومية

قال له بولس : ان المسيحيين في خطر شديد . ومركزك خطر اكثر مما تتصور فانصح لك ان تهيء امتعتك وترحل حالاً الى يافا ومن ثمَّ تسافر توًّا الى بيتك في

رومية لان وجودك هنا لن يفيدهم شيئاً

– اشكر لك نصيحتك يا بولس . اتسمح لي الان ان ارى ديمتريوس ؟

– ليس في هذه الليلة . ومع ان عبدك فتىً ممتاز وهو بالوقت نفسه صديق لك فلا يجعلني ذلك ان اغيّر اوامري

– كما تشاء يا بولس

– فلنذهب الان الى النوم ونلتقي غداً صباحاً لاجل تناول الفطور واضاف قائلاً . واذا كنت تضطر ان تسافر في الحال فانني مستعد ان ادعو بعض الجنود ليرافقوك الى يافا

– اجابه مرسيلوس : كلّا لست مضطراً الى السفر بل انني عازم على البقاء في فلسطين ريثما يُتاح لي الوقوف على كل ما اريد معرفته عن رجوع الجليلي الى حياته بعد مماته

– وكيف يمكنك ان تصل الى ضالتك المنشودة ؟ ربما باختلاطك مع بعض الصيادين . أليس كذلك ؟

– نعم هذه هي الطريقة الاولى اما الطريقة الثانية فهي التحدّث في هذا الموضوع مع بعض القادة

– لكنهم ليسوا هنا في الاوان الحاضر بل في اورشليم

– سأذهب إذَنْ الى اورشليم

فتنبأ بولس قائلاً : اذا سافرت صباحاً الى اورشليم فانك تصل لا محالة في وقت تراهم فيه جميعهم رهيني السجن . ثم صفق بيديه فأقبل الحارس . فامره ان يدل القاضي على غرفة منامته . ثم حياه وذهب كلٌّ منهما الى فراشه بعد ان اتفقا على اللقاء في صباح اليوم الثاني لتناول طعام الفطور معاً

الفصل التاسع عشر

دخلا اورشليم قبل ساعتين من غروب الشمس ولم يعترض لهما احد ولا سأل الحراس مرسيلوس عن اسمه مما دلّ على ان المدينة لم تكن متحذرة من شيء.

وقد استغرق سفرهما من كفرناحوم اليها مدة ثلاث ساعات فقط لانهما استيقظا قبل الفجر وسارا بثبات في طريقهما فضلاً عن انهما كانا يستظلان في الاودية مرة بعد اخرى من حرارة الشمس المحرقة . وكان مرسيلوس ينتظر حسب تحذير بولس له ان يرى على قارعة الطريق جنوداً متعجرفين او اناساً حذرين خائفين . فوجد تحذيره في غير محله لان الطريق كانت هادئة والسكان يقومون كعادتهم باشغالهم اليومية .

اما مسألة القبض عليهم سواء أكانت حقيقية ام غير حقيقية فما تزال خفية

لم يحدث اقل حادث عند تشييعهما حين سفرهما من كفرناحوم فقد ذهبا الى الخيمة ولما لم يجدا يستوس هناك اراد مرسيلوس ان يتبعه ليريح باله غير انه عمل بموجب نصيحة بولس الذي اشار عليه الأ يظهر نفسه انه صديق للمسيحيين كي لا يضرّهم .

وبعد ان قطعا مسافة خمسة اميال من قانا قال مرسيلوس لديمتريوس اخبرني الان كل ما تعرفه عن ظهور يسوع الى الحياة ثانية . فسرّ ديمتريوس بذلك لانه لم يكن يشك البتة في رواية القيامة . وبعد ان رواها له مفصلة قال له مرسيلوس ولكن هذا غير ممكن

– اجابه ديمتريوس انني اقول قولك يا سيدي ومع ذلك فانني اؤمن بها

– كيف تقول قولي : انه غير ممكن ثم تعترف بايمانك بها . ان هذا لغو

وهذيان

– ليس هذا الكلام هذياناً لان القصة حقيقية لا ريب فيها

واذ وجد مرسيلوس ان هذا الحديث لا يقنعه حيا وذهب الى فراشه متناعساً

وفي اليوم الثاني والثالث اصرّ ديمتريوس ان يسوع حيّ وان عشرين شخصاً من اصدقائه شاهدوه في احوال مختلفة . عند ذلك تراءى لمرسيلوس ان خادمه قد اضاع رشده ثم استأنف ديمتريوس حديثه فقال له : حقاً اني انا متعجب من نفسي ولما تلفظ بهذه العبارة شعر مرسيلوس انه ظلمه بسؤ ظنه فيه فدنا منه قائلاً ، مؤنباً ذاته : سامحني يا ديمتريوس فانني لم اتروَّ في حكمي عليك

– انني عرفت هذا حق المعرفة يا سيدي لانني وقعت في الحيرة نفسها ساعات عديدة بل اياماً مديدة لانه يتعذّر على الانسان العاقل ان يصدّق شيئاً لا يتصوّره العقل

قال مرسيلوس : لنفرض ان له قوة الهية فماذا كان يمنعه لو تقدّم من الامبراطور طيباريوس وطالبه بالعرش

– هو لا يريد هذا الامر فلو كان يريده او يهمه لطالب بعرش طيباريوس من قبل لكنه يجب ان يتخذ له السلطة من طريق اخرى مبتدئـاً من تجنيده الشعب البسيط المملوء قلبه رحمة ومحبة لا الاغنياء الجبناء المتغطرسين الذين آلهتهم بطونهم

– يَهْ . يَهْ . اتعني جماعة الصيادين البسطاء الذين لم يكن لاكثرهم جسارة على ان يقتربوا منه حين محاكمته بل تركوه يذهب ساعة الموت وحده

اجاب ديمتريوس : نعم هذا حقيقي لانهم لم يعرفوا قبلاً انه يستطيع التغلب على الموت

– ولكن قوة تغلبه على الموت لا تجعل حياتهم في مأمن اكثر من قبل

– نعم يا سيدي . ولكن تغلبه هذا لم يكن لذاته فقط بل لكل الذين يؤمنون به حسب وعده السابق لهم

– هل يظن هؤلاء الصيادون انهم سيعيشون الى الابد ؟

اجاب ديمتريوس : نعم سيعيشون معهُ الى الابد اذا آمنوا به ايماناً حقيقياً فاذا اعتبر الانسان نفسه انه اقوى من الموت فليس له ما يخاف منه

– اذاً لماذا هم مختبئون ؟

– لان لديهم عملاً يقومون به فلا يخاطرون بحياتهم . وهو ان يخبروا قصة يسوع لكل مَن يستطيعون بسطها لهم مع علمهم انهم سيُقتلون يوماً وانهم سيحيون في مكان آخر مع حبيبهم يسوع

– هل تصدق هذا الهذيان يا ديمتريوس ؟

اجاب ديمتريوس ليس بالامر السهل تصديق ما بسطته لك يا سيدي انما يجب ان لا يُستخفّ به . ألسنا محاطين بامور لا نستطيع ادراكها انظر الى تلك الزهور المكللة رأس التلة . فهل بامكاننا ان ندرك كيفية نموها وتلوّن اشكالها وحقيقتها ظاهرة للعيان . كذلك تلاميذ يسوع يؤمنون به انه سيحكم العالم نظراً الى ما تضمنت تعاليمه السامية من حضّ الناس على الاعمال الصالحة ونبذ الشرور والمخاصمات فكل مَنْ يؤمن به ويحفظ تعاليمه هذه له رجاء وطيد بانه يعيش الى الابد

لنضرب لك مثلاً الامبراطور طيباريوس الذي يحكم العالم بالقوة فان الوفاً من الناس يخسرون حياتهم بمرافقتهم له في هذا النوع الشاذّ من الحكم . لما زحف جرمانيكوس على اوكتانيا وعد قواده ان يمنحهم اموالاً كثيرة وعبيداً اذا هم تبعوه واطاعوه مجازفين بحياتهم . فكان ان هلك كثيرون منهم ولم يقدر احد ان يُظهر جرأته ويقاومه

اما يسوع فانه وعد بالحياة الابدية كل مَنْ يتبعه ويطيعه في جهاده بجنح السلام للعالم كافة . لذلك تلاميذه يتبعونه ويطيعونه . وايمانهم به ليس هيناً كما انه ليس هذياناً .

وان هذا الايمان لا يُعتبر بمثابة صك لعقار يملكه الانسان بل هو كاحدى الآلات التي يبني فيها الانسان بيتاً له . وان قيمة تلك الآلة قائمة في استخدامه اياها فان هو ألقاها جانباً ولم يشتغل بها فلا يكون لها قيمة ولا قدر

* * * *

كان وصول ديمتريوس الى مصنع بن يوسف بعد غياب الشمس . لان وصولها مع القافلة التي اقلّت حاجيات السفر والمنسوجات الجليلية الى النزل الذي نزل فيه مرسيلوس عند زيارته الاولى لاورشليم استغرق وقتاً طويلاً . فبعد ان تمم ديمتريوس كل حاجات سيده ورتب اغراضه توجّه الى المصنع لعلّهُ يصادف فيه استفانوس فوجد الباب موصداً فقصد الى الباب الثاني وقرعه فلم يجبهُ احد وقد عجب من ذلك لان سارة الشيخة ما اعتادت ان تغادر ذلك المحل خصوصاً في وقت العشاء

ثم توّجه نحو البيت القديم الذي كان يقطنه هو واستفانوس فوجد بابه مغلقاً ايضاً . فتابع طريقه نحو بيت شاب يدعى يوحنا مرقس كان يسكن فيه هو ووالدته وابنة عمهِ تسمّى رودا فوجدها توصد الباب وتتأهب للذهاب حاملة بيدها سلّة ملآنة . فحيته بحرارة وقد لاحظ ديمتريوس انها اصبحت جميلة للغاية

فسألها : اين الجماعة ؟ بعد ان اخبرها انه وجد ابواب مساكنهم جميعها موصدة

اجابته رودا بعد ان سلمتهُ السلة : اننا نتناول العشاء معاً فتعال وتعشَّ معنا .

— مَن يتعشى معاً ؟

— فانبأته ان سمعان أسس هذا المشروع منذ عدة اسابيع لاجل المسيحيين فان البعض يأتون بالطعام والجميع يشاركونهم

ثم سألها ديمتريوس : وكيف حال استفانوس ؟

اجابته تعال معي لكي ترى حالهُ

ثم حدّق اليها نظره وقال : ان هاتين الوجنتين الحمراوين تنبآنني بأن قد حدث

امرٌ مهم في مدة غيابي فمن صميم قلبي اهنئكما • وعسى ان يكون لي متسع من الوقت لكي احوك لكِ غطاء لمائدتكِ

اجابته شاكرة ارجو ان يكون الغطاء صغيراً

فوعدها انه في الصباح الآتي يقترض منوالاً ويبتدئ بحياكته اذا كان سيده يُعطيه فرصة كافية

ثم سألها عن عدد الاشخاص الذين يتناولون طعام العشاء معاً

اجابته : انه ليأخذك العجب اذا عرفت انهم اكثر من ثلاثمائة شخص لان كثيرين منهم باعوا املاكهم واتوا ليسكنوا هنا • وليس سوى مئة منهم يتناولون طعامهم في (الاكليزيا) المركز العام

— هذه كلمة يونانية واكثركم يهود تتكلمون اللغة العبرية • فكيف تسمون مركزكم العام (اكليزيا) ؟

— اجابتهُ : قال استفانوس انه اسم ملائم لاجتماع كهذا ومع ذلك كله فان ثلث المسيحيين هم يونان

— حسن ان نرى اليهود واليونان متحدين كأسرة كبيرة سعيدة

— نعم انهم كأُسرة كبيرة واكثر اعضائها غُيُر اصحاب مروءة ولكن من دواعي الاسف ان بينهم مَن يزرع الفساد والشقاق

قال ديمتريوس : لا اظن ان هذا المشروع ينجح كثيراً اذا كان بينهم مخاصمات لان قادتهم يطلبون الصلاح والاصلاح والسلام

— هذا الذي قاله استفانوس وهو يائس اشدّ اليأس بحيث يعتقد ان هذا المشروع الذي يجعل المسيحيين يسكنون معاً انما هو خطأ محض حتى ان امل سمعان الذي كان يراه وطيداً في الاكليزيا ضعف وخاب • وقد كان منه ان ألقي عظةً ليلة امس بعد العشاء وذكرنا فيها بكلام يسوع الذي يحضُّنا على وجوب محبة بعضنا لبعض من حيث كلنا اولاد الله بصرف النظر عن اختلاف الاجناس

اما سمعان هذا فان الجميع يحبونه ويحترمونه ويأتون بمرضاهم الى الطرقات التي يمرّ فيها لكي يلمسهم . وكذلك يقفون له امام النوافذ والابواب ليكلمهم .
واليك تعلم ايضاً مقدار محبتهم لاستفانوس فأظن انه سيكون قائدهم بلا شك اذا حدث لسمعان امرٌ ما .

وبعد ان قالت هذا مضت به الى غرفة كبيرة نورها خفيف وهي خالية من الاثاث . وقد اصطفَّ حول مائدتها الواسعة كثير من الرجال والنساء والاولاد . فلما رآه استفانوس اقترب اليه وحياه تحية الصديق المخلص

ثم سأله استفانوس ما لي اراك ضعيفاً وما هذا الجرح الذي في يدك ؟ ارجو انك لم تقابل احداً لانك تعلم ان المسيحيين لا يقاتلون ولما ابتسم ديمتريوس قال له : تعال معي لان سمعان يريد ان يراك . وقاده بيده الى حيث كان سمعان منتظراً

* * * *

هذا وقد عاد كلٌّ من اليونانيَّين وروداً ووالدة مرقس وابنها الى بيته وظل استفانوس وديمتريوس وحدهما فسأل الاول الثاني : هل اعجبتك الاكليزيا ؟

— انني لا اعرف شيئاً من امرها سوى ان الناس يأتون ليأكلوا ويشربوا كما تعرف انت

— ليس كل الحاضرين غيُراً كسمعان فلو كانوا مثله لغدتْ سلطتنا عظيمة في وقت قصير لانه اراد في اول الامر ان يكون لديه اناس يضحّون باوقاتهم للقيام بهذا العمل . وقد جاهر قائلاً : ان كل من يمكنه ان يبيع املاكه ويأتي بثمنها الى (الاكليزيا) تؤمَّن له معيشته . ففي الحال انتشر الخبر في طول البلد وعرضها ان الاسرة المسيحية تستطيع الحصول على معيشتها اذا التحقت بالاكليزيا وقد لبى الدعوة كثيرون وسُرَّ سمعان سروراً لا يوصف اذ رأى بان ملكوت يسوع كان يزداد قوة في كل يوم

وقد تقرر في تلك الليلة نفسها ان سمعان يبقى في اورشليم ليقوم بادارة الاكليزيا. وان كلًّا من يوحنا ويعقوب وفيلبس والفايوس ومتّى يتوجهون الى يافا وقيصرية وانطاكية ليؤسسوا مجامع للتبشير في تلك المدن

– وهكذا نمت الاكليزيا . قال ديمتريوس

نعم ، اجاب استفانوس : نمت في العدد فقط . فقد التحق بها أسر عديدة ليس لها من الاعمال سوى الصلاة والترتيل والاكل والشرب اعني انها عائشة عيشة الخمول والخنوع

– وبمَ يظن الذين يملكون عقارات ويبيعونها ليأتوا بها الى الاكليزيا ؟

اجاب استفانوس : يظنون ان لهم سطوة على الآخرين – وفي اعتقادهم انك كلما اتيت بدراهم اكثر الى الاكليزيا يصير لك الحق في فرض ارادتك . ثم ابتسم واستطرد قائلًا : وقد اتفق في هذا الصباح ان شاباً منهم خدع سمعان بشأن بيع ملكه ولما وقف على خداعه غضب غضباً شديداً كان سبباً لموته في الحال

وهذا ليس كل شيء. لان هذا العشاء اصبح عند جماعة التجار واسطة فعّالة للتعرُّف الى اناس كثيرين بحيث تنمو تجارتهم ويتسع نطاقها

– وما هو العمل الذي تهدفون اليه الآن ؟

– لقد كان المسيحيون قبل ان تأسست الاكليزيا يجتمعون في حانوت بن يوسف يقومون باشغالهم بامانة ويحرّضون بعضهم بعضاً على العمل في سبيل يسوع . وكان سمعان يخطب فيهم ليلاً بهذا الموضوع ويجدّد جهودهم . اما الآن فقد ابتدأ يرجو من الشعب ان يضاعفوا عطاياهم . وقد لاحظتَ ذلك من موعظته التي سمعتها هذه الليلة . وكأنه لم يكن هو نفسه الذي كان يضرم نار الحماسة والغيرة في قلوب الرجال الذين كانوا يجتمعون ليجددوا معاهداتهم لاجل مسيحهم . ثم استطرد متأثراً : أمن اجل هذا تألم يسوع على الصليب ومات وقام ؟

ولما حصلت مشاجرة منذ اسبوعين بين اليهود واليونان انتخب سمعان سبعة منا

ليراقبوا الطعام والكسوة. بيد انني اشعر يا ديمتريوس ان اعمال يسوع العظيمة القيمة صادرة عن عاطفة علوية سامية غير دنيوية

فسأله ديمتريوس : وماذا تنوي ان تعمل ؟

— قد قررت منذ هذه الليلة ان لا اذهب الى هناك

— هل بلغك ان القائد جوليان سيأمر الجند ان يهجموا على الاكليزيا كما افهمني سيدي ؟

— لو ان جوليان ينتظر قليلاً لكانت الاكليزيا تسقط من نفسها وتكفيه مؤونة التعب

سأل استفانوس ديمتريوس كيف شعور سيدك نحو يسوع بعد ان زار الجليل ؟

— اشعر انه متأثر للغاية ولا سيا بما يتعلق بقيامة يسوع على انه في الوقت نفسه يعتبره اعظم رجل عاش الى الان . ويروق سيدي ان يتحدث واياك عنه . وقد تأثر كثيراً لما طلبت اليه رؤية الرداء

— أتظن انه يسمح لي برؤيته ثانية ؟

لقد كنت في الليلة التي سألت رؤيته فيها يائساً جداً ولكنني حينما لمسته شعرت بشيء في داخلي يصعب عليّ ايضاحه فقال له ديمتريوس دعنا نذهب الان الى النزل فانه يودّ ان يكلمك

— أمزمع انت ان تخبره عن الاكليزيا ؟

— لا بُدّ لي من ذلك . ان مرسيلوس يوشك ان يُصبح مسيحياً نظراً لشغفه بقصة يسوع . ومتى اتخذ المسيحية ديناً له عندئذٍ يجب ان تتأكد انه اصبح شجاعاً لا يهاب شيئاً . غير انه يجب علينا في الوقت نفسه ان لا نعرّضه لامور تشمئز منها نفسه . فاذا عرف ان بين الجماعة أناساً كسالى يميلون الى المخاصمات فربما يرفض مرافقتهم

اجاب استفانوس هذا كلام قاس يا صديقي

— لا يسرني ان اقول لك ذلك . ولكن لان سيدي وان كان قد وُلد وثنياً غير انه مدقق كثيراً في انتقاء رفقائه

* * * *

وجد استفانوس وديمتريوس مرسيلوس وحده مكباً على القراءة ولما التفت نحوهما اظهر اهتمامه برأى احدهما استفانوس فاعتذر الآخر عن مجيئه باكراً فقال له مرسيلوس انني ارغب جداً في رؤيتك فاجلس واخبرني عن الاجتماع . ولا شك عندي انه اجتماع حسن ومفيد

— هل توفقت في سفرك في الجليل ؟

اجابه مرسيلوس انها سفرة جميلة ولكنها جعلتني في حيرة . وكان يستوس الصالح دليلي . وقد سمعت روايات غريبة يصعب علي تصديقها وتكذيبها في وقت واحد

وقد اعجبني تمثاليل برثلماوس كثيراً

قال ديمتريوس اظن ان استفانوس يرغب في ان يرى الرداء يا سيدي

قال مرسيلوس : بكل سرور . احضره الى هنا يا ديمتريوس

وبعد بضع دقائق عاد ديمتريوس بالرداء ووضعه بين يدي استفانوس فاخذ هذا يلمسه بتؤدة . وارتجفت شفتاه

فقال له مرسيلوس اتريد ان تبقى وحدك قليلاً بينما اذهب انا وديمتريوس خارجاً ؟ فلم يسمع ولم يجب على السؤال بل جمع الرداء بين يديه والتفت نحوهما وقال : هذا رداء سيدي يسوع الذي كان عليه حينما شفى المرضى . ولما خاطب الجمهور وعندما ذهب الى مكان الصلب ليموت فداء عني انا الحائك الوضيع وعنك ايها القاضي المثري وعنك ايضاً ايها العبد

فاتكأ مرسيلوس على كرسيه ونظر الى استفانوس مأخوذاً لانه خرج عن تحفظه

وصرّح بايمانه بكل حرارة واخلاص

فاستطرد استفانوس قائلاً : انتَ انتَ يا مرسيلوس القاضي قتلت سيدي يسوع

فقال له ديمتريوس ارجو منك يا استفانوس ارجو منك

فمدّ مرسيلوس يده الى خادمه محذراً ثم التفت الى استفانوس وقال له : تمم ما كنت تقوله يا استفانوس

فقال : وقد سامحك لانك لم تعلم مـاذا كنت تعمل وانت حزين نادم على عملك هذا . اما رؤساء الهيكل والولاية فانهم اهلكوه عالمين ما كانوا يعملون ومع هذا ليسوا حزانى نظيرك . ثم وقف واقترب منه وهو وقف مثله ايضاً وقال له انت ايها القاضي تقدر ان تصلح ما فعلته وقد غفر لك حينما كنت انا هناك وسمعت باذنيّ عبارة غفرانه فما عليك الآ ان تتخذه صديقاً لك وهو حيّ لانني شاهدته بامّ عيني

وبعد ان استرجع ديمتريوس الرداء منه عادا وجلسا في مكانيهما فقال استفانوس سامحني يا سيدي على كلامي معك بجرية كهذه

– لا تلم نفسك يا استفانوس لانك لم تسيء اليَّ قط

فحدث بعد ذلك سكوت تامّ اخيراً نهض استفانوس وقال لقد وافى المساء فيجب ان نذهب . فمدّ له مرسيلوس يده وخاطبه قـائلاً : لقد سررت بمجيئك فعسى ان اشاهدك مرة اخرى ثم التفت الى ديمتريوس وقال له وانت سأراك هنـا صباح غد

* * * *

نام مرسيلوس نوماً ثقيلاً بسبب ما قاسى من شدة التعب في سفره نهاراً على الاقدام . غير انه قبل بزوغ الفجر بقليل استيقظ من نومه عقيب صراخ عظيم واصدار اوامر مشدّدة ولطمات عنيفة . ولا غرابة بذلك فقد كان يحدث احياناً في

نزل كهذا ان يُجلد عبد تعس مسكين بالسياط لاجل ذنب اقترفه فيسمع صراخه الشديد من بعيد . ولكن هذا الاجتماع البربري الذي تبيّن انه واقع في الدار السفلى جعل الانسان يشعر ان البناية كلها مسرح للوحوش البشرية

فنهض مرسيلوس من سريره وفتح نافذته وتطلّع في الجموع المحتشدة تحت غرفته فعرف حالاً سبب هذا الصراخ . اذ شاهد اثني عشر جندياً مدججين بالسلاح الكامل بعضهم يجمع العبيد الى زاوية في الدار والبعض الآخر يطرد الذين في داخل النزل. فلم تكن تسمع سوى لطمات واحتجاجات ومشاجرات وشظيات تُلقى على الابواب . ثم رأيت شيخاً يسقط فاقتربت منه ابنة وحملته الى بيتهـا وهي تبكي .

اخيراً سُمع وقع خطوات على السُّلَّم ثم فُتح باب مرسيلوس وسُمع صوت يسأله مَنْ انت ؟

اجاب مرسيلوس بكل رصانة وهدوء انني من الجنسية الرومانية. غير انه يجدر بك عند دخولك غرفة قاضي روماني ان تُظهر اخلاقاً كريمة

اجاب الجندي ليس عندنا اخلاق كريمة اليوم فاننا نفتش عن المسيحيين

— اصحيح ما تقول ؟ وهل يظن القائد جوليان ان هذا الشعب المسكين ذو اهمية كبيرة حتى فوّضكم بالقيام بهذه الجلبة عند بزوغ الفجر ؟

اجاب الجندي — نحن ما علينا الا الطاعة يا سيدي لان القائد جوليان لا يطلعنا على نياته مطلقاً . وبناء على ذلك فاننا نتابع التفتيش الآن عن كل المسيحيين . وبما انك انت غير مسيحي فارجو المعذرة لانني ازعجتك. ثم ادار ظهره وسار في طريقه

فناداه مرسيلوس قائلاً : عُدْ اليَّ قليلاً . ولما عاد اليه سأله : مَن انبأك اني غير مسيحي . ألا يمكن ان يصبح قاضٍ روماني مسيحياً ؟

اجابه الجندي : ليس الوقت وقت مزاح فاعذرني يا سيدي

ثم حيّاه برفع رمحه الى رأسه وتوارى عن العيان

ولما هدأت تلك الضجة وقف قائد المئة المديد القامة والجميل الصورة ودعا الى السكوت ثم اخرج مرسوماً وفضّه وقرأ ما يأتي بصوت متعجرف: لا يؤذن للمجدفين الذين يدعون انفسهم مسيحيين ان يجتمعوا بعد الآن ولا ان يذكر احد سراً او علانية اسم يسوع الجليلي الذي وُجد مجرماً وخائناً ومجدّفاً ومعكراً صفو السلام في اورشليم . ويجب ان يُعتبر هذا الاعلان الاول والاخير . واذا خالف احد منهم هذه الاوامر فعقابه الموت لا محالة

ثم طوى القائد الرسالة واعطى امره فتبعه الجند . ولما رأى مرسيلوس ان الدار امست خالية من الناس اغلق نافذته وغمغم قائلاً : واهاً لجوليان الشيخ الشجاع . ويا لها من امبراطورية رومانية باسلة

ثم ارتدى ثيابه ونزل من غرفته فلاقاه لاوي وقال له : ارجو ان لا تكون قد انزعجت في هذا الصباح . أتريد ان أعدَّ لك فطورك ؟ فاشار اليه مرسيلوس بالايجاب

فقال لاوي : الان نستريح قليلاً من هؤلاء المسيحيين . وقد اراد بقوله هذا ان يظهر لضيفه انه مخلص للولاية

فسأله مرسيلوس هل ازعجك هؤلاء المسيحيون ؟

– ألا يكفي ان الولاية غير راضية عنهم

– ليس هذا سوآلي . انما اسألك هل يسرق هؤلاء المسيحيون او يكذبون او يتعدون على احد . هل يسكرون ؟ اخبرني ما هي هوية هذا الشعب

– الحقيقة يا سيدي ليس لي ما اتذمر منهم . فانهم شعب هادىء . امين محب السلام ولكن الولاية اعلنت انهم مجدّفون

– على مَنْ يجدّف هذا الشعب ؟

– انهم لا يحترمون رؤساء الهيكل

– كيف يحترمونهم وهم لا يحترمون انفسهم

قال لاوي يجب ان يحترموا ديانة شعبنا

فلم يُجب مرسيلوس على هذه الملاحظة بل خرج الى حيث كانت الفتاة التي قُتل والدها صباح ذلك النهار تبكي وهي تُعدّ له فطوره

فسألها مرسيلوس : ما هي القرابة التي بين ذلك الشيخ وبينك ؟ فلم تجب بل اسرعت الى المطبخ لكي تأتي له بفطوره

فلما اقترب لاوي من المائدة سأله مرسيلوس السوال نفسه

فاجابه لاوي على الفور انه والدها

فقال له : كيف تدعها تخدم وقد قُتل والدها

فهزّ لاوي كتفيه وقال : ماذا يهمني . هذا شغلها اليومي

فقال له مرسيلوس : تدّعي انك ديّن يا لاوي ولا اراك تشعر البتة مع هذه الابنة الحزينة . تبًا لك من وغد . قال هذا وترك فطوره واتجه نحو الباب

فقال له لاوي : ارجو منك الصفح يا سيدي عمّا ازعجت خاطرك به وها انني مستعدّ ان اخدمك بذاتي

فعاد مرسيلوس الى فطوره لكنه خشي ان يقتص لاوي بعدئذٍ من الابنة التي سببت له هذا التعب الجديد

* * * *

استيقظ ديمتريوس باكراً وقصد الذهاب الى الاكليزيا قبل التوجه الى النزل وقد حاول جهده بما امكنه من الهدوء ان يلبس ثيابه بدون ان يوقظ استفانوس الذي كان قد قضى ليلة مزعجة . غير ان استفانوس استيقظ مع كل تحفظ ديمتريوس من ازعاجه . عندئذٍ قال له هذا ساقابلك مساء اليوم هنا

لا اجاب استفانوس لا ليس هنا بل في الاكليزيا

– لقد قلت لي قبلاً انك لا تودّ الذهاب الى هناك فيما بعد

– ولكنني لا استطيع ان اترك سمعان وحده لان سائر التلاميذ ذهبوا في مهمات الى بلدان متعددة

وبعد ان خرج ديمتريوس من البيت سار تواً الى الاكليزيا راجياً ان يرى سمعان ويفضي اليه كلاماً سرياً . وكانت الحركة قد بدأت هناك لان النساء كنَّ يهيئنَ الاطعمة والرجال يعدّون الموائد لتناول فطور الصباح . وقد سأل حين وصوله عن سمعان فقيل له انه واقف بقرب نافذة يقرأ درجاً عتيقاً . واذا نظرت الى سمعان فانك ترى العظمة متجسمة في شخصه الكبير . فضلاً عما له من قوة فائقة وهيئة جذابة ولهذا كان قائداً حقيقياً . وقد حقَّ للشعب ان يرغب اليه في وضع يده على مرضاهم حين مروره .

فاقترب منه ديمتريوس وانتظر ريثما يكمل قراءة الدرج ولما وقع نظر سمعان عليه اشار اليه بالدنو منه اكثر من ذلك فدنا حالاً وخاطبه قائلاً : ان سيدي مرسيلوس غاليو يُحبّ كثيراً الاجتماع بك في الوقت الذي يُتاح لك

فسأله سمعان قائلاً : أليس هو الذي ذهب الى الجليل مع يستوس للبحث عن نسيج ما ؟

اجاب ديمتريوس نعم وقد عاد بكميات كبيرة منه

– ان سيدي قد اهتمّ كثيراً بشأن سيرة يسوع

– كانت هذه غايته قبل ان يتوجه الى هناك أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي هذا كان قصده الخاص ويهمه ان يواصل البحث عن الجليلي في اي مكان كان . أتريد ان اخبره انك تستطيع الاجتماع به سراً

– نعم استطيع ذلك بعد ظهر الغد بقليل بحيث يجدني قرب الحقل الذي تُلقى فيه اقذار المدينة في الجهة الشمالية من المكان الذي يسمّى (الجلجثة) وهناك زقاق يؤدي من الحقل الى تلة عالية

قال ديمتريوس انني اعرف المكان يا سيدي

– اذاً دله عليه دلالة كافية لكي ياتي الي وحده . وبعد ان قال هذا دنا من المائدة فوقف الجميع حالاً فتلا بصوت جهير ما يأتي :

« الشعب السالك في الظلمة ابصر نوراً عظياً والجالسون في ظلال الموت اشرق عليهم نور . لانه يولد لنا ولد ونُعطى ابناً وتكون الرئاسة على كتفه »

وما ان اكمل هذه العبارة حتى فُتح الباب ودخلت فرقة من الجنود يتقدّمهم قائد مئة فارتعدت فرائص الحاضرين ولاصقوا جدران المكان وغدت وجوههم صفراء كالاموات . اما ديمتريوس فانه ظلّ واقفاً تجاه النافذة ينظر الى ما يجري . ثم امر القائد بصوتٍ عالٍ ان يلازم الجنود مكانهم وتقدّم هو نحو سمعان ونظر اليه مكشراً . وكان كل واحد منهما مساوياً للآخر في طول القامة

فسأله القائد أ انت الرجل عينه الذي يدعونه الصياد ؟

فاجابه بجسارة نعم انا هو . غير اني احب ان اسألك : ما معنى حضورك الى هنا وتفريقك بين جماعة وادعة مسالمة . هل اقترف احدٌ منا ذنباً يا تُرى ؟ فاذا كان ذلك فليحاكم

اجاب قائد المئة اذا كنت تودُّ ان تُحاكم بدعوى التجديف وبخيانة فالوالي مستعد ان يسمع اعتراضك . قال هذا وامر الجند ان يسوقه الى الوالي

فالتفت سمعان الى ورائه وخاطب شعبه البائس قائلاً : لا تخافوا ولا تقاوموا ساعود اليكم

– قال له القائد : ولكنك لن تعود اليهم . ثم اصدر امره بسوقه في الحال . فاقترب منه جنديان قويان وامسكاه بيديه وسارا به نحو الباب . فسارت جماعته نحو الجمهور الذي كان خارجاً يراقب ما يجري فاذا بالقائد يأمر الجمع بالسكوت وقرأ نص القرار الآتي :

« ان الوالي يمنع المجدّفين الذين يدعون انفسهم مسيحيين ألاّ يجتمعوا هنا فيما بعد . ويجب ان يخلى المكان حالاً واذا وُجد احد فيه فجزاؤه السجن لا محالة . وكذلك مَن يذكر اسم يسوع ذلك الخائن المجدّف » . ولما رأى الجمع في حالة الاضطراب صاح فيهم قائلاً : اذهبوا حالاً الى بيوتكم ولا تتوقعوا ان تشاهدوا صيادكم يرجع اليكم كما وعدكم

اما ديمتريوس فعاد بحذر الى نزل سيده فقال له لاوي : ليس سيدك هنـــا . فاستأذن وصعد السلّم ليعرف اذا كان سيده ترك له في غرفته اشارة ما تنبئه بمحل اقامته . فشاهد الابنة ترتب الغرفة ولما سألها عن سيده اجابته : انها لا تعلم شيئاً من امره . غير انها اعلمته بكل ما حدث في هذا الصباح من الامور المزعجة . فوقف بإزاء النافذة يفكر في شأن سيده وشعوره . ثم حانت منه التفاتة الى حيث كانت الابنة فرآها تنظر اليه . عندئذٍ دنت منه وسألته . هل انت واحد منا فاجابهـــا ديمتريوس بالايجاب

– ارى من الموافق لك ألاّ تخرج اليوم الى السوق بل تبقى في المطبخ فاتول حالاً اليه

– هذا رأي يوافقني كل الموافقة لانني جائع . على انه بعد تناوله فطوره سار الى دار الولاية وانتظر سيده ريثما يخرج من هناك لانه اعتقد انه ذهب ليكلم جوليان بشأن المسيحيين

* * * *

بعد ان اكمل مرسيلوس فطوره الذي قدّمه له لاوي على رغمه اخذ يشكّ في مصير حالة ديمتريوس الذي كان يتوقع مجيئه باكراً . وقد خشي من ان يكون وقع في ضيقةٍ ما . فعزم على التوجه الى محل اقامة استفانوس لكي يستعلم عنه . ولما كان يجهل ذلك المكان رأى ان يذهب توّاً الى مصنع بن يوسف حيث يجد مَن

يدله عليه . ثم ناجى نفسه قائلاً : لا شك ان المصنع يكون مقفلاً لان رجال الولاية عرفوا ان تلاميذ يسوع يعقدون جلساتهم فيه . واذا كان قد قُبض على ديمتريوس في استطاعتي ان اطلق سبيله بعد ان تهدأ الاحوال

ثم خرج الى السوق وفيما هو سائر شاهد جمهوراً مجتمعاً بالقرب من مصنع بن يوسف المذكور فرأى ان يُسرع في السير ليشهد ما يجري ولما وصل الى هنالك وجد صفاً من الجند واقفاً ومدججاً بالسلاح استعداداً للطوارى.

وكان استفانوس في وسط الجمهور وهو مكشوف الراس ولابس ثياب الشغل العادية وان الشعب اخرجه من محل شغله في ذلك الحين لكي يطرحوا عليه بعض اسئلة وهم واجمون ينتظرون ان يسمعوا من فيه ما يجيبهم عليها لكي يحتجوا عليه واذ كان مرسيلوس اطول الحاضرين قامةً تمكَّن من تمييز كل فرد منهم . فوجد ان اكثرهم من التجار المعروفين وبينهم عدد قليل من الكهنة

لم يكن استفانوس يتأنق في كلامه شأن الخطباء بل كان واقفاً بشجاعة في الدائرة التي احاطوه بها بغير خوف ولا رهبة يسترعي سمعهم لكي يعوا ما سيقوله لهم في خطابه

وكان جُلّ الخطاب موجهاً الى قادة اورشليم الذين حسب قوله لم يشاؤوا ان يعترفوا بالدواء الذي يشفي مصائب المدينة

فقال بجسارة : قد اعتبرتم انفسكم انكم الشعب المختار وقد احتمل اسلافكم الذلّ من عبودية الى اخرى منتظرين مجيء مخلص ولم تصغوا الى مرشديكم الذين كانوا يأتونكم بكلام الحكمة . وكم من قواد عظام قاموا من بين شعبكم فكنتم تقاومونهم وتشتمونهم انتم انفسكم وليس فقراءكم . قولوا لي مَن من الانبياء لم يضطهدهُ اباؤكم وقد اصبحتم انتم مثلهم مسلِمي وقاتلي القدوس البارّ

واذ ذاك علا صوت من بين الجمع يقول : ايها المجدّف

لم يعر استفانوس هذه العبارة اهتمامه بل تابع كلامه وهو يشير بيده اليهم · انتم الذين تدَّعون انكم اخذتم ناموسكم عن يد الملائكة · كيف حفظتموه ؟ ولما تلفَّظ بهذه الجملة رماه احدهم بحجر فاصاب وجهه وما كاد يرفع يده ليمسح دمه حتى اصابه حجر ثانٍ في كوعه · فارتفع عندئذٍ صراخ الجمهور وظنَّ مرسيلوس انهم يعترضون على هذه المعاملة غير الشرعية ولكن كان صراخهم اعتراضاً على خطابه . ثم اصابه حجرٌ ثالث في وجهه ايضاً عندئذٍ خاف الجنود على انفسهم من ان يصابوا باذى فتحصنوا بالجدار والسياج . اما استفانوس فغطى رأسه بيديه وابتعد قليلاً عن الجمع الهائج ولكنَّ رجم الحجارة ظل مستمراً

اخيراً اصدر القائد امره فاقبلت الجنود واخذت تعمل الضرب في تلك الجماهير شمالاً ويميناً واحاطت بالدائرة ولكن الحجارة استمرَّت تتساقط بسرعة زائدة . وقد استدرك مرسيلوس ان الذين كانوا يلقون الحجارة كانوا خبيرين في القائها مدفوعين من ذوي السلطة والنفوذ

ولما سقط استفانوس على ركبتيه وذراعيه صرخ الجمهور صراخ الانتقام فكان من صياحهم ان اتفق على رجمه كثيرون من الشبان ليظهروا استعدادهم في الاشتراك بالجريمة . وقد امسى استفانوس بعد ذلك كتلة من اللحم والعظام الممزوجة بالدم . ولقد كاد يتفطَّر قلب مرسيلوس عليه حزناً وأسفاً غير انه لم يستطع ان يفعل شيئاً فلو كان القائد جوليان في دار الولاية لكان طلب مساعدته

ثم بدا امامه فجأة شاب قصير القامة حاملاً كتبه وعلى راسه طاقية ذات شرابة مما دلَّ على كونه تلميذاً فكان يسرهُ ان يرى الحجارة تُلقى على جثة استفانوس · وقد عجب مرسيلوس كيف ان تلميذاً مثقفاً يتهلَّل وجههُ من هذا الفعل المنكر

ثم اقبل رجل بدين الجسم فخلع رداءه ودفعه الى الشاب المشار اليه · ثم وَفَد غيره من رجال السلطة والنفوذ واعطاه ايضاً رداءه فتحمسا معاً واخذا يرشقان تلك الجثة حجراً بعد آخر بدون ان يعلما ان الضرب بالميت حرام ·

حينئذٍ اقترب مرسيلوس من الفتى القصير القامة وسأله : أتقدر ان تقول لي بماذا اساء اليك انت ؟

فاجابه بوقاحة هو خائن ومجدِّف . وكان هذا الفتى خبيثاً لكنه لم يكن احمق وكانت هيئته معروفة لا تنسى

— كيف تقارن بين التجديف والقتل ؟ وبما انك تلميذ مثقَّف فيجب عليك ان تعرف ذلك

— تعال غداً الى المدرسة الربانية فاني مستعد ان أبين لك ما ينطوي عليه سؤالك . ومتى وصلت اليها اسأل عن شاول الطرسوسي فيدلوك . ثم صرَّح بجنسيته مفتخراً اني روماني مثلك يا سيدي

ثم تفرَّق قسمٌ من الجمع وبقي مرسيلوس ينظر بحزن الى تلك الجثة الهامدة المطروحة على الارض فرآها تتحرك ثم نهضت عن الارض مستندة الى مرفق واحد من مرفقيها . وما ان نهض استفانوس حتى حدث سكوت عظيم . ثم تطلَّع الى العلاء بوجهه الملطخ بالدم وعلى شفتيه ابتسامة الغبطة والارتياح . واخيراً رفع يده كأنه يمسك بها يد صديق له وصرخ صرخة المنتصر : ها اني اراه امام عينيَّ : خذني اليك يا يسوع ربي . ثم اغمض عينيه وهوى الى الارض بين الحجارة

فلما شاهد الجمع ما شاهدوا اخذتهم دهشة عظيمة وتفرَّقوا مسرعين الى منازلهم ولم يبق منهم احد سوى مرسيلوس الذي كان يسمع باذنه نبضات قلبه . وقد جفَّ فمه ، بيد انه شعر بهزَّة مسرَّة غريبة اسالت دموعه وارجفت شفتيه وطبعت عليهما ابتسامة حلوة . فالتفت الى عيني الجندي الطويل الواقف بقربه فقال له هذا : لم اشهد في حياتي امراً غريباً كهذا . فانني احلف يميناً معظَّمة انه مات لكنني اخال انه شاهد بمخيلته انساناً آتياً ليخلصه

نعم صرخ مرسيلوس فرحاً انه رأى شخصاً آتياً ليخلصه

— ربما ذلك الجليلي المائت

— ان الجليلي ليس ميتاً يا صديقي بل هو حيّ ككل منا

عندئذٍ اخذ التأثر من مرسيلوس كل مأخذ فقد غادر استفانوس جميع محبيه واصدقائه ولم يجسر احدٌ منهم ان يمسّ جثته . فجثا على ركبة واحدة امامه ورفع شعر رأسه عن محيّاه فوجده ما يزال مبتسماً

وبعد ردح من الوقت خرج بن يوسف من مصنعه وكانت عيناه محمرّتين ومنتفختين من البكاء . فاشار اليه مرسيلوس بالدنوّ اليه فتقدم نحوه محيياً ونظر الى هيئة وجه الرصينة دون ان يعرفهُ وقال له : لقد كانت ميتته عنيفة مؤلمة

اجاب مرسيلوس ان استفانوس لم يمت ولكنه ذهب الى يسوع

— ارجو منك يا سيدي ألاّ تهزأ بإيماننا . كان هذا اليوم علينا نحن المؤمنين بيسوع من اتعس الايام واشجاها

— كيف ذلك ألم يعدكم بقوله ان الذي يؤمن به لن يموت ابداً ؟

اجاب بن يوسف : بلى ولكنك انت لا تؤمن يا سيدي

فنهض مرسيلوس ووضع يده على ذراع الشيخ الضعيف وقال له : ربما يسوع لا يأتي من اجلي او من اجلك ولكنه جاء من اجل استفانوس فما عليك الان الاّ ان ترسل اليَّ شاباً لكي يساعدني على حمل جثمانه ووضعه في محلك

ولما وصلا بالجثمان الى المحل هرع الناس زرافات ووحداناً لكي يشاهدوه واخذوا ينظرون اليه والدموع تتساقط من عيونهم وقلوبهم ما تزال هالعة مضطربة

اما رودا فكان حزنها شديداً وقد عزَّ عليها العزاء . ثم التفت مرسيلوس فرأى ديمتريوس واقفاً بازائه . فامره ان يبقى هناك ليقوم بمساعدتهم

اخيراً اخذ مرسيلوس بن يوسف بيده الى زاوية من مصنعه وقال له : انني لا استطيع ان اعمل شيئاً هنا . وفي الحال اخرج من جيبه مبلغاً من النقود الذهبيَّة ودفعها اليه وقال : لي حاجة واحدة ارجو منك قضاءها وهي : ان تبلّغ يستوس

حينما ياتي الى اورشليم اني رايت استفانوس يدخل الى ملكوت يسوع واني مقتنع كل الاقتناع ان كل ما قاله لي بشأن يسوع كان حقيقياً لا ريب فيه

* * * *

واذ كان سمعان قاعداً على مقعد خشبي في حجرة السجن ليلاً ومكبلاً بالقيود خُيّل اليه ان النهار طويل لا نهاية له . وكانوا قد احضروا له عند الظهر رغيفاً من الخبز المعفن وابريقاً من الماء. فلم تكن له قابلية للاكل والشرب لان قلبه كان حزيناً .

وبعد سجنه بساعة سمع اصواتاً مختلفة من الحجرات المجاورة له تسأله عن اسمه واسباب جريمته والوقت المعين لاهلاكه . وكانوا يتكلمون بكلام قبيح بشأن موعد اعدامهم وقد نسبوا سكوته الى الخوف والجبن ولما لم يجبهم كفوا عن اهانته

اما المقعد المذكور الذي كان قاعداً عليه فكان اوسع من الكرسي بحيث جُعل للمنامة ايضاً لكن سمعان لم يستطع ان يضطجع عليه لضخامة جسمه . وكان كلما أراد ان يسند ظهره الى الجدار يشعر برطوبة زائدة لان ارض الحجرة كانت كلها رطبة والجرذان تسرح وتمرح فيها ليلاً ونهاراً . وتكاد قيوده تمزق معصميه حتى امسى في حالة سيئة يصعب على المرء احتمالها

فلو ان سمعان ترك خلفه المشروع المنوط به متمماً لكان بامكانه ان يحتمل بسهولة هذه المتاعب ولا سيما كلمة الاعدام الهائلة غير انه اخطأ في تأسيسه الاكليزيا بسرعة كهذه قبل الاوان فكان عليه ان يتركها بدون معارضة تنمو بهدوء كالخميرة في العجين حسب قول يسوع ولكنه كان عجولاً عادم الصبر

واخذ يخاطب نفسه قائلاً : ماذا يحدث لعمل يسوع والجميع قد تشتتوا واختبأوا. مَن يا ترى يكون قائدهم ؟ أفيلبس ؟ لا . انه كان شاباً قوياً ومخلصاً ولكنه لم يكن جسوراً . أيوحنا ؟ لا . أيعقوب ؟ لا . وهذان كان لهما ملء الارادة ولكن

ليس لها صوت يرتفع . اما استفانوس فيستطيع ان يتقلد القيادة غير انه ليس هنا في اورشليم فضلاً عن انه يوناني واليهود يطلبون رجلاً اسرائيلياً

فلماذا سمح السيد بهذا الامر الفظيع الهائل ؟ هل غيَّر تدبيره في ملاحقة عمله ؟ وهل اضاع ثقته في القائد الذي اختاره ؟ وقد تذكَّر سمعان ذلك اليوم الذي قال له فيه يسوع : سادعوك يا سمعان من الآن فصاعداً بطرس الصخرة . وعلى هذه الصخرة سأبني عملي . فكان منه ان اغمض عينيه عندما قارن بين ساعة السرور تلك والفشل الحالي هذا

ولما اقبل المساء جاء احد الحراس بصباحه وفتح ابواب الحجرات وتبعه آخر باحضار الطعام والماء . ولما شاهدا سمعان انه لم يأكل عادا من حيث اتيا . اخيراً شعر سمعان بنعاس فنام ملقياً كتفيه وراسه على الحائط . ولم يمض الا القليل من الوقت حتى حلم حلماً غريباً . ولكن لا يمكن ان يكون نومه حقيقياً لانه رأى نفسه مستيقظاً وقد شاهد السلاسل التي كان مكبلاً بها ملقاة على المقعد وانه رفع رجله فلم يشعر بادنى ضغط او ثقل . وانه كذلك جلس واصغى فلم يسمع الا غطيط لمسجونين ورأى كل شيء هادئاً . ولم يكن ليحلم مثل ذلك من قبل

وانه ايضاً نهض ومدَّ ذراعيه الطويلتين وخطا خطوتين او ثلاث نحو باب الحجرة ثم احتذى حذاءه واخذ يمشي في ارضها فلم يُسمع لمشيته صوت وتقدم نحو الباب الثقيل ولمسه فاذا به قد فُتح من نفسه ثم لمسه ثانية ليتأكد ذلك فوجده مفتوحاً ولم يكد يخطو خطوة بعد اخرى الى الخارج حتى استيقظ قليلاً واحسَّ ان قلبه وعروق عنقه تنبض بسرعة زائدة ولكنه عرف انه ما يزال نائماً على المقعد

ثم لمس الحائط الرطب ومشى متحذراً بحيث لا يُسمع لمشيته صوت ولما وصل الى آخر الممرّ لمح ضوءاً خفيفاً من خصاص الباب وما كاد يقترب منه حتى فُتح من نفسه . ثم مشى بضع خطوات فشاهد حارسين قاعدَين على الارض وكانا نائمين

واسلحتهما فوق ركبتيهما • فتقدم نحو الرتاج وتوقع ان يُفتح من نفسه غير انه ظل مغلقاً بهذا عرف ان منامه قد انتهى . ولكن حانت منه التفاتة الى الباب الصغير الذي ضمن الرتاج فرآه مفتوحاً فخرج منه في الحال واغلقه بهدوء . واذ ذاك رأى نفسه في الشارع فسار مسرعاً الى ان عثر في طريقه بحجر عندئذٍ افاق من نومه تماماً وعَلم عِلم اليقين ان ذلك كله لم يكن حلماً فرفع عينيه نحو السماء وفرح اشدّ الفرح لخلاصه من ذلك السجن وشكر الله على ذلك

اخيراً اسرع الى مصنع بن يوسف فألفاه مظلماً فعرّج منه على مسكن يوحنا مرقس وقرع رتاجه وبعد هنيهة فُتح الباب الصغير الذي ضمنه فشاهد الابنة رودا وما كادت تراه حتى ارتعدت فرائصها من الخوف وهربت صارخة تقول : هذا سمعان خرج من القبر

ثم عادت الى الرتاج وفتحته له وكانت عيناها منتفختين من البكاء ولكن وجهها كان مضيئاً فاحاطته بذراعيها وقالت له : قد جاء بك يسوع من القبر . فهل رايت استفانوس هناك ؟

– أمات استفانوس يا رودا ؟ فلما سمعت منه هذا السؤال سقطت عند قدميه مغمومة كاسفة البال فانهضها وعهد الى والدة مرقس بالاهتمام بها

فقال له مرقس سمعنا انهم قتلوك فاجاب سمعان : انني قد أُنقذت من السجن

ثم دخلوا ذلك المسكن حيث كان عدد عديد من المسيحيين مجتمعين فيه • فلما رأوه دُهشوا لانهم ظنوه مائتاً • وكان سمعان قد حصل على قدرة وعظمة جديدتين . واذ رفع يديه بهدوء حنا الجميع رؤوسهم فقال بطرس الصخرة : لنصلِّ

« مبارك الله الذي احيا امالنا وخفف بعنايته اثقالنا وما علينا الا ان نفرح ونغتبط لان تجربة ايماننا التي هي اثمن من الذهب تجعلنا مستحقين الكرامة عند رجوع ربنا »

* * * *

بعد ما مشى ديمتريوس ذهاباً واياباً بجوار دار الولاية نحو ساعة او اكثر عيلَ صبرهُ من الانتظار وقد اخطأ ظنهُ بان مرسيلوس يمكنهُ ان يزور جوليان ويفاوضه بشأن المسيحيين المضطهدين .

لذلك غادر مكانه وتوجّه الى مصنع بن يوسف وقد صادف في طريقه بعضاً من الجند فتحوّل منها الى طريق اخرى . ولما انتهى الى المصنع المذكور وجد فيه زهاء عشرين نفساً مجتمعين حول جثة رجل ميت . فاخذ الدهش منه كل مأخذ حين شاهد سيده مرسيلوس واقفاً في وسطهم . فجاز طريقاً له من بينهم الى ان وصل الى سيده . وشاهد ايضاً الابنة رودا جاثية بالقرب من الجثة تنوح وتنتحب ومما زاد دهشتهُ وذهوله انه رأى استفانوس الذي كان يكلمه منذ بضع ساعات جثة هامدة

فنحا مرسيلوس نحوه وقال له ساعدهم يا ديمتريوس في امر دفنه . فان بقائي هنا يزعجهم لانهم يشكون بي فها اني ذاهب الى المنزل

— فسأله ديمتريوس : هل كنت هناك حين حدث ذلك ؟

فاقترب منه مرسيلوس وقال له : نعم كنت هناك وقد رايت اكثر مما يبدو هنا وسأُطلعك على كل ما جرى لدى اجتماعنا معاً

فبعد ان دفنوا استفانوس ولم يعارضهم احد في قضاء ذلك الواجب . عاد ديمتريوس الى البيت فألحت عليه والدة مرقس ورودا ان يبقى عندهما لتناول العشاء فلبى دعوتهما . وبعد القيام عن المائدة بوقت قصير ابتدأ المسيحيون يفدون افراداً وجماعات حتى غصّ ذلك المنزل بهم ثم اخذوا يتحدثون همساً عن الرؤيا التي ظهرت لاستفانوس قبل مماته . ولم يؤكد ذلك احد سوى رودا

وعلاوة على شدة دهشتهم وصل بطرس الذي ازداد في نظرهم همة عالية ومكانة مهمّة حتى راوه قد ازداد طول قامته وبالكاد اعلمهم كيف انه خرج من السجن . وحاولوا ايضاً ان يسألوه عدة اسئلة ولكنهم خجلوا فالتفت اليهم

وقال : يجب ان تدعوني من الان فصاعداً بطرس

ثم التفت ديمتريوس الى يوحنا مرقس واشار عليه ان يُبقي بطرس عندهم وانه هو عازم على التوجه الى النزل . وسار في الحال الى المكان المقصود فوصل اليه عند منتصف الليل وقرع باب غرفة مرسيلوس ولما دخل عليه وجده مكباً على القراءة فاخذا في الحديث همساً حتى لاح الصباح . ولم يبقَ بعدئذٍ من نسبة بين الخادم والمخدوم وكان موضوع حديثهما عن ماجريات حوادث النهار التي تحار بها العقول

وبعد فراغهما من التحدث عن رجم استفانوس بالحجارة قال له مرسيلوس وانا ايضاً مسيحي وقد ظهر لديمتريوس ان سيده فاه بهذه العبارة بكل عظمة وافتخار اكثر من افتخاره حين يقول انا روماني

وبعد الظهر اوصله ديمتريوس الى الحقل الذي كان يُدعى الجلجثة . وقد شاهدا على البعد منه رابية تكسوها الاعشاب الخضراء . فسأله ديمتريوس أتذكر المكان يا سيدي ؟

اجابه مرسيلوس اذكره بالجهد الكلي ولولاك ما اهتديت اليه فان هويته باقية في مخيلتك

– نعم لانني جئت متأخراً وشاهدت من هنا الصلبان وجمهور الحاضرين

– وماذا كنت اعمل انا حين وصلت الى هنا ؟

– كنت انت وسائر الضباط تلعبون بالنرد

– من اجل الرداء ؟

– نعم يا سيدي

قال مرسيلوس انني لم اشاهد فعل الصلب لان بولس تولاه وقد كنت براحة لعدم مشاهدتي ذلك لانني ذهبت الى الجانب الآخر من التلة تبا لها من ذكرى مؤلمة

وبعد ان اراه ديمتريوس الطريق المؤدية الى التلة قال له مرسيلوس انني ذاهب

الى النزل وارجو ان سمعان بطرس لا ينسى وعده

— اظن انه ياتي واذا اتى اليوم فيكون في مأمن مضمون اكثر من كل وقت لان ارباب الولاية ورؤساء الهيكل حاولوا ان يقنعوا عامة الشعب بقولهم ان المسيحيين ليس لديهم حجة قانونية تثبت اعتقادهم . ولما كانوا قد قبضوا على قائدهم وتوقعوا ان يجعلوه عبرة للاخرين حبط سعيهم وخاب ظنهم واصابهم الذهول لا سيما حين بلغهم تخلصه من السجن . ولا يريد جوليان ولا هيرودس ان يستفهما عن كيفية ذلك الحدث فعليه استقر رأيهما على عدم الاهتمام بشأنه وهذا الامر يناسب الفريقين لذلك ينبغي لي الان ان انتظر حضور سمعان بطرس

* * * *

اما سمعان بطرس فلم ينسَ وعده فقد رآه مرسيلوس مقبلاً نحو التلة المكسوة بالاعشاب وما ان وصل اليها حتى عادت الى حافظته ذكرى تلك الحادثة الاليمة التي جرت فيها . فتقدم مرسيلوس لملاقاته وبعد التحية قعدا على العشب بجوار الحفر التي كانت الصلبان موضوعة فيها ولم ينبسا ببنت شفة اولاً

وبعد هنيهة نظر بطرس الى مرسيلوس بعينين حزينتين وقال له: انني لم اكن في ذلك النهار لكي اقف بقربه في ساعة آلامه ثم تنهد متأثراً وقال: انبأني عبدك اليوناني انهُ يلذّ لك سماع قصة يسوع وفهمت من الغير ايضاً انك ساعدت مساعدة اخوية لما مات امس استفانوس عزيزنا الشجاع . وكذلك سمعك بن يوسف تعترف بالايمان المسيحي . أصحيح كل هذا يا مرسيلوس غاليو ؟

— انني اعتقد تمام الاعتقاد يا سيدي ان يسوع اله وأومن انه حيٌ غير اني بحاجة ماسة الى ان افقه تعاليمه السامية

— قد تقدمت في ايمانك كثيراً يا صديقي وسلوكك كروماني مطابق لتعاليم يسوع . واذا كنت تريد ان تزداد تقدماً في معرفة نعمته فعليك ان تتوب عن

خطاياك السالفة . ولا يمكنني ان ادفعك الى التوبة ما لم تعرف الخطيئة التي ارتكبتها انا . لان خطاياك مهما كانت كثيرة فليست شيئاً بالقياس الى عدم الاخلاص الذي بدا مني ومع هذا فقد غفر ذنبي هذا الذي اقترفته نحوه . وقد كان من اعزّ اصدقائي وفي اليوم الذي احتاجني به حلفت انني لم اعرفه قط . ثم غطى وجهه وحنا راسه . وبعد هنيهة نظر الى مرسيلوس وسأله

– هل لك ان تخبرني الان كم من الامور تعرف عن يسوع ؟

لم يجاوب مرسيلوس حالاً ولما جاوبه لم يكد صوته يُسمع الا بصعوبة ولكنه سمع ذاته يقول كأن شخصاً آخر كان يتكلم « انا صلبته »

* * * *

ولما مالت الشمس الى المغيب نهضا كلاهما لكي يتوجّها الى المدينة وكان مرسيلوس سمع في هاتين الساعتين قصة لم يكن مستعداً في اول الامر لاستماعها اما الان فقد فهمها حق الفهم .

ثم قال بطرس ان العمل في المستقبل يهمه جداً وقد وطّن نفسه على التهيؤ للسفر الى قيصرية ويافا ليقوم بمهمة التبشير باسم يسوع وتعاليمه

– وماذا تريد ان تعمل انت يا مرسيلوس ؟

اجابه مرسيلوس : أذهب الى البيت

– لتقدّم تقريرك الى الامبراطور أليس كذلك ؟

– بلى يا سيدي

ثم وضع بطرس يده الضخمة على ركبة مرسيلوس : كم خبراً عن يسوع ستقص عليه ؟

– سأخبر الامبراطور خبراً عظيماً يغني عن سائر الاخبار السالفة وهو ان يسوع الذي اعتقدنا انه مات بالامس عاد اليوم الى الحياة وهو مقيم بيننا هنا لكي يؤسس

مملكة جديدة

– ان هذا القول الصريح يتطلب بسالة عظيمة وليس ببعيد ان يقاصّك قصاصاً عنيفاً على جرأتك هذه لان الامبراطور لا يريد ان يسمع من احد ان الجليلي هو هنا ليؤسس ملكوتاً جديداً

– ليجرِ ما يجري فاكون قد نطقت بالصدق

– فاذا سألك : كيف تعرف ان يسوع حيّ فماذا تجيبه ؟

– اجاب مرسيلوس : ساخبره عن موت استفانوس والرؤيا التي رآها لانني متأكد انه راى يسوع

– ان الامبراطور طيباريوس لا يكتفي بهذا البرهان

ثم نهض وقال دعنا نذهب الآن الى المدينة حيث قصد بطرس الى بيت يوحنا مرقس ومرسيلوس الى توله

ولما اقتربا من الهيكل رأيا في الدرجة السفلى من سلمهِ مقعداً يستعطي واذ وقع نظره على بطرس مدّ يده طالباً اليه صدقة . فسأله بطرس كم لك من الزمن وانت في هذه الحالة

اجابه الولد الكسيح منذ ولادتي يا سيدي . ارجو ان تعطيني صدقة اكراماً لله

اجابه بطرس ليس لي دراهم لاعطيك ولكن الذي لي اعطيك اياه . باسم يسوع الناصري قم وامشِ ومدّ له كلتا يديه وانهضه فوقف ذلك المقعد وطفق يضحك ويصيح من الفرح . ثم احتذى حذاءه ومشى على قدميه سليماً معافىً واذ ذاك اجتمع حوله جمهور من كبار الناس وصغارهم واخذوا يلقون عليه اسئلة شتّى . فكان يجيب كلاً منهم على سؤاله بصوت عال يقرب من الصراخ

اما بطرس فانه امسك بيد مرسيلوس وسارا متنحيين عن الجمع المُدهش ولما تمكن مرسيلوس من التكلم سأل بطرس ولكن كيف فعلت هذا ؟

اجابه بطرس بقوة روح يسوع

– ولكن هذا غير ممكن . ان الفتى وُلد كسيحاً ولم يمش خطوة واحدة في حياته

– ولكنه سيمشي الان

فرجاه مرسيلوس ان يجيبه على سؤاله قائلاً : هل عرفت انه عندك تلك القوة؟ او هل فعلت شيئاً كهذا قبلاً

اجابه بطرس : ليس كهذه . ولكنني اشعر بحضوره امامي اكثر فاكثر هو ساكن فيَّ . . . ان هذه القوة ليست لي بل له . . . انها روحه

قال مرسيلوس : ربما لا يظهر ثانية الأَ في قلوب الناس ؟

نعم اجاب بطرس : انه يسكن في قلوب النـاس ويعطيهم قوة روحه . ولكن هذا ليس كل شي. فانه سيأتي ثانية

الفصل العشرون

اذا كان الانسان لا يقضي سنة كاملة بهدوء وسكينة خارج رومية فلا يقدر ان يعرف انها من اكثر المدن حركة وضجيجاً. لان شوارعها كانت مرصوصة بالحصى ما عدا شارعين جديدين مصآبين في الساحة العامة كانا مرصوصين بالرخام النوميدي

وكانت تلك الشوارع في اثناء النهار تغصُّ بالمشاة او راكبي الجياد او المحمولين على محفات وكراسي خفيفة . وعند المساء كنت تسمع قرقعة الدواليب الحديدية الثقيلة التي تقطع الشوارع الحجرية . فضلاً عن صفير المراكب ودويّ السياط . ولا تهدأ هذه الحركة المزعجة الا عند طلوع الفجر . وكان كل هذا يجري يومياً على مدار السنة .

اما الوقت الذي كنت تسمع وترى رومية قائمة قاعدة فكان في الصيف ولياليه المقمرة . فالبنّاؤون كانوا يتممون ابنيتهم والبائعون يفتحون حوانيتهم . والأرقون ينهضون من فرشهم ويسيرون في الشوارع يبتاعون مـا يحلو لهم من المآكل . والجمال محملة حجاراً منحوتة وخشباً لاجل البناء . كل الليالي في رومية كانت مخيفة اما الليالي الجميلة جداً فكانت خطرة

وفي منتصف ليالي حزيران قبل ان تتوجّه السفينة من اوستيه الى المنعطف الذي يقابل المدينة سمع مرسيلوس الجلَبَة والضجة التي لا يسمها الا الذي قضى شهراً كاملاً في بحر هادئ . فكان لهـا في نفسه معنىً جديد فقد كانت شبيهة بصراخ عالَم كان يعمل كل شيء بصعوبة وبغير نتيجة . لا يدرك معنى السلام ماضياً وحاضراً ولا يسعى لطلبه

كان بانتظار السفينة على الميناء مئات من الحمّالين فعاد ديمتريوس الذي كان

احد المسافرين بستة منهم يحملون الامتعة ثم اكترى عربة لركوب سيده فاخذت تسير على مهل نظراً لكثرة الازدحام ففضل مرسيلوس وقتئذٍ ان يدفع للحوذي اجرته ويمشي على قدميه ليتخلص من وقاحة وقساوة العامة الذين لا يفهمون انهم يصلون الى اماكنهم المقصودة في وقتٍ قصيرٍ اذا راعى كل منهم دوره بسيره .

وقد تبيّن لمرسيلوس ان الحيوانات الواقفة حول حفرة ماء في غابة كانت تدرك اكثر من هذا الشعب الشرس الاخلاق المحب الانانية

وعادت في الحال الى ذاكرة مرسيلوس الكلمات التي فاه بها امام بولس ومفادها ان ملكوت الصلاح لا يكون من قمة الهيئة الاجتماعية الراقية ولا من عروش الملوك . لكنه يبتدئ من عامة الشعب . وهـا هو الشعب العاميّ امامك يا مرسيلوس فاصعد على مركبة وبيّن لهم معنى الصلاح وانصح لهم لكي يحبوا ويساعدوا بعضهم بعضاً وبهذا يتممون ناموس المسيح . لان العامة لا يُزدرى بها

* * * *

كان اجتماع اسرة غاليو مرة ثانية اسعد اجتماع عرفته في حياتها . لان مرسيلوس لما برح بيت ابيه منذ سنة كان ضعيفاً جسداً وعقلاً . فالثلاثة الذين تركهم هناك . اعني والده ووالدته وشقيقته كانوا ينوحون عليه كأنه مَيت ومع انه كان يكاتبهم من حين الى آخر فانهم كانوا يقرأون من اثناء سطور رسائله عدم تماثله للعافية تماماً . وآخر كتاب كتبه اليهم يقول فيه : ان الامبراطور ارسله بمهمة سريّة ولكن والده خشي عليه من عاقبتها لذلك تنهد وهزَّ رأسه عند طيّه الكتاب المذكور

اما الان فقد وصل مرسيلوس الى اسرته معافىً نشيطاً صحيح العقل بشوش الوجه عـالي الجبين ولا اثر في نفسه من القنوط الذي كان مستحوذاً عليه . وقد ازداد برؤية اهله وبيته قوة عظيمة سواء كانت هذه القوّة في نبرات صوته ام في عينيه ويديه ام في جميع عضلاته . وقد ضرب آله صفحـاً عن سؤاله عن الامر

الغريب الذي اصابه لكنهم شعروا انه حصل على شيء جديد ميّزه عن غيره

اما والده غاليو فقد قضى سحابة نهاره في مكتبه ولما انجز اشغاله سمع صوت خطوات متوازنة تقترب منه . وكان ابنه مرسيلوس قد ترك ديمتريوس يهتمّ بشأن امتعتهما ودخل هو الى البيت . واذ رأى باب غرفة والده مفتوحاً ولجها حالاً وارتمى بين ذراعيه . فقال له والده اشكر الآلهة التي اعادتك اليَّ ممتعاً بقوة وحياة جديدتين

قال مرسيلوس : نعم يا سيدي انني حيٌ ونشيط اكثر مما كنت قبلاً وانت يا والدي تنمو كذلك وتزداد قوة وحياة يوماً فيوماً واني لشديد الافتخار والمباهاة بكوني ولدك

فاستيقظت لوسيا لدى سماعها صوت اخيها واصغت بكل جوارحها ثم نادت خادمتها قائلة انهضي يا ترتيا واعطني ثوبي وحذائي فان مرسيلوس هنا . ثم نزلت بسرعة الى المكتبة وطرحت نفسها بين ذراعَي اخيها بشوق عظيم ولما رفعها بيديه وقبّلها صاحت قائلة : انت متعافٍ جداً يا عزيزي مرسيلوس . وانت ايضاً يا حبيبتي فقد نموتِ وشبيتِ واصبحتِ جميلة ثم اخذ يعبث بشعرها ويقول : انه اصبح بديعاً للغاية

ثم طوّقهما غاليو بيديه وقال لهما هلمَّ بنا الى والدتكما . وفيما هم صاعدون التقوا عدداً من الخدم الطاعنين في السن قادمين لكي يروا حالة ابن سيدهم فسلّم على كل واحد منهم بمفرده سلاماً مقروناً بالشوق والمودّة وقد فرحوا هم بعودته سالماً

ثم اجتمع اكثر من عشرين خادماً يبتسمون ابتسامة الغبطة والسرور امام سيدهم غاليو وهو بدوره يبتسم لهم . وكان مرسيلوس يدعو كلّاً منهم باسمه مما زاد ذلك في ابتهاجهم وبعدئذٍ جاءت الخادمتان التوأمان المكدونيتان وكان قد نسي اسميهما فسألها هل انتما اختان ؟ فضحك الجميع من هذا السؤال الغريب في بابه .

اخيراً امر غاليو دسيموس الطاهي ان يهيء العشاء في دار الوليمة وان تُستعمل على المائدة الآنية الذهبية كما يجب ان يُضاء المنزل كله وحديقته .

بعدئذٍ تركهم مرسيلوس وصعد الى والدته التي لاقته على رأس السلّم وضمته الى صدرها ودموع الفرح والسرور تجري من مقلتيها فلما رآها غاليو على هذه الحالة سالت دموعه ايضاً

واذ شعرت لوسيا ان والدتها تحب ان تكون وحدها مع مرسيلوس تأخرت في اسفل السلّم لتعطي الطاهي المذكور تعليماتها بما يتعلق بالعشاء . فقالت له : لا تكثر من الاطعمة ولا تطبخ بعد شيئاً بل أعدّ الفاكهة الناضجة واللحوم المبرّدة والخمرة المعتقة . ودع الابنتين تخدمان اخي على المائدة وقلْ لروسوس ان يقطف طاقة من الورود الحمراء

وقبل ان تكمّل عبارتها دخل ديمتريوس الى الدار وكان قد غدا مديد القامة ذا جمال وكمال فلما رأته مقبلاً نحوها بخطى واسعة اشارت الى الطاهي ان يذهب الى محل شغله عند ذاك دنا منها ديمتريوس وحياها باحترام كعادته فقالت له : اشكرك كل الشكر يا ديمتريوس لانك اتيت باخي سالماً معافىً نشيطاً

– لا شكر على الواجب . ان مرسيلوس لم يكن بحاجة الى احد ليأتي به الى منزله فانه ممتّع الان بتمام الصحة . ثم نظر اليها وقال هل تسمح لي شقيقة سيدي ان اصرّح لها بانها متمتعة هي ايضاً بصحة لا مثيل لها

قالت له : لِمَ لا اذا كنت تعتقد ذلك

اخبرني ماذا جدَّ لاخي حتى اصبح في هذه الحالة من الابتهاج ؟

اجابها : هو يخبرك بامرهِ في الوقت الذي تشائينه

– وانت يا ديمتريوس أراك في هيئة جديدة

– أرجو ان اكون في اجدّ منها ايتها الانسة الكريمة

ثم سألته هل ارتقى مرسيلوس الى منصب مهمّ جديد ؟

اجابها ديمتريوس بالايجاب بحنو راسهِ

— هل يعرّضه منصبه هذا للخطر ؟ اجابها مفتخراً نعم

قالت لوسيا : يظهر انه غير مكترث لذلك فانني لم اره مسروراً كسروره في هذا اليوم فقد غمر القصر فرحه ومرحه ·

اجاب ديمتريوس : انا اعرف ذلك لانني قد سمعت قهقهتهم

فقالت لوسيا عسى ان لا يفسد نيأتهم هذا الاغتباط لانهم ليسوا معتادين ان يمارسوا حرية كهذه على اني لا اظن انها تضرّهم اذا هجم عليهم السرور مرّة واحدة فقط

اجابها : لا اظن ان الحرية تضرّهم اذا كانوا حقيقة مسرورين مرة واحدة . هل نسيتِ يا سيدتي اني انا عبد · دعينا نتمم حديثنا عن التهذيب والعبودية والسيادة والاخاء والمساواة . مَنْ له الحق ان يقول لغيره متى يكون مسروراً ؟

فنظرت اليه لوسيا بغضب ثم قالت عسى ان ملاطفة اخي لهؤلاء الخدم لا تقلل من سطوتنا عليهم في هذا البيت

— لا تهتمي بهذا الامر لانه يعتقد ان هذه المعاملة برفق ولين فعّالة اكثر من العنف والقساوة وبها تحصلين على خدمة حقيقية مخلصة

ثم دعاها مرسيلوس من اعلى السلم · وقبل ان تصعد التفتت الى ديمتريوس وابتسمت له فحيّاها برفع رمحه كالمعتاد

اما مرسيبور القيم على ادارة المنزل والذي كان منتظراً نهاية الحديث اقترب من ديمتريوس وقال له لقد اعتراني الدهش من عودة العافية الى القاضي . فارجو ان تخبرني ما الذي عافاه وشفاه ؟.

— سأخبرك بكل شيء في هذه العشيّة اما الان فابشرك بانه اصبح مسيحياً حقيقياً وقد جال في الجليل

— ألم تكن انت معه ؟

اجابه نعم كنت معه في وقت من الاوقات . واخبرك ايضاً ان الجليلي حي"

– نعم سمعنا بذلك

سأله ديمتريوس ومَن سمع مثلك ؟

اجابه مرسيپور : المسيحيون في رومية

– وهل انتشر الخبر في رومية ايضاً ؟

اجاب مرسيپور انَّ فريقاً من تجار انطاكية اتوا بهذا الخبر

– وممَّن عرفتم انتم ذلك ؟

– من دسيموس الذي كانَ دأبه الاستهزاء باليونان قصَّ عليَّ ان بعض تجار من انطاكية قالوا ان نجاراً يهودياً قام من الموت واذ كنت انت اخبرتني عن هذا النجار فقد اهتممت كثيراً ان اجتمع بهم

– قال له ديمتريوس مشجعاً وقد اجتمعت بهم ؟

– نعم اجتمعت وقد اقنعتني روايتهم جدَّ الاقتناع لانهم سمعوها من شاهد عيان يدعى فيلبس وذكر لهم ما صنعه من العجائب التي دُهشوا من سماعها . وان كثيرين منهم ذهبوا الى اورشليم ليتأكدوا صحة كلامه وتفاوضوا ايضاً بهذا الامر مع أناس آخرين يوثق بكلامهم كانوا قد شاهدوا يسوع بعد موته فبناءً على كل ما تقدَّم ذكره وما اخبرتني انت ايضاً به جعلني اصدّق الرواية

– اذاً انت مسيحي ؟ سأله ديمتريوس فرحاً . يجب ان تعلم القاضي فانه يبتهج

– ليس الان لان مجرى حياتي غير معروف الان . فان شغل دسيموس الشاغل كان ان يبلغ الشيخ غاليو هذه الحركة الجديدة قائلاً : انها ثورة مضادَّة للسلطة الشرعية

– وهل قام الشيخ بعمل ما ضد هذه الحركة ؟

– لا . ولكنني لا اشك في ان نية غاليو نحو المسيحيين غير صالحة لانه ينسب اليهم علة الاذى التي لحقت بابنه . ويخشى ان يعلم مرسيلوس ان في رومية هنا جماعة

منهم فيلتي بنفسه بينهم . وهذا الامر لا يخفى عليه خطره . لان المسيحيين مختبئون. وقد بدأ الجند بالتفتيش عنهم لذلك لا يجب ان نسبب الجفاء بينه وبين والده

– حسناً جداً . قال ديمتريوس نحن لا نخبر القاضي ولكنه سيعلم هذا الامر من نفسه ولا يتخلى عن ايمانه . ومن الصعب ان يقتنع الشيخ بصحته لان الرجال المسنين لا يغيّرون اعتقاداتهم سريعاً . وعلى كل حال لا نقدر ان ننتظر الا ريثما يستحسن هذا الاعتقاد جميع الشيوخ لان رواية يسوع هي رجاؤنا الوحيد للحصول على الحرية والعدل . وبناء على ذلك يجب ان نبتدىء الان

قال مرسيپور : انني اوافق على هذا لكنني لا اريد ان ارى مرسيلوس يغضب والده الذي امست ايامه الاخيرة معدودة

– قد جاء بمثل هذه الدعاوة ليسوع وقد انبأني احد الجليليين انه سمع الحديث الذي دار بينه وبين شاب كان قد اثّر في نفسه كلام يسوع واراد ان يعترف به علانية . فقال ليسوع ان والدي امسى شيخاً ولا يُدرك حقيقة هذه الديانة فدعني انتظر ريثما اقوم بدفنه ثم اعود فاتبعك

ظن مرسيپور ان الجواب مقنع لانه هو كان في السابعة والستين من عمره

لكن ديمتريوس قال ان يسوع لم يعتقد ذلك . وقد آن الاوان لتغيير اعتقادات الناس . لان هذه الرسالة الجديدة لا تنتظر دفن الشيوخ مع عقائدهم القديمة المتأصلة في نفوسهم . وبما انهم امسوا في عداد المائتين فليدفنهم الاموات

– هل قال يسوع هذا ؟

– ان يسوع قال ما يشبه هذا القول

ان شخصاً لطيفاً كيسوع لا يقول كلاماً قاسياً كهذا

فقال له ديمتريوس بعد ان اخذه بيده : يجب الأ نعتقد يا مرسيپور ان رسالة يسوع التي تدعو الى السلام والصلاح هي سهلة بحيث تجعل الناس يختبئون ريثما تمرّ الصعوبات لان الذين يطوفون بالشعلة لا بُدّ من ان يقعوا في متاعب ومصاعب عديدة

شديدة من حيث الاضطهادات . فقد بدأ الجلد بالسياط .. وزُجّ عدد كبير منهم في غياهب السجون علاوة على الذين قُتلوا

– نعم انني اعرف ذلك . فقد سمعت من جماعة التجار انهم شاهدوا فريقاً من الرعاع في اورشليم يرجمون رجلاً يدعى استفانوس . هل كان لك معرفة به ؟

اجاب ديمتريوس بحزن أجل انه كان لي صديقاً حميماً

* * * *

قبل ان ينهي مرسيلوس فطوره دخل عليه مرسيپور يقول له ان الشيخ غاليو هو الان في مكتبه ويريد ان يرى ابنه في اول فرصة تسنح له

اجابه مرسيلوس قل للشيخ والدي انني امثل بين يديه بعد بضع دقائق

ولقد كان مرسيلوس يفضِّل ان يؤجل اجتماعه بوالده الى وقتٍ آخر لانه يعلم انه يصعب على الشيخ ان يصغي الى استماع روايته الغريبة بصبر ويقدّرها قدرها . فجلس بقرب النافذة واخذ يفتكر بتدبير طريقة صالحة يُقنع اباه بها دون ان يمسّ حاسياته بشيء يكدره . لانه سيكون بمثابة محامٍ في هذه القضية الخطيرة وتحت المحاكمة ايضاً

لم يكن لمرقس لوقيا غاليو الشيخ في مجلس الاعيان مخاصم . فانه حصل على شهرة واسعة في المناقشة التي جرت في المجلس العمومي بسياسته . لذلك كان مفتخراً بذكائه وقوة عقله . ولم يشأ المجادلة كثيراً لانه يأبى التسليم بامرٍ مستحيل لعدم اقتناعه بشيء منها فكيف به اذا جاء ابنه يفاتحه بامرها . ان مرسيلوس سيخبره قصة عجيبة تدهش منها الافكار عن رجل شفى كثيراً من المرضى على اختلاف عللهم ولما مات على خشبة الصليب قام من الموت وشاهده في قيد الحياة اناس كثيرون . ولا شك انه يهيج غضبه حينما يسمع القصة المذكورة ويقول انها كلها هذيان

* * * *

ولما اجتمع بوالده شعر لاول وهلة ان هذا سيقاومه ويغالطه . ولما بدأ بروايته عن محاكمة يسوع وصلبه وهو يرجو من وراء ذلك ان يثير شفقة والده وحنانه قال له : قد سمعت كل هذا يا ابني وليس من الضروري اعادته . غير انني احب ان تخبرني عن رحلتك الى البلد الذي كان يسكنه الرجل الآنف الذكر

فاخبره عن سفره مع يستوس وعن يوناثان الصغير ، وليديا التي شفيت عند لمسها الرداء ، وتثنائيل برثلماوس الشيخ والعاصفة البحرية وما شاكل ذلك فكان والده في اثناء كلامه ينظر اليه بدون ان يفوه بكلمة ولم يسأل اسئلة

اخيراً وصل بحكايته الى موضوع رجوع يسوع الى الحيـاة . وكان يعيد بحماسة امام والده كل ما قيل له عن ظهوره . ثم تابع حديثه قائلاً : يظهر لي من سكوتك يا سيدي ان كل ما ذكرته لك غير قابل التصديق . ولكنني انا اعتقد بصحته . ثم حاول ان يخبره ايضاً عن العجيبة التي جرت على يد بطرس ولكنه كان على يقين من نفسه ان والده لا يؤمن بايّ اعجوبة كانت . ولما فرغ من حديثه قال له والده : كل هذا حسب شهادة صيادين واهمين أليس كذلك ؟

اجاب مرسياوس : لم يكن من الامور التي يسهل عليَّ ادراكها يا سيدي ولم احاول اقناعك انما انت طلبت مني ان اطلعك على ما عرفته عن يسوع وقد لبيت طلبك وانا باقٍ على ايمـاني . ان هذا الجليلي حيّ . وفي يقيني انه لشخص ازليّ الهيّ ذو قدرة عظيمة لم تكن لملك من الملوك . وانه سيملك العالم اخيراً

فسأله والده : هل خطر في بالك ان تقول لطيباريوس ان يسوع هذا سيملك العالم ؟

— ربما لا احتاج ان اقول هذا له . انمـا أعلمه فقط ان يسوع الذي مات هو حيٌّ وما عليه بعدئذٍ الا ان يستخلص النتائج

— يجب ان تنتبه لما تقوله لطيباريوس المختلّ . فربمـا يقاصّك اذا جئته بخبر مثل هذا

– انه يقدر ان يامر بقتلي غير انني لا اهاب المنية لان بعد الموت حياة ابدية

– هذا اعتقاد قديم يا ولدي لانه منذ ثلاثة آلاف سنة والناس تحفر ذلك على قبورها ولكن الامر يحتاج الى براهين دامغة . مَن من الاموات عاد الى العالم واخبر بذلك ؟

اجاب مرسيلوس : ان يسوع عاد

فتنهد غاليو وهزّ راسه . ثم وقف ووضع يديه على كتفي ابنه العريضتين وقال له : اذهب الى الامبراطور واخبره ماذا فهمت عن هذا النبي الجليلي . استشهد بالكلمات الحكمية التي فاه بها . انها كلمات رصينة لا بُدَّ من ان تفيد طيباريوس اذا اصغى بسمعه اليها . وقصّ عليه ما صنع من العجائب لان هذا يسرُّه . هذه نصيحتي اليك يا ابني

– ألا اخبره شيئاً عن رجوع يسوع الى الحياة ؟

– لماذا تقول هذا الخبر . انه طلب منك فقط ان تستقصي الاخبار عن ذلك الجليلي وان تفضي بها اليه . فاذا اخبرته عن قيامته تكون حالتك كحالة السحرة والمنجمين المحيطين به . ولا تنسَ يا ابني ان امامك مستقبلاً لامعاً اذا عملت بقولي ولكنك اذا تمسكت بهذا الاعتقاد الجديد فانني ووالدتك وشقيقتك نكون مستائين تمام الاستياء . فضلاً عمّا تقوله الناس وتذيعه انك خسرت عقلك وغدوت كاحد حمقى الامبراطور . بل ماذا تقول ديانا عنك تلك الشابة الجميلة التي شغف حبك قلبها . ألا يهمك امرها ؟

– اجاب مرسيلوس : نعم يهمني واعتقد ان املها يخيب بي ولكن لا شيء يغيّر اعتقادي ابداً . فقد وضعت يدي على المحراث ولا ارتد الى الوراء

فابتسم والده وقال انتظر ان تراها قبل ان تجزم بذلك

– انني مشتاق جداً الى مرآها

– هل تشاء رؤيتها قبل رؤية طيباريوس ؟

– اجاب مرسيلوس : اذا كان ذلك بامكاني

– وهل استعددت للسفر ؟

نعم اجاب مرسيلوس قد اعدَّ لي ديمتريوس كل شيء. وقد نوينا السفر في هذا المساء من غاليه الى اوستيه ومنها الى كابري على المركب كليو

– حسناً جداً . قال له هذا وربت على كتفه

قال له مرسيلوس سأتبع نصيحتك يا ولدي واشكرك عليها ولكنني لست حرّاً

سأله والده : ولماذا انت غير حرّ ؟

– لانني ارى نفسي مضطراً ان اخبر الامبراطور عن رجوع يسوع الى الحياة

– اذاً قل له انها اشاعة دارت على السن اصدقائه الصيادين وليس لك معرفة خاصة بها لانك لم تَرَهُ

قال مرسيلوس ولكنني رأيت شخصاً يحدّق ببصره اليه وشاهدت يونانياً يُرجم لانه مسيحي وقد كان شجاعاً مستعداً ان يخاطر بحياته من اجل ايمانه وحينما رأى الاكثرون من الناس انه مات وقف هو وابتسم وصرخ قائلاً : « انني اراهُ » وانا اعلم علم اليقين انه شاهده بامّ عينه

– ليس من الضروري ان تخبر طيباريوس ذلك

– لِمَ لا يا سيدي وانا قد سمعت وشاهدت . واذا لم اشهد بذلك كله فاكون جباناً لانني انا ايضاً مسيحي

لم يجب غاليو عن هذا ولكنه غادر الغرفة وهو منحني الرأس

عندئذٍ امتعض مرسيلوس لانه سبب الكدر لوالده فخرج الى الرواق حيث تأكد ان لوسيا بانتظاره فلما رأته سألته : ما بالك ؟ هل تخاصمت انت ووالدك ؟ اجابها لا لكنني جرحت احساساته

– عسى ألاّ تكون اطلعته على السبب الذي جعلك مريضاً حينما جئت من اورشليم ؟

اجابها : لا لم اطلعه على شيء من هذا ولكنني اخبرته عن ذلك الرجل الذي أسرَّ جداً ان اخبركِ انتِ ايضاً عنه

– اشكرك يا اخي لانني لا اريد ان اسمع شيئاً من ذلك البتة فقد حان الوقت ان تنساه . لقد أكَّدنا ليلة امس انك ملكت عافيتك ومن شدَّة فرحي لم استطع النوم . واليوم اراك متكدراً ممتقع الوجه . ارجو منك يا اخي ارجو منك . واذ قالت هذا اغرورقت عيناها بالدموع

– انني حزين يا شقيقتي . قال هذا واحاطها بذراعيه وتمشيا معاً في الحديقة يمتعان نظرهما برؤية الورود الجميلة

* * * *

كان الامبراطور مريضاً لاسابيع كثيرة خات فانه في احد ايام نيسان نزل الى الدارة التي لم ينجز بناؤها ولما كان المطر في ذلك النهار مدراراً سقط البعض منه على راسه وجسمه مما سبب له زكاماً شديداً . وكان من عادته حين يصيبه زكام ما ان يلازم سريره حالاً ويدعو جميع الاطباء لمعالجته

اما اليوم فاذ قد تجدَّد شبابه لدنوّ ديانا منه أبى ان يذهب الى فراشه مدَّعياً انه سُرَّ كثيراً بالمطر الذي تساقط عليه وانه بكامل صحته

لما جاءت ديانا الى كابري منذ سنة تقريباً سُرَّ الجميع بحضورها ما عدا جوليا التي كانت تغار منها لانها احدثت تغييراً عظيماً في طيباريوس الشيخ اذ كان يعمل كل ما في وسعه لمرضاتها ليس فقط فيما يختص بحياته اليومية بل في معاملته للجميع . فقد اضحى يعهد الى وزرائه ما كان يزعجه من المشاكل الدولية لكي يسنح له الوقت بالتنزه معها في الحديقة وهذا الامر كان له الوقع الحسن في قلوب الذين كان لهم علاقة معه من الموسيقيين والوزراء والاطباء وغيرهم كالراقصات والخياطين والمنجمين والشعراء والطباخين والحراس والنجارين والبنائين والخبازين والكهنة

الذين يبلغ عددهم زهاء ثلاثمئة نفس وكلهم كان يوافقهم ان يطول عمره لتطول مدة بسطهم وحبورهم لانه كلما كان منشرح الصدر خفف ذلك من واجباتهم نحوهُ

فكان من الطبيعي ان يحترم ديانا الجميع فتغنى الجميع بجمالها وحسن سيرتها وسريرتها . ولكن على مر الايام اخذوا يهمسون قائلين : ان الامبراطور العليل لكي يرضيها كان يجازف بحياته . لانه كان يرافقها من الصباح الى المساء في كل فصل من فصول السنة يدور حول الجزيرة متوكئاً على عصاهُ يصعد وينزل من سلم الى آخر في دارتها الجديدة التي لم يكمل بناؤها بعد . مع انه كان يشتغل في بنائها مئة من العملة الماهرين فكان تارة يهدم الذي لا يروقه وطوراً يأمر ببنائه ثانية . وقد تنبأ يوماً ان بناء هذه الدارة لن يكمل ابداً وقد تمت نبوءته

لقد عرف الجميع في قصر كابري ان وجود ديانا فيه كان على كره منها لذلك شعروا وتأثروا لحالتها مع انها لم تفشِ سرها لاحد ولكن تعدد زيارات والدتها الى كابري وبكاء ديانا عند مغادرة والدتها القصر اثبت لهم ذلك

وشاع ايضاً ان ديانا الجميلة تحب مرسيلوس ابن غاليو ولكنها أبت ان ترتبط معه بعقد الزواج بالنظر الى اختلال شعوره وقد ابعدوه الى خارج البلد

ولم يكن احد يهمه امر الوقوف على اخبار ديانا اكثر من جوليا الشيخة امرأة طيباريوس فكانت تفتح رسائلها سراً وتبعث محتوياتها مع رسول خاصّ الى ابنها الامير غايوس الذي لم يأتِ في فصل الشتاء. ولكنه حينما طرق مسامعه ان الامبراطور مريض جاء لزيارته متظاهراً بالاهتمام بامره لانه كان يلذّ له حضور الحفلات التي كان يحييها ليلاً

وكان طيباريوس لا يقدر ان يرفع راسه التعب اثناءها الأ بالجهد الكليّ فكان ينام احياناً ثم يستيقظ فجأةً ويبتسم ويعود الى النوم . وكانت جوليا امرأته متصدرة في قعودها عن يمينه دون ان تكترث له وهي متزينة بالجواهر واللآلي.

الكثيرة وعلى رأسها شعرٌ مستعار ووجهها مدهون بكل انواع المساحيق والامير غايوس جالس بقربها

وكان مشهد الهيئة المالكة مثيراً للضحك ولم يجسر احد من السبعين رجلاً الذين كانوا يقومون بالخدمة ان يبسم او ان يومىء ايماءة ما . فكان الامبراطور نائماً وجوليا تحاول استمالة قلب غايوس اليها بسحبها كم غايوس المطرز وهو بدوره يتحبب الى ديانا التي كانت جالسة بإزاء الامبراطور من الجهة الاخرى والتي لم تكن لتبالي بتحببه اليها

واقد سُرَّ الجميع بهذه الحفلات ما خلا سيليا امرأة كنتوس وابنة عم سيجانوس صديق ومستشار الامبراطور طيباريوس . فانها كانت تستعد لاهلاك ديانا اذا هي اظهرت للامير غايوس اقلّ تشجيع والذي اغاظها ايضاً ان تراها غير مهتمة بشأنه .. فمن هي ديانا تلك الابنة المتعجرفة وكيف تمسي حالتها بعد موت طيباريوس ؟

كانت سيليا يائسة في هذا الاسبوع . لان غايوس حينما كان يبعث زوجها كنتوس لقضاء امر مهم تصبح هي قبلة انظاره واهتمامه لذلك كانت تودُّ ان يجدَ له دائماً اشغال خارجية لكي تبقى بالقرب منه . على انها ادركت اخيراً ان اهتمامه بها لم يكن عن اخلاص ومحبة وفهمت ان زوجها سيعود من مهمته فطلبت اختلائها معه وعاتبته بتأثر وبكاء على تغيّر سلوكه معها . ثم الحت عليه ان يرسل زوجها ثانية في وظيفةٍ ما . فقال لها ما هي فائدة كنتوس زوجكِ . قد ارسلناه الى اثينا فتخاصم هو واحد العبيد هناك وعاد الينا مثخناً بالجراح . اجابته ان هذه اشاعة فقط وليس لها اثر من الصحة

ثم استطردت قائلة : كم احببتني قبلاً ولكنك عند ما رايت ابنة غالوس وقعت في حبها وقد لاحظت انها لا تهتمّ بك . فضغط على ذراعها وقال اياكِ ان تؤذيها بشيء فيجدر بك ان تنسي كل شيء . وتكتفي بزوجك فكل منكما موافق

لذوق الآخر واذ قال هذا خرج من الغرفة

اما سيليا فانها وجدت تعزية عند الامبراطورة جوليا التي ارسلت فاستدعتها ولكنها لما شاهدت اثار الدموع في عينيها سألتها ما الخبر ؟ فاخبرتها بكل ما جرى لها مع غايوس . فقالت لها الامبراطورة : مسكين غايوس فانه حزين ومُثقل بالهموم يجب ان تعذريه لانه حقيقة يحب ديانا فيكون ارتباطهما بالزواج موافقاً . لان غالوس والد ديانا يحبهُ الجيش كثيراً واذا كان ابني سيخلف زوجي بالملك فانه يحتاج الى رضى الجند . وبما ان الامبراطور مولع جداً بديانا فان زواجهما يكفل له نجاح مستقبله . ثم قبلتها واشارت اليها بالخروج من الغرفة

* * * *

كانت السماء صافية والطقس جميلاً عند مـا وصل المركب كليو الى شاطىء الجزيرة ولم يشاهد مرسياوس ما شاهده اليوم من حسن زرقة المياه في خليج نابولي . ولما وطىء اليابسة استخدم محفّة لتقلّهُ الى الدارة جوقس بينما ظلَّ ديمتريوس ينتظر حضور حمّال ينقل لهما امتعتهما

ولما اقترب من المكان الذي قصد اليه اخذه العجبُ العجاب ممـا شاهده من فخامة قصر الامبراطور طيباريوس ودقة الصناعة في بنائه وزخرفته مما دلَّ على حسن ذوق مهندسهِ .

وما ان وصل الى المرتفع حتى ظهرت مدينة طيباريوس العجيبة وكان ابرز شيء فيها بناء جوقس الضخم الذي انعكست عليه شمس حزيران المشرقة فبدا ابيض ناصعاً وكان الفلاسفة الهزيلو البنية والكهنة البدينو الاجسام يتخطرون تحت المظلات وفي الممرات المرصوصة على ضفاف البحيرات . وكان المرء لا يرى سوى رجـال طاعنين في السن يسيرون ورؤوسهم منحنية وايديهم موضوعة خلف ظهورهم . فهل كان كل هؤلاء مستشاري الامبراطور ؟ من الطبيعي ان يستخلص المرء ذلك .

فاغتم مرسيلوس لكونه مضطراً ان يتحالف مع اولئك الشيوخ

فلما اخبر الخفير ء،ه أرسل معه رسولاً الى قائد الحرس الذي أقبل حالاً ومضى به الى الدار الفسيحة فالبهو الكبير حيث جاء الحاجب وحياه بكل احترام . ثم قال له : اتريد ان تذهب الان الى الجناح المخصص لك ريثما انبيء القيصر بوصولك؟ فاجابه مرسيلوس : لقد كنتم اذاً تتوقعون مجيئي فقال نيفيوس الحاجب: ان القيصر علم بوصول القاضي مرسيلوس الى رومية .

اما الجناح الذي أعدّ له فكان فخماً يُشرف على حديقة مكللة بالازهار والرياحين وكان ستة من النوبيين يهيئون له الحمام وجاءه عبد مكدوني طويل القامة بقنينة خمر وتبعه آخر حاملاً صينية فضية ملأى بالفاكهة المتنوعة . وقد كان الاستقبال الذي اعده له الامبراطور عظيماً . واراد مرسيلوس ان يعرف الغاية من اجراء هذا الاحتفال الكبير فما كان عليه الا الانتظار . وبعد هنيهة دخل الحاجب وقال له ان الحمام مجهز لك . وان ابنة غالوس مستعدة لاستقبالك في حديقة دارتها عندما تحضر

* * *

اما مرسيلوس فقد سأل في اول الامر عن دارة ديانا لانه شاء ان يذهب وحده بدون دليل . واذ اقترب منها اخذ يمشي الهوينا متأملاً إناقتها وهندستها . فقد كانت من الفخم البنايات الواسعة غير انها لم تكن حصينة ولما وصل اليها ادخله الحارس الى البهو ومنه الى الرواق ثم تركه ومضى فمشى مرسيلوس بقلب مغتبط

وكانت ديانا متكئة على العمود الرخامي في ذلك الرواق المطلّ على الحديقة . فلما شعرت بدنوه منها التفتت اليه وتفرّست في وجهه ظناً منها بانه لم يشفَ تماماً من مرضه العقلي وكانت امارات الخوف بادية على محياها فلم يستطع مرسيلوس في تلك الدقائق المبهجة ان يلاحظ ثوبها الانيق المزركش اعلاه بلون قرمزي وكمّيه

الواسعين المزرَّرين بازرار ذهبية وكذلك زنارها المشدود حول خصرها واكليلها اللؤلؤي الاحمر المحيط بجبهتها البيضاء وكانت بهذا كله مثال الجمال الباهر

فاقتربت منه على مَهَل بقوامها الرشيق وكانت سمة الملكات بادية على محياها الوسيم في كل حركة من حركاتها ورحبت به وصافحته بكلتا يديها متمنية ان يكون قد شفي تماماً

فناداها : حبيبتي ديانا ! بعد ان ضمَّ يديها اليه وابتسم لها مبتهجاً برؤيتها

فسألته . هل اتيت اليَّ حقيقة يا مرسيلوس :

وبعد ان قرَّبها منه ألقت نفسها بين ذراعيه واخذت تربّت على خدَّيه فما كان منه الا ان طبع قبلة على خدَّيها فقابلته بمثلها

ولما ناداها بقوله يا معبودتي افلتت يديها منه وكانت الدموع تتساقط من مقلتيها . ثم قالت له لنقعد الآن ونتحدَّث .حتى نغمة صوتها كانت قد تغيرت ايضاً

فتبعها الى مقعد رخامي مواجه البحر وقعدا هناك فسألته : هل رأيت الامبراطور ؟ فلما اجابها بالسلب قالت له : اتمنى لك ان تختصر كلامك معه لان افكاره امست شاذة باهتمامه بالسحر والعجائب والارواح ولا يريد ان يتكلم الا بالامور المختصة بالاشياء العقلية فانه احياناً يقضي سحابة نهاره ووقتاً من ليله يشغل باله بمثل هذه الامور بينما العرافون يجلسون حول سريره يزعجونه باحاديثهم الملفقة وهو يصغي اليهم كأن ذلك من واجباته

— ربما يُعدّ عقله الموت

اجابت ديانا باحناء رأسها . وهو ينتظر مجيئك بفروغ صبر لاعتقاده انك تأتيه بشيء جديد . لان هؤلاء الشيوخ قد ارهقوه بشعوذاتهم ولا سيما رودينوس الشيخ الذي في عيد القمر الجديد يذبح خروفاً ثم يمارس طقوساً بسيطة مدَّعياً انه رأى رؤيا. وقد تم نبوءته احياناً . ومنذ عشرة ايام تنبأ ان الامبراطور سيعيش الى الابد ولذلك يدعوه اليه عند قيامه من النوم لكي يؤكد له نبوءته . فعوضاً عن ان

يدعهُ يموت ميتة هادئة تراه يقلق باله ويزيد بلباله ويؤكد له صحة قوله

وقالت ديانا : انني اشعر احياناً يا عزيزي انه من العار عليَّ ان اعيش في مكان كهذا محاط بأناس خداعين يتسمنون من وراء غشهم وخداعهم . ثم استطردت حديثها قائلة : انني اعلم ان ما ستقوله للقيصر حقيقي لا ريب فيه

فكان منه ان طوّق خصرها بيديه وسألها : ماذا ترتئين ان اقول له ؟

اجابته : انت تعلم ما يجب أن تقول لكن لا تنسَ ان تذكره بشبابه يوم كان مقتدراً شجاعاً لا يخشى الموت . فلماذا يحب اليوم وهو هرم ان يعيش الى الابد ؟ . لقد يظنه الناس انه يريد للموت لكي يلقي اعباء المملكة على عاتق غيره. واذ قالت هذا دنا منها وقبّلها

– اذاً سرْ بي من هنا الى مكان لا نجد فيه اناساً مختلي الشعور لا يقولون اقوالاً سخيفة وحيث لا يهتم احد بالمستقبل او الماضي بل بالوقت الحاضر فقط . ان القيصر يريد منا ان نسكن هنا في هذه الدارة التي بناها لنا اما انا فلا يمكنني ان اقيم فيها : ثم همست في اذنه قائلة : ألا نستطيع ان نستأجر مركباً ونسافر فيه ؟

– انني اذهب بكِ يا حبيبتي الى المكان الذي تختارينه ولكنني لا اريد ان تكوني معي بصفة تائهة

– خذني الى مكان بعيد جداً حيث نعمل لنا بيتاً وحديقة صغيرين بجوار ساقية ماء ونعيش معاً بسلام

اجابها مرسيلوس : ان علينا واجبات يجب ان نقوم بها تجاه عائلاتنا . لذلك لا نقدر ان نبتعد عنهم كثيراً

– لا بأس انني انتظر بصبر ولكن الى وقت قصير لانني لست في مأمن هنا

– لستِ آمنة على نفسكِ . ممّن تخافين ؟

وقبل ان تجيبه سمعا وقع اقدام تقترب منهما فشاهدا الحارس مقبلاً نحوهما . فقالت لمرسيلوس : ان طيباريوس ضعيف . لذلك لا يستطيع ان يحميني . وغايوس

يجيء غالباً الى هنا. وقد حاولت ألا اكترث له ولكن جوليا تبذل جهدها – وقبل ان تتم عبارتها وصل الحارس وانحنى قائلاً : ان الامبراطور مستعدٌ ليجتمع بالقاضي مرسيلوس

فاجابه : حسناً ساحضر حالاً

وبعد ان رجع الحارس سألها مرسيلوس : متى ترغبين ان نجتمع ثانية وفي اي موضع ؟

– اذا لم تتيسر لنا المقابلة في هذا المساء فيكون غداً صباحاً في هذا المكان عينه

– هل هذا الحارس يخصكِ

اجابته : لا قد احضرت معي عبدتين فقط . وهذا الحارس يختص بخدمة هذا المكان

سألها ايضاً : هل انتِ امينة منه ؟

اجابته : نعم . انه مخلص ورزين ايضاً . ولكنني لست ادري هل يخاطر بحياته لاجلي . وقد خطر في بالي الآن انه يخبر جوليا انك كنت تقبلني ولكن لا يهمني من ذلك شي. فاذهب الان لان الشيخ يكون في انتظارك وهو ايس صبوراً. تعال اليَّ عندما يمكنك ذلك

فاخذها مرسيلوس بين ذراعيه وقبّلها ثم قال لها انني لن افتكر بمخلوقة سواكِ

* * * *

لم يشاهد مرسيلوس الامبراطور لآخر مرة الا منذ احدى عشرة سنة وكان وقتئذٍ في احتفال جمهوري

وكان مرسيلوس يتذكره رجلاً أشيب دميم الخلقة قوي الجسم قليل الانتباه الى الاشراف المحيطين به والى الجمع الغفير المجتمع في الميادين

لما تبوأ طيباريوس العرش لم يكن يحب الاجتماعات الكثيرة ولا الاسراف

كسلفه اوغسطوس . فأمل رجال مجلس الشيوخ كغاليو مثلاً خيره ونفعه . اما الشبان كمرسيلوس وغيره فانهم تمنوا له الموت لاعتبارهم اياه بخيلاً . ولما انتقل الى جزيرة كابري فقد شهرته تماماً لانه اصبح بعيداً عن مركز الدولة او كأنه استقال من منصبه او عُزل

ولما دُعي مرسيلوس للمثول بين يدي جلالته توهَّم ان يرى منه رجلاً متقدماً غير انه بعد وقوع النظر عليه تبيَّن له انه يوشك ان يموت ولكنه غيَّر اعتقاده حين سمعه يتكلم فقد ظهرت قواه العقلية والجسدية معاً

كان القيصر محاطاً بالوسائد ولم يبنْ منه سوى عينيه المجوفتين اللتين راقبتا مرسيلوس من خصاص الباب الى ان قعد في الكرسي . اما وجهه فكان جلداً على عظام بارزة ورقبته منكمشة مصفرة وعروق جبهته نافرة . واصبعه التي اشار بها الى الكرسي كانت شبيهة بمخلب نسر كبير

فانحنى مرسيلوس وغمغم قائلاً : جلالتكم

فامره طيباريوس بالجلوس وقال له : نرجو ان تكون قد عرفت شيئاً جديداً عن الرداء المسحور . فقد طال غيابك جداً . وقد اخبرني والدك عن صلب رجل مختلّ الشعور في اورشليم واوعز اليك بيلاطس ان تصلبه وقد اثَّر ذلك في عقلك . قل لي كيف انت الآن ؟

– اجاب مرسيلوس ان عقلي في حالة صحية تامة يا جلالة الامبراطور

– كل رجل مختلّ يظن هذا الظن . حتى انت تخال ايضاً ان قيصرك مختلّ الشعور

اجابه مرسيلوس ان المجانين لا يمزحون يا سيدي

– كيف تعرف انهم لا يمزحون ولم تر َهم كلهم . ثم اضاف قائلاً : لماذا نمضي الوقت في حديث لا طائل تحته وصل الى مسامعنا ان عبدك اليوناني هجم على كنتوس وقاتله بدون سلاح . هل هذا الامر حقيقي ؟

– نعم يا صاحب الجلالة انه حقيقي ولكن لم تصل الى مسامعكم تفاصيل الحادثة بتمامها وانا لا ابرّئ عبدي منها وما ازال مستاء مما جرى

– انك تكذب قال الامبراطور . لذلك لا نستطيع ان نصدق كل ما ترويه لنا . ومع هذا فاروِ اولاً ما حدث وبعدئذٍ نحكم له او عليه

فسرد له مرسيلوس الحادثة كما جرت تحت اشجار منزل يوبولس ولما وصل في حديثه عن ان كنتوس لم تبقَ صورة وجهه معروفة من اثار لطمات اليوناني له بقبضة كفهِ اهتمّ طيباريوس بذلك واشرق وجهه

ألا يزال العبد عندك ؟ كان يجب ان يُحكم عليه بالاعدام ومع هذا كم تريد ثمنه ؟

اجاب مرسيلوس انني لا اريد ثمنه ولكنني بكل ارتياح اعيرك اياه ما دمتَ انتَ ما دمتُ في قيد الحياة . ربما امبراطورك يعيش الى الابد . ماذا تعرف عن الحياة الابدية ؟

– ان يسوع الجليلي يعيش الى الابد

سأله طيباريوس : اتعني الرجل المائت هو الذي يعيش الى الابد ؟ قل لي كيف تجمع بين مماته وحياته ؟

– عاد حياً يا مولاي

– هذا كلام هذيان لا يُعتدّ به . ربما لفقت انت وانصارك عملية الصلب ايضاً لان والدك قال انك كنت سكران لا تعي شيئاً . فهل بقيت هناك الى ان تم كل شيء ؟

اجاب مرسيلوس : نعم انني بقيت هناك ولكي نتحقق موته ادخل قائد المئة حربته في قلبه ولم يكن من شك في موته حينئذٍ . وفي اليوم الثالث من الوفاة قام من قبره وعاد الى الحياة وقد شاهده اناس كثيرون في مناسبات مختلفة

فصرخ طيباريوس قائلاً : هذا غير ممكن فاين هو الآن ؟

– لا اعلم اين هو الآن ولكنني أوقن انه حيّ . وقد تناول فطوره مع اناس على شاطئ بحيرة الجليل . وكم من مرة تجلى شخصه فجأة في بعض البيوت ورأى الناس آثار قدميه عند مشيه وكان يتكلم ويأكل ويري جراحه التي لسبب ما لا تبرأ . ولم يهتم ان يفتح الباب حين دخوله احد البيوت ولا يشعر الناس بحضوره الا حين يرونه إزاءهم

واتفق في احد الايام أن سار رجلان على الطريق العامة وهما يتحدثان عنه فظهر لهما ورافقهما فدعواه لتناول العشاء معهما في تول يبعد عن اورشليم اثنتي عشرة غلوة

فقال طيباريوس : اذاً هو غير روح

– لا ليس روحاً ولكنه لم يأكل هذه المرة بل كسر الخبز وشكر لالهه وتوارى عن الانظار وبعد دقائق قليلة دخل الى بيت في اورشليم واذ وجد اصحابه على العشاء قعد يأكل معهم

فقال طيباريوس لا اظنه يدخل الى هنا لان المكان محاط بالحرس الملوكي

اجاب مرسيلوس : لا اظن ان ذلك يهمه . فهو يذهب الى حيث يريد . يفتح اعين العميان واذان الطرش . ويشفي البُرص ، والمفلوجين ، والمجانين . ولم اكن لاصدّق هذا كله يا جلالة الامبراطور الا حينما ظهرت حقيقته كظهور الشمس في رائعة النهار فايقنت بعدئذ بان يسوع يستطيع ان يعمل كل شيء.

– اذا كان بامكانه ان يعمل كل شيء. فلماذا سمح لهم ان يميتوه ؟

– انت يا جلالة الامبراطور مطلع على جميع الاديان ولا يفوتك ان اليهود معتادون ان يقدّموا ذبيحة دموية كفارة عن اثامهم . ومن المفهوم ان الجليلي قدم نفسه كفارة لهذا الغرض

سأل طيباريوس : وماذا ارتكب هو من الاثام ؟

اجابه مرسيلوس : لم يرتكب اثماً قط بل انه كفّر عن خطايا العالم كله

– اذا كان يقدر ان يكفر عن خطايا العالم كله . فهو يعلم اذاً حقيقة الخطايا

يعرف الذين اقترفوها . فهل انت احمق الى هذه الغاية حتى تصدّق كل ذلك ؟

— انني اصدّق يا صاحب الجلالة . وكان مرسيلوس يتكلم بانتباه ويزن كل كلمة يقولها . ان يسوع يستطيع ان يعمل كل ما يريده — في اي وقت — وفي اي مكان — دون ان يعترضه احد . ويعطي مَن يشاء بغير حساب ولا يبعد ان يزورك متى احب وكله شعور وعطف وحنان نحو الانسانية جمعاء . وذلك مما يعزيك

ولما كان طيباريوس يريد ان يستخبر اكثر عن ظهور يسوع واختفائه حسب مشيئته سأله قائلاً . فاذاً اين يكون عندما يتوارى عن العيان ؟ هل يمحق ذاته ؟

— النجوم لا تمحق ذواتها يا جلالة الامبراطور

— اذن تعتقد انه ربما يكون الآن في هذه الغرفة دون ان نراه ؟

اجابه مرسيلوس . ليس لك ما تخاف منه يا سيدي لان يسوع لا يكترث لعرشك ولا لغيره من العروش العالمية

— ماذا يعتقد ذاته اذاً

— يعتقد انه ابن الله

— وانت ماذا تقول به

— اقول انه اله وانه اخيراً سيملك العالم كله ولا يكون لملكه نهاية

— ماذا ؟ ايها الاحمق اتظن انه يهدم الامبراطورية الرومانية ؟

اجابه مرسيلوس : حينما يملك يسوع تكون الامبراطورية الرومانية قد زالت من الوجود . وامست سائر الممالك يسقط بعضها وراء بعض . وقد تنبأ عنها قائلاً : عندما يهلك العالم من شر الحروب والعبودية والبغض وما شاكل ذلك فانه يؤسس له مملكة ملؤها الخير والصلاح

قال طيباريوس : هذا لغو لا يُعتدّ به بحيث ان الصلاح لا يمكن ان يملك العالم

— هل جرَّبتم هذا جلالتكم ؟

— من المؤكد لا . انك لمجنون . مَن تجرأ قبلك ان يتكلم بكلام كهذا

في حضرتنا . انه يحيط بنا حمقى كثيرون يلفقون اخباراً غريبة ولكنك فقتهم جميعاً . فانه يشق علينا ان نسمع منك شيئاً من هذا فيما بعد

فسأله مرسيلوس قائلاً : هل تسمح لي بالذهاب يا جلالة الامبراطور

فسأله : هل رأيت ديانا ؟

اجابه مرسيلوس : نعم

— انها تأثرت جداً حين رجوعك الى رومية منذ سنة وقد خجلتَ انت ان تقابلها بسبب الضعف الذي طرأ على عقلك — ولكنها اذ أملت شفاءك. لم تأمل باحد سواك رفيقاً لها والآن تراك تعود اليها مدنس الاخلاق بهذا الهذيان الذي يرفضه العقل . انت مغترّ بالحنو والاصلاح . ماذا تنتظر ان تقول عنك ديانا الآن ؟ هل اعلمتها باختلال شعورك ؟

— لم نتحدث بشيء عن هذا الجليلي

فقال له الامبراطور برفق : ربما كانت رفاهية ديانا وسعادتها لا تهمانك . لكن الامر بالعكس فيما يختص بنا . فقد حان لك الوقت ان تهتم بامرها . فاترك هذه الحماقة

فجلس مرسيلوس ولم يردّ جواباً . غير ان طيباريوس اخذ يتفرس فيه ثم قال له : امامك طريقان ، إما ان تصمت عن الكلام بشأن يسوع وتلازم وظيفتك كقاضي روماني ابن شيخ روماني شريف ، او تتخلى عن ديانا ابنة غالوس لاننا لا نرضى ان نزوجها برجل احمق . ماذا تقول ؟

— اتريدون يا صاحب الجلالة ان تأذنوا لي ان اتمعن في هذين الطريقين او الشرطين

— كم يلزمك من الوقت ؟

الى الظهر غداً ؟

— ليكن كما طلبت . ولكننا لا نأذن لك ان تنظر الى ديانا لان المرأة حينما

تحب تحسر عقلها او شيئاً منه . وانت قادر ان تقنعها ان ترضى بك زوجاً لها ولكنها سوف تندم على هذا الزواج . فعليك انت ان تقرّر ما ابديته لك. فامض الآن وشاور نفسك

ولما تهيأ مرسيلوس للذهاب قال له الامبراطور قف قليلاً : انك لم تخبرنا شيئاً عن الرداء. فقصّ علينا ما تعرفه قبل ذهابك فربما لا نراك مرة اخرى

ولما استأنف مرسيلوس القعود على كرسيّة اخبر الامبراطور عن برئه عند لمسه الرداء. وكذلك اخبره عن شفاء ليديا حينما لمسته ايضاً . ولما رأى ان جلالته منتبه اليه شرع يحدثه عن العجائب الاخرى التي صنعها الجليلي في كفرناحوم وغيرها من البلدان . ثم ذكر له مسألة تشنائيل الشيخ فاهتم لهذه الرواية جداً . ولما قال له ايضاً ان يسوع هدأ العاصفة كما يهدّيء الرجل حصاناً شروداً صاح به الامبراطور :

– هذه كذبة جديدة زائفة . لان كثيراً من الآلهة تثير عاصفة ، اما هذا فانه يعرف ان يسكنها . ثم سأله ايضاً : اخبرني ماذا حدث للرداء المسحور ؟

اجابه مرسيلوس : انه لا يزال عندي

فقال الامبراطور : اذا كان عندك هنا فانني احب ان اراه

فاوعز الى الحاجب ان يدعو ديمتريوس وبعد بضع دقائق اقبل وامتثل امامه وحيّاً فافتخر به مرسيلوس لما له من جمال الصورة وطول القامة والوقار . وكذلك سُرَّ به الامبراطور حينما وقع نظره عليه فسأله أهذا هو العبد اليوناني الذي يقاتل قاضياً رومانياً بقبضة يديه ؟

فاجابه ديمتريوس : نعم انا هو يا صاحب الجلالة وافضل ان احارب بسلاح

– وما هو سلاحك ؟ أسيف ؟ او خنجر ؟ او غيرهما

– سلاحي هو الصدق يا جلالة الامبراطور

فالتفت عندئذٍ الامبراطور الى مرسيلوس وقال له : ان هذا الغلام لمجنون مثلك. ثم خاطب ديمتريوس قائلاً : قد افتكرنا فكراً حسناً ان نبقيك عندنا لانه لا يوجد

احد في جزيرة كاپري هذه يدري كيف يستعمل السلاح الذي ذكرته الا انت فعليك ان تبقى هنا . ولكن اذهب الآن وأتني بالرداء. ولما حنا رأسه ومضى سأل طيباريوس مرسيلوس قائلاً : ما هو نوع العجيبة التي سيحدثها لنا هذا الرداء ؟

– لست اعلم يا سيدي

– ربما تظن ان الاوفق ان لا اجرّبه

اجاب مرسيلوس : انني لا اجسر ان انصح لجلالتكم

فسأل طيباريوس بصوت المنزعج . اذا كنت مكاننا فماذا كنت تفعل

– كنت اتأخر عن لبسه

ولما عاد ديمتريوس الى الغرفة حاملاً الرداء المطوي على ذراعه وقف مرسيلوس وقدّمه الى طيباريوس الشيخ . فمدّ يده ليأخذه على سبيل التجربة . ثم ارجعها حالاً الى تحت لحافه وغمغم قائلاً : ابعدوه عني

الفصل الحادي والعشرون

لو ان الامبراطور طيباريوس دعا احد النبلاء الرومانيين ليتناول طعام الصباح معه في غرفة نومه لعدَّ هذا المدعوّ ذلك شرفاً عظيماً له وسُرَّ قلبه جداً ولكن دعوة جلالته لديانا ضايقتها

كانت ديانا تعدّ الساعات لتجتمع مع مرسيلوس في الصباح عينه بالنظر لمحبتها الشديدة له حتى انها لم يهمها شيء سوى ذلك . اما الان فان ميعاد اجتماعها به سيؤجل طبعاً وربما لا يتمّ اذا كانت المقابلة بينه وبين الامبراطور لم تنتهِ بالحسنى

ولقد سهرت ديانا الى منتصف الليل تتوقع ورود خبر منه فلم يرد عليها شيء من ذلك ثم غلب عليها النعاس فنامت نوماً متقطعاً . وما ان بزغ الفجر حتى نهضت من فراشها متهللة تنتظر فرصة سانحة لتخرج من غرفتها وتذهب الى دارتها حيث جمعهما التوفيق سابقاً

ولكن ماذا يمكنها ان تفعل الآن وقد دعاها الامبراطور اليه ؟ فكان ان اخفت فشلها عن الخدم واستعدت لتلبية الدعوة . فاخذت الخادمتان تساعدانها في لبس الثياب المزركشة لتُفرح قلب الشيخ وراحت افكارها تحدثها عما كان بالامكان حدوثه ليلة امس . ثم بدأت تناجي نفسها قائلةً : ربما يكون الامبراطور قد دبّر له ما يبقيه في هذه الجزيرة وبما ان مرسيلوس عرف كم انا توّاقة لمغادرة جزيرة كابري فمن المرجح ان يكون قد رفض الطلب وقد دعاني الامبراطور لاستعمال جميع الوسائط لاقناعه . وقد دلّتني فكرتي على ان هذا الاجتماع سيكون عقيماً

فارسلت اكتوس الخادم ليخبر مرسيلوس عن سبب عدم تمكنها من انجاز وعدها له . وبعد ان تظاهرت بالارتياح والبشاشة توجهت الى الامبراطور وقالت له :

انني لا اعدّ تنازلكم بدعوتكم اياي لتناول فطور الصباح معكم الا تلطفاً زائداً منكم . لذلك التمس من لدنكم العذر عن عاقتي الى هذا الوقت

اجابها قائلاً : قد تناولنا فطورنا من نحو ساعة ثم قال للحاجب : قدّم كاساً من عصير الليمون الى ابنة غالوس . ثم اخرج من الغرفة

وبعد هنيهة سألته : هل انتم متوعكو الصحة يا مولاي؟ حبذا لو كان بامكاني ان اعمل شيئاً لراحتكم

– ربما تستطيعين فقد دعوناكِ لاجل هذه الغاية

– انني ساعمل كل ما في وسعي واذ قالت هذا امسكت الكاس بيديها المرتجفتين خشية من ان يسقط

ثم خاطبها قائلاً : قد جرى حديث مطوّل بيننا وبين مرسيلوس الشاب الجميل الاحمق . واذكر انكِ اخبرتني مرة ان دوديئوس كان مجنوناً فانه شعاع من النور بالنسبة الى حالة مرسيلوس هذا

اجابت ديانا انني متكدرة جداً من سماع هذا الخبر فقد بقيت معه امس ساعة كاملة ولم يظهر لي منه شيء مخلّ

– ربما لم تتحدثا عن الامر الذي يتأثر منه . أتعلمين انه اصبح معتقداً تمام الاعتقاد ان يسوع هذا اله وانه سيملك العالم باسره

– لا لا . ارجو من جلالتكم ان لا تقولوا هذا

– اسأليه فقط . لا بل اذكري امامه اسم يسوع واسمعي ماذا يتكلم بشأنه

قالت ديانا : طبعاً يجب على مرسيلوس ان يخبر جلالتكم عن هذا اليهودي المسكين الميت لانكم لهذا الغرض ارسلتموه

– انه يصرّح ان هذا اليهودي المسكين الميت قد عاد الى الحياة وجال في البلاد وتكلم واكل مع الناس ولا يزال يجول كما يعتقد هو وانصاره ولا يبعد انه يظهر بغتة حيث يشاء وحين يشاء

– ربما انهم لم يقتلوه . فاجابها من المؤكد انهم قتلوه ومرسيلوس يتيقن انه عاد الى الحياة

فسألت ديانا : هل رآه ؟ اجابها ثانية لا ولكنه يؤمن ان يسوع هو الاله الذي سيسيطر على العالم ويملك بقوته الفائقة بدون افتقاره الى جيش

فهزّت ديانا رأسها وقالت قد ظننت انه شفي تماماً . وقد تبيَّن لي من كلامكم ان حالته صارت من سيء الى اسوأ

اذا كان من شيء يمكن عمله فعليكِ انتِ ان تعمليه . دعيني اذكّرك ان اهتمامنا بهذا القاضي الصغير المختلّ هو من اجلكِ فقط ولهذه الغاية ارسلنا فاستدعيناه من منوع . وكذلك اوجدنا له وظيفة في خارج البلاد ليعود عقله اليه . ومع هذا فقد اخطأنا في ارساله اليها . وقد امسينا الآن غير قادرين ان نفعل شيئاً وهو يعرف حق المعرفة ان لكِ عليه يداً بيضاء وهو يحبك كثيراً . ربما تؤثرين عليهُ فتقنعيه ان يدع هذا الجليلي وشأنه ولا يعود يهتم به ولكنني اؤكد انكِ لا تستطيعين ان تعملي شيئاً لان ايمانه به ايمان حقيقي

– اذاً لماذا لا ندعه يؤمن به . انني احب مرسيلوس من صميم قلبي ولا يهمني ايمانه به او بغيره . على اني ساجرّب ان اصرّح له بانني لا اهتم بسماع شيء يتعلق بهذا الجليلي فربما يضرب صفحاً عن ذكره بعدئذٍ

قال لها الامبراطور : ولكن المسألة لا تقف عند هذا الحد . فلو ان مرسيلوس كان كأحد السياح في الجليل ووقف على هذه القصة الغريبة وآمن بصحتها فلربما كان اعتقدها انها من عجائب ايام الاسبوع السبعة ثم لايلبث بعد يسير من الوقت ان ينساها ولكن مرسيلوس يرى نفسه مضطراً ان يعمل شيئاً حسناً مقبولاً في سبيل يسوع لانه صلبه ولأن له ايضاً في ذمته دَين لا مناص منه له من ايفائه وهو اعظم جداً من الدين الذي لكِ عليه

فتأثرت ديانا وسألته اذا كان مرسيلوس قال هذا القول

اجابها لا . لم يقل شيئاً من هذا ولكنه لسوء الحظ ذو ارادة قوية واخلاص عظيم وهذا سيسبب لك وله تعباً عظيماً . اذ يرى نفسه كما قلنا مضطراً ان يشترك في حركة الجليلي

اعادت ديانا قائلة : ألحركة ؟

نعم . اجابها طيباريوس : وهي تثير نار الثورة وقد امتدت الى ولاياتنا الفلسطينية . ويعترف الالوف من الناس ان يسوع هذا هو المسيح الممسوح ولهذا السبب يدعون انفسهم مسيحيين . وهذه الحركة تتقدم بسرعة وبقوة نحو مكدونية والبلاد التي ما بين النهرين

فاصغت ديانا محدقة بصرها في طيباريوس وسألته قائلة أتعنون جلالتكم انهم يقصدون ان يدمّروا المملكة ؟

اجابها ليس بالقوة . فلو اعتلى شاب جاهل عربة ما واخذ ينادي الشعب ويحرضهم على ان يشهروا اسلحتهم على رؤسائهم فلا يلبون طلبه . ويسوع هذا يأتي بدون جيش ولا تهمه المسائل السياسية . بل هو من ذاته لا يريد عرشاً وليس لديه وظائف ليوزعها على مناصريه ولم يكن ليحارب او يحمل سيفاً او شيئاً يؤهله ان يكون قائداً . لكنه يفتح عيون العميان ويجعل العرج يمشون . فيقتلوه لانه هيج الشعب فيعود من القبر ويقول اتبعوني وانا احرركم . فاذا آمنوا بكل هذا فلماذا لا يتبعونه ؟ يوجد انواع كثيرة من الشجاعة ولكن اقواها هي شجاعة اناس ليس لديهم ما يخسرون

– هل تظن ان مرسيلوس من هؤلاء المسيحيين ؟

– من غير بدّ وقد اجترأ ان يتفوّه امام ذاتنا الملوكية ان المملكة الرومانية على شفا الخراب والدمار وهذا امرٌ من الخطورة بمكان عظيم . وبما انه قد تلفظ بهذا الكلام علانية امامنا فلا ريب انه يبدي هذه الملاحظات للشعب

فقالت ديانا وهي خائفة : ربما يحاكم كخائن

– نعم ولكن لا يهمه شيء . وهذا الامر الغريب المقلق في هذه القضية

الجليلية الجديدة . لان يسوع حوكم لاجل الخيانة وحُكم عليه بالصلب فصُلب غير انه قام من الموت ويعتني بكل اتباعه الذين يضحّون بحياتهم في سبيل اتباعه . لذلك لا يخافون

ولكن ماذا ينتفع مرسيلوس اذا تنبأ بخراب المملكة ؟

اجابها طيباريوس هل تظنين ان المملكة الرومانية باقية الى الابد

– لا لم افكر بهذا الامر مطلقاً

– لا . ربما لا واخذ يناجي نفسه قائلاً . يلذُّ للانسان ان يراقب هذه الحركة تتقدم واذا بقيت تتقدم هكذا فلا شيء يقف في سبيلها ولكنها ستسقط عن قريب

قال طيباريوس : مسكين مرسيلوس قد وعدناه ان يقابلنا اليوم عند الظهر . وقد افهمناه اننا لا نريد ان نسمح لكِ ان تلقي نفسكِ في وهدة الخطر بزفافكِ الى رجل يُشغل اوقاته وافكاره بقضية يسوع الخطرة واذا بقي مصرّاً على الاشتغال فيها فانه يخسر اصدقاءه وحياته ايضاً . وكذلك قلنا له ان يختار احد امرين اما ان يترك يسوع وجماعته او نتركه وشأنه ونزفكِ الى غايوس

فرجته ديانا قائلة : لا يا مولاي لقد صرحت لجلالتكم انني احب مرسيلوس لا غيره

فاجابها : اننا نقرّ ان لغايوس غلطات ما ولكنه يقدر ان يجملكِ اميرة فتعيشي سعيدة معه اكثر مما لو كنتِ زوجة مجنون يحبّ خيالاً

– وماذا كان جوابه لجلالتكم لما ذكرتم له انكم تجعلونني زوجة لغايوس

– التمس منا مهلة الى ظهر هذا النهار ليتمعن في هذا الامر . ثم تفرّس في وجهها ليرى تأثير هذا البلاغ المؤلم في فؤادها

قالت ديانا كانها تخاطب نفسها : انه التمس منكم ان تمهلوه ريثما يرى هل يسلمني الى غايوس ؟

اجابها طيباريوس : نعم ونظنه يفعل ذلك مع حبه العظيم لكِ . وهيهات ان

يتخلى عن محبته ليسوع وهذا ما عنيناه حينما قلنا لكِ ان هذه الحركة المسيحية ليست امراً بسيطاً تافهاً اذ كل الذين يؤمنون به يضحُّون بكل ما عزَّ وهان. وهذه حالة مرسيلوس فانه لا شيء يهمه حتى ولا انتِ

فقالت ديانا : اذا لا فائدة لنا مضمونة من الكلام معه

– لا بأس اذا جرَّبتِ . وقد اخذنا منه وعداً بان لا يجتمع بكِ الا بعد ان يختار احد الشرطين اللذين شرطناهما عليه ومع هذا سنرسل نعلمه انه معنيٌّ من انجاز وعده لانك ربما تستطيعين اقناعه . وتظاهري امامه انكِ لا تعرفين شيئاً عن مسألة غايوس

* * * *

جلس كلٌّ من مرسيلوس وديانا بازاء بعضهما في رواق دارتها المطلة على البحر الهادى. وكان غير باقٍ لمرسيلوس سوى نصف ساعة ليجتمع مع طيباريوس الشيخ . ومن المعلوم ان الشيوخ مهما كان خطأهم جسيماً فانه يهمهم جداً المحافظة على الوقت

وبعد ان تحادثا وقتاً غير قليل القت ديانا رأسها على صدر مرسيلوس ولما كانت تتنهد احياناً كان هو بدوره يحنو عليها ويطوقها بيديه

وكانت ديانا عندما اجتمعت معه منذ ثلاث ساعات تحسب بل تعتقد ان تبادل اسباب الحب بينهما سيحلّ لها هذه المشكلة . وقد اظهر لها مرسيلوس من عواطف الحب والحنان ما اهتزت له اعصابهما لانهما شعرا بل ايقنا بان لا احد يقدر ان يفرق بينهما فابتهج قلب ديانا من الفرح وقالت ما دمنا انت لي وانا لك ليفعل العالم ما يشاؤون – سواء سقطت المملكة ام لم تسقط ليذهب يسوعُ ويصنع خيراً الى الابد ويملك على الشعب بالصلاح . ليحارب العالم او يهلك جوعاً فلا يستطيع احد ان يفرّقنا . ولما رفعتْ راسها طبع مرسيلوس قبلة في عينيها وسمع نبضات قلبها . فقالت له : تعال نجلس ونفكِّر في الجواب الذي تردّه للامبراطور

لجلسا متلاصقين ثم ابتعدت عنه ديانا قليلاً وكانت نار الحب في قلبها تشعُّ من عينيها . اما شفتاها فكانتا هادئتين فقالت له : دعنـا نقرّر ما يجب ان نقوله للامبراطور لانه يرغب لي ان اعيش عيشة الاميرات في صفو بال وهو يعرف حق المعرفة انني احبك فقلْ له ان يعهد اليك بوظيفة ما في رومية

فذكرها مرسيلوس بان الامبراطور يريد منها ان تسكن في دارتها بكابري اجابته ولكننا نقدر ان نقنعه ان يغيّر رأيه لان الدارة لم يكمل بناؤهـا بعد ولا يمكنه ان يراقب البنائين لانه مريض . فربما يسرُّه الا يهتم بشأنهـا في المستقبل . دعنا نقول له اننا نريد ان نذهب الى رومية لزيارة والدينا ربما يرضيه هذا الامر

اجابها مرسيلوس ربما يوافق عليه لانه ما من احد يدرك نيته

فاستطردت ديانا بحرارة وعندئذٍ تستطيع ان تفعل ما تشاء . فتجدّد صداقتك مع اصدقائك وتجتمع معهم في النادي حيث كنت تصرف اكثر اوقاتك فيه باجراء التمارين والاستحمام

— كان هذا قبل ان عرفت ما اقتضى ذلك النادي الرخامي من النفقات

— آه يا عزيزي لِمَ لا تكفّ عن شغل بالك بامور كهذه . انك تتوجع من اجل العبيد الذين حملوا رخامه من المقلع وايضـاً الرخام الذي نحن قاعدون فوقه . وكذلك الرخام الذي في منزلكم . انني اصوّب رأيك واوافق عليه واتأسف على ان يكون بعض الناس عبيداً لبعض ولكن ما الذي تستطيع ان تفعل انت وحدك تجاه هذا الامر الواقع

— تنهد مرسيلوس تنهداً عميقاً وهزّ رأسه . ثم استوى جالساً وظهر بريق الفرح في عينيه وقال لها : سأقصُّ عليكِ قصة رجل غريب عجيب

تغيّر الشعاع الذي كان في عيني ديانا وقالت له : اذا كانت قصة الرجل الذي تعنيه افضّل ان لا تقصّها عليَّ لانه سبّب لك اتعاباً كثيرة فقد حان لك الوقت ان تنساه لانني اعتقد انه لم يُحسن اليك

اجاب مرسيلوس كما تشائين . وقد زال بريق الفرح من عينيه وسكت فالتصقت فيه ديانا وهي نادمة وقالت : لا بأس قل ما تريد ان تقوله عنه

وكان مرسيلوس يتوقع هذه الفرصة الثمينة ليخبرها على يسوع وقد استعدّ لهذا الامر منذ ايام لانها لا يسهل عليها ان تفهم حالاً وربما لا تصدّق هذه القصة . راجع بذاكرته جميع ما يحاول ان يطلعها عليه من اخبار يسوع وتعاليمه وبيان عجائبه وانه محرّر طبيعة العالم باسره

اما الآن وهي ملتصقة به فقد افتكر ان يخبرها بادىء بدء مسألة يوناثان والحمار ولما اخبرها عنها قالت : كيف اخذوا الحمار من يوناثان واعطوه لتوما فان ذلك يُعدّ عملاً دنيئاً

فوافق مرسيلوس على صحة اعتقادها وقال انه كانَ عملاً عنيفاً ولكنه جعل منه رجلاً صغيراً

— ولماذا يجعلون منه رجلاً وهو ما يزال في سن الحداثة ؟

ولما رأى مرسيلوس ان كلمة رجلاً صغيراً لم تكن مناسبة اخبرها كيف كان شعور الاحداث نحو يسوع باجتماعهم حواليه وهو في محل النجارة وكيف كانوا يتبعونه عندما يعود مساء الى البيت

ثم اخبرها كل شيء عن مريم وصوتها وعن العرس وكيف انها كانت تعيسة ولما منحها يسوع رخامة الصوت اصبحت مبتهجة سعيدة ترتل لاهالي القرية فتفرج همومهم وتفرح قلوبهم بعد تعب النهار

— هل كانت مريم هذه تحب يسوع ؟

— نعم بل كان الجميع يحبونه ؟

— اظن انه كان يفتكر انه من الخطإ ان يحب الانسان شخصاً واحداً

— ان يسوع لم يكن شخصاً عادياً وكذلك قدرته الفائقة الوصف كانت غير عادية ايضاً وكان شعوره بان حياته تختص بالعالم قاطبة

واهتمت ديانا ان تستفهم اكثر عن اعمال يسوع فسألته : وما هي الاعمال العجيبة التي قام بها ايضاً وقبل ان يحدثها بقصة ليديا رأى ان يخبرها عما اصاب عقله من اذى الثوب الذي أجبر على لبسه ليلة الوليمة

فقالت له هذا يسوع المسكين كان قد تألم كثيراً . فلم يكن معهم الحق ان يستهزئوا بشبابه . وكان شجاعاً ولم يؤذِ احداً

ولما لمس مرسيلوس شعورها الحقيقي مع يسوع اخذ يقص عليها ما حدث له ذلك النهار في اثينا وكيف انه قصد الانتحار ليتخلص من حياة اليأس وكيف انه لما لمسه ثانية شفي شفاء تاماً

فاغرورقت عينا ديانا بالدموع عندما رفعت راسها وتطلعت فيه وقالت ارجح ظني انك شفيت عند لمسك اياه لانه كان يختص برجل وحيد

اجابها هذا ما احسست به حينما وضعته على ذراعي . فضلاً عن شعوري بصداقة قوية انعشت آمالي وجددت في نفسي حب الحياة . اتصدقين يا ترى ما اقول ؟

اجابت : نعم اصدق ما تقول واذا كنت عجبت مما جرى لك اولاً بواسطة الرداء المذكور فلا اعجب كثيراً مما جرى لك اخيراً . ثم سألته ان يبين لها مسألة ليديا وبعد ان بيّنها مفصلة قالت له كم كان صعباً عليها ان توسّع لها طريقاً بين الجمع الغفير لكي تصل الى يسوع . ولما قالت هذا اضطر مرسيلوس ان يحدثها عن ذلك الجمع

فقال : ان اولئك المساكين كانوا يتركون انوال الحياكة وآلات الحراثة ويتبعونه اياماً عديدة ينامون في اثنائها على الارض جائعين منهوكي القوى ليكونوا قريبين منه . وكانت ديانا مصغية اصغاء بشوق وسرور وهي معجبة بقصة الجليلي وما كاد يفرغ من حديثه حتى سألته : اتؤمن انت حقيقة انه حيّ ؟ فاجابها بالايجاب . ثم اكمل الرواية عن ظهوره مراراً في تلك النواحي

— وهل تعتقد ان استفانوس رآه رأي العين ؟

– وهل تجدين هذا صعباً تصديقه بعد كل ما سمعتهِ مني ؟

– اريد ان اؤمن بما تؤمن به انت يا مرسيلوس . وما ان فاهت بهذه العبارة حتى ضمّها الى صدره وقبّل فاها ووجنتيها بفرح شديد وقال لها ان مشاركتكِ اياي في هذه القصة كانت لها في نفسي احسن وقع لانه مع علمي بشعورك بالامور الفائقة الطبيعة لم اكن انتظر منكِ ان تفهميها بسرعة زائدة

حسناً . قالت ديانا ، ان هذا امرٌ مختلف اما الذي خشيته هو ان هذه الرواية ربما تؤثر على حياتك ولكنها رواية والحق يقال مجد ذاتها جميلة يا مرسيلوس . ليس علينا في ادراك كنهها فيجب ان نعيش عيشة هنيئة كأنه لم يحدث شيء.

فاجابها بعد سكوت وتفكر عميق : اعلمي يا عزيزتي انها اثرت على حياتي اشدَّ التأثير ولا اقدر ان اعيش متصوراً او مقتنعاً بانها خيالية لم تحدث

– اذاً ماذا اعتمدت ان تعمل ؟

– لست اعلم تماماً . انما الذي اعلمه هو ان عليَّ واجباً . ولو حاولت ان اعيش كما كنت سابقاً لما استطعت ذلك مطلقاً

ثم وصف لها بحماسة شديدة الحالة الغريبة الظاهرة في البلاد فقال : ان الحادث الذي اثّر في سكان الجليل لم يكن ابن ساعته بل اهتزَّ له العالم اجمع لان سكان الارض كافة عاشوا آلافاً من السنين بغير رجاء مستعبدين اذلاء جائعين وكان الرؤساء والزعماء يقتلون وينهبون العاجزين

ثم استطرد حديثه قائلاً والغضب بادٍ على وجهه انظري الى سجلّنا فترين ان المملكة الرومانية قد اتخذت نحو نصف العالم عبيداً لها . وقد ظننّا اخضاعها لتلك الولايات الصغيرة دليلاً على الشجاعة فاذا هو ظلم وعدوان

كذلك انظري الى النقش العظيم والالواح النحاسية المدبجة بالنقوش العظيمة المفروزة بصورة خاصة للامبراطرة والفرسان والولاة والقواد والقضاة الذين بلا شفقة ولا وجدان ذبحوا من وصلت اليه ايديهم من الناس العاجزين عن المدافعة عن حقوقهم

وحقوق بلادهم ونحن نقدّسهم ونفتخر بفظائعهم واعمالهم الشائنة

يا حبيبتي ديانا اسمعي وعِي ما اقصه عليكِ: بينما كنت مسافراً في المركب الذي اقلّني الى بلدي اتجهت افكاري نحو عظمة رومية والآثار التذكارية التي في الساحة العامة والقصور الفخمة الرخامية وتذكرت عندئذٍ ان هذه الاشياء المهمة الجميلة اما ان نكون سرقناها من امم ارقى منا معرفةً وذكاء او اننا بنيناها من الاموال الاميرية التي اغتصبناها من البؤساء والجياع . وقد كرهت نفسي هذه الافعال الدنيئة التي يسمونها بسالة

فقالت له ديانا : ولكنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً كما قلت لك

اجابها مرسيلوس وكانت عاصفته قد هدأت نوعاً : يا رومية المنيعة العائشة في الكسل والرفاهية التي دفعت ثمنها اكيتانيا وانكليا هسبانيا وغلاطية وكريت وكبدوكية وبونتس وتريس تلك المدن التي كان اهلوها البؤساء يصرخون من الم الجوع . نعم ابطالنا يستهزئون بيسوع لانه اعزل لا سلاح له ولا جيش وانهم يعدّونه ضعيفاً لكونه سفك دمه كفّارة عن خطايا البشر . ولكن سيأتي الوقت الذي يحصل فيه يسوع على ما يريده

فتنهدت ديانا وسألته : وما تودّ ان تفعل اذاً ؟

– انني في الوقت الحاضر متأكد ما لا يجب ان افعله وهو ان لا اذهب الى نادي القضاة حيث اجلس متكاسلاً متظاهراً انني نسيت الرجل العظيم الذي يستطيع ان يخلص العالم يكفيني ارتكاب هذا الاثم وانا بريء الساحة من هذا العيب

سألته ديانا : هل يدور في خلدك ان تتبرأ من اصدقائك وتتمسك بهؤلاء العبيد المساكين وتجول معهم ؟

– نحن العبيد المساكين لا هم يا حبيبتي لانهم باتباعهم يسوع الجليلي الالهي يكونون سائرين الى ساحة الحرية الرحبة ومع كونهم مكبّلين بالسلاسل فان نفوسهم مطلقة لا مكبّلة

سألته ديانا هذا السوآل وهي مصفرة الوجه : لا اظنك تريد ان تلتحق بهم ؟
فمغمغم مرسيلوس قائلاً : قد التحقت بهم وتمّ ما تمّ

واذ سمعت ديانا هذا انتصبت واقفة مظهرة خيبة املها وقالت له : يمكنك اذاً يا عزيزي ان لا توقعني في هذه الورطة وكانت دموعها تتساقط كالمطر . وبعد ان كفّت عن البكاء خاطبته قائلة : اذا شئت ان تزول حالتك الى الخراب وتفقد احترامك وتمسي هزأةً بين الناس فليكن لك ما تريد

ثم عادت فجلست بقربه وطوقته بيديها وقالت مكتئبة : انك تتوهم يا مرسيلوس ان تنشيء عالماً جديداً وتخلق اشياء من العدم مع علمي بدرايتك وذكائك . فاذا كفَّ الناس عن العداوة والمقاتلة وعاشوا كما يشاء يسوعكَ بسلام وامانة ورحمة فحينئذٍ يصبح العالم من نفسه جديداً . ويبتعد عن الحسد والبغضاء والانتقام ويشبع هؤلاء الصغار المساكين ويعيشون بطمأنينة . ولكن لم يحن بعد ذلك الزمن الذي نعلّل النفس به . فلماذا اذاً نجمل انفسنا من الان يائسين عادمي الرجاء بل لماذا تلقي بنفسك الى الخارج ثم تنهدت وقالت انك تجرح قلبي . ألا يهمّك امري ؟

اجابها : يا حبيبتي انني افضّل ان اموت ولا اراكِ حزينة . غير انه لم يبقَ بارادتي ان اختار الطريق التي يجب السير فيها . ولما كان موعد الاجتماع مع الامبراطور قد قربت ساعته رفعت عينيها وتطلعت الى نحو الساعة وقالت لمرسيلوس لقد حان الوقت يا حبيبي يجب الأ تدع جلالته ينتظرك . عد اليَّ اليوم بعد الظهر واخبرني كل ما يجد

فضمها الى صدره وطبع قبلة على وجنتيها ثم قالت . ان سعادتنا لا تدوم لانها جميلة وحلوة جداً . فاذهب الآن ، ساحاول ان افهم ما ترومه واعلم ان محبتي لك تزيد ولا تنقص . ثم همست في اذنه قائلة : ارجو ان يسوعك يهتم بك

– هل تصدقين ما قلته لكِ عنه ؟

— نعم يا عزيزي انني اصدق

— اذاً فهو يهتم بكِ ايضاً

* * * *

كان الحاجب منتظراً مجيء مرسيلوس فلما وصل مضى به الى الجناح الملوكي . ثم فتح له الباب ووقف على حدة فدخل مرسيلوس واغلق البـاب وراءه . وعند اقترابه من السرير الملوكي حنا هامته وانتظر اوامر الامبراطور فلما تفرَّس في وجهه قال له : يظهر انك قرَّرت اختيارك ليسوع

فاجابه مرسيلوس بالايجاب مطرقاً بنظره الى الارض

ثم حدث سكوت دام بضع دقائق

ثم قال له الامبراطور الشيخ : إذَنْ اخرج من حضرتنا

فابطأ مرسيلوس قليلاً . ولما رأى الامبراطور منه ذلك صاح به : اخرج يا احمق . فخرج حالاً وهو يسمع صياح طيباريوس يردّد قوله له انت احمق وستموت لاجل حماقتك . وحقاً انك احمق شجاع وشجاع احمق

* * * *

فلما خرج رأى الحاجب ينتظره في البهو فقال له اذا كنت مستعداً يا سيدي فان الكرسي بانتظارك ليحملك الى المرفأ وامتعة سفرك نُقلت في الحال

— عندي مقابلة اخرى لا بدَّ منها . اجابه الحاجب : ولكن هذه ارادة الامبراطور ، وعليك ان تذهب في الحال

— ألا يُسمح لي ان ابحث عن عبدي واكلمه كلمة فقط ؟

— ان عبدك اليوناني صدر الامر بسجنه حالاً لانه لم يُرد ان يرزم لك حوائجك فاضطررنا ان نبقيه هنا

– هل قاتل احداً ؟

– نعم قاتل احد النوبيين . ان عبدك شرس جداً ولكن النوبيين سيعلمونه كيف يتصرف احسن . ثم حنا الحاجب راسه واشار الى الكرسي الفاخرة .. فوقف اربعة رجال على مقربة منه وانتظروا قدوم المسافر ووقف خلفه عدد من حرس القصر

فقال الحاجب الوداع يا سيدي . ارجو لك سفرة سعيدة

الفصل الثاني والعشرون

كان قد انتشر الخبر على ظهر الزورق الوسيع انه عند وصول المسافر الذي يتوقعون حضوره يجب ان يُقلع الزورق في الحال بدون ابطاء . ولما اقترب الكرسي من معبر المرفأ ابدى الركاب الواقفون على الدرابزون اهتماماً شديداً . الا ان شيوخ مجلس الاعيان النبلاء الذين لم يكونوا من قبل معتادين ان ينتظروا مجيء قاض متأخر عن ميعاد السفر شعروا بضجر وسآمة لا مزيد عليهما

فتحرّك الزورق حين ركوب مرسيلوس فيه وكان عدد الركاب ينيف على العشرين وقد قعدوا على كراسيّ انيقة تحت مظلة فخمة مزركشة . وكان النسيم العليل يمرّ بالخليج فتختلج مياهه المائلة الى الزرقة بما يأخذ بمجامع القلوب ويُسرّ وكان يُسمع لصوت المجاذيف لطمات متوازنة

اما مرسيلوس فقد جلس بمعزل عن جماعة المسافرين يراقب اسكلة بيتولي . وبعد قليل خرج من عنبر الزورق الفسيح اثنا عشر نوتياً يحملون فوق رؤوسهم المحلوقة صواني فضية وقدّموها الى الركاب وفيها عدة اطعمة شهية تكرَّم بها الامبراطور . لكن مرسيلوس لم يكن جائعاً ليأكل منها شيئاً

كان من الممكن ان يصل الزورق « اوغسطا » الى رومية بمدة يومين لا غير بحيث كان سيره سريعاً جداً . غير ان مرسيلوس لم يخطر على باله لاول مرة في حياته ان يعرّج على منزله لانه يضجر من كثرة سؤالات العائلة وجوابه عليها بما يتعلق بقصة الجليلي . فان والده سيخيب امله ويغضب عليه . ووالدته ستلجأ الى البكاء . وشقيقته لوسيا ستشعر معه ولكن على سبيل الشفقة . وما عساه ان يجيب صديقه الحميم

تولوس حين يسأله ماذا عملت في هاتين السنتين . لذلك صمّم النية على عدم الذهاب الى رومية

ولما مالت الشمس الى المغيب مشى الى ناحية رئيس الملاحين وسأله ٠ هل يرسو الزورق في ميناء اوستيه ؟ فكان جوابه له بالنفي

ولما خيَّم الغسق هبَّت من ناحية الشرق نسمات الصباح المنعشة للارواح ولم يكن من احد على ظهر الزورق فولج مرسيلوس غرفته واخرج رداء يسوع من كيسه الكبير وطواه عدَّة طيات والفّه حول خصره وشدّه بحزام

وكان والده قد بعث اليه بصحبة مرسيپور هدية موضوعة في صرَّة عقيب وداعه اياه حينما سافر الى جزيرة كاپري حيث كان الامبراطور يتوقع حضوره ٠ ولكنه لم يفتحها الا بعد ان اجتمع هو وديمتريوس على ظهر المركب «كليو» ٠ ولا تسل عما اعتراه من الذهول لما رأى من عطف ابيه عليه بعد ان جرى ما جرى بينهما من سوء التفاهم والنفور . فقد حوت تلك الصرة كمية وافرة من النقود الذهبية القيّمة لينفقها في سبيل احتياجاته في ديار الغربة كأنه يقول له انه يمكنه الذهاب في طريقه الخاص

ثم خلع مرسيلوس رداءه عنه ووضعه في الكيس الكبير مكان الرداء واضطجع في سرير حجرته ريثما ينقضي الليل ٠ وكانت افكاره اذ ذاك متجهة نحو ديانا وابعادها عنه ٠ وكان يكرر نظره الى ساعة جيبه الصغيرة الموضوعة على مائدته من آن الى آخر ويقول في نفسه اذا صدق ظني فان الزورق « اوغسطا » يدور حول كاپيا عند منتصف الليل

اخيراً خرج من حجرته وتوجه نحو مؤخر السفينة وكانت امتعته مربوطة بحزامه الثقيل فلم يعره الحارس اهتماماً لاول وهلة غير انه قال في نفسه اذا سعيت في خدمته ولو قليلاً فربما اربح منه شيئاً

فقال له ان النور الذي تراه يا سيدي هو منارة كاپيا . أتريد ان احضر لك كرسياً ؟ اجابه مرسيلوس بالايجاب. ولما ذهب الحارس لقضاء غرضه غطس مرسيلوس

في البحر بكل هدوء واخذ في السباحة وقبل ان يصل الحارس بالكرسي وينبّه غيره من الحرس كان مرسيلوس قد توارى في الظلام عن العيان • وفي الحال توقفت حركة المجاذيف واخذ النوتية يلتفتون الى كل جهة ويفتشون عنه واذ لم يجدِ التنبيه والتفتيش نفعاً اضطر الزورق الذي كان بينه وبين رومية مسافة بعيدة ان يواصل مسيره اليها

اما مرسيلوس الذي فرّ تحت جنح الليل من امام عيون رجال الزورق «اوغسطا» وركابه فقد عانى كثيراً من الصعوبة والتعب نظراً لطول المسافة التي قطعها في سباحته للابتعاد عن الانظار ولم يختبرها قبلاً ولم يحلم بها في حياته • واما الذي زاد في تعب جسمه مع ما هو عليه من القوة والشجاعة فانما هو ثقل هذه الدنانير الذهبية التي كانت في منطقته وكذلك تلبّد ثيابه من الماء

وحيث انه وُجد نفسه في هذه الحالة الحرجة اخذ يتفكر في طريقة تنقذه منها فعوّل على خلع ثيابه المبللة التي كانت تعوقه في السباحة ولكنه ما لبث ان رجع عن فكرته ففضل عوقها وتعبها على ان يدخل الى كابيا بدونها ثم حاول نزع حذائه فلم يستطع نزعه الا بتمزيقه فتركه

وبينما هو في هذه الحالة اذ لمح نور منارة كابيا يزداد اشراقاً فعلم ساعتئذٍ انه صار على مقربة من شاطئها الذي لم يصل اليه الا بعد ان تقاذفته امواج ذلك البحر العجاج يميناً وشمالاً

ولما وجد مرسيلوس نفسه سالماً تهلل وجهه وابتسم بعد ان كان عابساً مقطب الجبين • وبعد قليل انتصب على قدميه وطفق يبحث عن بقعة ناشفة يضطجع فيها الى ان تيسر مطلوبه فنام حتى بزوغ الفجر ولكن نومه كان متقطعاً لتبلل ثيابه وشدة شعوره بتعبه • ولما اشرقت الشمس نشر الرداء على الرمل فنشف حالاً فلبسه فوق ثيابه المبللة وشعر اذ ذاك بدفء علاوة على سروره الشديد بنجاته

وبعد قليل من الوقت احسّ بالجوع فتقدم من كوخ احد صيادي السمك وطلب

منه طعاماً فلم يعطه فقصد في الحال فندقاً لاحد البحارة فاعطاه رغيفاً اسود وحساء (شوربا) ولما فرغ من طعامه وهمّ ان يُخرج كيس الدراهم ليدفع منه ثمن ما اكله ، اجتمع حواليه كثير من البحارة المذكورين ولما لم يكترث لهم ولا ابدى ادنى خوف من كثرتهم تركوه وشأنه

فسار في شوارع كاپيا المدينة القذرة واذ رأى ان منطقته الغالية الثمن لم تبقَ صالحة لشيء اخفاها في صدر ردائه . ثم واصل طريقه الى قرية تبعد ثلاثة اميال حيث ابتاع كيساً متيناً من جلد المعزى وافرغ ماله فيه ورمى بالمنطقة البالية في احد الآبار

وقبل وصوله الى قرية اخرى خلع عنه رداءه ولفَّ فيه صرّة الذهب الثقيلة الوزن التي كاد يغرق بسبب ثقلها في البحر واشترى رداء غيره . واذ كانت الشمس قد ارتفعت في الافق حمل مرسيلوس رداء يسوع الجليلي على يده وسار في ازقة تلك القرية غير مفكر فيما يفعل الا انه لم يكن يائساً ولا خائفاً من شيء . بل لم يشعر بوحشة في انفراده وابتعاده عن وطنه واهله لان ذلك الرداء كان له خير رفيق

ولقد كانت تلك القرية على جانب من الجمال بمناظرها البديعة واشجارها الباسقة واطيارها المزقزقة وازهارها الفوّاحة الشائقة النابتة حول الساقية . فكان ذلك كله لعيني مرسيلوس قرّة ولقلبه مسرّة . وبعد هذا تمعّن في لباسه فوجد نفسه مختلفاً عن عادته . ونام تلك الليلة في الفلاة وجعل الرداء غطاء له وتذكّر اذ ذاك كلام يستوس الذي قاله له : للثعالب اوجرة وللطيور اوكار ولكن لم يكن ليسوع فراش لينام عليه ولا مسند ليسند راسه اليه

وكان كلما جذب الرداء اليه يشعر بدفء وراحة وطمأنينة . ثم دار ذكر حبيبته ديانا في خاطره ولكن لم ييأس من ابتعادها عنه . ونهض متنشطاً واغتسل بمياه الساقية الباردة وكان فطوره من الكبوش البري

ثم سمع اصوات اصحاب عربات النقل تُعلن ان السياح الذين على راس التلة قد

اقتربوا من اربينو . فتذكر مرسيلوس ساعتئذٍ انه سمع بذكر بطيخ اربينو المشهور وقدّر بفكره انه حان اوان قطفه

وكانت الطريق اليها واسعة جداً وممهدة والعناية بها ظاهرة وعلى جانبيها الحقول تُحرث وقد امتدَّت فيها عروق البطيخ الناضج على مسافات شاسعة وكان الرجال يقطفونه والنساء والاولاد يجمعونه ويضعونه في مركبات النقل المشار اليها

فجلس مرسيلوس قبالة باب مفتوح واخذ يراقب حركة العَمَلة ولاحظ ايضاً ان القرية نفسها كانت مؤلفة من قرى مربَّعة ملتصق بعضها ببعض . وفي الجهة الشمالية منها بيوت متلاصقة البنيان . وبدت له على ارتفاع قليل منها دارة مسقوفة بالقرميد الاحمر ومحاطة باشجار باسقة فعلم ان هذه كانت تختص بالرجل الذي يملك تلك البساتين

وبعد هنيهة اراد مرسيلوس ان يقترب نحو القرية فاوقفه المناظر وسأله : هل تبحث عن شغل ما ؟

فاجابه مرسيلوس : نعم فاين الشغل وما هو نوعه ؟

فاشار الناظر ماصبعه نحو بستان البطيخ وقال له ان بدل الاجرة اليومية فلس ونصف مع طعام لتاكل وفراش لتنام عليه

فقال مرسيلوس : ربما يكفيني نصف البدل المذكور لان النهار قد مضى نصفه . ومع هذا فلا أُخفي عليك بان ليس لي اختبار في قطف البطيخ

فذُهل المناظر من هذا الجواب وتفرَّس في وجهه واخذ يتمعن في امره فما كان من مرسيلوس الا ان حمل احدى السلال الكبيرة واتجه نحو شغله الجديد

فناداه المناظر قائلاً : انتظر قليلاً يا غلام . ثم اصدقني القول هل تعرف القراءة والكتابة ؟

اجاب مرسيلوس بالايجاب

— هل عندك علم بحساب الاحصاء ؟

– نعم ، اجاب مرسيلوس

قال المناظر ان كاظو قد طرد كاتبه

فسأله مرسيلوس . ومَن هو كاظو ؟

اجاب المناظر مشيراً بيده الى الدارة والبلد والعقارات ان كاظو صاحب هذه كلها فاصعد اليه وقلْ له ان المنـاظر قد ارسلك اليه ليجد لك وظيفة في ادارة املاكه المذكورة واذا لم يتيسر ذلك فعُدْ الى هنا واشتغل بجمع البطيخ

اجاب مرسيلوس : انني افضل الاشتغال بهذه المصلحة ولا بأس بها

– ولكن ألا تعلم ان الكاتب يعطى مرتباً اكبر وطعاماً احسن

– ولكنني انا افضل جمع البطيخ كما صرّحت لك

– ألا يهمك ان تحصل على فلسين ونصف يومياً عوضاً عن فلس ونصف مثلاً ؟

– لا يهمني كثيراً لانني احب الفلاة والتأمل في الطبيعة وفي ذلك الجبل العظيم

فغطى ڤوبيكوس عينيه بيديه وتطلع في ذلك الجبل مرة ومرتين . ثم نظر الى مرسيلوس وسأله قائلاً : انت لست مختلًا يا غلام ؟

– لا اظن انني كذلك

اجابه المناظر : الاوفق ان تصعد الى الدارة

* * * *

كان كاظو رجلاً قصير القامة يبلغ من العمر خمسين عاماً ذا سطوة ومهابة وغنى وكان يتأنق كثيراً في ملبوساته العديدة الغالية الثمن وقد تبين للخاصة والعامة انه اعتاد ان يسأل اسئلة كثيرة بزهو وعجرفة ويجيب على الاسئلة الموجهة اليه بتهكم وازدراء شديدين

ولما صعد مرسيلوس الى دارة كاظو لمقابلته كما قال له المناظر وقف قبالة مكتبه ينتظر اشارة منه فشاهده يمشي مشية الطاووس في الرواق ذهاباً واياباً ويصيح بل٠

شدقيه على الكتبة ويزجرهم بدون تفريق ولا سيا على الكاتب الذي اضطر الى طرده قائلاً : انهم جميعاً اخساء عادمو الامانة يحبون الكسل والبطالة واللهو ولا يستحقون طعاماً ولا شراباً . وقد كان كلما مرَّ في ذهابه او ايابه بقرب مرسيلوس يحدجه بنظره كأنه خصمه اللدود

اصغى مرسيلوس في بداءة الامر الى هذا الصياح بوجه عبوس لكنه بعد ذلك رأى انه لا يستطيع ان يملك نفسه عن شدة الضحك

فنظر اليه كاظو وقال له : هل في الامر ما يضحكك ؟

— نعم ، اجابه مرسيلوس : ربما لا يكون مضحكاً لو كنت انا جائعاً وبحاجة قصوى الى الشغل لكنني لا يمكنني ان اضرب صفحاً عن الطريقة الشاذة التي تعامل بها كل عامل لديك وهو واجم لا يستطيع ان يتفوه بكلمة

فلم يصدق كاظو ما سمعته اذناه من كلامه المملوء جرأة وتطاولاً فلبث في مكانه مشدوهاً

فقال له مرسيلوس : تمم كلامك الذي ابتدأت به ولا تهتم بي . وهل يهمك اذا استرحت قليلاً لانني اخذت بالمشي منذ طلوع الصباح حتى هذه الساعة . واذ قال هذا جلس في كرسيٍ نخم وتنهد . فاقترب منه كاظو وسأله مَن انت يا غلام ؟

— ان سؤالك اياي بهذه اللهجة لا يستحق جواباً . انني عابر سبيل ولا شغل لي . ان ثوبيكوس وكيلك الحرّ عليَّ ان اسألك وظيفة ما اخدمك فيها خدمة صادقة مخلصة وبدلاً من ان تمهلني لابين لك مقصدي هذا . فاجأتني بسكب جام غضبك عليَّ فاسمح لي ان اقول لك : انك لا تستحق ان تسكن في دارة كهذه وان طريقتك في معاملة الغرباء يجب ان لا تكون هنا بل انه يقتضي معاملتهم في هذه الاماكن الجميلة بطريقة الدعة واللطف والصلاح . أليس كذلك ؟

كان كاظو يصغي بانتباه الى كلام مرسيلوس وملاحظاته بكل دهشة واستغراب غير انه ما لبث ان هاج غضبه فقال له : انت لا تستطيع ان تسمعني مثل هذه

الملاحظات ، بل مَن تكون انت حتى تهينني في منزلي ايها البائس المتسول . اذهب من هنا ولا تُرني وجهك

– انا لست متسولاً . ثم وقف وابتسم ابتسامة تهكمية وانحنى وباسرع من لمح البصر نزل الى الطريق العامة حيث مشى عدة دقائق وتوجه منها الى بستان البطيخ شاعراً بان شخصاً ما يلحق به . ولما وقع نظر ثوبيكس عليه سأله : ان كاظو لا يريد استخدامك ؟

فهز مرسيلوس راسه ثم حمل سلةً وسار في الحقل حتى وصل الى اول فريق من الفعلة وقال لهم : ما اجمل هذا النهار فاجابه رجل شيخ : نعم انه جميل لكن الشغل فيه يؤلم الظهر . ثم خاطبته ابنة شابة تُدعى متيلا قائلة له : اشتغل قليلاً ثم احكم في ما يبدو لك

خلع مرسيلوس رداءه عنه وطواه ووضعه على حدة وهبَّ يعمل باجتهاد ونشاط فقال له الشيخ لا تشتغل باجتهاد كهذا لان كاظو لا يدفع لك اكثر من البدل المعين ولو اخذ منك التعب كل مأخذ

قال مرسيلوس هذا اطيب بطيخ في العالم . كم هو لذيذ وشهي ومفيد للصحة وخصوصاً في ابان الحر ، والذّ منه ان يشتغل الانسان عند اشتداد اشعة الشمس فيتمتع بضيائها وبزرقة الجو وجمال الجبال

فقالت الصبية اجل انه بطيخ لذيذ ومفيد . ثم جاء المناظر وقال له : ان كاظو يريد ان يراك . ولما توجه لمقابلته اخذ يوزع في طريقه ما جمعه من البطيخ ويضعه في سلال بعض الفعلة الذين نظروا اليه بدهش وفرحوا اذ امتلأت سلالهم . فقال ثوبيكوس وهو سائر معه ان هؤلاء العملة هنا ليس للهو والمرح بل للعمل فقط

– انهم يشتغلون احسن اذا كانوا مسرورين . ألا تظن ذلك ؟

– لست اعلم . انني لم ارَ احداً يشتغل بسرور وارتياح . فارى الآن من الموافق ان تسرع في سيرك لان كاظو لا يقدر ان ينتظر كثيراً وانت تجهل طبعه

تماماً فانه لا يجامل الناس ويلاطفهم بل يرفه الخيل ويمازحها

– اني اصدّق ما تنطق به . واذ قال هذا التي الكيس على كتفه وسار نحو الدارة متأملاً منظر الجبل ثم صعد الى التلة .

* * * *

لما أدخل مرسيلوس الى غرفة المكتب كان كاظو جالساً مكباً على منضدته يتظاهر بالانهماك في الكتابة فلم يرفع راسه . وبعد ان انتظر مرسيلوس بضع عشرة دقيقة ولم يلتفت اليه مشى نحو النافذة حيث اخذ يمتع نظره بالحديقة الغناء . عندئذٍ ناداه كاظو وقال له أُنت كاتب يا غلام ؟

– لا يا سيدي ثم اقترب منه قليلاً واعاد جوابه له . لا ، لست كاتباً وقد سألني وكيلك قبلاً هل اقرأ واكتب وأحصي فعليه اخبرك بانني قادر على ذلك ولكنني لست كاتباً

سأله كاظو : كم تريد اجرة في مقابل عملك اليومي

اجاب مرسيلوس ساقبل بما تدفعه لي بعد ان اشتغل وترى ما استحق

– اعطيت الكاتب الاخير فلسين ونصف علاوة على طعامه ومنامته

– هذه اجرة زهيدة الا اذا لم يكن بامكانك ان تدفع اكثر منها

– ليست المسألة مسألة امكان بل كم تريد انت ؟

قال مرسيلوس : قد دعوتني متسولاً منذ ساعة وظهر لي انك لا تعتبر المستعطين المساكين . ربما ساء ظني بك

– اعطيك خمسة دنانير بشرط أن لا تتوانى في العمل ولا تعمل خطأً في الكتابة

– اسمح لي ان اقول لك بصراحة انك تعودت ان تصيح على الناس وتزدري بهم فارجو منك ان لا تفعل ذلك معي

– لم يجسر احد من قبلك ان يبدي لي مثـل هذه الملاحظات ولا ان يخاطبني بمثل ما خاطبتني . وقد عجبت انا من نفسي كيف اسمح لك بهذا التطاول ؟

اجابه مرسيلوس : ساخبرك عن ذلك بكل سرور . انك تملك بساتين واسعة ولك سطوة مشهورة ولكن ينقصك شيء جوهري عظيم لا تعرفه انت ولكنك تتأكد اني انا اعرف ما هو . لذلك استدعيتني اليك

– قد استدعيتك لانني بحاجة الى كاتب نشيط

– اني لست كاتباً . ومع ذلك اذا كنت تصيح عليَّ فانني اعود الى البستان حيث اجد رفقاء لي فيه

– انك تجد رفقاء لك بين قاطفي البطيخ القذرين واللصوص الكسالى . . .

– لولا شدة احتياجهم الى القوت الضروري لما قاموا بخدمتك وانت تعاملهم بالجفاء والقساوة فلو كنت تعاملهم بالرفق واللين لكانوا مجتهدين وامنـاء . فلو لم تكن انت رجلاً طماعاً لكنت رجلاً ممتازاً ومحبوباً

– هل تريد ان تقول لذلك الشعب ان اجرتهم قليلة ؟

– لا احد ينتظر ان يقـال له ان اجرته زهيدة عندما يشتغل من الصباح الى المساء ويتقاضى فلساً ونصف فقط

سأل كاظو : فهم يتذمرون من اجرتهم اذاً ؟

– لم يتذمروا امامي بتاتاً

ثم ان كاظو فتح احد الادراج واخرج منها اوراقاً تحتوي على مراسلات واوعز اليه ان يجلس وراء منضدة الكتابة ويجاوب على كل رسالة وقال له : انني اجهل القراءة ولكنني اعرف ماذا يطلبون مني . انهـا مراسلات من منازل العظماء ومن التجار في اسواق رومية لابتياع البطيخ والعنب والاجاص

فجلس اذ ذاك مرسيلوس واخذ يقرأ الرسائل بصوت مرتفع فتهلل وجه كاظو لانهُ سيبيع ما يطلبون منه باسعار غالية . ثم وقع نظره على رسالة في اللغة اليونانية

واخذ يقرأها وبعد ان ترجمها له فرح كاظو جداً وسأله : وتعرف اليوناني ايضاً ؟ هذا حسن واخذ يفرك يديه علامة الابتهاج وقال ليفهم العظماء والتجار انه بامكاني ان استخدم كاتباً يجيد معرفة اللغة اليونانية . ثم التفت الى مرسيلوس وقال له : سأعطيك ثوباً جديداً

اجابه مرسيلوس اشكرك كثيراً لان عندي ثوباً احسن من هذا

قال له كاظو ، سمعت بانك تحب الازهـار والرياحين . لذلك نرخص لك ان تتمشى في حدائق الدارة في ساعات الفراغ واذا كنت مولعاً بحب الجياد فيمكنك ايضاً ان تتوجه الى الاسطبل وتشاهدها

اجابه مرسيلوس اشكر لك تلطفك يا سيدي

* * * *

كانت انطونيا زوجة كاظو اصغر منه باثنتي عشرة سنة . ذات قوام رشيق وتقاطيع جميلة وصوت رخيم لطيف النغمة . صادفهـا مرسيلوس في الحديقة تجتني الزهور وتضعها في سلة . فظهر له عند رؤيتها انها حليفة الهم والغم فبادرته بالتحية بغير ان تبتسم له وقالت : لا بُدَّ ان تكون انت الكاتب الجديد . فاجابهـا بالايجاب وانه مسرور لوجدانه وظيفة في محيط بهيج كهذا

قالت : أتعني بهذا القول مشهد الازهار والجبال ؟

– أجل . انهـا بديعة تقرّ بها الانظار . واذ كان يريد الانصراف اوقفته وسألته عن اسمه

اجابها : مرسيلوس غاليو

– يوجد شيخ في مجلس الاعيان بهذا الاسم . هل هو قرابتك ؟

– ليس لكاتب بسيط مثلي ان يكون قرابة شيخ نبيل جليل نظيره

– ولكنك انت لست كاتباً بل عالم كما يستدل من فصاحة لهجتك وامارات

وجهك وهيئتك الكاملة . تأمل يديك الناعمتين فانهما ليستا معتادتين العمل الشاق . كنْ مطمئن البال ولا تخفْ فاني لا انمُّ عليك ولا اسلمك لكن ينمُّ عليك ذلك الثوب الحريري الذي كنت تتردّى به في غرفتك . فاصدقني القول اذاً وأجبني على سؤالي : أية صلة نسب بينك وبين الشيخ الذي في مجلس الاعيان ؟

– هو والدي بعينه

– اعتقد ذلك . قالت هذا وابتسمت له ابتسامة لطيفة بريئة وسألته :

– ولكن لماذا اعترفت لي باسم ابيك ؟

– لانني رأيت انكِ تحبين الصراحة وبما انني اريد ان اتكلم الصدق ، لذلك لم اخدع زوجك لانه لم يسألني عن اسمي

قالت انطونيا : اظنك لا تريده ان يعرف اسمك

اجابها مرسيلوس : نعم افضل ان لا يعرفه . فهل انتِ تودين ان لا يعرف ذلك ؟

– نعم اودّ من كل قلبي . لانه لو عرف انه يستخدم ابن الشيخ غاليو لكان افتخاره بذلك عظيماً لا يقدّر

قال لها مرسيلوس ربما انتِ لم تدرسي اخلاق زوجكِ تماماً فعليكِ إذن ان تعرفي كيف تعاملينه مع علمكِ ان كبرياءه لا تقف عند حدّ بالنظر الى شدة سطوته على سكان اربينو الذين يطيعونه طاعة عمياء لخوفهم منه . فليته يعلم ان مهابته تزداد قيمتها اذا كانت طاعتهم له عن محبة وولاء.

– هل يتخيل لك ان كاظو يعمل ما يحببهم اليه ؟

اجابها مرسيلوس انني اقدر ان اتخيل ذلك اذا اقنعناه ان يجرّب هذه الطريقة وانا اؤكد ان جوّ هذا المكان تتغير حالته الحاضرة تماماً فهل تشائين ان تساعديني على هذا الامر ؟

لقد فات الاوان فلا يستطيع زوجي ان يكتسب محبتهم مهما عمل من اجلهم وفوق هذا كله فان سكان اربينو قذرون واغبياء معاً

قال مرسيلوس : نعم هم قذرون يقاوم بعضهم بعضاً ويزدرون حتى بانفسهم فبناء عليه يجب ان تُنشأ لهم حمامات ليستحموا فيها . فلو كان يبنى لهم بركة وسيعة تجري اليها ساقية المياه المجلدة التي تنحدر من الجبل وتدفئها حرارة الشمس لكان الفعلة يبنونها في اثناء عطلتهم بين موسمي البطيخ والعنب . ولكن هؤلاء يحتاجون الى التشجيع

في تلك الساعة وفد عليهما شاب في الثلاثين من سنه وكان يشبه والدته انطونيا تمام الشبه . فقال لها مرسيلوس اظن انه ابنكِ

اجابته متنهدة : نعم انه ابني وهو حياتي ويريد ان يتعلم فن الحفر لانه يميل اليه كثيراً غير ان والده لا يوافق على ذلك لسوء حظه . ثم التفتت اليه وقالت تعال يا انطونيوس لاعرّفك الى مرسيلوس غاليو الكاتب الجديد

فقال له مرسيلوس : ان والدتك اخبرتني انك مولع بفن الحفر . اتريد ان تريني مثالاً مما صنعتَ ؟

– هل لك معرفة بهذا الفن ؟

– نعم لي المام به ومع هذا فاني مستعد ان اعطيك بعض ملاحظات عليه

* * * *

لم يستطع الشاب انطونيوس الانتظار الى الصباح بل حمل بعد العشاء المثال الذي كان يحفره وجاء به الى غرفة الكاتب الجديد ووضعه امامه على المنضدة وقال : انه يدرك ان هذا المثال الذي يمثل هيئة مصارعين ليس حسناً

فقال له مرسيلوس لماذا لا يكون حسناً يا انطونيوس . ولكن قلْ لي ما اسما هذين المصارعين ؟

– ما اسميتهما بعد

– ولكن لكي يكون شغلك تاماً حسناً يجب ان يكون لهما شخصية حقيقية معروفة لدى الخاصة والعامة . لنفرض ان احد هذين الشخصين يدعى سيريوس قبض عليه الجند في كريت واحرقوا بيته واخذوا ماشيته ثم قتلوا امرأته وابعدوا ابنه الشاب الى رومية في مركب الاسرى وخيَّروه اما ان يتصارع في الميدان واما ان يجذف في المركب فاختار المصارعة آملاً ان يقتل الرجل الآخر لكي يخلص حياته

والرجل الآخر هذا يدعى كاليترو كان له مزرعة صغيرة وكرمة ومعزى وثلاثة اولاد صغار . وحاولت امرأته ان تخبئه بين التبن ريثما يمر الجند ولكن محاولتها لم تنجح فانهالوا عليها بالضرب امام اولادها وجرُّوا زوجها كاليترو بعد ان كبلوه بالقيود ولما كان شديداً في المقاتلة ارسلوه الى الميدان ليتصارع مع سيريوس وها هما يتصارعان . انني اعتقد ان كاليترو يقتل سيريوس لانني لا احب موقف الاخير

فقال انطونيوس لمرسيلوس : لا اظنك تحب القتال . هل حاربت احداً ؟

اجاب : ليس في الميدان

– هل قتلت احداً يا سيدي ؟

– انها تذكار مؤلم يا انطونيوس . ليتك انتقيت موضوعاً آخر . لانك لا تحب القتال ولا تعتقد به

اجاب انطونيوس : وليس ذلك فقط بل اخجل ان اقول انني اخاف منه ولذلك حفرت هذه الصورة لاظهر شجاعتي لدى الغير

– لقد اظهرت اعظم شجاعة بقولك الحقيقة وقولك هذا يحتاج الى بسالة اكثر مما لو قلعت عين احد الابطال

فسُرَّ انطونيوس بهذا المديح . فاقترح مرسيلوس ان يصنعا رسماً بخلاف هذا . رسماً يسرّهما وقال لانطونيوس : اقرضني قليلاً من الطين وعُدْ اليَّ صباح غد لكي اريك ما اكون قد رسمت

فلما جاء انطونيوس في الصباح اراه مرسيلوس ما كان قد اشتغل في الساعات الاولى من الليل فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً . لانه رسم على ذلك الطين بركة السباحة وحولها رجال ونساء واولاد يستعدون للاستحمام فيهـا . كان حولها رجل ضعيف ذو لحية طويلة جداً ملقاة على كتفه . وطفل صغير كان على وشك السقوط فيها ووالدته مسرعة لتمسكه ، الى ما هنالك من الرسوم

ثم ابان مرسيلوس لانطونيوس انها غير كاملة بعد لانها تحتاج الى تمثيل

اجاب انطونيوس اظن ان هذا المثال سيكون مستهجناً جداً

– نقدر ان نوسع الرسم اكثر وبذلك يُتاح لك ان تعمل منـاظر كثيرة . اتذكر تلك الصخرة البيضاء الكبيرة المنقورة التي بقرب الجسر فانها تشبه حوضاً طبيعياً . فضع رسمها هناك محفوفاً باشجار كثيرة وعندئذٍ يعرف الجميع مركز البركة

– انها لفكرة حسنة ان يكون لنا بركة كهذه يا سيدي

* * * *

بعد ان اعتـاد مرسيلوس قضاء واجباته الجديدة . اصبح العمل الذي كان يستغرق يوماً لانجازه يتمّ بنصف يوم فقط . وكان انطونيوس يتوقع مجيئه بفروغ صبر ، ولاحظ كاظو ذلك بسرور وقال له ان لديك شغلاً كثيراً يا مرسيلوس فلا ينبغي ان تتعب نفسك كثيراً بصلحة ابني

اجابه مرسيلوس : ان لولدك موهبة فنية طبيعية فيجب ان يحافظ عليهـا ولا يهمل شأنها وبذلك يغدو حفاراً مقتدراً فريداً ولكنه يحتاج الى التشجيع

– وأية منفعة له من هذه الحرفة ؟

لم يجبه مرسيلوس مباشرة على سؤاله بل قـال له : انت قد أسست لنفسك تجارة واسعة مهمة ولا اخال ان ابنك يقدر ان يزيد عليها اقلّ تحسين . على انه هو بدوره يريد ان يؤسس له عملاً اقتداء بك لانك انت بثثت في صدره هذا الاجتهاد

والطموح فهل يجوز العقل ان تتوانى الآن في تشجيعه وتحميسه

ان كثيرين من الحفارين لا يستطيعون تحصيل معاشهم ولكن كاظو والد هذا الحفار من كبار الاغنياء فعليه ان يباهي بموهبة واقتدار ابنه انطونيوس وكما انه جعل له شهرة واسعة في تجارته فلا يصعب على انطونيوس ان يجعل له شهرة مثله في حقل الفن

انت لا شك تتمنى سعادة ابنك ونجاحه ولكن يجدر بك ان تهتم بامره ولو قليلاً فتراه محباً لك ومخلصاً

اجابه كاظو : ان انطونيوس يستخف بي ولا يحبني كوالدته

— في الحق ان ابنك يحبك . وفي استطاعتك ان تكتسب محبته اكثر مما تفتكر اذا اردت ذلك . تعال معي الآن وانظر الى شغله

— فلما دخلا ووقفا قبالة الرسم ظهر على انطونيوس الخوف من ازدراء والده اما كاظو فدقق نظره في المنظر المتقن صنعاً وقال ان هذا المكان غير صالح للبناء لانه حينما يذوب الثلج تدخل المياه بكثرة فتهدمه من اساسه فمن الموافق ان يكون البناء في مكان مرتفع

فتركهما مرسيلوس وحدهما وقد اعتذر ان عنده شغلاً مـا وسار في الدار وتجاوزها الى الرواق وهو يبتسم . فلما رأته انطونيا الحت عليه كي يخبرها ما حدث، فذهلت لما قال لها ان زوجها وابنها يتشاوران بشأن المكان الموافق لبنيان بركة للسباحة فسألته ايجوز ان التحق بهما ؟ اجابها : ليس في هذا الوقت

* * * *

جرت هذه الامور في منتصف شهر تموز وكان مرسيلوس يجلس كل ليلة بازاء باب حقل البطيخ يراقب الفعـلة لدى قبضهم اجرتهم . وكانوا يمرّون بالقرب منه ويحيونه او يتكلمون معه لانه ظهر لهم ان الكاتب مخالف لهم لا مخالف

في بادئ الامر شاع خبر ان كاظو سيبني لهم بركة ماء ليسبحوا فيها عندما ينتهون من قطف البطيخ واشترط عليهم قائلاً : كل من يريد ان يعمل في بنائها يسمح له بالسباحة فيها وتدفع له اجرته • وقد عرف الجميع ان الكاتب له يد في هذا المشروع . فلما فاتحوه بذلك قال ان مرجع العمل يعود الى كاظو وهو يخبرهم عنه في حينه

في احد الايام اجتمع حول مرسيلوس نحوٌ من عشرين نفساً فاخبرهم قصة رجل عرفه في بلاد بعيدة • وكان ذلك الرجل يخاطب الشعب المسكين الحامل احمالاً ثقيلة وقال ايضاً ان حياة الانسان لا تكون موقوفة على الاشياء التي يمتلكها بل كم يخفّ تعسه اذا كان لا يشتهي ممتلكات الغير • فاذا اردت ان تكون سعيداً فمهد سبيل السعادة لغيرك ايضاً

فسأله رجل شيخ وماذا عمل يسوع لكي يسعد سواه من البشر ؟

اجاب مرسيلوس ان يسوع لم يكن رجلاً عادياً لانه صنع عجائب عديدة وشفى كثيرين من امراضهم المزمنة • وكان لمسهم لثوبه كافياً لشفائهم وقد فتح عيون العمي . وقبل ان يرجع سكان اربينو الى بيوتهم خاطبهم قائلاً : اذا اردتم ان تسمعوا قصصاً اكثر بشأن المعجزات التي صنعها يسوع فليكن اجتماعنا غداً بعد العشاء تماماً

وهكذا جرت العادة ان يجتمع مرسيلوس معهم كل ليلة على التلة المخضرة في سفح الجبل • فاخبرهم اولاً عن الجمهور الغفير الذي تبع يسوع وشرح لهم مفصلاً كل اعجوبة صنعها ولا سيما باعادة رجل يوناثان الى حالتها الطبيعية • وكيف اعطى حماره الى الولد الكسيح • واخبرهم ايضاً عن صوت مريم وعن منوال الحياكة الذي اصلحه للمرأة وكيف انها حاكت له ثوباً • الى آخر ما هنالك من العجائب المتعددة

فكانوا يصغون اليه بدون ان ينبسوا ببنت شفة . وينتظرون كل يوم بفارغ صبر اقتراب المساء ليسمعوا اكثر مما سمعوه وفي اليوم الثاني يعيدون ذلك على مسامع

رفقائهم في الحقول . وكان ثوبيكس ايضاً يجيء ليسمع . في احدى الليالي جاءت انطونيا وابنها وجلسا في مؤخر الجمع وسمعا منه قصة اشباع يسوع الخمسة الآلاف نسمة من زاد غلام صغير . وتهدئته بكلمة لطيفة تلك العاصفة الهوجاء.

قال له كاظو في اليوم الثاني : سمعت انك تقص قصصاً غريبة على السكان ؟ اجابه مرسيلوس نعم أقصُّ عليهم ما صنعه المعلم العظيم من الاعمال العظيمة التي تأخذ بمجامع القلوب وتنعش الشعب الساكن في ولايات فلسطين

– وما هو نوع تلك الاعمال ؟

فاخبره مرسيلوس عن بعض عجائبه وتعاليمه السامية

– وهل كان يسوع هذا يصادق الفقراء فقط ؟

– من غير بدّ وكان له اصدقاء من الاغنياء ايضاً فكانوا يدعونه في اغلب الاوقات الى قصورهم . واؤكد انه يلذُّ لك ان تسمع ما جرى في بيت احد الاغنياء الذي يُدعى زكّا . وبعد ان سرد له مرسيلوس ذلك قال كاظو وهل وزّع نصف امواله على الفقراء ؟ وكان عمله هذا مشكوراً ؟ اتريدني ان اقتدي به واعطيهم نصف مالي ؟ هذا لا يمكن البتة

– جرّب ان تزيد اجرة الفعلة من فلس ونصف الى فلسين وانتظر لكي ترى نتيجة الزيادة

– اذا فعلت ذلك فان المناظر يظن حالاً انني جُننت

– كذلك زدْ اجرته من ثلاثة فلوس الى خمسة واعطني ثمانية فلوس عوضاً عن العشرة ولا تقلْ له انك دفعت الزيادة مني بل دعهم يعتقدون انها منك

– حسناً اذا كنت احمق لهذه الدرجة فليكن لك ما تريد

* * * *

افتخر كاظو جداً بمسألة البركة واقرَّ انه مُسرٌّ بفكرة بنائها . غير ان الشعب

لم يعرفوا ما غيّر افكار كاظو ولكنهم اعتقدوا ان ما حصل له قد حصل لهم ايضاً . وكذلك لاحظ كاظو ان الخسائر التي كانت تنجم عن اتلاف البطيخ قد خفّت جداً وان زيادة الاجرة قد حلّت محلّ الخسائر . ولم يخبره مرسيلوس انه خطب في الفعلة حاضاً اياهم على اظهار امتنانهم لكاظو وان يكونوا دائماً امناء ومخلصين في اشغالهم

لما ابتدأ العنب ينضج احب كاظو ان يجول بين الكروم . في ذات يوم سمع القطافين يرتلون فما ان وقع نظرهم عليه حتى لزموا السكوت فسأل المناظر عن سبب سكوتهم . اجابه : خشية من ازعاجك . فقال دعهم يرغون . مَن قال لهم اني لا أحب الترنيم

وسُرَّ المناظر ان تزورهم امرأة كاظو لانها لم تعتد زيارتهم من قبل وسألها كيف صبغت شالها الذي لبسته امس

وفي مساء ذات يوم بينما كان مرسيلوس يجول في الكروم سأله انطونيوس هل يؤذن له بالجولان بصحبته . وعند الباب حمل مرسيلوس سلتين وكان قد اعطى انطونيوس واحدة منهما وقال له : اذا شئت ان تعمل معي معروفاً فلنقطف العنب معاً ونضعه في السلتين الى ان تمتلئا

سأل انطونيوس : لِمَ ذلك ؟ ألا يظن بنا القطافون سوءا ؟

— كلا . بل يقدروننا قدرنا ويتمثلون بنا فتزيد قيمتهم في انفسهم وفي اشغالهم

ثم اقتربا من امرأة تبذل جهدها لترفع سلة ثقيلة عن عاتقها وتضعها في العربة . ولم يتحرك الخوذي لمساعدتها

فقال له مرسيلوس مدّ يدك وساعدها يا انطونيوس . ولما ساعدها نظر الجميع بدهشة وسرّوا من تواضعه

ثم قال له مرسيلوس بصوت منخفض اشكرك يا انطونيوس . اجابه قائلاً : لم تصعب عليّ مساعدتها ولا شكر على الواجب

– ولكنك بهذا العمل تكون قد ساعدت كل شخص هنا حتى ذاتك ايضاً

* * * *

لما انتصف شهر آب وخفّ طلب الفاكهة امست واجبات الكاتب قليلة فاخبر كاظو انه مصمم على الذهاب

قال له كاظو : ألا تريد ان تبقى عندنا وقتاً اطول لتساعد انطونيوس في صناعة الحفر ؟

– قد افهمته تقريباً كل ما اعرفه

– لا تقلْ هذا انه بحاجة ان يتعلم منك كثيراً وقد صيرته بتعليمك اياه رجلا

– انت الذي صيرته لا انا . ألا ترى كم يعتمد عليك في كل حاجة ويستند الى رأيك ؟ فعليك انت ان تعمل منه رجلاً

ثم سأله : اتريد ان تعود الى اربينو في الصيف القادم؟

– لست اعلم اين اكون وقتئذٍ

– متى تسافر ؟

غداً باكراً يا سيدي

اخيراً خرجا معاً الى الحديقة حيث شاهدا انطونيا فدعاها كاظو امامها ليتناول عشاءه معهم فسُرّت انطونيا بالدعوة . ثم سأل اين انطونيوس يجب ان اخبره . واذ قال هذا اتجه نحو البيت

ولما ذهب زوجها سألت مرسيلوس قائلة ألست مسروراً هنا ؟ الم نعمل لك كل ما تريده ؟

– بلى ومن اجل هذا انا ذاهب

– ألا تذكر القصة التي قلت ان سكان قانا قالوا انهم آمنوا بان يسوع حوّل الماء الى خمر . انه يسهل عليَّ ان اصدّق تلك القصة لانها ليست اصعب من التغيير الذي احدثته في سكان اربينو

وفي ذلك المساء اجتمعت كل القرى حسب عادتهم ليسمعوا قصة جديدة من مرسيلوس . وقد رافقه كاظو وانطونيا وانطونيوس فجلس هو في المكان المعدّ له وابتدأ يقول : قد احسنتم جميعكم بما اظهرتم من عاطفة اللطف نحوي فلن انساكم ابداً . فتنهد الجميع لما سمعوا قوله . ثم تابع حديثه قائلاً : قد اخبرتكم قصصاً عديدة عن يسوع الجليلي الذي صادق الفقراء والمساكين . اما في هذا المساء فاني اقصّ عليكم قصة واحدة اخرى عنه وهي اغرب قصة سمعتموها لحد الآن فعسى ان تكون هدية وداعية لكم

وهذه القصة محزنة للغاية وهي عن رجل لم يفهمه العالم وقد تركه اصدقاؤه في آخر ساعة وحوكم ظلماً وعدواناً واخيراً مات ميتة قاسية . وقد روى القصة المذكورة باسلوب لطيف مؤثر حتى جعل اغلب المجتمعين ان يبكوا

ثم استطرد قائلاً : وليس من الغريب ان يُضطهد الحكماء ويُقتل الكثيرون منهم ولكن يسوع عاد الى الحياة ثانية فهو الآن حيٌّ ويمتد ملكوته في العالم كافة . ليس من الضروري ان تبكوا عليه وتذرفوا دموعكم لانه لا يطلب شفقتكم بل مساعدتكم اياه وذلك بان تعاونوا بعضكم بعضاً وان تنتظروا مجيئه ثانية

فصرخ احد الرجال سائلاً : اين هو الآن يا سيدي ؟

اجاب مرسيلوس : لا احد يعرف مقرّه . ربما يظهر في وقت لا تنتظرونه فيه فلا تدعوه يغتاظ منكم . اتريدون ان تحفظوا هذا ولا تنسوه ؟

ولما امسى المساء وقبل ان يتفرّقوا اخرج مرسيلوس ورقة من جيب ردائه وقال لهم : في احد الايام عندما اجتمع حول يسوع جمهور من الناس على راس تلة حدّثهم بهدوء عن الحياة الهنيئة المباركة . وقد تلاها امامي صديقي يستوس وقد كتبتها فأرعوني سمعكم لكي اتلوها انا بدوري عليكم

فحدث سكوت تامّ عندما اخذ مرسيلوس يقرأ ما يلي :

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات • طوبى للحزانى لانهم يتعزَّون . طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض . طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يُشبَعون . طوبى للرحماء لانهم يُرحمون طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يُدعَون . طوبى للمطرودين من اجل البرّ لان لهم ملكوت السموات . طوبى لكم اذا عيَّروكم من اجلي كاذبين . افرحوا وتهللوا لان اجركم عظيم في السموات »

* * * *

استيقظ مرسيلوس قبل بزوغ الفجر ثم خرج من الدارة ولم يلتقِ احداً في طريقه الا الابنة الشابة متيلًا التي فاجأته بظهورها من بين الاشجار التي وراء الباب لكي تودعه . فقال لها انك صديقة صدوقة فساذكرك دائماً فقالت احترس لنفسك يا مرسيلوس وافلتت يديها منه وتوارت عن العيان

كان مرسيلوس قد أوى الى فراشه ليلة امس ولكن الشكّ كان يخامر افكاره لانه عرف انه أرسل بمهمة وقد انتهت الآن • وسمع مؤخراً هاتفاً يقول له يجب ان تتوجه الى رومية • وما زالت توسلات انطونيوس ترنُّ في اذنيه وقد حاول هو وابواه ان يقنعوه بالبقاء فلم يقتنع

اما في هذا الصباح فانه القى همه جانباً وشعر ان يداً تقوده الى حيث لا يعلم • ولم يستطع الى هذا الحين ان يعرف لماذا قذفته الامواج الى شاطي كايبا ولاي سبب مضى الى اربينو واستخدم فيها • وعند الظهر كان قد قطع سلسلة الجبال وتقدَّم نحو الطريق العام حيث كانت العربات ومركبات النقل تخرج من ازقة الوادي المخصب • والغبار يتصاعد في الجو وحرارة الشمس المحرقة تكاد تذيب الاجسام وكان السواقون يجلدون دوابهم بقساوة لكي يسرعوا بالوصول الى رومية

اما مرسيلوس فانه اخترق ذلك الزحام المزعج الى ان وصل الى ألتري عند

غياب الشمس فدخل حانة من حاناتها تغص بالناس وهم في هَرَج وهياج شديدين من الداخل والخارج . فسأل رجلاً واقفاً بالقرب منه ما هو سبب هذه الحركة الشديدة يا ترى؟ اجابه لقد ذاع خبر وفاة الامير غايوس

اخيراً وقف صاحب الحانة على كرسي وصاح بالجمع المزدحم قائلاً : كل من لا يريد ان يتناول عشاءه فليخرج خارجاً . وكان جالساً في وسط الحانة ثلاثة رجال من رومية يحتسون كؤوس المدام وحولهم جمهور غفير مصغ لسماع ماجريات الحادثة المشؤومة فاقترب مرسيلوس من الثلاثة الرومانيين ليسمع ما يقولون . فانبأوا ان كنتوس احد اعضاء مجلس الشيوخ وامرأته سيليا أولما وليمة شائقة في منزلها على شرف كاليغولا الصغير ابن جرمانيكوس الذي وصل من غلاطية . وفيما كان المدعوون على المائدة شعر الامير غايوس بألم عظيم لم يلبث نحواً من ساعة حتى لفظ روحه

واذ رأى الرجال اصغاء الجمهور لهم اخذوا يتكهنون عن اسباب الوفاة فقالوا من الراي المرجح انه مات مسموماً لان صحته كانت حسنة جداً . غير ان الشبهة لم تقع على احد الى الآن . اما لوسيا التي اغرق شقيقها القاضي مرسيلوس نفسه منذ بضعة اسابيع والتي كانت زُفّت الى طولوس ذلك النهار عينه فقد تخاصمت مع الامير المذكور في المساء ولكن لم يكن لتخاصمهما ادنى اهتمام امام عامة الناس لانهما كانا ثلين كثيراً

ولم يشتبه احد بسيجانوس الشيخ الذي كان جالساً قبالة الامير وقت العشاء ولو كان هذا لا يحبه . فان سيجانوس اعقل من ان يرتكب هذه الجريمة في مثل هذه الظروف الحرجة

فسأل صاحب الحانة قائلاً : كيف يتمكن كنتوس من السكنى في قصور فخمة واقامة مآدب فاخرة مع ان والده تسكوس ليس ثرياً فمن اين اتته هذه الثروة ؟ اجاب احد الثلاثة : ان اواصر الصداقة بين الامير غايوس وكنتوس متينة

جداً . فاجابه الثاني ربما تعني بقولك : ان الامير غايوس وامرأة كنتوس صديقان حميان . أليس كذلك ؟

فانبرى صاحب الخانة وقال : ها . ها . قد عرفت السبب . فاجابه اكبر الثلاثة الرجال سناً : لا تعجل في حكمك . ان كنتوس لم يكن حاضراً الوليمة فقد أُرسل الى كابري في آخر دقيقة

– فمَن سممه إذن ؟

– هذا الذي يريد معرفته كل انسان . ثم قال لصاحب الخانة خذ هذه القنينة واملأها خمراً ولا تكثر من الاسئلة . وبعدئذٍ التفت الى الجمع ليسمع تتمة الحديث وحدّق الى مرسيلوس وقال : اظن اننا تكلمنا بل . الحرية

اما مرسيلوس فانه تبع صاحب الخانة وطلب منه تهيئة الحمام لكي يستحم واعداد غرفة ليبيت فيها تلك الليلة . ولما نال مرامه اخذ يناجي نفسه قائلاً : لم يبقَ بعد من سبب لخوف ديانا من غايوس . هذا امرٌ قد اراح بالي . ومَن يتسلم زمام الاحكام في رومية ؟ ربما ينصِّب الامبراطور الآن سيجانس بالنيابة

ومَن دسّ السمَّ في طعام غايوس يا ترى ؟ ربما تكون سيليا التي عاملها الامير المذكور معاملة سيئة . ولكن لا اؤكد ان سيليا تُقدم على فعل فظيع كهذا . بل ربما يكون كنتوس اوعز الى احد الخدم وذهب هو الى كابري بمهمةٍ ما . واني احب ان اعرف هل اجتمع بديمتريوس في كابري يا تُرى ؟

وقد اقترنت لوسيا . هذا امرٌ حسن لانها كانت تحب طولوس وربما تكون اخبرته بما جرى لها مع غايوس حينما كانت صغيرة ولكن طولوس لا يقدم على هذا الامر . ثم راجع بذاكرته كل اعمال سيليا وترجح عنده انها هي التي وضعت السم في الطعام . وعلى كل حال فقد استراحت رومية من تلك الحية وربما تتحسن احكامها الآن

الفصل الثالث والعشرون

لما جاء السعاة الى كابري معلنين وفاة الامير غايوس كان من رأي جوليا ان لا تفاجيء زوجها الامبراطور بخبر هذه الفاجعة المؤلمة بسبب شدة مرضه مع انها كانت تعلم ما بينهما من الجفاء والنفور · وتظن انه حينما يسمع بذلك تستريح افكاره وتأخذ صحته بالتحسن

وقد استحسن جميع الشعب فكرة جوليا الصائبة وشكروها على اهتمامها الشديد بصحة الامبراطور واثنوا على درايتها وحكمتها بايعازها اليهم ان لا يذكر احد منهم امامه شيئاً مما حدث

ثم كتبت مرسوماً في الحال وسلمته الى قائد المئة الذي اوصل نبأ هذه الفاجعة الفادحة وأمرته بالرجوع الى رومية باسرع من البرق بدون ان ياخذ قسطاً من الاستراحة

ولم يخبر الحاجب الذي رافقه الى الاسكلة عن ايعاز الامبراطورة اليه بالرجوع سريعاً ولكنه اخبره ان الكتاب كان مرسلاً الى كاليغولا « الحذاء الصغير »

فاجابه الحاجب : نعم الحذاء الصغير وكان هذا الاخير قد رأى ابن جرمانيكوس حين كان ابن عشر سنوات · اما جوليا الشيخة التي كانت الحوادث المختلفة تتعاقب عليها فانها كانت على احرّ من الجمر تنتظر مجيء حفيدها في هذه الساعة الحرجة . لانه لما اتى كنتوس في اليوم السابق يطلب منها ان تدعوه الى كابري لم تلحّ عليه بالمجيء بل ضحكت مسرورة قائلة : انها سترسل تدعوه فليبقَ الآن شهراً او شهرين هناك

اجابها كنتوس قائلاً : ان الامير غايوس ظنَّ انكِ تكونين مشتاقة لرؤية

الحذاء الصغير . وطلب مني ان اقول انه لن يبقيه في رومية اذا شاءت جلالتكِ
– اجابته اننا نستطيع الانتظار فليبقهِ

اما اليوم فقد تغيرت الحالة لان جوليا ارادت ان ترى كاليغولا الملقب بالحذاء الصغير . وكان من حسن حظه ان يصبح ذا منفعة في هذه الساعة المهمة وقد احتملت مصيبتها بصبر وشجاعة لا مزيد عليهما كما يليق بامبراطورة رومانية وطفقت تعدُّ الساعات عدًّا ريثما يجيء حفيدها وكان جلوسها بقرب النافذة تراقب الذاهب والآيب بكل تمعن . وفيما هي على هذه الحالة من القلق رأت وفداً كبيراً من الشيوخ صاعدين الى دارة جوفس . ثم انعمت النظر في قاربها الاسود اللون لترى اذا كان مبحراً من بتيولي

فلما وصل كاليغولا الى كابري لم يُظن ان جدَّته الطموح تودّ له ارفع من منصب نائب عادي في الحكومة تحت اشراف سيجانس حتى ولا جوليا نفسها تصوَّرت ما سيجدُ من الامور المدهشة

لما كان كاليغولا ابن ست عشرة سنة لم تقوَ قدماه على حمله لضعفه الشديد وكانت تبدو اشارات غريبة على رغمه من وجهه الشبيه بوجه الثعلب . وكانت اظافره تخدش الجسم كاصابع السعدان . غير انه لم يكن احمق بل كان خبيثاً للغاية

ولما كان جرمانيكوس يتأكد انه ما يزال في عقله شيء من النقص الذي ظهر في طفولته اصرَّ على الاشراف على شؤونه حتى في الحقول العسكرية . فدلَّله الضباط كثيراً بحيث امسى شرس الاخلاق جداً . وكانوا يسرُّون ويضحكون من اعماله الغريبة . وشاء احدهم ان يصنع له (جزمة) صغيرة فكان يحتذيها ويتقلد الضباط في اصدار اوامره الى الجنود . لذلك لُقِّب بالحذاء الصغير حتى لم يبقَ احد يذكر انه سُمّي حين ولادته باسم عمه غايوس . ولما كان صغير السن يعمل اعمالاً مغايرة كانوا يضربون عنها صفحاً ويعدّونها حسنة

ولكنه حينما اصبح في السادسة عشرة كانوا اذا لطم احد الضباط يعدّون عمله

هذا وقاحة لا تُحتمل حتى ان جرمانيكوس لما رأى وارثه انه امسى في حالة لا تطاق عزم على ارساله الى عمه الامير غايوس الى رومية آملاً ان يجعل منه رجلاً . وقد شاع مؤخراً حين سمع الضباط بموت غايوس فقالوا انه توفي في وقت مناسب اشد المناسبة

وصل كاليغولا في ساعة متأخرة من النهار فاخذته جوليا ولقَّنته ما يجب ان يعمل ثم ادخلته الى غرفة الامبراطور المظللة بالستائر حيث وقف اكثر من اثني عشر شيخاً في الظلام منتظرين التفات طيباريوس اليهم . ثم تنبَّه الى وجود شاب جاثٍ عند وسادته يبكي . فاخبرته الامبراطورة بصوت متأثر من الحزن ان غايوس المسكين قد توفي وان كاليغولا لا يتعزّى عن فقده وخسارته

فرفع الامبراطور يده الضعيفة وامرّها على راس كاليغولا وقال : اهذا ابن جرمانيكوس ؟

فحنا الغلام رأسه وبكى بكاء شديداً ولمس يد الامبراطور المسترخية . ثم سأل اذا كان ثمة من شيء يستطيع عمله . فاجابه الامبراطور قائلاً : نعم يا بنيَّ

فسألته جوليانا بصوت منفعل أتعني المملكة ؟

فاقترب الشيوخ ليصغوا الى ما يقول

نعم . اجاب الامبراطور بصوته الضعيف

فالتفتت جوليا وقالت للشيوخ الذين اصابهم الذهول : هل سمعتم ان كاليغولا اصبح الامبراطور . أليس كذلك يا صاحب الجلالة ؟

فهمس طيباريوس كلامه مجيباً . بلى يا جوليا

* * * *

ولما جنَّ الليل امسى الامبراطور في حالة النزع يجود بنفسه وقد بذل مَهرة الاطباء كل ما في وسعهم لتحسين صحته ولو قليلاً فلم يجدِهم سعيهم فتيلاً . ثم أذن للفيف الكهنة ان يقوموا بفروضهم الدينية . ودعوا الشيوخ وكانوا لا يزالون

في دهشة عظيمة من شدة الصدمة التي اصابتهم وحاروا في الطريقة التي ينبئون بها مجلس الاعيان بان ابن جرمانيكوس القاصر اصبح سيد المملكة العظيم . ولا شك ان المجلس كان قادراً لو كانت له الجرأة الكافية ان يلغي قرار طيباريوس غير انه لم يرضَ ان يغيظ جرمانيكوس ولا الجيش

مضى اكثر من اسبوعين ولم تشاهد ديانا طيباريوس لان جوليا اصدرت امرها بعدم السماح لها بالدخول . ومع هذا فان ديانا لم تنقطع عن المجيء الى الردهة الملوكية تسأل عن صحة الامبراطور فكانت الحاشية تجيبها انه في اشدّ مرضه لذلك يجب عدم ازعاجه بشيء البتة

وبعد ان وصل ديمتريوس الى كابري اقامه الامبراطور طيباريوس عليها حارساً بحيث ظهر له انه لا يستطيع التأمين على حياتها مدة طويلة . لذلك عهد اليه بحمايتها على ان ديمتريوس لم يكن بطمأنينة من نحوها بل ازداد باله قلقاً لانه عرف بانتكاس صحة الامبراطور مع علمه بسطوة جوليا الفائقة فحاول جهده ان لا يدعها تشعر بذلك، واخذ يسعى سعياً حثيثاً لنجاتها بطريقة سرية اذا اصبحت في خطر ما

عندما أُجبر مرسيلوس على مفارقة ديانا خطيبته امست بعده في غم واضطراب وسوء خلق . تؤثر الوحدة على الاجتماع . ولم تستطع وقتئذٍ ان تثق باحد من الموجودين في الجزيرة فكانت تقضي اوقاتها في الرواق بدارتها طوراً تقرأ ولكن بدون تمعن ولا لذة وتارة تشتغل بشيء تتلهى به وحيناً تنادي خادمتها وتسمح لها ان ترافقها وكثيراً ما كانت تجيء وحدها وديمتريوس يتبعها كظلها من مكان الى آخر فكانت تثق باخلاصه جداً . اما الآن فانها اصبحت تعتمد عليه كصديق وفيّ

لما وصلت الاخبار الى كابري عن غرق مرسيلوس علم ديمتريوس عن ثقة ان خبر غرقه لم يكن حقيقياً وعزّى قلب ديانا بكلامه الصائب وبراهينه القوية قائلاً : انه غير محتمل ان يغرّق مرسيلوس نفسه لانه كان عليه واجب مهمّ يجب ان يؤديه

ولما كان قريباً من كابيا فقد انتهز الفرصة للاختفاء. هنـاك فايقنت ديانا بذلك وتعزّى قلبها

لم يطل حديثهما عن هذا الامر مع توالي الايام فكان ديمتريوس يجلس على درجات الرواق ويجيب على اسئلتها عن حالته وحالة سيده في اثينا وعن آل يوبولس وعلى الاخص عن ثيودوسيا وعن نجاتها من كنتوس الذي كانت تمقته كل المقت

وكانت تسأله ايضاً : أكان يكاتب ثيودوسيا ؟ ولماذا لا يقترن بها ؟ فكان يجيبها انه كان يراسلها وهي تجيبه على رسائله وانه متى اصبح حرّاً مطلق الارادة فلا يتأخر عن الاقتران بها . وكانت الايام تمرّ سراعاً وديانا تنهال عليه بالسؤالات عن مصنع بن يوسف وعن استفانوس وعن الجليليين الذين يتكلمون همساً عن النجار الذي عاد الى الحياة وسيعيش الى الابد

فكانت ديانا تصغي بانتباه تام الى اجوبته الصريحة عن كل اولئك وهي آخذة في التطريز والتخريم وهو يشتغل في صنع حبل بوصل القطع الصغيرة بعضها ببعض التي كان يجمعها من الاسكلة . وبعد فراغه من عمله كان يخبئه تحت الرواق . ولما رأت ذلك الحبل الطويل الذي عمله قالت له : انك تقصد شيئاً بهذا الحبل ؟

اجابها : كلّا وانما احبُّ ان اشغل يديَّ كما تشغلين انتِ يديكِ

وبعد ان يتمم ديمتريوس واجباته اليومية ويؤمّن على وجود ديانا في جناحها الخاصّ كان يتوجه في اغلب الليالي الى الاسكلة . فتعرَّف اليه الحرّاس والبحارة واحبوه كثيراً لذكائه وبسالته فضلاً عن انه كان يأتيهم بما زاد من الطعام او يرجو من ديانا ان تطلب من الفواكه والمربيات زيادة عن احتياجاتها ليقدّم ذلك لهم

وكانت احدى السفن تسافر صباح كل يوم الى بيتولي لتشحن ما يحتاج اليه بائعو اللحم والفاكهة . في احدى الليالي عندما اقبل ديمتريوس الى الاسكلة وجد البحارة كلهم يتوقعون وصوله بسرعة زائدة . فاخبروه انه قد شُحن الى بيتولي كمية وافرة من بطيخ ارينو وقد أُرسلت بطيخة اليه منها بمثابة هدية خاصة وقد

وُضعت في صندوق ولما اخرجها منه اجتمع حوله كثيرون وسألوه هل تعرف احداً في اربينو ؟

اما هو فانه ادار البطيخة بين يديه فرأى عليها رسم سمكة وعلم عندئذٍ ان سيده مرسيلوس هناك فلم يقدر ان يملك نفسه لشدة الفرح والابتهاج

وفي صبيحة الغد عندما عادت ديانا الى الرواق كعادتها سألها ديمتريوس : هل سمعتِ ببطيخ اربينو قبلاً ؟ اجابته على الفور : انها كان يلذ لها اكله في بيتها . فاخبرها انه قد بُعث اليه بواحدة كبيرة منه من هناك . ثم جاء بها وسلمها اليها

– هل تعرف احداً هناك ؟ وما هذا الرسم الذي عليها فانه صورة سمكة . هل يعني شيئاً ؟

واذ ذاك عاد ديمتريوس الى حيث كان قاعداً وقال لها : اعلمي ان من عادة جماعة المسيحيين عندما يريد الواحد منهم ان يخبر الآخر عن محل وجوده او عن الطريق التي يجب ان يسلكها ان يرسم له صورة سمكة على احد جانبيها او على الرمل اذا كانت تلك الطريق رملية او على صخرة عند منعطفات الطرق او على احد الابواب . وكذلك اذا التقى غريبان في فندق ما واراد الواحد منهما ان يتعرَّف الى الآخر ليعلم أهو مسيحي ام لا فانه كان يرسم له هيئة سمكة في اصبعه

– لماذا يقتصر المسيحيون على صورة السمكة دون غيرها ؟

– لان الحروف الاولى من كلمة سمكة في اليونانية تعني « يسوع المسيح ابن الله مخلص »

– ولكن هل تعتقد انه يوجد مسيحيون في اربينو ؟

فتفرَّس ديمتريوس في عينيها وعلى شفتيه ابتسامة غامضة وقال : يوجد على الاقل مسيحي واحد وكلانا نعرفه

فهمست ديانا بنفَس مقطوع قائلة : مرسيلوس !

* * * *

انتبه سكان كابري لكاليغولا الصغير عند قدومه وشاهده ديتريوس ماشياً بازاء الامبراطورة جوليـا لدى دخولهم الى الدارة جوفس . وبعد مضي ساعة من الوقت اهتزت الجزيرة بالخبر الذي تلقته وهو ان الشاب السمج اصبح امبراطوراً وسيلبس التاج عن قريب . وعلاوة على ذلك انتشر نبأ خطير بان الامبراطور طيباريوس قد امسى في غيبوبة لا يعي معها شيئاً وستودي بحياته

وبما ان الامبراطور الآن قد امسى عاجزاً عن قضاء اي امر وان حفيده سيخلفه على العرش ففي طاقة جوليا ان تقوم باي عمل شاءت . وربمـا ترغم ديانا على مؤانسة كاليغولا

وقد كان ظن ديتريوس لهذا الامر في محله لان ديانا دُعيت لتناول العشاء مع الامبراطورة وحفيدهـا في عشية ذلك النهار . ومع ان ساعات طيباريوس كانت معدودة ومحدودة حتى الآن فان كاليغولا الصغير وجب ان يكون له ما يسره

فقبلت ديانا الدعوة على كره منها واعتبرت قبولها امراً واجباً لا مناص لها منه. فانتظرها ديتريوس خارجاً نحو ساعتين كاملتين . ولمـا حضرت كانت هيئتها تدل دلالة واضحة على حدوث شيء ما . فاسرّت الى ديتريوس ان كاليغولا الممقوت قد اظهر لها اهتماماً وقحاً حتى ان جوليا نفسها بكتته وحذرته من اعادة ذلك بكلمة قاسية

— كني . كني . انكِ لا تستطيعين البقاء هنا فساحاول انقاذكِ هذه الليلة من الجزيرة

ولكنها اعترضت قائلة : بل هذا محال يا ديتريوس

— سترى . نعم ان الامر يكون خطراً ولكن لا مانع من التجربة سراً

وبعد ان علمها ماذا يجب ان تعمل سألها : هل تخافين ؟

فاقرّت له قائلة : انني اخاف بلا شك . غير اني ساجرّب ان اعمل ما علمتني ولست اخفي عليك انني افضل الغرق على ان يضع ذلك المعتوه يده عليّ مرة اخرى

قال ديمتريوس : اذاً عليكِ ان تخرجي من الدارة جوقس الساعة الواحدة بعد نصف الليل وتتمشي وحدكِ الى رواق دارتكِ

وبعد ان قال لها ذلك تركها لدى باب غرفتها وخرج لتجولاته الليلية فذهب اولاً الى الرواق وسحب الحبل من مخبـإه وربط طرفه الواحد بشجرة سرو متينة والقى طرفه الآخر في الهوة العميقة ووقف ينظر الى سطح الصخرة المائلة الى جهة الامواج المتلاطمة . وقد ارتعدت فرائصه خوفاً عندما تصوَّر ما يحصل لديانا عند رؤيتها تلك الهوَّة العميقة لان النزول فيها يحتاج الى جرأة نادرة

ثم عاد الى غرفته وجاء بالصرَّة التي هيَّأها لديانا ولم تكن سوى ثياب بنـاء وقبعة بحري

وعند رجوعه كان يستوقفه الحراس ليتحدثوا معه عن حوادث النهار فاضطرَّ ان يتأخر . ومع ان الوقت كان ثميناً فانه لم يُرد ان يثير الشبهة عليه لسرعته . وعندما وصل الى الاسكلة انتخب احسن زورق واحضر المجاذيف وحيا البحارة ثم ابحر في تلك الليلة المقمرة وعندما وجد نفسه في مأمن طفق يجري الزورق بشدة فائقة كما يروم ليصل بهما الى الجهة الشرقية من الجزيرة . فلما واجه البحر قوي عجيج الامواج ولما طغت مياه البحر واشتد تلاطم امواجه خفق قلبه بشدة ليس من التعب الزائد الذي كان يعانيه بل من ان يلحق بديانا احد

ولو ان الاحوال كانت جارية كالعادة لما كان بامكان ديانا ان تتوجه الى دارتها عند منتصف الليل دون ان يعترضها احد ولكن بما ان الامبراطور كان على فراش الموت كان كل انسان يعمل ما يخطر له في تلك الليلة

اخيراً تبين له على ضوء القمر جرف الدارة الطويل . فجذب الزورق الثقيل الى اسفل الصخرة المرتفعة وحدَّق بعينيه نحو قمتها وبالكدّ استطاع ان يهدىء القارب من هياج الامواج . وكاد قلبه يثب من صدره اذ شاهد بغتةً ديانا تتزحلق على الحبل بسرعة مع انه كان قد حذَّرها من سرعة النزول لكي لا تجرح يديها وتسقط

ولكن الذي دُهش منه هو انها بعد وصولها الى منتصف الهوّة توقفت فجأةً وظهر له ان الحبـل يُسحب من فوق وهي تُسحب معه . فنظر الى اعلى الصخرة فشاهد شخصين يجذبان الحبل فترك المجذافين من يديه ووضع يديه على جانبي فمه وصرخ باعلى صوته قائلاً : ألقِ بنفسكِ يا ديانا . فاحتارت في امرها . فصرخ ثانية : اقفزي يا ديانا

اما قاربه فانه كاد يلتطم بصخرة وبغتةً تركت ديانا الحبل وسقطت في جُرف الماء الهائل واختفت عن نظره . فسحب ديمتريوس القارب واخذ يفتش عنها الى ان ظهر رأسها اولاً ثم رآها تسبح فمدَّ لها ذراعه ونشلها

ثم ادار الزورق الثقيل وجذف حول منعطف الجزيرة مستظلاً بظلّ الصخرة . ولم يفوها بكلمة الى ان وصلا الى مياه الترعة الهادئة . فاوقف القارب في فم كهف ثم جلس وقال : حقاً انك ابنة شجاعة يا ديانا . اجابته لست كذلك ولكنني اشعر ببرد شديد

قال لها : قد هيأت لك ثياباً في دُرج مقدمة القارب ثم ساعدها على النهوض وقال لها : افتحي الباب فتجديها فسألته :

— هل هي للتنكر ؟

اجابها : كلا بل هي للتدفئة

— لماذا اكتوس والحارس الثاني لم يطلقا عليَّ الرصاص ؟

— لربما يصيبكِ رصاص بندقيتهما . لانه قيل لاكتوس ان يبقيكِ على الجزيرة لا ان يؤذيكِ . هل فهمتِ انه كان لاحقاً بكِ ؟

— لم افهم ذلك الى ان وصلت الى دارتي وسمعت صوته تماماً اذ ناداني وكانت تلك ساعة هائلة حينما كانا يجذباني الى فوق وخفت ان يتملص الحبل من يديَّ

اجابها ديمتريوس : لا شك بذلك . هل انتِ شاعرة بدفء الآن ؟ وهـل وجدتِ قبعتكِ

– قد وجدتها لكن ذوقي يأباها لانها قبيحة الشكل . فالى اين نحن متوجهان الآن ؟

– الى احد الشواطي حيث نختبي في النهار . ونجذف غداً كل الليل ثم نغادر القارب بجوار فورميا . لا تخشي شيئاً يا سيدتي ما دمتِ قد بعدتِ عن الجزيرة

فجرى الزورق بسرعة والنسيم العليل يكتنفه من جميع جهاته

فسألته ديانا : كم تبعد المسافة بين فورميا واربينو ؟

– خمسين ميلاً الى الشمال الشرقي

– يظهر ان لك خبرة في تلك النواحي . هل سافرت اليها سابقاً ؟

اجابها ديمتريوس : كلا لم اسافر لكنني فتشت عنها في الخريطة

– هل نذهب الى اربينو ؟

– هل تشائين ؟

لم تجبهُ ديانا على سؤاله . كان النسيم يزداد قوةً وديمتريوس يجذف بكل قوته فسألها : هل انتِ خائفة ؟ اجابته : ليس الآن ثم اخذت ترنم مسرورة وقالت : توحي اليَّ نفسي ان احداً معتنٍ بنا في هذه الليلة

– نعم يا ديانا . هل تعتقدين ذلك حقيقةً

– نعم اعتقد انه يعتني بنا عند هبوب العاصفة

– أجل لقد عُرف انه يعتني باصدقائه في العاصفة

* * * *

كان كاليغولا راغباً جداً في وظيفته السامية التي سيتقلدها حتى انه لم يحضر مأتم الامبراطور طيباريوس لسبب انحراف قليل في صحته . ولم يقم بالواجب الرسمي الذي يليق به بل اهتم حالاً بتهيئة معدات حفلة تنصيبه وكذلك لم يبالِ بواجب دفن عمه غايوس كما يُدفن الامراء من قبل

ومما يمكن قوله : لو ان الامبراطور طيباريوس كان محبوباً من شعبه لكان اقام له الشعب مأتماً فخماً حافلاً ولكن علاقاته انقطعت بينه وبين الشعب منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً حتى لم يبقَ احد يهمه امره سواء عاش ام مات . حتى في مجلس الشيوخ فالذين منهم كانوا يهجونه قبلاً بما لا يعنونه كانت خطبهم التي رثوه بها ركيكة سخيفة

ولم يكن الحزن على الامبراطور الا بين ليلة وضحاها لان الشعب انزل رايات الحداد عن مفترق الطرق الرسمية التي كان قد مرَّ بها قبل مرضه . ولكن فريقاً من النبلاء عز عليهم هذا العمل الشائن الذي اظهره الشعب ليس لكونهم اهتموا بشأن طيباريوس بل لاجل كرامة المملكة نفسها . اذ كيف ينصبون على العرش غلاماً قاصراً غير جدير بمنصب خطير كهذا . ولكن كاليغولا لم يكن لتهمه هذه التقاليد ولم يعبأ بنصائح وزرائه المتاظين . وقد عمَّت المدينة اخبار شذوذه وعدم اهليته للقيام باعباء المملكة وتحمّل مسؤولياتها

دامت ولائم التتويج اسبوعاً كاملاً وكانت النفقات باهظة بحيث لم يُسمع بمثلها قط . الوف مؤلفة من الشبان والشِيب دُعوا الى حضور الولائم والملاهي واكثروا من المآكل والمشروبات الروحية على اختلاف اجناسها حتى ثملوا وعربدوا وسفكوا دماء بعضهم البعض . الامر الذي لم تعهده وتشاهده رومية فيما مرَّ عليها من الازمنة

اما سكان رومية الحقيقيون فانهم وقفوا واجمين تجاه هذا الاسراف العظيم . ولكن الذين كانت بطونهم فارغة لم يبالوا الا باشباعها ، خصوصاً لانهم من حزب « الحذاء الصغير » الذي يساعدهم مادياً وادبياً بتقديمه لهم جميع احتياجاتهم دون ان يسألوا من اين ياتي بكل تلك الاموال لانه جعلهم يعتقدون ان كل هذا من كرمه وجود اياديه وصرّح قائلاً : ان مسؤولية فقر الشعب تقع على الاغنياء ليس الأ

اما سيجانس الشيخ فانه جاء الى مجلس الاعيان خائفاً ويائساً من تلك الحالة المشؤومة ولكن المجلس لم يستطع ان يقوم بعمل ما . وقد قُتل الشيخ المذكور في

الليلة عينها . اما جوليا الشيخة التي جاءت الى رومية ظناً منها انهم يحترمونها ويكرمونها ويعطفون على جلالتها كالملكة الارملة فقد ارجعوها في الزورق الملوكي حالاً الى كابري بدون احتفاء

وكانت الولائم تقام في القصر اياماً وليالي والنظام مفقود تماماً . فكان غير المدعوين يحتشدون في تلك الحفلات زرافات ووحداناً والانصاب تُقلب ثم تكسر على البلاط . والضيوف الشرسون يتدحرجون على الدرج الرخامي الزلق . اما عدد السكان المعربدين فلا يحصى

وكان يسير ذلك الموكب في الشارع تتقدمه المركبة الفخمة المذهبة التي تقل الامبراطور القاصر وهو ببزته الرسمية المزخرفة ثمل من الشراب وشعره منتفش . وكان كنتوس يحمل بيده كيساً مملوءاً من النقود الرومانية التي كان ينثرها الامبراطور على الشعب الهائج . وقد اخذ منه هذا المشهد الرائع كل مأخذ فكان فرحاً مرحاً لا يسأل عن شيء ولا يهمه امرٌ من الامور

وقد لازم الاهالي الوطنيون قصورهم وهم في حالة لا مزيد عليها من الغيظ واليأس ولم يبدُ اقلّ احتجاج على كاليغولا الذي امر بنزع رؤوس نصف تماثيل العظماء المحترمين المنصوبة في الساحة العامة ووضع محلها باحتفال مؤثر رسوماً تمثله . كذلك لم يحتجوا حينما صنع تمثالاً من العاج والذهب لجواده المطهم انسيتانس واقامه في القصر ورقّاه الى رتبة قنصل

واغرب الشعب في القهقهة حين اعلن الحذاء الصغير ان جواده انسيتانس هو إله واصدر امراً ان يسجدوا له في الهياكل وهذا ما ادّى الى ارتباك الكهنة لان الهياكل كانت قد فقدت حرمتها وكرامتها من اوامره الشاذة واحتاجت الى اصلاح ومصلحين

وكان كاليغولا قد ارسل سعاة ليفتشوا عن ديانا الجميلة ولذلك كان يستعلم من كنتوس عنها يومياً وكان تفتيشهم يذهب ادراج الرياح . وبعثوا حارساً الى بيت غالوس الغائب والد ديانا فاخذ يراقب خروج امرأته التعسة ودخولها ويسأل الخدم

ويتهددهم ويعذبهم . وجرى اعدام اكتوس الحارس واثنين آخرين معاً في كابري وهدّد كاليغولا كنتوس بالعزل اذا لم يحضرها امامه

وكان كنتوس يهمه وجودها لسببين اولهما انهم اذا لقوا ديانا فلا بدّ من لقاء ديمتريوس ايضاً . وقد غضب من قبل غضباً لا مزيد عليه لانه لما جاء الى كابري ليطلب من الامبراطورة جوليا ان تاخذ كاليغولا لم يعلمه احد بوجود ديمتريوس في تلك الجزيرة

ولم يكن مستغرباً ان تمسي ديانا وديمتريوس طعاماً للاسماك لان زورقهما كان فارغاً تتلاعب به الامواج . وكان البحر هائجاً على اشدّه. ولم يرَ احدٌ اثراً للتائهين من فورميا الى كابيا

فازداد غضب الحذاء الصغير وصاح صيحات منكرة لان ديانا كانت الفتاة الوحيدة التي ازدرت به واظهرت له بهربها من القصر العظيم شجاعتها . لذلك يكون سروره شديداً اذا وجدها وداس بقدميه عجرفتها . فالتفت اليه كنتوس وقال له : ولكن يجب يا صاحب الجلالة ان تتخلصوا من الخادم اليوناني قبل تخلصكم من ديانا

— هل يحبها ذلك العبد اليوناني ؟ فقد اخبرتني انها تحب ذلك القاضي المختل الذي صلب اليهودي وفقد عقله لانه اعتقد بنفسه انه صلب الهاً واماته

فعجب كنتوس غاية التعجب من تذكره ما اخبره سابقاً عن الجليلي والجموع الكثيرة التي تبعته وقد كان في ذلك الحين بحالة السكر الشديد . ولكن يظهر ان الرواية اثرت عليه فلم ينسها . فقال للامبراطور :

— الامر المحقق يا مولاي ان ديمتريوس هذا هو العبد الخاص لمرسيلوس ولا بدّ من ان يكون اقسم له بحمايتها

فاجاب كاليغولا : ها ! اذا كان في امكانه حمايتها

قال كنتوس : ولو فرضنا يا سيدي انه لا يستطيع ذلك وحصل القبض على

ديانا فان هذا اليوناني لا يهمه المجازفة بحياته لينتقم لها

قال كاليغولا : بُف . وماذا يستطيع ان يفعل ؟ انك جبان احمق . هل تظن يا كنتوس ان هذا العبد يهاجمنا بدخوله علينا او يقف في حضرتنا ؟

– ان هذا اليوناني رجلٌ خطر . فانه استطاع مرة ان يهجم بدون سلاح على احد القضاة ويضربه ضرباً مبرّحاً

– وهل بقي بعد اعتدائه عليه في قيد الحياة ؟

– نعم واصبح عضواً في عدد حرّس الامبراطور بالدارة جوفس

– وهل عرف طيباريوس بجريمته ؟

– لا شك في ذلك لانني اخبرت الامبراطورة

فسأله كاليغولا : مَن كان القاضي الذي هاجمه ذلك العبد ؟

فارتبك كنتوس ولم يجب على السؤال فحدّق فيه كاليغولا وقهقه ضاحكاً

فاحمرَّ وجه كنتوس من جرّاء ذلك وابتسم بخضوع وقال ان الامبراطور طيباريوس لم يجبني قط

– ربما طيباريوس الشيخ اقام العبد حارساً له ليكافئه . ان الفرصة سانحة لديك الآن . ففتش عنه ومتى ظفرت به اقتله في الحال

– انني لا اريد ان اتقاتل مع عبد يا صاحب الجلالة

ضحك الحذاء الصغير وقال بالطبع ليس مع هذا اليوناني فاسرع وابحث عنه الى ان تجده واعهد الى رجل اشجع منك لكي يقضي عليه . لانني لا اريد ان يكون حرّاً . والآن اخبرني عن مرسيلوس الذي عرّض حياته لخطر البحر وصار من اتباع ذلك اليهودي . هل تستحسن ابنة غالوس هذا الاعتقاد ؟

فاجاب كنتوس انه لا يعرف . ولكن لديه اسباباً تجعله يعتقد ان العبد اليوناني هو الآن مسيحي لانه انحاز الى سكان اورشليم

قال الامبراطور : ولكنه يحارب . لانني فهمت ان اتباع يسوع لا يُسمح

لهم بالمحاربة

– ربما يكون ذلك يا مولاي . ولكن اذا غضب هذا اليوناني فانه لا يلتمس اذناً من احد لكي يحارب مَن حاربه ويناوش من ناوشه لانه حيوان شرس

فسأله الحذاء الصغير : ما هو اعتقادك بقوة حرس القصر ؟

– هم متيقظون ومخلصون يا سيدي

– لا يمكن ان يدخل غرفة نومنا قاتلٌ

– لا يقدر ان يدخل من الخارج ولكن اذا قرر اليوناني ان يقتل الامبراطور فانه لا يدخل من رتاج القصر بل يثب على دولاب مركبة الامبراطور ويطعنه بخنجره طعنة نجلاء تكون القاضية عليه

– ولكن الشعب يقتله حالاً ولا يصبر عليه . قال هذا وهو ينتفض خوفاً

– من غير بدّ يا صاحب الجلالة ربما يحدث القتل بعد فوات الفرصة . اما هذا اليوناني فاذا اراد الانتقام فلا يهمه دفع الثمن

فقال كاليغولا : يجب من الآن فصاعداً ان يُضاعف عدد الحرس ولا سيما عند مقابلة الشعب لنا فيسير على جانبي العجلة الملوكية . وكن انت الوكيل والرقيب على هذا الامر

– ان امر جلالتكم على الرأس والعين . لكن اذا سمح لي الامبراطور ان اتكلم بهذا الصدد فاقول انكم تستطيعون تجنب هذا الخطر اذا كنتم تتركون ابنة غالوس طليقة من القيود لانكم اذا كبلتموها فلا يلبث الجيش كله ان يقاومكم اشدّ مقاومة لانه يحترم والدها غاية الاحترام

قال الحذاء الصغير بعد ان احتسى كؤوساً عديدة من الخمر : متى كنا بحاجة الى نصائحكم ؟ فان امبراطور الرومان لا يسأل : أيستحسن كلٌ من الجند رأيه ام لا . بل لا تهمه قضايا الشيوخ في المجلس لان الشعب معنا

– اجاب : يكون الشعب معكم بلا شك اذا اشبعتموه من الاطعمة

– سنطعمهم متى شئنـــا . واذا لم نشأ ذلك فماذا يحدث يا ترى ؟ هل يفقد النظام ونضطر الى ارجاعهم الى بيوتهم ؟

اجابه كنتوس : ان الشعب الجائع لا يكفّ عن ازعاج غيره

سأل كاليغولا : بالنهب اليسير . أليس كذلك ؟ دعهم يسرقون فان اصحاب المخازن اغنياء . انما لن نتدخل في هذه الامور . ولكننا لا نسمح بعقد اجتماعات مهما كان شأنها

ليس من الصعب ان نفرّق الاجتماعات العلنيّة بل اصعب من الصعب ان نشتت شمل الجمعيات السرّية

اجاب كنتوس بعد ان تظاهر بالافتكار : لم ارضَ ان اذكر الك عنها شيئاً لان لدى الامبراطور هموماً كثيرة . انا يُعتقد انه يوجد اتباع كثيرون لهذه الديانة الجليلية الحديثة

– آه . هم الشعب الذين لا يُسمح لهم ان يحاربوا فليجتمعوا ويتهامسوا ولكن قل لي كم هو عددهم ؟

اجاب كنتوس لا احد يعرف وقد فهمنـــا انهم يزدادون يوماً عن يوم . ان البيوت التي يدخلها اناس اثناء الليل يراقبها الجند . وقد يحدث ان يدخل الجنود احد البيوت المشتبه بها فلا يجدون فيها شيئاً من الاسلحة والنظام مستتب . ولكنهم يغادرون البيت الذي اجتمعوا فيه الى بيت آخر . وكان الامير غايوس يفتش عنهم منذ اشهر ولم ينجح

قال كاليغولا : هذا امر بسيط فليجتمعوا ويتحدثوا بقدر مـــا يشاؤون واذا شاؤوا ان يسمّوا اليهودي المائت الهاً فلهم ملء الحرية . ان حصاني انسيتاتوس اله . لا احد يهمه هذا الامر

– ولكن هؤلاء المسيحيين يدّعون ان ذلك الجليلي ليس مائتاً . وحسب ايمانهم انهم رأوه في مناسبات شتّى منذ تاريخ صلبه ويعتبرونه ملكهم

فانتبه الحذاء الصغير من غفلته وصرخ قائلاً : ماذا ! ملك ؟ دعهم يعتقدون ويقولون عن هذا اليهودي ما يشاؤون ولكننا لا نأذن لهم ان يعتبروه ملكاً . اقبض على هؤلاء الحمق فاننا سنخنق هذه الفكرة الدينية الحديثة ما دامت طفلة في المهد

قال كنتوس : ولكنها غير باقية في المهد يا صاحب الجلالة فان فلسطين غدت ملآنة بهم وقد تجرأوا ان يظهروا انفسهم ويعلنوا امرهم في كورنثوس واثينا وبلدان اخرى يونانية

فسأل كاليغولا : اين هيئة الحكومة وسطوتها ؟ العلها مستغرقة في سباتها ؟

— كلا يا صاحب الجلالة فقد سُجن قادتهم وأُعدموا . ولكن هذا الشعب على جانب عظيم من الشجاعة لا يخشى الموت بحيث يعتقد انه اذا مات اليوم فسيحيا غداً

بُف ، صرح كاليغولا : قليلون هم الذين يعتقدون هذا الاعتقاد . اما الذين يؤمنون بالجليلي فانهم اقلّ من القليل ولا يهمنا امرهم ابداً

ثم قال كنتوس ان كورنيليوس كابيتو شديد التخوف من كثرة عددهم ويقدّر ان في رومية وحدها الآن من هؤلاء المسيحيين اكثر من اربعة آلاف شخص

— وما هو موقفه حيال هذه الخيانة الفظيعة

- اجاب كنتوس : لا اعلم انها حركة غريبة يا صاحب الجلالة فسلاح اتباعها الوحيد هو ايمانهم ان ليس ثمّت من موتٍ ما . وكورنيليوس كابيتو ليس بوسعه ان يسحق اشخاصاً يرفضون ان يموتوا عندما يُقتلون

— انت تتكلم بكلام رجل احمق فارسل واستدعِ في الحال ذلك الضعيف العقل لكي يأتي غداً الى هنا ويعطي حساباً عن نفسه . وابذل ما في وسعك لالقائك القبض على ذلك اليوناني اما حياً او ميتاً

ثم قال نادِ لنا الحاجب لاننا نريد ان ننام

* * * *

لو ان واحداً من معارف مرسيلوس سأله بعد سياحاته العديدة هل يعرف رومية لاجاب حالاً انه يعرفها تمام المعرفة لانه امضى فيها معظم حياته . اما الآن فقد بدأ يكتشف ان الذي يعرف رومية من وجهة حياته كقاضٍ صغير غني مستريح وهو ابن احد شيوخ مجلس الاعيان صاحب الامر والنهي فان حالته تختلف من هذه الوجهة الثانية اذا عرفها كسائح بسيط متواضع خالٍ من العمل يبيت في احد الاكواخ القاتمة قرب الاسواق العامة ثم يخرج الى شاطىء نهر التيبر ليواجه سوقاً غاصة بالجماهير المتخاصمة اثناء الليل واطراف النهار

لم يعلم مرسيلوس الى الآن لماذا اضطرَّ ان يعود الى رومية . فقد مضى عليه فيها عشرة ايام وهو يصطدم بتلك الجماهير الغفيرة مشمئز النفس من الاقذار والاوساخ المنتشرة ومن سوء آداب الالوف الذين لم تكن حياتهم افضل من الجرذان التي كانت تجول في الاسكلة من ناحية الى ناحية • وقد امسى كل انسان فيها قذراً حتى غدا هو قذراً ايضاً لانه من الصعب ان توجد التسهيلات الكافية للنظافة في نزل بسيط

وعندما اجتاز الموكب الاحتفالي الساحة العامة لتأدية الفرائض الدينية قبل دفن الامبراطور كان مرسيلوس بين الجماهير الكثيرة وقد تأثرت نفسه جداً لما شاهد من علامات الضعف البادية على هيئة والده بسبب الهموم الكثيرة التي صيرته شيخاً عاجزاً . ولم تكن علامات الضعف والهمّ منحصرة في والده فقط بل كانت بادية على وجوه جميع الرجال النبلاء . ولا عجب من ذلك لان المملكة كانت في عهد فضائح وذلّ وهوان . ومما آلم مرسيلوس ايضاً استسلام والده لليأس بعد ان كان مثالاً لرباطة الجأش والهمة العالية

وبقي اسبوعين كاملين يطوف في الاسواق ويقف تارةً هنا وطوراً هناك ليصغي الى سبب ما يراه من المخاصمات العنيفة بين هذا وذاك او ليسأل سؤالاً لطيفاً عن ذلك من قريب . فكان الرجال غالباً لا يصغون اليه بل يتركونه وشأنه علماً منهم

انه من غير طبقتهم لمغايرتهم اياه في نغمة صوته وفي عاداته ولذلك لم يثقوا به

ففي احدى الليـالي اذ كان مرسيلوس في حالة يأس شديدة ارسل رسالة الى مرسيبور يخبره فيها عن محل اقامته وانه يريد مواجهته في الوقت والمكان الذي يعيّنه . وبعد ذلك بساعتين رجع الرسول بجواب يشير عليه فيه ان يتوجه الى مقبرة اليهود القديمة الساعة الثانية بعد الظهر حيث يجده بانتظاره

فتذكر مرسيلوس ذلك المكان لانه يذكره بحادثة تاريخية جرت منذ مئتي سنة حينما اخضع انطونيوس فلسطين لسلطته فساءت اذ ذاك حالة اليهود حتى ان الوفاً منهم نزحوا عنها وكان لرومية نصيب كبير منهم . الا ان كثرة عدد النازحين ازعج حكومتها . لذلك اصدرت شريعتها امراً بحصر حرية المهاجرين وابعادهم الى ناحية نهر التيبر حيث رخّصت لهم ان يتعاطوا اشغالهم وقد حرمتهم الجنسية الرومانية وابقتهم تحت نير الاضطهاد

ولما كانت تقاليدهم توجب عليهم احترام موتاهم . لذلك تأثروا للغاية عندمـا عينت رومية لهم مكاناً بعيداً لدفنهم في الجهة الجنوبية من المدينة حيث غطّى قليل من التربة صخرة عمقها مئة قدم فقط . فكان المواطنون المتهوسون يذهبون ليـلاً وينجسون قبورهم

على ان اليهود المصابين باشروا بجهود كلية حفر منفذ في احد جوانب الصخرة المذكورة وبَنَوا في اسفل هذا المنفذ ممرّات لولبية وحفروا في جدرانها سراديب لموتاهم وغرفاً لالتجاء التائهين منهم . ومع مرور الزمن خفّت وطأة الاضطهاد عنهم وأُذن لعدد من اغنيائهم الذين ساهموا بسخاء في تشييد بنايات واقامة تماثيل للدولة بمنحهم الجنسية الرومانية وبهذا خفّ الضغط على بني جنسهم

واخيراً أُهمل شأن تلك المقـابر القديمة ولم يبقَ احد يزورها سوى البعض من علماء الآثار وقد عجب مرسيلوس من اختيار مرسيبور هذا المكان لاجتماعهما فيه لان المسافة كانت بعيدة جداً

ولما وصل الى هنالك قبل الوقت المعين كان مرسيپور ينتظر مجيئه في مرج من السرو يمتد نحو ربع ميل من الطريق العامة حتى القبور المهجورة . فلما لمحه مرسيپور وكان قاعداً على الارض نهض حالاً مرحباً بقدومه وصافحه بكلتا يديه وكان التأثر الشديد بادياً على وجهه الجعد وكذلك مرسيلوس الذي لم يبقَ قاضياً تحركت عواطفه وتأثر لتأثره فضمه الى صدره وتعانقا وتذكر كلٌّ منهما ذلك الزمن الغابر حين كان مرسيلوس طفلاً يركض يشكو تعباً او ألماً الى مرسيپور الكورنثي الرصين الدمث الاخلاق

فقال له الكورنثي . لقد خشيت انا وعائلتك من خبر غرقك في البحر ونحنا عليك . فلماذا هذا كله ؟

اجابه مرسيلوس : قد اضطررت ان اسبب لها هذا الاسى والاسف لانهم اذا افتكروا بموتي فانهم يحزنون غير انهم يذكرونني بشديد الحب ولكن لو جئت الى البيت وانا معوّل على ان اقضي حياتي بخلاف ما يتوجب على ابن غاليو الشيخ لكنت سببت لهم حزناً اعظم . ففي الحالة الحاضرة هم حزانى ولكن ليس اذلاء . بل شرفاء

— ولكن لماذا اطلعتني على هذا الشيء مع انه سرٌّ عظيم تفشيه الى مَن هو مخلص لسيده ؟

اجاب مرسيلوس : لانني رأيت يوم دفن الامبراطور ان هيئة وجه والدي الجميل قد تغيرت والخيبة ارتسمت في عينيه وان كتفيه انحنتا وقامته فقدت رشاقتها فآلم كل هذا قلبي كثيراً . فهل تنصحني ان اعود اليه ؟ لا شك انك تقول لي انه يجب عليَّ ان اقلع عن الشغل الذي باشرت القيام به واعود الى البيت كما كنت قبلاً أليس كذلك ؟ انني لا استطيع ان افهمك جيداً العهد المفروض عليَّ القيام به لانه لم تسنح لك الفرصة لفهمه

وقبل ان يتم عبارته قال له مرسيپور : لا يا بنيَّ ليس في امكانك الاقلاع عن دعوتك الجديدة مهما جدَّ لك من الامور . وانا اعلم هذا ولا اجهله كما تعتقد انت .

لان الانسان عندما يؤمن بان يسوع هو ابن الله الحيّ وانه هنا والذي جاء ليقيم مملكة عدل وصلاح لجميع الناس فانه لا يمكنه ان يتخلى عن ذلك الايمان . واذا تخلى عنه لسبب ما فمعنى هذا انه لم يحصل عليه ابداً

تحلق مرسيلوس واصغى الى كلامه بكل قواه ثم قال انتَ اذاً مسيحي يا مرسيپور ؟

اجابه : حينما جئت آخر مرة الى البيت افتكر ديمتريوس انني يجب ان اخبرك عن ايماني واجتماعي مع المسيحيين الآخرين في رومية

فاعاد مرسيلوس العبارة مندهشاً : مع مسيحيين آخرين في رومية ؟

نعم ، اجاب مرسيپور : وهم في خطر عظيم . وعرفت عندئذٍ بانني لو اخبرتك عنهم لكنت لحقت بهم . وكل هؤلاء الرجال لا يستطيعون الاجتماع سراً بل جماعات قليلة منهم لئلا تقع الشبهة عليهم . وان قاضياً نظيرك لا يستطيع عملاً مثل هذا . لذلك اخفيت هذا الامر عنك

وقد اصدر مؤخراً الامبراطور الجديد امراً مشدّداً يهدد فيه بالموت كل مَن يُرى مجتمعاً مع المسيحيين . ولسنا نعلم اليوم عاقبة دعوتنا لانه يُقال ان كاليغولا الصغير شرس الاخلاق عنيف في احكامه لا يراعي في الانام خليلاً

اجابه مرسيلوس : ان كاليغولا الصغير مختل العقل

— ربما يظهر لك انه كذلك غير انه لا يحجم عن القيام بمذبحة . وقد عرفتُ حين ارسلتَ اليَّ الكتاب بانك ستقيم مع المسيحيين وتجتمع معهم ايضاً . انما عليك ان تفكر مرتين قبل المجازفة بحياتك لاننا نحن الذين لا اهمية لهم يمكنهم الاختباء مدة مديدة . اما انت فلا تقدر ان تختبيء مطلقاً لان الامبراطور يرحب بالفكرة التي تجعلك مثالاً لهم

— ولكنك لا تنصح لي ان اود بالفرار من وجهه

— لا احد يعرفك كما اعرفك انا يا ابي فأصغِ سمعك الى ما اقوله لك : ان

حياتك ثمينة ولا تقدر الآن ان تفعل شيئاً نافعاً للناس الخائفين فما عليك الآن الا ان تغادر المدينة ريثما يوجد هذا الامبراطور لنفسه شيئاً آخر من الامور القاسية يتلهى به فحينئذٍ تعود الينا مطمئن البال

فاجاب مرسيلوس : انك تتكلم الآن كخادم امين لوالدي يهتم بمصلحة ابنه لذلك اشكر لك عواطفك . انما هذه الطريقة ليست نصيحة مسيحي لمسيحي آخر. هل اخبرك ديمتريوس او غيره عن سفر يسوع الاخير الى اورشليم حين كان تلاميذه يعرفون الخطر المحدق به فيما لو ذهب في اثناء العيد اليها وحاولوا ان يثنوه عن عزمه؟ قائلين له ان حياته ثمينة ولذلك لا يجب ان يهلكها ولكن يجب ان يبقيها لخلاص العالم

– وماذا كان جوابه لهم ؟

اجابهم : انه يجب على الانسان احياناً ألاّ يحذر صديقه من الخطر وهو سائر في طريقه ليتمم واجباته . وقال ايضاً انه يجب على الانسان احياناً ان يخسر نفسه ليخلصها وان الذين حاولوا ان يخلصوا حياتهم خسروها . لا يا مرسيبور انا اعلم انك تريد لي الخير . وبناء على هذا فانا سابقى في رومية . ألا تعلم اننا نخسر دعوتنا اذا كنا نحن الذين نؤمن بها لا نضحي بكل غالٍ ورخيص في سبيلها

فوقف اذ ذاك مرسيبور وقال دعنا نجتمع معهم

فسأله مرسيلوس في اي مكان؟

اجاب مرسيبور : هناك في المقابر حيث يوجد ثلاثون شخصاً يعقدون جلساتهم ويستشير بعضهم بعضاً في ما يجب اجراؤه من الاعمال لضمان نجاح مستقبلهم

سُرّ مرسيلوس وتعجب حين سمع انه يوجد ثلاثون عضواً مسيحياً في رومية فقال له بل يوجد اكثر من اربعة آلاف عضو اما هؤلاء الثلاثون فهم قادتهم ومرشدوهم

وقف مرسيلوس لا يبدي حركة من هذا الخبر العجيب . اخيراً قال : ان ملكوته آتٍ اقرب مما ظننت

– اصبر يا ابني فان امام ملكوته طريقاً وعرة صعبة المسلك

ثم ان مرسيپور قاده الى المنفذ الضيّق المظلم حتى وصلا الى ممشى ظهر منه نور ضئيل . فاقترب منه رجل طويل القامة ورفع سراجاً فوق راس مرسيلوس وحدّق به وسأل مَن هذا ؟ اجابه مرسيپور انه القاضي مرسيلوس غاليو وهو واحدٌ منـا يا ليتو

فسأل ليتو : ما لنا وللقضاة ؟

– ان مرسيلوس ضحى باشياء كثيرة من اجل ايمانه وهو يعرف هذا الايمـان اكثر منا جميعاً ما عدا واحداً

– اذا كنت تكفله فادخله معك

ثم انهمـا بعد ان سارا في الممشى الطويل اقبلا على ممرّ آخر وكان مرسيپور يقول لمرسيلوس ان ليتو يظن ان هذا الايمـان يجب ان يتمسك به الفقراء فقط وكثيرون يعتقدون اعتقاده ولكن قد حان الوقت ليعلموا علم اليقين ان قاضياً رومانياً مثرياً يستطيع ان يكون من اتباع يسوع الحقيقيين . لاننا قد سمعنا كثيراً عن فضائل الفقراء

اذ ذاك وصلا الى باب خشبي ثقيل فخرج من الظلام حارس فافهمه مرسيپور هوية مرسيلوس ووضعيته . ثم اشار اليه بالمشعل الذي في يده الى رسم فوق العتبة التي فوق الباب وسأله ما معنى هذا ؟

اجابه مرسيلوس انه علامة المسيحيين السرية

– هل اخبرك احد عنها او رأيتها في غير هذا المكان ؟

– قد رأيتها في اماكن عديدة في الجليل وفي اورشليم

ثم قال الحارس دعني اسألك اذاً : لماذا العلامة سمكة هل تدل على شيء مقدس ؟

فافهمه مرسيلوس معناها الحقيقي . فاصغى الحارس الى ما يقوله كل الاصغاء

- اذاً يمكنك الدخول . وافسح له المكان.

فدخل مرسيلوس ومرسيبور القاعة الواسعة التي كانت تسع اشخاصاً كثيرين غير الذين شاهدهم مجتمعين في زاوية حول رجل ملتحٍ كبير الجثة يتكلم معهم وفي صوته بحة . فاقتربا منه وتمكنا من سماع صوت الخطيب الغيور

فسأله مرسيبور هامساً وهو يبتسم هل تعرفه ؟

اجاب مرسيلوس : من غير بُدّ ، هذا هو الصياد الكبير

الفصل الرابع والعشرون

في صباح ذات يوم حارّ الهواء كان المناظر ڤوبيكوس جالساً عند الباب يتثائب وهو يراقب العملة البالغ عددهم ثمانين من رجال ونساء وشبان وشابات وهم آخذون بقطف العنب الاحمر اللون باعتناء لارساله الى الاسواق وبيعه

فرأى على مسافة تبعد عنه قليلاً شاباً يسوق حماراً بطيء المشي مربوطاً بعجلة مملوءة حشيشاً . وكان الشاب نحيل الجسم يضرب الحمار كلما وقف او تباطأ بقدّة من الجلد كانت بيده واحياناً يجرّه بكل قوّته . وكان الشاب المذكور واضعاً على رأسه قبعة من الصوف وهيئته تدل على شدة تعبه

وكان ڤوبيكوس يحدّق اليه ويضحك وقد تبيَّن له بانه غير معتاد ترويض الحمير فقال المناظر المذكور في نفسه : ترى مَن يكون هذا الشاب ؟ على انه يعرف ابناء الفلاحين الذين كانوا في ضواحي ارپينو وحميرهم وعجلاتهم ولم يسبق له ان رأى سائق العجلة هذه ولا الحمار المربوط بها . فاخذ يقترب منه وينعم فيه النظر قائلاً : لم يتفق لي مرة ان صادفت احداً آتياً من حقل ينقل قشاً في عجلة مثل هذه يلبس ثياباً كاصحاب مقالع الحجارة وعلى راسه قبعة كقبعات البحارة

ولما وقفت الدابة امام الباب المفتوح على مصراعيه اخذ الشاب يضربها بسوطه الى ان انحلّت عقدة رسنها فاجفلت وهرولت الى حيث الكلأ وشرعت تلتهم منه فتبعها مسرعاً وامسكها وكانت اناملة نحيفة للغاية . وبعد ان نظر الى المناظر قليلاً ذهب الى حيث كانت الدابة ترعى

فطفق ڤوبيكس يتأمل ذلك الشاب وبعد ان دقق نظره في ملامحه تبين له انه انثى متنكرة فقال لها سادبّر الرسن عنكِ يا ابنتي ، تعالي الى هنا واجلسي في الظل

واقتاني بقليل من العنب الذي في السلة لان هيئتكِ تدلّ على تعب شديد فقد ظننتك غلاماً

فنظرت اليه الابنة ملياً ثم ابتسمت له وخلعت العرقية الصوفية عن راسها فتدلى شعرها الحالك السواد على كتفيها فضحك المناظر قادراً قدرها ثم ضحكت هي ايضاً وقالت انت لطيف جداً سآكل من العنب لانني عطشى من شدة الحر

اما الحمار المتعب فانه قفز عن السياج وحاول ان يحرّر ذاته مرة اخرى فذهب ڤوبيكوس لكي ياتيه بقليل من القش الذي في العجلة ليهدئه . فصرخت الابنة قائلة : يجب ألاّ ياكل من هذا القش لعدم استفادته منه . واذ ذاك بدت علامات الخوف على محياها

فالتفت اليها ڤوبيكوس وسألها بلهجة خشنة . مَن يرافقكِ في هذه العجلة ايتها الشابة ؟ واذ قال هذا فتّش بين القش

فقالت له ارجو منك الا تزعجه لانه اخي وهو مريض

– اذا كان مريضاً فلم تغطينه به وتزعجينه . ولما ازاح القش عنه بغت ديمتريوس اليوناني فقال له المناظر : انت اخوها المريض ؟ فأتت الابنة بسرعة الى جانبه واسرّت اليه قائلة : اننا في مأزق حرج وقد جئنا الى هنا آملين ان نجد رجلاً يدعى مرسيلوس غاليو لكي نستعين به . وعند سماعه ذكر مرسيلوس تغيرت هيئته واجابها بلطف قائلاً : ان مرسيلوس غادر هذا المكان منذ اسبوع فهل انتما من اصدقائه ؟

نعم اجاب الاثنان معاً . فاخذ ڤوبيكوس يقلّب نظره فيهما ويتأملهما وفي نفسه شكّ من امرهما

ثم نظر الى اذن ديمتريوس وقال له . انك عبد واني اذكر انه جاء امس فرقة من الجند من كابري يفتشون في الدارة عن ابنة غالوس وعبد يوناني يسيران في طريقهما الى رومية

فاقرّ ديمتريوس قائلاً : الحق معك يا سيدي . ان هذه الشابة تدعى ديانا ابنة

العضو غالوس وهي مخطوبة لمرسيلوس غاليو الذي هو سيدي وانا أدعى ديمتريوس

فدُهش ڤوبيكوس وسأل: هل ارسل اليك مرسيلوس شيئاً منذ بضعة اسابيع؟

– نعم ارسل اليَّ بطيخة في صندوق

– وهل كان عليها كتابة ؟

– كان عليها صورة سمكة

ثم تطلّع ديمتريوس الى هنا وهناك وقفز من العجلة . وكان العملة يحملون من الحقل حملاً كبيراً من الفاكهة ويقتربون به الى الباب . فقال ڤوبيكوس لديمتريوس اشغل نفسك بالدابة كي لا يشتبه بك احد وانت ياديانا اصعدي على مهل الى حيث انطونيا امرأة كاظو واخبريها هويتك . ويجب ان يفترق احدكما عن الآخر لان كل انسان هنا يعلم امر التفتيش الذي جرى عنكما امس

قالت ديانا ربما يخشون ان يأووني

– هم يخبرونك ذلك . اصعدي ولا تسرعي في السير لان بقاءك هنا غير ممكن

* * * *

ان المكدوني الطويل القامة الذي كان واقفاً في باب الدارة نظر اليها نظرة غير مستحسنة وسألها قائلاً : ما غرضك ايها الغلام من مقابلة امرأة كاظو فيجدر بك ان تقابل كاظو نفسه

اجابته ديانا : انني اريد مواجهة امرأته وانا لست مستعطياً

ففكر المكدوني هنيهة ثم قال : تعال معي اذاً . ثم تقدمه الى الحديقة التي كانت انطونيا تتنزه فيها واشار اليه بالاقتراب نحوها ورجع الى مكانه

ظهرت انطونيا ظهوراً جميلاً في لباسها الانيق الفاتح اللون وفي قبعتها الواسعة وكانت تناظر عبدها وهو يقطف الزهور التي في الحديقة ولما سمعت وقع اقدام التفتت الى ورائها وانعمت نظرها في الغريب لعلها تعرفه . فقالت للعبد اذهب الآن . ولما

بدأ يتفرس في وجه الغلام المذكور امرته بان يمضي في الحال

فاستهلت ديانا حديثها قائلة : اعذريني عن مواجهتي اياكِ بهذه الهيئة المتنكرة المخيفة . لانني اضطررت ان اظهر بمظهر غلام

— ولكنكِ لم تستطيعي التنكر كفاية لان كل حركة منكِ دلتني على انوثتكِ . تعالي اجلسي بقربي ودعيني افهم ما حاصل لكِ . لقد بلغني انهم يفتشون عنكِ أليس كذلك ؟

فاوقفتها ديانا على قصتها باسلوب موجز ثم قالت لها : يجب عليَّ ان لا اسبب لكم تعباً وازعاجاً ولكن ارجو منكِ الآن ان تسمحي لي بالاستحمام اولاً ثم بالمبيت ولو ليلة واحدة عندك اذ ربما اتمكن من الذهاب غداً

اجابتها : اننا نستطيع ان نساعد كل مَن احبَّ مرسيلوس . فلندخل اذن الى المنزل . ثم مشت امامها الى الممشى حيث التقت زوجها خارجاً من مكتبه فقالت له : اعرِّفك بالآنسة ديانا ابنة العضو غالوس التي كان الجند يبحث عنها . واعرِّفك انتِ يا ديانا الى زوجي

فسألها كاظو : ما الذي فعلتهِ حتى اوجبوا القبض عليكِ ؟

اجابته زوجته بالنيابة عنها : انها هربت من كابري لخوفها من الامبراطور الصغير الذي صمَّم على احضارها بين يديه

قال كاظو مشمئزاً : مَن ؟ الحذاء الصغير — المسخ الحقير ؟

صَه . صَه . قالت انطونيا . أتنوي ان تُزجَّ جميعاً في غيابة السجن . فعلينا الآن ان نهتم بامر ديانا فهي خطيبة مرسيلوس

فسرَّ كاظو سروراً عظيماً عند سماعه ذلك وضمَّ يديها بين يديه وقال لها : انك ستبقين هنا وهل من رجل يستطيع ان ياخذك من عندنا بسهولة . ثم استطرد قائلاً : وكان الجند يبحثون كذلك عن عبد يوناني بلغهم انه مرَّ معكِ

اجابته انطونيا هو في الكرم مع ثوبيكوس ويجب ان نعمل لتخليصه من هذا

المأزق الحرج

سأل كاظو : مَن مِن خدمنا يعرف شيئاً عنهما ؟

– دعنا نخبرهم حقيقة الواقع لانهم حينما يعلمون ان ديانا خطيبة مرسيلوس وان ديمتريوس هو عبده فلا اظن عندئذٍ ان احداً منهم يقدم على افشاء سرهما

– لا تعجلي في حكمك لان المكدوني الطويل الواقف عند الباب يتمنى ان يستلم مبلغ الخمسمئة فلس الذي وعدت الحكومة باعطائه لمن يسلمهما اليها . على اني سابلغه وغيره من الخدم ان الذي يفشي سرّهما يُجلد كثيراً

فقالت له انطونيا امرأته : الاوفق ان تأتمنهم ولا تتهددهم ولو كان مرسيلوس هنا لاستصوب هذا الراي

قال كاظو : اذكر ان مرسيلوس كان يجعل الناس يحترمون انفسهم اكثر مما هم عليه . ثم التفت الى ديانا وسألها : هل انتِ في عداد هؤلاء المسيحيين ؟

— اخشى ان لا اكون في عدادهم لانني صعب عليَّ فهم ديانتهم . ثم التفتت نحو انطونيا وسألتها : هل تكلم مرسيلوس كثيراً بشأنها في غضون وجوده هنا ؟

اجاب كاظو : قد غير عقيدة اهالي القرية جميعاً وستخبرك انطونيا بكل ما جرى لانها هي ايضاً صارت مسيحية

فقالت انطونيا : ان مرسيلوس مع ما هو عليه من اللطف ودماثة الاخلاق فقد كان يعمل خيراً مع كل واحد منا حتى مع سيد اربينو

* * * *

اما انطونيو الصغير الذي كان مشغولاً بعمله في صناعة النقش والحفر سحابة نهاره في غرفة شغله فلم يعلم ان في ضيافة آله ابنة شريدة تائهة . ولما دخل غرفة الطعام عند العشاء اخذ يعتذر عن عاقته . ثم لم يكد نظره يقع على تلك المخلوقة التي لم يرَ اجمل منها في حياته حتى بُهت واعترته دهشة شديدة . وقد زاد في حسنها

ذلك الفستان الحريري البديع اللون والشكل الذي البستها اياه انطونيا ولم يلاحظ قط انه فستان والدته

كان انطونيو قد ذهب الى رومية مع ابويه ثلاث مرات لحضور حفلات الاعياد وقد لمح من بعيد محفات عليها نساء وطنيات رائعات الحسن والجمال. غير انه لم يشاهد البتة سيدة من طبقة ديانا على مرأى ومسمع منه . لذلك اخذ يتأمل محاسنها ملياً ويعجب غاية العجب فقالت والدته لها هذا ولدنا انطونيو . ثم عرّفته بها قائلة : هذه ضيفتنا الآنسة ديانا ابنة العضو غالوس . فوجّه في الحال حديثه اليها . بلغني عن ثقة انهم يبحثون عنكِ فكيف اتفق وجودكِ هنا ؟

اجابته والدته : لقد جاءت لتفتش عن خطيبها مرسيلوس . فأتمّ كاظو عبارتها قائلاً : هو شاب محظوظ بلا شك

فوافق انطونيو على قولها بتحمس شديد اضحك كلاً من ابويه والفتاة ديانا ايضاً التي خاطبتهم بقولها :

يسرّني ان ارى منكم جميعاً هذه العاطفة الطيبة نحو مرسيلوس ومن المؤكد عندي انه امضى وقتاً سعيداً جميلاً بين ظهرانيكم . ثم قالت لانطونيو : لقد اخبرتني والدتك انك مُلمٌ في صناعة الحفر ولك ميل خاصّ الى مزاولتها . فاجابها انه لم يعمل شيئاً يستحق الذكر فطلبت منه ان يريها مثالاً من شغله . وقد لاحظ الفتى نغمة صوتها العميقة تختلف عن اصوات بقية الفتيات . ولما ذهب ليحضر لها نموذجاً من شغل يديه قالت انطونيا ان الفضل يعود الى مرسيلوس الذي علّمه كل ما يعرف وكأنها بهذا الكلام تُسرّ قلب ديانا وتثني على غيرة خطيبها ومهارته في هذا الفن الجميل

قالت ديانا : كان على مرسيلوس ان يكون حفاراً لا جندياً

أجاب انطونيو : نعم لانه يكره الخصام ويحب السلام

فقالت ديانا على الفور : نعم ان مرسيلوس يحب السلام ولكن لا يوجد بين

جنود رومية مَن يُحسن فن الحرب نظيره

قال كاظو : ما كنت لاعتقد ان مرسيلوس شجاع ويحسن الكرّ والفرّ لانه لم يأتِ على ذكر شيء من هذا القبيل

ثم قال لنطونيو : انني سألته مرة ، هل قتل في حياته شخصاً ما ؟ فرأيت اذ ذاك علامة التأثر والتعس بادية على وجهه واجابني : انه لا يريد ان يذكر هذا الموضوع

واذ سمعت ديانا هذا تغيرت هيئتها فادرك انطونيو انه قد طرق مسامعها ما تتأثر منه عواطفها الرقيقة فارتبك في امره وازداد ارتباكه حينما سألها كاظو : هل كانت تعرف شيئاً عن ذلك ؟

فاحنت راسها وتنهدت ثم قالت : منذ سنتين أُوعز اليه ان يميت رجلا ولما وجد اخيراً ان الرجل بريء الساحة من جرمه ورأى ان الشعب يحترمونه وحزنوا عليه كثيراً. لذلك حزن هو ايضاً معهم

قالت انطونيا : لا شك في انه يغتمّ لموته . لان مرسيلوس في طليعة الرجال الشفيقين المحبين لعمل الخير

واذ اراد كاظو ان يزيل اثر الكدر الذي اصاب خاسات ديانا اخذ يخبرها عن حب اهالي اربينو لمرسيلوس واحترامهم له .وعندما رآها تصغي اليه بكل جوارحها اخبرها ايضاً عن بركة السباحة الجديدة. فقال ان مرسيلوس يُبدي رأياً صائباً وعند ابرازه الى حيز العمل ينسبه اليكِ وهذا ما يشجعكِ ان تعملي ما هو افيد لمصلحة الشعب

ثم استطرد قائلاً : كان مرسيلوس رجلاً عبقرياً ذات صفات حميدة ممتازة وقد سنحت له فرص سعيدة عديدة لكي يعيش برخاء ورفاهة ومع هذا كله فقد آثر ان ينزل الى حقل البطيخ ويشتغل مع عامة الناس الذين كانوا يسرّون كثيراً بوجوده فيما بينهم . ويأتون اليه كل ليلة فكان يكلمهم في تلك البقعة الخضراء بشأن يسوع

وعجائبه . فهل اخبرك بذلك ؟

– نعم قد اخبرني

– ولكنهم اماتوا يسوع صاحب تلك المعجزات . فتابع زوجها الحديث قائلاً : ولكن مرسيلوس يؤكد انه قام من قبره وعادت اليه حياته ثانية ولكنني لا اظن ذلك

فالتفت انطونيو الذي كان مشرّد الافكار الى ديانا وسألها اتعلمين مَن صلب ذلك الجليلي ؟

اجابته : نعم . كيف لا اعلم

فضرب انطونيو المائدة بقبضة يده وقال بما ان مرسيلوس قتل ذلك الرجل الذي قضى حياته في عمل البر والاحسان الى الناس فان الطريقة الوحيدة التي يكفر بها عن خطيئته هذه هي ان يقتدي به ويقضي اوقاته في العمل نفسه بل يجب عليه ايضاً ان يصطلح مع يسوع هذا ويسأله المغفرة

قالت ديانا : نعم يا انطونيو ولكن علاوة على هذا كله فان مرسيلوس يعتقد تمام الاعتقاد ان يسوع قد جاء الى العالم وسيبقى الى ابد الابدين وانه سيؤسس مملكة جديدة يلقي مقاليدها الى اناس صالحين بحيث لا يبقى بعد ذلك من حروب ولا اخبار حروب ولا مخاصمات وسرقات وما شاكل ذلك

هذا مبدا شريف قال كاظو ، مَن لا يشتاق الى السلام . مَن لا يريد ويفرح بشريعة الصلاح ؟ كل نوع من الاحكام يكون افضل من شرائع حكومتنا هذه . ولكن هذا الامر لن يتمّ . وان رجلاً له موهبة وذكاء كمرسيلوس يجب الا يلقي بنفسه الى الهلاك

فاعترض انطونيو قائلاً : ربما يسوع لم يلقِ بنفسه فاذا كنا ننتظر عالماً جديداً يجب ان يبتديْ في وقت من الاوقات او في مكان من الامكنة . وقد يمكن ان يبتدي منذ الآن . ماذا تعتقدين يا ديانا ؟

فوضعت ديانا يديها على عينيها ثم هزّت راسها واجابت "لا اعلم يا انطونيو . انما الذي اقوله : ليت ذلك لم يحدث

* * * *

ولما لم يحدث شيء في اثناء الثلاثة الاسابيع التي مضت افتكرت ديانا انها اذا عادت الى رومية فلربما تكون في مأمن ويكون الامبراطور قد زال عنه غضبه عليها فاهمل امر التفتيش عنها . غير ان كاظو لم يكن فأله كفألها فاوضح ان الحذاء الصغير كان منهمكاً جداً اولاً بمأتم الامبراطور طيباريوس ومن ثم بحفلة تتويجه الحافلة فضلاً عن اعداد الولائم في حينها ولم يكن لديه متسع من الوقت ليفتكر باجراء امور اخرى . وليس هذا فقط بل الجند نفسه كان يؤدّي واجباته في ابان الاحتفالات والالعاب . لذلك لا اظن انه نسيكِ واغفل امركِ فارى من الموافق ان تنتظري قليلاً

ثم ان انطونيا عانقت ديانا وقالت لها : قد رأيتِ ان كاظو يودّ لو تمكثين هنا بعد وهذا ما يودّه ايضاً انطونيو وانا . وقد اكدت ديانا حقيقة حبها و كلامها لان ضيافتهم لها بلغت الحد الاقصى وقد بدأت هي تودّ انطونيا و كان حب انطونيا لها يكاد يقرب من حد العبادة

ثم قالت لهم : لقد عاملتموني جميعكم في نزولي عندكم معاملة حسنة جداً لا اقدر على وصفها ولا يمكنني نسيانها ابداً . غير ان والدتي لا بُدّ ان يكون بالها قلقاً من نحوي كلما سألوها عني او فتشوا منزلها . وجُلّ ما تعلمه بشاني هو انني فررت من كابري في قارب صغير . ولا استطيع ان ابعث اليها رسالة لانني اخشى ان يطلع عليها الحرس ويعرفوا عندئذٍ محل اقامتي فيلحقوا بي

كان ديمتريوس يشتغل في الكرم في اثناء النهار ويبيت عند ڤوبيكوس و كان مساء كل يوم يذهب الى محل اقامة ديانا ويستعلم عنها فكانت تنصح له ان يعتصم

بالصبر مع انها كانت عالمة حق العلم انه يكاد يذوب شوقاً للاجتماع بمرسيلوس

في ذات مساء بعد العشاء استنتجت ديانا من اضطراب حالة كاظو انه قد حدث شيء جديد . ولما نهضوا عن المائدة وتوجهوا الى غرفة الجلوس ناولها رسالة مخطوطة بسرعة باللغة اليونانية يقول فيها ديمتريوس انه مسافر الى رومية ويرجو ان يحظى بسيده وان بقاءه هنا يزيد في حرَج موقفكِ وان كاظو يستحسن رأيي بالسفر فاتبعي نصائحه ولا تحاولي الاتصال بعائلتكِ . واذا سمح لي الوقت فلا اتاخر عن الذهاب الى منزلكم لاشاهد والدتك واطمنها عنكِ

وكان ڤوبيكوس واقفاً عند مدخل الباب فاقتربت ديانا منه وسألته : أسافر ديمتريوس ماشياً ام اكترى دابة لركوبه ؟

اجابها ڤوبيكوس : ان ديمتريوس امتطى صهوة جواد سيدي السريع والبس ثوباً من ثيابه

واذ كانت العائلة جالسة بجوار النبع جاءت ديانا وجلست بينهم . ثم التفتت الى كاظو وقالت له : انني اشكرك على حسن تلطفك بما اظهرت من المروءة نحو ديمتريوس واقدّر ما فعلته معه ومع مرسيلوس ومعي . فاشار بيده اشارة تدل على ان ما اجراه لا يستحق الذكر ولا الشكر

ولكن عينيه كانتا مضطربتين وقال : ان اليوناني لم يكن في مأمن هنا ولا يتيسر لاحد ان يكون آمناً في اي مكان لان اثنين من سائقي عرباتنا رجعا اليوم من رومية واخبرا ان الفوضى قائمة على ساق وقدم والنظام مفقود فيها وان جماعات المتشردين السكيرين واللصوص الماهرين الشرسين يدخلون المخازن في رائعة النهار ويقتلون اصحابها المحترمين . والامبراطور يتهم المسيحيين ان لهم يداً في تلك الجرائم الفظيعة . لذلك يجلدونهم ويلقونهم في السجون

فعلا وجه ديانا الاصفرار وقالت : كيف احوال مرسيلوس يا تُرى فانه لا يدافع الدفاع اللازم عن نفسه

وقد قالا ايضاً ان البحث عن عبدكم اليوناني وعنكِ انت كذلك قد بلغ شدّته . لان هذا العبد ضرب عضواً رومانياً ضرباً مؤلماً واهانه اهانة عظيمة وقد صدر الامر بالقاء القبض عليه حياً او ميتاً . اما انتِ فيظهر ان الامبراطور لا يريد ان يلحق بكِ ادنى اذى بل يدّعي الاهتمام بامر سلامتك . وقد شاع ان اليوناني فرّ بك وكاليغولا يريد ان يجدوكِ

اجابت ديانا : مسكين ديمتريوس كيف يمكن ان ينجو والتفتيش عنه جادّ في كل مكان ؟

قال كاظو : بما ان ديمتريوس يعرف ان لا فائدة له من حياة يقضيها بالفرار فاذا قبضوا عليه يدعهم يربحون المكافأة المقدمة لهم

سألت ديانا : أيوجد عنده سلاح ليدافع عن نفسه

اجابها كاظو : ليس عنده الا خنجره فقط

ثم قالت انطونيا ان زوجها قد اقام حراساً في اماكن مرتفعة على الطريقين العامتين حتى اذا لمحوا جنوداً مقبلين فانهم يسرعون بالانباء عنهم

قال كاظو : لما اتوا الى هنا فتشوا الدارة كلها ودققوا النظر فيها ولكن لم يكن يخطر ببالهم ان ابنة العضو غالوس تندسُّ بين العملة

فقالت ديانا : هذه افضل طريقة اركن اليها

لم يوافق كاظو على ذلك في الحال ولكنه قال لا بأس فان انطونيا ستهيّئ لكِ ثياباً موافقة لتلبسيها غداً صباحاً وعسانا ان نجد لكِ مكاناً آخر نخبئك فيه لان لا مأمن لكِ في هذه الدارة . ولي ملء الثقة اذا اكتشف الحرس مخبئك اخيراً فانهم يعاملونك معاملة حسنة . ولكن هذه اوامر الامبراطور لهم فلا مردّ لها ومهما عمل يكون شريراً

* * * *

وبعد نصف الليل بساعتين بينما كان لنتيوس نائماً نوماً ثقيلاً على فراش من التبن في زاوية الاسطبل اذا به يستيقظ فجأة على نباح الكلب الذي اعتاد ان ينام بقربه ويصغي بانتباه وتيقظ الى كل حركة . وفيما هو كذلك سمع وقع اقدام وحوافر فتناول مصباحه وخرج وكان كلبه بمبو قد سبقه . ثم عاد بعد لحظة يعوي بصوت متقطع يدل على فرحه فتبين اذ ذاك للنتيوس شخص ديمتريوس وهو يقود جواده

فقال له ديمتريوس اسكته يا لنتيوس حتى لا يوقظ كل مَن في البيت . فصاح الشيخ : اهلاً بديمتريوس وهو يتفرّس في وجهه الشاحب

– اعتنِ بالجواد غاية الاعتناء . فقد افرطت في وخزه وادخله الى حجرتك لان الدم يسيل منه وهو متألم

– انهم يفتشون عنك يا ديمتريوس

اجاب : نعم فقد تبعني ثلاثة فرسان على بُعد خمسة اميال هنا وقد تجاوزت طريق اثنين منهما اما الثالث فانه ادركني واذ كنت احاول ان ارميهُ عن سرج جواده ضربني بسيفه . ثم كشف عن كتفه وكان الدم يسيل منها فقال له احضر لي قليلاً من الماء ورباطاً

فلما رأى لنتيوس جرحه العميق قال انه بليغ وخطر وقد فقدت دماً كثيراً . ان رداءك ملآن دماً وحذاءك ايضاً فالاوفق ان تضطجع هناك

اجاب ديمتريوس بصوت ضعيف سافعل ذلك وبعد ان اضطجع على فراش العبد المسن اخذ هذا يغسل له جرحه بماء واسفنجة . وخرج الكلب بمبو يلحس حوافر الجواد الملطخة بالدم . وعقيب هذا العمل سأل ديمتريوس : هل جاء القاضي مرسيلوس الى هنا ؟

فتفرّس لنتيوس بوجه ديمتريوس واجابه : ألم تسمع انه مات منذ ثلاثة اشهر او اكثر وقد اغرق ذاته في البحر . مسكين سيدي الصغير

– لا شك انك تحب سيدك محبة شديدة وهو كان يحبك ايضاً . وبناء على

ذلك فاني سأفضي اليك بسر ارجو ان تحتفظ به في خزانة صدرك . فاطمئنك ان القاضي حي يرزق وهو هنا في رومية

فصاح لنتيوس مبتهجاً : لماذا لم يأت إذن الى البيت ؟

سياتي يوماً ما . اما الآن فايقظ لي مرسيپور بغير ان تقلق احداً من اهل البيت

– اسهل ان اوقظ دسيموس لانه في الطبقة السفلى

– انني لا اريد دسيموس ، ساذهب وادعو مرسيپور بذاتي . ولما حاول النهوض لم يستطع من شدة الضعف . ادعُ لي اياه وذلك بطرح شيء ما في حجرته بقرب سريره لينتبه من نومه وحينما يقترب من النافذة اخبره بانك تريد مقابلته بدون ان تذكر له اسمي . ثم قل له ان ياتيك ببعض الرُبُط

جاء مرسيپور ولما رأى حالة ديمتريوس قال له يجب ان تدعو الطبيب يا ابني

– لا يا مرسيپور انني افضل ان اموت جريحاً على ان يُقطع رامي . ثم التفت الى لنتيوس وقال له : خذ جوادي الى الاسطبل ونظفه جيداً وخذ الكلب ايضاً فان لديّ مرسيپور وهو كافٍ للاعتناء بي . واذ ذاك اغلق مرسيپور الباب وجثا على التبن واخذ يضمد جرح ديمتريوس . ثم قال له ان حالتك خطرة

– اما الآن فليس عليّ من خطر . ولكن قلْ لي ما هي الاخبار ؟ هل رأيت مرسيلوس ؟

اجابه مرسيپور : ان مرسيلوس موجود في المقابر

– يا له من مكان مسحور للتخبئة

– ليس كما تظنه فانه يوجد اكثر من مئة شخص من الرجال المعروفين وقد جاء المسيحيون بالمؤونة منذ بضعة اشهر مضت

قال ديمتريوس : ولكن عندما يكتشف الجنود محل اقامتهم يصطادونهم كالارانب

– ليس كما تعتقد لانه يوجد هناك كثير من السراديب الطويلة العميقة لا

يقدر احد ان يجتازها ويخاف الجنود من النزول فيها بحيث لا يستطيعون العودة منها وقد حدث لهم مثل هذا حينما كانوا قبلاً يبحثون عن اليهود التائهين في هذه الاماكن فقد ضلوا طريقهم ولم يعودوا منها

ثم سأله : هل رباط الجرح شديد او رخو ؟ ولما لم يجبهُ اخذ يجسّ نبضه ثم نضح وجهه بالماء. فلم يسمع له حركة وقد امسى جسداً هامداً . فهبّ من مكانه يركض نحو البيت لاهثاً فالتقى غاليو نازلاً على السلّم فسأله ما الخبر يا مرسيپور ؟ اجابه ان ديمتريوس مجروح وهو يموت في الاسطبل

– هل دعوتم الطبيب ؟

– لا لم يشأ ان ندعو له طبيباً لانه مختبئ

قال غاليو : ارسل احداً على الجواد ليدعو سربيدون طبيب العائلة سريعاً واحملوا ديمتريوس الى البيت . فمن العار ان يموت ميتة الكلاب . ثم دخل الاسطبل وصاح به : ديمتريوس ! ديمتريوس !

ففتح عينيه الغائرتين وحرك شفتيه البيضاوين وقال بصوت غير مسموع عند – امرك – يا سيدي . وتنهد من الالم

ولما شاهد غاليو الجمع المحتشد حواليه قال لهم : انتبهوا لما اقول لكم . احملوه باعتناء. وادخلوه الى البيت وضعوه في غرفة مرسيلوس . وانت يا مرسيپور اخلع عنه ثيابه الملوثة بالدم ولفّ جسمه باحرام صوف دافئ.

فذهب احد العبيد ليدعو سربيدون ، وستة انفار من الخدم حملوه الى غرفة مرسيلوس . واذ كان غاليو صاعداً وراءهم التفت الى مرسيپور وقال له : لِمَ لم تنبئوني بذلك ؟ فهل انا معروف بينكم انني قاسي القلب بحيث أدَع احد عبيدنا المخلصين يموت ميتة الحيوانات وليس لي ادنى علم به ؟

فاجاب مرسيپور : انت تعلم يا سيدي انهم كانوا يفتشون عنه ولم نعد نعلم ما نفعل ولو لم تدفعه الضرورة الى المجيء الاستعلام عن سيده لظلّ حيث كان ونجا

مما حصل له في طريقه

– اتعني انه جاء ليستعلم عني ؟

– لا يا سيدي بل عن مرسيلوس

– ألم تخبره ما حدث لسيده

– ان ديمتريوس يعتقد ان مرسيلوس هنا في رومية

– لماذا لم تعلمه حقيقة الامر ؟

اجاب مرسيپور : هذه هي الحقيقة بعينها . ثم امسك بسيده كي لا يقع من شدة الانفعال

– لماذا لم تنبئوني بذلك قبلاً ؟

– لان مرسيلوس مسيحي ، والمسيحيون يراقبهم الجواسيس مراقبة شديدة . لذلك لم يشأ ان يسبب التعب لعائلته

فسأل غاليو : اين هو الان ؟

فهمس مرسيپور باذنه انه في المقابر

– ابني في المغاير القديمة مع اللصوص والرعاع ؟

اجابه مرسيپور انهم ليسوا رعاعاً يا سيدي . ولكنهم جماعة امناء محبو السلام مختبئون من امبراطور ظالم مختل الشعور

ولما مرّا بجوار غرفة لوسيا امر غاليو مرسيپور ان لا يحدث صوتاً في مروره من هناك لان لوسيا في غرفتها بحيث زوجها قد توجه لقضاء مهمة رسمية

– كيف يمكننا ان ندعو مرسيلوس ؟

– لا نقدر على ذلك يا سيدي لان وجوده يكون خطراً على البيت

– لا بأس من ذلك . ارسل ادعه

واذ كان الخدم يخرجون من الغرفة بعد ان وضعوا ديمتريوس على فراشه ظهرت توتيا في الباب وسألت مرسيپور ماذا حدث ؟ ولما رأت ديمتريوس مضطجعاً في سريره

ارتاعت ودخلت الغرفة والقت نفسها عند قدميه فانهضها مرسيپور وقال لها يجب ان تساعدي الآن فاذهبي حالاً واحضري احراماً ودفئيه

واذ كان ينزع عن رفيقه رداءه الملوث بالدم قال لسيده لا يوجد احد سواي في هذا البيت يسمح له بالدخول الى المقابر

– ولماذا يسمحون لك بالدخول ؟ هل انت واحدٌ منهم ؟

فاجاب بالايجاب بحنو رأسه

فقال له غاليو : اسرع بالذهاب حالاً وخُذْ جوادين معك . واذ ذاك شمّر عن ساعديه واخذ ينزع حذاء ديمتريوس من رجليه فدخلت ترتيا خادمة لوسيا باحرام من الصوف وجاءت سيدتها بعدها بكأس من الخمرة المعتقة الصرفة فاخذ غاليو الملعقة من يدها وصبَّ قليلاً منها بين شفتيه المفتوحتين فابتلعه بدون وعي ثم انهضه قليلًا وأدنى الكاس من فمه ليسقيه اكثر من ذلك فلم يستطع ان يفتح فاه

ولما كان الاب وابنته وحدهما قال لها غاليو ان اخاكِ حيٌ وقد ذهب مرسيپور ليأتي به . ثم استطرد قائلاً : ارجو ان ياتي في الوقت

فدهشت لوسيا اذ سمعت ذلك وتمسكت بكمّ والدها وسألته : اين هو شقيقي الآن ؟

اجابها : في المقابر

– لا يا والدي ، لان كل الذين هناك سيُقتلون لان امراً مشدداً صدر الى طولوس لكي يهاجم ذلك المكان ويجعلهم في قبضة يده

ثم فتحت ترتيا الباب فدخل الطبيب ومشى توًّا نحو ديمتريوس ورفع جفني عينيه ثم جسَّ نبضه وقال ضعوا لزقة ساخنة على الجرح فاذا لم تنجح فلا تضرّ فدعونا نجرّب

* * * *

لم يبق من حاجة للاخبار عن وجود ديانا بين العملة في الكروم لان كل سكان اربينو عرفوا قصتها وتحدثوا بها ثلاثة اسابيع كاملة بحيث لم تبق الدارة سرّ وجودها مكتوماً. حتى ان الفلاحين المؤمنين على هذا السرّ شعروا بان لهم حق الشركة مع غيرهم في حمايتها والمدافعة عنها حين الاقتضاء

اما كاظو فانه كان فخوراً باهالي مدينته الذين حافظوا على تعهدهم له بكتمان امر ديانا في مقابل المكافأة المقدمة لهم وذلك لسببين اولهما . ان المكافأة التي كان يعد بها الامبراطور امسى الحصول عليها بين الشك واليقين حتى ولو ربحت بشرف . وفي اعتقاد سكان اربينو ان الذي يقلل معاملته مع الحكومة تكون احواله سائرة في طريق النجاح لانهم لم يحفظوا كرامتها ولم يرعوا حرمتها سواء كانت وطنية ام اجنبية لان مأموريها ارذال حمقى . حتى اذا دفعت الدناءة احداً الى افشاء سرّها فلا يمكنه ان يحصل على المكافأة المذكورة. وقد اتفق الشباب على هذا الراي

ولكن حسب اعتقاد انطونيا انه كان ثمت سبب آخر افضل يجعل سكان اربينو يتكتمون وهو انهم يذكرون مرسيلوس بامتنان لاجل المنافع العديدة التي اوجدها لهم حتى انهم لم يروا شخصاً فاضلاً مثله بتاتاً . وقد اعتقد خاصة الشعب وعامتهم ان مرسيلوس كان تحت ظل عناية الاله الجليلي الذي مع تخصيصه حياته لبثّ روح السلام والصلاح في صدور الناس فانه كان يدخل الى البيوت وهي مقفلة الابواب والمنافذ . وكان يهمك ألاّ تراه في ليلة مظلمة واقفاً بالقرب من فراشك ويسأ لك كيف بعث عروس صديقه مرسيلوس الى كاليغولا

باكراً في اول صباح نزلت فيه ديانا الى الكرم . اوقف ڤوبيكوس بعضاً من الرجال والنساء عند دخولهم الى الكرم واخبرهم السبب الموجب لنزول ديانا للعمل بينهم واوعز اليهم ان يذيعوا ذلك بين سائر العملة وان يعاملوا ابنة العضو غالوس كما يعاملون بعضهم بعضاً . ويجب ألاّ يسألها احدٌ منهم شيئاً او يحدّق اليها نظره او يعرضوا عنها . وكذلك يجب على كل انسان اذا جاء الجنود الى الكرم ان يهتم

بشغله غير ناظر الى حمايتها منهم او دفاعه عنها لئلا يوقعوا الشبهة عليها

ولما وصلت متيلا اوقفها المناظر وقال لهـا يجب ان تنتظري الى ان تصل ديانا فتاخذيها الى اقصى مكان في الكرم بعيداً عن الطريق العامة وتريها ماذا يجب عمله

– لا يُطلب منها ان تشتغل بل ان تعرف شيئاً من الشغل

فقاطعت كلامه متيلا قائلة : لماذا اخترتني انا هل تريد ان احمل لها السلة لكي لا تتبدل نعومة يديها البيضاوين

– كلا بل انكِ كنتِ تودين مرسيلوس وترغبين في ان تتعرَّفي الى أُناس من طبقتها الرفيعة . ها هي آتية فاحسني معاملتها كما تحسنين معاملة غيرها

فلما وصلت ديانا قالت هأنذا اتيت فماذا تطلب مني ان اعمل يا ثوبيكوس

– ستعلمكِ متيلا واشار باصبعه اليها . فناولتها هذه سلة وسارت قدامها فسبقتها ديانا في سيرها وقالت ارجو ألاَّ اكون عبئاً ثقيلاً عليكِ . اريني كيف اعمل فقط

اجابتها متيلا : عليكِ ان تتظاهري بالعمل فقط

فقالت ديانا بصوت مهموس انني احب ان اشتغل

اجابتها متيلا : ولكن هذا يضرُّ ببَشَرة يديكِ

– لقد اتضح لي انكِ قررتِ على ان لا تحبيني . أهذه هي الطريقة التي تعاملين بها ابنة اخرى سواي

اجابتها متيلا : ولكنني انا لست شيئـاً بالنسبة اليكِ لان مقامكِ رفيع ومعروف عندنا

– هذا حقيقي ولكن انا انسانة مثلكِ من جبلة واحدة ولا تدلّ صورتك على انكِ لستِ شيئاً

– انتِ كريمة الخلق تودين ان تتلطفي وتمرحي معي بدون تكلف

– انني لست كذلك ولكنني خائفة اريد ان اذهب الى والدتي

فقالت لها متيلا : كوني مطمئنة البال ولا تخافي شيئاً لانهم لا يبحثون عنكِ هنا

ما دمتِ معنا ولكنهم يبحثون عنكِ في الليل بدارتكِ

فقالت ديانا : قد افتكرت بذلك غير انني لا اجد مكاناً سواها انام فيه

وبعدئذٍ ناولتها متيلا مقصاً صغيراً وعلّمتها كيف تقصّ عنقود العنب باحتراس لئلا تتلفه . فهبّتا تعملان معاً بنشاط واجتهاد وبعد وقت يسير سألتها ديانا : أيوجد لي في بيتكِ مكان انام فيه ؟

اجابتها متيلا : من دواعي الاسف ان بيتنا حقير مؤلف من غرفتين فقط الواحدة منهما لوالديّ والثانية صغيرة جداً لمنامتي ولا اظن انكِ ترضين ان تنامي معي فيها

لِمَ لا . هل تسمحين لي ؟ فانني ادفع لكِ اجرتها

- لا تكلميني بخصوص الاجرة مطلقاً

وضعت ديانا يدهـا على ركبة متيلا وقالت لها : ذكرتِ لي منذ ساعة انكِ لستِ شيئـاً ولكن ما فعلتهِ الآن يدلّ دلالة محسوسة على انكِ شيء عظيم .

فاجابتها متيلا حقيقة انكِ تحبين النكات يا ديانا

* * * *

اما ما كان من امر مرسيپور فانه امتطى الجواد وسار به ينهب الارض لان مهمته كانت ضرورية وكانت الجياد التي في اسطبل الشيخ غاليو اصيلة ونشيطة جداً وخصوصـاً الجواد الادهم المختص به . وبعد ان قطع مرسيپور مسافة الجسر الذي كان قد بناه يوليوس قيصر غادر الطريق العامّة المعروفة وعرّج على يمين الطريق الممتدة الى جهة المـقالع لان الوصول الى المقابر من ناحية الطريق العامة والدخول الى بابها الاعتيادي خطر جداً من الجند الذي كان مراقباً حركات المسيحيين

وكان في نيته ان يدخل الباب السرّي الموصل اليها غير انه خشي من ان يضيعه بحيث كان محجوباً باحد المقالع المهجورة . ولما وصل الى المقلع المذكور ترجّل عن

ظهر جواده وربط الجواد الآخر معه واخذ يتلمس طريقه على ضوء القمر الضئيل الى ان اقترب من بركة ماء فارغة وتذكر انه غطس فيهـا مرة ثم تمشى بحذر في الظلام الدامس فسمع صوتاً يوقفه . ولما ذكر اسمه افسح له الحارس سبيل المرور فقال له : اذهب وادعُ لي مرسيلوس وقلْ له ان خادمه الذي هو واحد منا يعالج سكرات الموت بسبب جرحه البليغ

– إذنْ قف مكاني وتولَّ الحراسة ريثما اعود

فاخذ مرسيپور يعدّ الدقائق التي وجدهـا كالساعات الى ان ظهر له على ضوء مصباحه في احد السراديب شخصان مقبلان مرسيلوس اولاً ثم بطرس وقد اتفقا على ان يمتطيا الجوادين وان يصرف مرسيپور ليله في المقابر

فسأل مرسيلوس مرسيپور قائلاً : هل اخبرت والدي انني هنا ؟

– نعم ولكنه من عظم سروره بانك حي لم يبقَ مهتماً بكونك مع المسيحيين واكد بانه سيحفظ هذا السرْ . لكن اسرع الآن فان ساعات ديمتريوس امست معدودة

* * * *

استلم لنقيوس زمامَي الجوادَين ولما رأت لوسيا اخاها القت نفسها بين ذراعيه وهي تبكي وترتجف

فسألها مرسيلوس بالحاح : الا يزال ديمتريوس حياً ؟

اجابت لوسيا انه لا يزال يتنفس ولكن الطبيب سربيدون يقول انه ضعيف مشرف على الموت وان يبقى له من الحياة سوى ساعة واحدة

فالتفت مرسيلوس نحو رفيقه وقال لشقيقته هذا سمعان بطرس وقد جاء مؤخراً من الجليل وله معرفة كافية بديمتريوس

فانحنى بطرس امامها وقال لهـا بصوت عميق خادمكِ يا اختي . اجابت لوسيا باكية اهلاً بك ، تعالوا لنذهب الآن لئلا يذهب وقتنا سدى

وفيما هم صاعدون لاقاهم غاليو في رأس السلم وعانق ابنه وهو صامت . ثم القت كورنيليا بنفسها بين ذراعي ولدها . اما بطرس فبقي منتظراً فعرَّفته لوسيا الى والدها كصديق لاخيها فسأله ما هو اسمك ؟ اجابه بصوت عميق : بطرس

فحنا الشيخ راسه له ونظر اليه نظرة جامدة كأنه يقول له ما معنى مجيئك الى هنا . واذ لم يكن بطرس يستطيع الانتظار بعد اقترب من غاليو الذي اخذته الدهشة وقال له بلهجة الحاكم الآمر : إمضِ بي الى حيث ديمتريوس

ولما رنَّ صوت الآمر الغريب في مسامعهم ابتعدت كورنيليا عن ابنها . واما غاليو فانه مشى امامه الى غرفة ديمتريوس فتبعهما الجميع واصطفوا حول فراشه . ثم اشار غاليو الى الطبيب سربيدون فافسح مكانه لبطرس الذي امسك بكلتا يديه القويتين يَدَيْ ديمتريوس النحيفتين الضعيفتين وهزَّهما وصاح : ياديمتريوس كانه يدعوه من مسافة بعيدة فلم يكن من مُجيب . ثم ناداه بصوت كعجيج المياه قائلاً : ارجع يا ديمتريوس

فلم يتنفس احد وكانت الجماعة واقفة حول الفراش كالاصنام . وبغتة جلس بطرس قامته ومدَّ لهم يديه وأمرهم قائلاً : اخرجوا واتركونا وحدنا فخرج الجميع ما خلا مرسيلوس الذي تأخر ايسأل هل اخرج انا ايضاً ؟ فحنا بطرس راسه علامة الايجاب . وعند خروجه رآه يخلع رداءه عنه

وقفت الجماعة عند راس السلم منتظرة ان تسمع صوت بطرس ايضاً ولكن لم يحدث شيء من هذا . ثم نزل غاليو بكل حذر وتبعه سربيدون الطبيب . ودخلت كورنيليا وولداها الى غرفة نومها ولم يبقَ احد في الممشى سوى ترتيا التي قعدت عند باب ديمتريوس تصغي

وبعد نصف ساعة خرج مرسيلوس يسأل ماذا حدث . فهزَّت ترتيا رأسها بحزن . ثم نزل الى غرفة والده فرآه جالساً خلف مكتبه لا يعمل عملاً فقعد على كرسي بالقرب منه وبعد دقيقة سأله مستهزئاً : هل يظن صديقك هذا انه يصنع العجائب ؟

– ان لبطرس موهبة غريبة يا سيدي

– ان معاملته لنا غير عادية فانه يتولى مسألة المريض ويخرجنا والطبيب من الغرفة . هل تعتقد انه يقوم باعمال فائقة الطبيعة ؟

– لا انعجب من ذلك لان بطرس لا يعرف المداهنة بل هو رجل حرّ امين فيجب الأ نحكم عليه بشيء الى ان ترى النتيجة

– النتيجة هي موت ديمتريوس . فلو كان عندنا اقل امل بانه يشفى بالادوية لكنا فعلنا ذلك . كم يقتضي لنا من الوقت ان ننتظر حتى يتمّ سحره ؟ بل ما هي الاعمال التي يريد ان يعملها ؟

– لست اعلم يا سيدي . هل عرفت انت كيف جُرح ديمتريوس هذا الجرح البليغ ؟

اجاب غاليو بان هزّ راسه . ولكنك كنت بلا شك فهمت منه انه ساعد ديانا على هربها من كابري . ويقال انه محكوم عليه لانه تعدّى على عضو من اعضاء المجلس وضربه واهانه اهانة عظيمة

فانتصب مرسيلوس على قدميه حالاً ودنا من والده وسأله : هل فرّت ديانا معه؟ انني لم اسمع قط كلمة بهذا الشأن . فاين هي الآن ؟

– ما من احد يعرف مقرها وقد خرجت من البيت . والامبراطور يصرّح بانه يهمه امرها وقد ارسل مَن يفتش عنها

– ولماذا يهمه امرها ؟ ربما ديمتريوس يعرف مقرّها . واظن ان ما حدث له كان بسببها

اجابه غاليو : اذا كان ديمتريوس يعرف مقرّها فسياخذ سرّه معه يا بنيّ

ثم عاد مرسيلوس الى غرفة والدته وهو مشغول البال فوجدها نائمة ولوسيا مضطجعة على احد المقاعد فقعد بقربها ومسك يدها . وكان الفجر قد ابتدأ ضياؤه يشتت ظلام الغرفة

فهمست لوسيا في اذن اخيها سائلة : اما يزال ذلك الرجل هناك ؟ فاجابها اخوها بالايجاب . ثم مشى نحو الباب وفتحه وتطلّع في الممشى فلم يجد ترتيا هنـاك . ثم اغلقه وعاد فجلس بالقرب من اخته

* * * *

ولما سمعت ترتيا صوت فتح الباب وثبت من مكانها فتجلى لها وجه الجليلي الملتحي فقال لها هامساً : اذهبي بهدوء وسكينة واحضري حساء سخناً (شوربا) فلبّت امره وتولت بهدوء على السلم بدون ان تُعلم احداً . ولما عادت بالطعام قرعت الباب ففتح لها بطرس واغلقه خلفها . فشاهدت ديمتريوس مصفرّ الوجه كالاموات ومن حواليه الوسائد وهو مشرّد الحواس . فنظر اليها بفتور

قال لها بطرس لا تكلميه شيئاً لانه قد جاء من مكان بعيد وما يزال في ذهول فاعطيه قليلاً من الحساء بقدر ما يستطيع ولا تدعي سيده الا في الوقت الذي يسأل عنه ولا تُدخلي احداً عليه ما لم يعد اليه نشاطه وانا ذاهب الآن

– ولكن يا سيدي كيف تذهب من غير ان ترى العائلة فانهم يريدون ان يشكروا لك صنيعك

– لا اريد ان اجيب على اسئلتهم لانني منهوك القوى . ولما اقترب من الباب التفت الى ديمتريوس وقال له : تشجع واذكر العهد الذي وعدت ان تحفظه . عليك ان تعود الى بلادك وتشهد لمسيحك الذي شفاك

وبعد ان خرج بطرس اعطته ملعقة من الطعام فلعق ما فيها بدون وعي واخذ يتفرس في وجهها

فسألته : أتعرفني الآن ؟

اجابها : ترتيا نادي لي مرسيلوس

فوضعت الاناء على المائدة واسرعت لتدعو مرسيلوس . فاجتمعت العائلة حولها واخذوا يسألونها اسئلة ملحّة عنه

اما هي فانها صممت على ادخال مرسيلوس وحده عليه . فدخل مسرعاً واخذ يدي ديمتريوس بين يديه وقال له بصوت ممزوج بالخوف قد اعادك بطرس الى الوجود؟

اجابه . نعم من سفرة بعيدة

فسأله مرسيلوس . هل تذكر شيئاً ؟

اجابه : اذكر شيئاً قليلاً

– هل رأيت احداً ؟

– ليس بتمام الوضوح ولكنني سمعت اصواتاً كثيرة مختلفة

– هل تريد ان تعود ؟ فتنهد ديمتريوس وهزّ راسه

فسأله اخيراً : اين بطرس ؟

اجابه : قد ذهب

واذ اشتبهت ترتيا انه يريد ان يكلم مرسيلوس سراً خرجت من الغرفة فاضاء وجه ديمتريوس وقال ان ديانا في اربينو في دارة كاظو وارى من الموافق ان تذهب اليها لان الامبراطور يطلب احضارها وهي خائفة من مقابلته

– هل شفيتَ تماماً يا ديمتريوس لكي اتركك الآن واتوجه في الحال اليها

– نعم يا سيدي وانا ساسافر ايضاً وقد نذر بطرس نذراً وعليَّ ان اعود الى اليونان لأفيهُ

فنظر اليه مرسيلوس باحترام وقال : لاجل الملكوت الجديد اليس كذلك ؟ لقد ألقيت على عاتقك مسؤولية عظيمة تحيط بها الاخطار . انني سامنحك صك تحريرك من نير العبودية اليوم

– يصعب عليَّ يا سيدي فراقك جداً

– وانا يعزّ عليَّ ان تسافر ولكن اذا كانت حياتك رُدَّت اليك بواسطة النذر الذي نذرته فيجب عليك ان تفيهُ مهما كلفك الامر

فتحت ترتيا الباب قليلاً فاشار اليها مرسيلوس بالدخول . فقدمت صحفة الحساء

فلعق ما فيها حتى الثمالة . فقال له مرسيلوس هذه علامة تحسن صحتك ولعلها تعيد اليك بسرعة قوتك ونشاطك

واذ شعر مرسيلوس انه يجب ان يبشر سائر العائلة بشفاء عبده دخل حالاً غرفة والديه فوجدهم جميعهم هناك فاخبرهم الخبر السارّ العجيب بان ديمتريوس قد شفي وهو يتناول الآن فطوره

قال غاليو : هذا غير ممكن واسرع الى الباب فقال له مرسيلوس انتظر قليلاً يا سيدي . ان ديمتريوس لا يزال ضعيفاً وليس عنده قوة كافية للتكلم

– ولكنني اريد ان اكلم الجليلي لان ما حدث ليس امراً بسيطاً . ان سربيدون الطبيب قال ان ديمتريوس على أهبة السفر الى الابدية

قالت ترتيا : ان بطرس قد ذهب يا سيدي لانه كان تعباً جداً ولم يرد ان يرى احداً

فسألت كورنيليا قائلة : كيف تظن انه عمل هذا الامر ؟

اجابها مرسيلوس : ان بطرس رجل مسيحي . ان البعض الذين عاشوا بقرب يسوع حصلوا على قوات خاصة . لذلك لم اجد شفاء ديمتريوس امراً عجيباً لانه هو ايضاً مسيحي . وقال ان بطرس نذر له نذراً وعليه ان يفيَهُ ، وهو ان يذهب الى اليونان ويعمل بجدّ بين ابناء وطنه

فسألت لوسيا : وما هو نوع العمل ؟

اجاب مرسيلوس : بضمّ الناس معاً لكي يعززوا شأن الملكوت الجديد ويثبتوا دعائمه

– ألا يسبب له تحدثه عن الملكوت الجديد تعباً ؟

اجابها اخوها : لا شك بذلك ولكن ديمتريوس لا يدع شيئاً يؤخره او يقف في طريقه

قالت لوسيا : مما لا ريب فيه انه يسرّه الذهاب الى اليونان واذكر انك اخبرتني

انه كان يحب ابنة في اليونان اظنها تُدعى ثيودوسيا

قال الشيخ غاليو انه مزمع ان يتناول فطوره في غرفة المكتبة ويطلب من مرسيلوس ان يتناوله معه . اما كورنيليا فذهبت لتنام واما لوسيا فانها ذهبت الى غرفتها اولاً ثم توجهت الى غرفة ديمتريوس وقرعت الباب ففتحته ترتيبا ثم عادت ادراجها . فقالت لوسيا اننا فرحون جداً بنيلك الشفاء التام واخبرنا مرسيلوس انك ستعود الى اليونان ثم وضعت خاتماً في يده وقالت : قد حفظته لك كما اوصيتني وها انا اردّه اليك وربما تعطيه الى ثيودوسيا . فابتسم ديمتريوس من كلامها وقال ربما تجده ثيودوسيا ثميناً لكن ليس لها حق ان تشاركني في اخطاري

وفي الحال دخل سربيدون ووقف قرب الفراش ينظر الى مريضه نظرة خجل وتبيّن حالاً ان ديمتريوس دهش من رؤيته

فقالت لوسيا : هذا هو الطبيب هل تذكر انه كان هنا في الليل –

– لا : اجاب ديمتريوس ، لا اذكر شيئاً

فسأله سربيدون : ماذا فعل ذلك الرجل الجليلي الكبير الجثة ؟

اجابه ديمتريوس : هو صلى فقط

فسأله سربيدون : مَن هو الاله الذي يصلي اليه ؟

– لا يوجد الا اله واحد

– اله يهودي أليس كذلك ؟

لا ، ليس يهودياً . ان الله اب لجميع الناس وهو في كل مكان . وكل واحد منهم يقدر ان يصلي اليه باسم يسوع الذي جاء ليؤسس مملكة عدل وسلام

اجاب سربيدون : هذه هرطقة مسيحية . هل يدرك صديقك الذي من فلسطين انه يُقبض عليه لادعائه شفاء الامراض في امور كهذه ؟

اجابت لوسيا : كلا انه بريء من هذا الادعاء . واظنه لم يدّعِ حينما شفى

ديمتريوس

قال سربيدون : يجب ان نشكوه الى السلطة . واذ قال هذا اتجه نحو الباب

فقالت لوسيا : يظن الانسان ان الطبيب يُسرّ بتعافي مريضه مهما كانت وسائط الشفاء

فلم يجاوب سربيدون ولكنه خرج محتدماً من الغيظ ونزل الى المكتبة حيث كان غاليو وابنه يتناولان الطعام

فقال له غاليو بلطف : اجلس وتناول الفطور معنا . اننا لا نلومك على شعورك هذا ولكن ما حدث كان امراً غير عادي . لا شك انك تسرّ بشفاء اليوناني ولو كانت الطريقة شاذة

بقي الطبيب واقفاً ورفض كل ما قُدّم له من الفاكهة وقال غاضباً . ان من سوء حظ الشيخ غاليو ان يعرف الناس دعوته لاحد المسيحيين المفسدين لكي يداوي مريضاً في بيته

فوثب مرسيلوس عن كرسيه وقابله وجهاً لوجه وقال له : انت ورياؤك يا مَن تدّعي الاهتمام بشفاء المرضى . هل يمكن ان تكون هكذا حسوداً وتعساً حتى انك تغضب حينما تُعاد حياة انسان اليه بواسطة ناجعة افضل من ادويتك الباطلة ؟

فلصق سربيدون بجانب الباب وقال سيكلفك هذا الكلام ثمناً غالياً يا مرسيلوس ثم خرج

فقال غاليو لابنه بعد ان خرج الطبيب كنت ارجو ان ارضيه لانك جرحت حاساته ودست كبرياءه ولا بُدَّ من ان يسبب لنا تعباً كثيراً اذا عُلم ان ديمتريوس مقيم هنا

– الحق معك يجب ان تبعده من هنا

– ايستطيع ان يسافر اليوم ؟

– سيذهب بصحبتي الى اربينو حيث انا ذاهب

قال غاليو : لا يستطيع مطلقاً الركوب على الجواد . فالاوفق ان نرسله في عربة

الى بسكار وما اخال انهم يبحثون عنه في ميناء ادرياني وانا سارافقه لان مرافقتي له تساعده على عدم تعرضهم للتفتيش عنه . وسادبر تذكرة تؤذن بمروره بغير اعتراض ولا افارقه الا بعد ركوبه احدى السفن المسافرة الى كورنثوس

– ان هذا لكرم خلق زائد يا سيدي . يا ليت كل انسان يعامل عبيده مثل هذه المعاملة الحسنة

اجابه غاليو : امـا من جهة هذا فليس من عادتي ان ارافق عبيدي عندما يسافرون الى بلاد اجنبية ولا اسمح لهم في ركوب عربتي الخاصة . لكن حادثة ديمتريوس بخلاف ذلك . لان حياته عادت اليه بطريقة تفوق الطبيعة ويجب ان يقوم بنذره والا فليس له حقٌ ان يحيا

قال مرسيلوس : انك تقدر ان تكون مسيحياً حقيقياً . وما ان نطق بهذه العبارة حتى تغيرت هيئة والده لانه لم يَخُن الوقت ليبدي تصريحاً كهذا امامه

فاجابه والده : الرجال الشرفاء كانوا يحتفظون بكلامهم قبل ان ظهرت الديانة المسيحية بزمان طويل . والآن دعنا نستعد للسفر في هذا النهار لانه ملائم لنا لان رومية لا تفتش عن التائهين في هذا اليوم الذي تتهيأ فيه لاستقبال العيد السنوي . فبناء على ذلك اوعز الى ليثتوس ان يخرج العربة ويعدّها لسفرنا

الفصل الخامس والعشرون

سارت العربة مسافة شاسعة في المدينة والخيال يتتبع اثارها عن بعد بغير ان يعترض طريقها احد وقد صدق فأل الشيخ غاليو في ان هذا اليوم كان مناسباً جداً لسفرهم فلو شاء شخصٌ ما ان يسافر من رومية على غرة من دون ان يشعر به احد من الجند او غيرهم لما تيسر له ذلك الا في اليوم المذكور. ومع ان عيد جوبيتر الذي هو اشهر واشرف اعياد السنة كان باقياً لموعد الاحتفال به زهاء ثلاثة ايام فان استعدادات الشعب لتعييده وتكريمه كانت قائمة على قدم وساق

وقد غصّت اسواق المدينة بجماهير لا تعدّ ولا تحصى من ذوي الخلاعة ومحبي الملاهي الفرحين الثملين . واقام الاهالي معالم الزينة على اختلاف انواعها والزوّار تفد على المدينة من انحاء بعيدة وصدى اصواتهم يملأ الفضاء فضلاً عن غوغاء جماعات السياح وعازفي الآلات الموسيقية والمغنين والراقصين والبهلوانية والسحرة والمنجمين ومروّضي الدببة والسعادين ومن لفّ لفّهم

وقد توقفت اشغال الحكومة وغمر الابتهاج قلوب الوطنيين والغرباء معاً وانتشر القول ان « اللودي روماني » (اسم العيد) سيكون مشهوراً هذه السنة اكثر مما قبله من السنين الفائتة لان الامبراطور الحالي كان على جانب عظيم من الكرم . اما سلفه طيباريوس الشيخ الذي كان شحيحاً يغضب في اوقات الاحتفالات فقد قضى نحبه واستراح من حكمه اغلب رعيته

وسيجانس الشحيح الذي كان يدفع للامير غايوس حصته من الدراهم مقسطة لاوقات معينة فقد لفظ روحه وانتهى شحه وحساباته وهكذا كانت نهاية غايوس الامير المذكور فقد طوته الارض وتخاصوا منهم جميعاً . اما الحذاء الصغير فان من

اقصى امانيه ان يجعل من عيده هذا يوماً تاريخياً مشهوداً يبتهج فيه الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم حتى جماعة المسيحيين الذين يستريحون من مداهمة الاضطهاد لهم مدة عشرة ايام على الاقل

وقفت عربة الشيخ غاليو في اڤيرانو في منعطف الطريق فترجل مرسيلوس عن صهوة جواده ليودّع المسافرَين. فهزّ يد والده مؤكداً له انهما سيجتمعان عن قريب. وودّع ديمتريوس ايضاً الذي اثّر وداعه في عواطفه تاثيراً شديداً

اما مرسيلوس الذي لم يكن اقل تاثراً منه فانه تغلب على شعوره الرقيق وقال له : ارجو لك السلامة في سفرتك يا ديمتريوس وان تكون جميع مساعيك واعمالك الصالحة مكللة بالنجاح والفلاح . ولا ادري ايجمعنا الحظ في وقت قريب او بعيد

اجاب ديمتريوس مبتسماً ابتسامة ضعف : ربما لا نجتمع يا سيدي

فقال مرسيلوس : مهما كان الوقت قصيراً او طويلاً فلا بدّ من اجتماعنا . اتؤمن بهذا يا ديمتريوس ؟

اجاب ، نعم اؤمن من كل قلبي

وبعد الوداع وتبادل العبارات الولائية الخالصة بينهما امتطى صهوة جواده المطهم النشيط . ولما كان باله قد اطمأن الاطمئنان الكافي الى صحة ديمتريوس وسفره فقد شعر بقوة جديدة في عضلاته ولم يبقَ شيء جديد يهمه سوى ذهابه الى خطيبته ديانا

وعند وصوله الى اربينو تحت جنح الظلام عرفه حارس الدارة حالاً فقال له مرسيلوس لا توقظ احداً فانني سابحث عن مربط لجوادي وعن محل لأبيت فيه

قال هذا ومضى الى الاسطبل فاودع فيه الجواد بعد ان اشرف على شربه واطمأن الى راحته وتوجه الى الغرفة التي كان يشغلها سابقاً حيث رقد رقاداً ثقيلاً من جراء التعب الذي كابده في اثناء اليومين الاخيرين من سفره السريع

* * * *

لقد رأى ابيوس كاظو انه ليس من الضروري تشغيل ديانا في الكرم في ايام هذا الاحتفال لان كل الذين يشغلهم الاهتمام بامره لا يجدون فرصة للبحث عن مكان وجودها وتسليمها الى الامبراطور . لذلك جيء بها في الليلة الماضية الى الدارة ولما شعرت ديانا لاول صباح انها اصبحت في مأمن من الخطر الذي كان يحدق بها سابقاً نامت نوماً هادئاً لذيذاً لا يعتوره قلق او أرق وكان من انطونيا ان تركتها نائمة هانئة لكي تستريح تماماً

وبعد بزوغ الفجر بيسير من الوقت نزل كاظو الى الاسطبل ليشرف على خيله فاخبره السائس عن مجيء مرسيلوس فصعد حالاً الى غرفته فوجده مستيقظاً فاخذا باطراف الحديث زهاء نصف ساعة عن كل ما جرى لهما منذ افتراقهما . غير ان مرسيلوس لاحظ ان كاظو لم يبقَ مفتخراً كما كان من قبل بل كان مستعداً ان يبدي نصيحة جديدة عند مسيس الحاجة اليها

فسأله كاظو لماذا لا تباشر من اليوم الاقتران بخطيبتك لان كثيرين يعتقدون انك ميت في عداد الاموات . لذلك يدّعي كاليغولا ان له الحق باظهار اهتمامه بامرها ولكن عندما تتزوجها فلن يبقى له بعد ذلك من حجة يحتج بها . اليس هذا صحيحاً ؟

فلم يجب مرسيلوس حالاً بل اخذ يفتكر الى ان قال له كاظو :

– ألستما مرتبطين برباط المحبة المتين ؟

اجاب مرسيلوس بلى ولكن الامر المهم في هذه المسألة ان ديانا غير واثقة كل الثقة من زفافها اليّ

اجاب كاظو : غير واثقة ؟ لا تقل هذا القول لانها صرّحت مراراً انها خطيبتك

– هل صرّحت بذلك ؟

– نعم صرّحت بدون شك

– لما تلاقينا لآخر مرة قالت ان زواجنا لا يصح ان يتمّ لكوني اصبحت مسيحياً

– ولكن ديانا مسيحية مثلك . فاذا كانت الديانة المسيحية مرتكزة على اساس اظهار الشفقة والصداقة والوداعة والتواضع نحو الشعب الذي هو دونك في الرتبة والجاه العريض فان ديانا المزدانة بحلى هذه المزايا الكريمة تستحق الجائزة الاولى على ذلك . يا ليتك رأيتها تشتغل بيديها البيضاوين الناعمتين كسائر العملة في الكرم وقد مضى عليها اسبوع او اكثر وهي تنام في كوخ صغير مع متيلا التي اصبحت تحبها حباً شديدا . اما متيلا فانها تغيرت تغيراً محسوساً كأنها اصبحت فتاة اخرى غريبة لا تعرفها

– لقد بلغ مني السرور كل مبلغ لدى سماعي هذا الوصف البديع . نعم ان ديانا ذات سجايا مسيحية تُذكر فتشكر ولكن يوجد فرق عظيم بين ارادة ديانا ان تسير حسب تعاليم المسيحيين وبين اضطراري الى الانضمام الى الحركة التي لا تقرّ بها الحكومة . وان اقضي وقتي مع أُناس امست حياتهم هدفاً لخطر دائم . وهذا الذي تعترض عليه ديانا

فقال كاظو : انك لا تستطيع ان تلومها لاجل ذلك

– ولا انا ، قال مرسيلوس . لان ليس لي اختيار في هذه القضية

* * * *

هذا ما جرى بين كاظو ومرسيلوس . اما انطونيا فانها جلست واياه في الرواق البارد الهوا. ثم سكتت فجأة واسرعت في سيرها . امـا ديانا فانها نزلت الى السلم بهدوء. فلما رآها مرسيلوس بادر الى لقياها . فابتسمت له ابتسامة الغبطة والسرور والقت نفسها بين ذراعيه

فقال لها يا حبيبتي ديانا واخذ يقبلها ضاماً اياها الى صدره

فاغمضت عينيها وبكت كطفلة ثم قالت له : هل اتيت لاجلي ؟

اجابها : يا ليتني اقدر ان اكون بجانبك دائماً يا حبيبتي

لحنت رأسها واجابته قائلة : ألم يكن هذا هدفنا الذي نرمي اليه ؟

اجابها : هذا كل قصدك يا ديانا ؟ اتكونين لي مهما حال دوننا من الصعاب ؟

اجابته بمعانقتها له وأدنت منه شفتيها ليقبلهما

فقال لها : افي هذا اليوم ؟ فالتفتت اليه بعينين واسعتين تتلألأ فيهما دموع السرور واجابت : لِمَ لا . ثم امسكته بيدها وقالت بغنج ودلال ، تعال لنبشرهم بما تمّ بيننا فانهم عاملوني احسن معاملة . ولا ريب في انهم يفرحون لفرحنا . ثم تمشيا متماسكي الايدي يترنحان من خمرة الابتهاج حتى وصلا الى الحديقة

كانت انطونيا قد اجتمعت هي وزوجها فيها فلما اقتربا من مكانها وابلغاها تلك البشرى وقفت انطونيا وفاجأت مرسيلوس وطبعت على خده قبلة حسب العادات المألوفة . وكذلك قبّلت ديانا كاظو مع زوجته ثم التفتت اليه قائلة : بما انك سيد اريينو في امكانك ان تقوم بمراسيم عقد اكليلنا

اجابها : هذا احسن شيء اقوم به

فقال مرسيلوس : ولكن يجب ان يجري في هذا اليوم

اجاب كاظو : بلا شك

فقالت لهم انطونيا : لنجلس هنا ونتدبر الامر . ومن رأيي ان تكون حفلة العقد بسيطة بحيث لا يكون فيها سوى العائلة فقط . ولكن — اين انطونيو ؟

فاجابها مرسيلوس : قد سألت عنه فقيل لي انه لم يستيقظ بعد من نومه

ثم استطردت انطونيا قائلة : اما اذا استحسنتم ان توسعوا الحفلة وتدعوا الى حضورها كل سكان اريينو فلا بأس بذلك لان جميعهم يحبونكم ولا يتأخرون عن القيام بكل خدمة تلزمكم

فألحت ديانا قائلة : ولتكن الحفلة قبيل الغروب على بساط من الحشيش الاخضر

حيث كان مرسيلوس يعظهم

وبعد ان وافقوا على هذا الامر قال كاظو : ساخبر ثوبيكوس باني امنحهم فرصة يوم كامل يتمكنون فيه من الاستعداد

اجاب مرسيلوس : حبذا هذه الفرصة الجميلة واجمل منها تلطفك وكرم اخلاقك

واذ رأوا انطونيو مقبلاً قالت والدته بحنو : قد اقبل الفتى الكسلان . وكان انطونيو ماشياً مطرقاً لانه كان غارقاً في لجة من التفكر ولما رفع نظره ركض مسرعاً نحو مرسيلوس الذي ضمه الى صدره بحبٍّ وحنوٍّ

فقال لهم الفتى : لماذا لم تدعوني ؟ كم من الوقت تستطيع ان تبقى عندنا يا مرسيلوس ؟

اجابته والدته : اننا سنبقيه هو وخطيبته عندنا بقدر ما نستطيع ويستطيعان لان حفلة عرسهما تجري في ليلة هذا النهار

فمدَّ انطونيو يده الى مرسيلوس وهنأه ُ ثم ادار وجهه الى ديانا ليصافحها ويهنئها فقال له والده : يُفرض عليك ان تقبّلها . واذ ذاك صبغت حمرة الحياء والخجل وجهه فكان من ديانا ان شجعته بدنوّها منه وقبّلته فقبّلها هو ايضاً . وبعد ذلك ذهب ليتناول فطوره

اما كاظو فذهب الى الكرم حيث اعطى اوامره الى ثوبيكوس بخصوص ذلك النهار . وانطونيا اسرعت الى البيت لتهتم بمعدات الوليمة

اما مرسيلوس وديانا فانهما جلسا بقرب بعضهما من بعض . فقالت له اخبرني الآن كيف وجدك ديمتريوس ؟

فسرد لها الرواية بحذافيرها بحيث اخذت تبكي وقالت مسكين ديمتريوس فانه شجاع ومخلص معاً . وبرّه العجيب . ولكم يكون سروره عظيماً بالحصول على حريته ورجوعه الى ثيودوسيا

— ليس لديه ما يقدّم لها لان حياة مسيحي غيور يا حبيبتي ليس لها قيمة عنده

وديمتريوس لا يخشى خطراً في اية حالة كان . على كلٍ فلا اظن ان محبة ثيودوسيا له تقلّ من اجل ذلك فاذا ذهب اليها فانها ترضى به زوجاً لها

فقالت ديانا : اظنك تشير بهذا القول اليَّ ايضاً . فانا اقبلك على الحالة التي انت فيها . فضمّها اليه وقبّلها . ثم اكمل كلامه قائلاً : ان كاظو يرى من الموافق ان اذهب بكِ الى والدتكِ وانا اوافق معه لانك بريئة غير متهمة بذنب ما ولم يبقَ ثمّت من حجة لكاليغولا كي يدّعي ان له الحق بالاهتمام بكِ بعد زواجكِ

— وانت يا حبيبي ماذا يقال عنك بعد ان سمع الجميع انك غرقت . وهل يسمع الامبراطور انك مسيحي ويغضّ طرفه عنك

— ربما يسمع ذلك ولكن علينا ان نخاطر لانه لا تُنال الرغائب الا بركوب الاخطار والمصاعب . ولا يبعد عن الامبراطور مع ما هو عليه من التقلب في الراي ان يضرب صفحاً عن مقاومة جماعة المسيحيين والانتقام منهم . وبما ان والدي شيخ ذو نفوذ في مجلس الاعيان فلا يمكنه من القاء القبض عليَّ قبل اعمال الفكرة كثيراً والاقدام على عمل كهذا . ومع هذا كله فاننا لا نستطيع الاحتجاب دائماً فلنذهب بشجاعة لكي نرى ما يجري من الامور لان الامور كما يقال مرهونة باوقاتها

فسألته : ولكن متى نذهب ؟

اجابها : ان آل كاظو يتكدرون جداً اذا تركناهم حالاً . فلنبقَ الى ما بعد الغد حيث يكون احتفال « لودي روماني » قد ابتدأ ونكون نحن في امان وراحة فكر على الطريق

— هل يسهل ذلك علينا من غير ان نصطدم بالخفراء ؟

— نعم يا حبيبتي اذا كنا متنكرين وعرفونا فعندئذٍ نكون قد جنينا على انفسنا بانفسنا ووقعنا في وهدة الهلاك

فالتصقت ديانا به وقالت له : انني لا اخشى شيئاً اذا كنت انت معي

* * * *

كان سكان اربينو سحابة ذلك النهار ينزعون الكلأ اليابس عن الارض الخضراء. وكان ثوبيكوس واقفاً يلاحظ بناء مظلة كبيرة لاجراء الحفلة فيها . ولما اتمَّ بناءها زيَّنتها الفتيات بالازاهر والنباتات . وكان طهاة المطابخ يشتغلون طول النهار لتهيئة الاطعمة الفاخرة ، والخبازون يخرجون من الافران الكعك اللذيذ على انواعه . وكانت رائحة الخرفان المشوية والبطات المقلية تهيج القابلية . وقد ظنَّ القائم على ادارة مائدة الشراب ان سيده قد فقد عقله عندما فهم ان من الواجب ان تُدار كؤوس الخمرة على كل الحاضرين من سكان اربينو

ولما اقبل العروسان سكنت حركات جميع مَن كانوا جالسين على عشب تلك البقعة الخضراء. ولكن ما لبثوا هنيهة حتى ارتفعت اصواتهم بالترحيب بهما وابداء عواطف التهنئة لهما والاحتفاء بآل كاظو القادمين معهما

فجلسا تحت الرواق الصغير وحدث سكوت مرة اخرى بين الحضور كأن على رؤوسهم الطير . وكان كاظو ذو الطلعة الموقرة المهيبة قد ضمَّ يديهما معاً وسألهما ان يقرّا بطوعهما واختيارهما بانهما يريدان ان يصبحا زوجين يريد الواحد منهما لنفسه ما يريده للآخر من الحب الصادق والوفاء والاحترام . وبعد ذلك اعلن عقد زواجهما رسمياً

ثم حيّا العروسان سكان اربينو الذين هتفوا لهما ثانية ولا سيما آل كاظو الكرام الذين وفروا لهما جميع اسباب المسرات وتمنوا لهما التوفيق والسعادة

ثم تقدم ثوبيكوس وامرأته منهما وقدَّما لهما التهاني القلبية وكذلك فعل جميع الرجال والنساء الذين كان مرسيلوس يعرفهم باسمائهم . وبعدئذٍ طوّقت ديانا خصر متيلا وطبعت على خدها قبلة حارّة ، ومتيلا بكت وارادت ان تهنئ مرسيلوس تهنئة عادية فكان منه ان جذبها من يدها نحوه وقبّلها فكان عمله هذا يستحق الذكر . ولما رأى الجمع هذا المشهد هتفوا لها حتى اصبحت حائرة في امرها الى اين تذهب وماذا تقول

اخيراً دعا كاظو ڤوبيكوس اليه وقال له انه يريد ان يكلم الحضور فاشار ڤوبيكوس اليهم بالسكوت . فخاطبهم كاظو بما يناسب المقام ثم دعاهم الى الوليمة التي اعدّها لهم . فتقدّم عبيد الدارة من الجميع حاملين على ايديهم اطباق الاطعمة اللذيذة

فقال كاظو : دعونا الآن ندخل الى الدارة

فاجابته ديانا : لنتناول غداءنا معهم مرة واحدة جبراً لخواطرهم

فقال لها مرسيلوس : انتِ حقيقة لؤلؤة ثمينة يا ديانا

قال كاظو : وقد احضرنا ايضاً مأكولات مبرّدة بالثلج

فوضعت ديانا يدها بيد كاظو بولاء ووفاء وقالت دعهم ينتظرون فابتسم لها ورضي بما قالت وقد طفح السرور على قلوب الحاضرين حتى ان انطونيو الخجول الطبع كان واقفاً وراء المائدة لابساً مريولاً وهو يقطع بسكينه قطعاً عديدة من لحوم الخرفان المشوية لسكان اربينو

* * * *

كان من الطبيب سربيدون انه وشى بعائلة غاليو اولاً لان كبرياءه قد كُسرت وبالتالي لانه لم يبقَ له ما ينتفع به مادياً او ادبياً من تلك العائلة . لذلك عزم على ان ينتقم من مرسيلوس ويخون العائلة التي وضعت اباه قبله تحت حمايتها

فلو سلمنا جدلاً ان الحادثة وقعت قبل ذلك ببضعة اسابيع لكان الطبيب المذكور كظم غيظه . لكن الاوقات كانت قد تغيرت ولم يكن هنالك من فائدة تُجنى من المثابرة على طلب عطف المحافظين بل كان من الموافق والسلالة الحاضرة في الحكم ان تُقطع العلاقة مع تلك كي لا يُحرق مع تيارها

ان كاليغولا الشاب او بالاحرى الحذاء الصغير لم يبقَ له من جَلَد لمراعاة خواطر الشيوخ والسياسيين اصحاب مبادئ الاقتصاد الوطني الذين لا يوافقون على بذخه

واسرافه وتهوّسه لانه كان معروفاً لديهم عزمه على ازالة العقبات الشائبة في اول فرصة ممكنة

كان كنتوس من معارف سربيدون الذي لم يرَهُ منذ ترقيته الى المنصب الرفيع في بلاط كاليغولا . وكان من حسن حظ الطبيب المذكور ان طسقوس السيامي العجوز الذي كان يعتني به قد توفي في الربيع مما سبّب ذلك قطع المواصلات بين العائلتين . ولما لم يكن يعلم هل يظلّ طبيب العائلة الخاص بعد موت رئيسها فقد رأى من مصلحته ان يخبر كنتوس عن الجهة التي كان يودّ الانحياز اليها في اثناء المشادة التي حصلت بين الحذاء الصغير ومجلس الاعيان

ومع انه كان متحمساً ومتأثراً فقد ردّته افكاره عن الدخول فجأة على كنتوس للوشاية بغاليو والتمس بكياسة تعيين موعد لمقابلته التي لم يؤذَن بها له الا بعد ثلاثة ايام . وهذا التأخير مكّنه من تحسين روايته لانه علم من امين سرّه ان دسيموس اخبره ان كلًّا من غاليو ومرسيلوس واليوناني قاموا برحلة سرية

وبعد ان شقّ لنفسه طريقاً بين الجموع المحتشدة وصل الى القصر الامبراطوري واضطر ان يبقى واقفاً في ردهة الاستقبال الغاصة باعيان المقاطعات . ومع ان الوقت كان لا يزال باكراً فان اكثر اولئك الاعيان كانوا ثملين

اخيراً أُذن للطبيب بالدخول الى مجلس كنتوس لمقابلته في بضع دقائق معدودة كما صدر امره لانه كان يريد ان تكون مدة المقابلة قصيرة جداً حتى اخبره الطبيب ان لديه معلومات تتعلق بديمتريوس اليوناني وخلاصتها : ان رجلًا مسيحياً من اصل يهودي دُعي الى قصر غاليو لعيادة اليوناني الجريح الذي كان جرحه بسيطاً . وان القاضي مرسيلوس الذي أُشيع عنه انه مات اتى بهذا المسيحي الى بيت والده وبذلك اظهر انه يعطف على المسيحيين الثوريين . وبعد ذلك اخرج غاليو وابنه ذلك العبد اليوناني وذهبا به الى مكان مجهول لتخبئته

ومع ان كنتوس اهتمّ لسماع هذه الشكوى فانه لم يبدِ كلمة شكر لذلك

الطبيب بل وبخه توبيخاً شديداً على سكوته طول هذه المدة عن هذا الامر بقوله له . انت غبي يا سربيدون ولو لم تكن ابن ابيك الحكيم لما كنت اثق بك لتنقية الحشرات عن جسم كلب

ولما دار في خلده انه نال حظوة عند صديق الامبراطور استأذن بالخروج بكل خشوع واحترام . ولقد كان من الصعب في هذه الايام ان يعلم المرء اي طريق يسلك لنيل الحظوة في عيني كاليغولا . وكان من الواضح لدى الخاصة والعامة ان الامبراطورية تسير بخطى حثيثة نحو الخراب والدمار . لكن في نية كاليغولا قبل سقوطه وهلاكه ان يسقط ويهلك كل مَن اعتقد باية فضيلة كانت

على ان كنتوس لم يخبر الحذاء الصغير حالاً عمّا اسرّ اليه به الطبيب سربيدون لانه ظنّ انه من المستحسن القاء القبض على مرسيلوس في اول الامر واسره حتى يقف منه على مقرّ ديانا ، الامر الذي بلا ريب يسرّ الامبراطور . وبناء على هذا فان كنتوس امر بعض حرّس القصر ان يضعوا بيت غاليو تحت المراقبة لكي يخبروه عن كل ما يجدّ هنالك

وقد رجع الحرّس في اليوم الثاني واعلموه بعودة غاليو وحده في عربة . لكن بما ان الفوضى كانت منتشرة في جنبات القصر ومآدب البلاط في إبان حركتها فقد قرّر كنتوس ان يؤجل تنفيذ غايته التي يرمي اليها الى وقت اكثر مناسبة . غير انه من جهة اخرى امر الحرس ان يثابروا على مراقبة المنزل بحيث اذا رأوا القاضي مرسيلوس فلا يتأخرون دقيقة عن القبض عليه

ان المسألة قابلة بوضع طولوس المفتخر في مأزق حرج قبل انهائها . لكن امر طولوس لا يهمه بعد الآن ولا تجنى فائدة من ورائه . وقد سُرَّ كنتوس عندما افتكر انه كان قد اقترح ايفاد طولوس لاخراج المسيحيين من المقابر . وكم بالحري تكون المهمة احرج عندما يرى طولوس نفسه مضطراً للقبض على رفيق عمره وزوج اخته . حسن جداً ، فليكن ذلك

وفي ليـلة العيد الثالثة وصلت الاخبار الى كنتوس ان ديانا بلغت الآن بيت والدتها وقد اوصلها مرسيلوس

اما الحذاء الصغير الذي كان يحتسي كؤوس الراح طيلة ذلك النهار فانه غدا في حالة غضب شديد يشتم ويسبّ ويضرب القائمين على خدمته لانه كان من عادته بعد قضاء نهار كهذا ان يذهب توًا الى فراشه وينام بهدوء وسكينة . ولكن الجلبة التي في الشوارع سببت له ارقاً وألماً في راسه عرف بها جميع سكان البلاط حتى كنتوس نفسه نال حصة معـلومة من شتائم الامبراطور لانه كان مسؤولاً عن صراخ المحتفلين بالعيد وعن حالة القصر السيئة . ولم يكتفِ جلالته بجرح احساساته بل انحى باللائمة عليه بقوله : حتى الاحتفالات التي أقيمت في ندوة يوليوم العامة كانت مسخرة من المساخر ولم يكن شيء مضجر مثل انشودة جوبيتر

— ولكن ألسنا مضطرين يا صاحب الجلالة الى اتباع الطقوس القديمة ؟

فكان لجواب كنتوس الذي دافع به عن نفسه في غير وقته المناسب وقع سيء في قلب الامبراطور مما اثار غضبه الشديد ثانية فهبَّ يزعق قائلاً : انه قد اكتفى من خدمة الحماقى وقد آن الاوان ايعطي وظيفة كنتوس شخصاً آخر اجدر منه بالقيام بها . لان كنتوس لم يبرهن في مدة وزارته كلها عن اقتداره وحسن ادارته

ولما سمع كنتوس ما سمعه من انتقاد الامبراطور وذمّه حاول في الحال ان يحسّن موقفه لدى جلالته فاوعز الى الجميع ان يخرجوا من غرفة النوم الملوكية . ولما غادروها قال كنتوس بتحمس : لقد وجدنا يا مولانا ابنة غالوس

فصاح الحذاء الصغير ها ! انهم ظفروا بها اخيراً . واين ظفرتم بتلك الغادة الجليدة الجميلة

— في البيت يا صاحب الجلالة وقد وصلت الى هناك منذ ساعة فقط

— هل اوصلها ذلك اليوناني الذي تحبه انت وتودّه

— لا يا مولانا ان الذي اوصلها هو القاضي مرسيلوس الذي انتشر خبره بين الشعب

انه اغرق نفسه في البحر . اما اليوناني فقد خبأه الشيخ غاليو في مكان مجهول

– إذن قد وُجد حبيبها ؟ وماذا كان يعمل في غضون المدة التي اعتقدوا فيها انه غرق ؟

– كان مختبئاً في مكان امين . ويقال عنه انه اصبح من جماعة المسيحيين

– فزعق الحذاء الصغير ، ماذا ؟ مسيحي ! كيف يشترك قاض نبيل مع اناس سفلة ارذال . ايعتقد ذلك الاحمق انه يستطيع القيام بثورة ما ؟ هلمَّ اقبضوا عليه في اي مكان وجدتموه لعصيانه وخيانته وائتوا به حالاً الينا ! الآن !

اجاب كنتوس : قد اقبل المساء يا صاحب الجلالة وسيكون غداة غد الاجتماع عظيماً

– بالحقيقة اننا امسينا في تعب شديد يقرُب من الهلاك من جراء هذه الاحتفالات المملّة التي سئمت منها نفوسنا . ما هو نوع العذاب الذي يفرضه علينا الاله جوبيتر غداً

اجابه كنتوس : ان جلالتكم ستحضرون الالعاب قبل الظهر . وبعد ذلك يبدأ الاستقبال للحرس البريتوري ولشيوخ مجلس الاعيان ومن ثمَّ تقام المأدبة لهم ولنسائهم

قال كاليغولا متذمراً : لا بدَّ من انهم يخطبون في الجمع اليس كذلك ؟

– هي العادة يا مولانا وبعد قيامهم عن المائدة الملوكية يسير الموكب الى هيكل جوبيتر حيث يسجدون له عند السحر

– ان هذه العادة باتت مضجرة الى النهاية . هل خطر في بالك يا كنتوس ان هذه المأدبة التي تقام لاجل العجز الخرفين تكون ذات رونق وفخامة بغير خطب ؟

اجاب كنتوس : سيكون لدى جلالتكم على المائدة نُدَماء يسرُّون الخواطر وتقرُّ بهم النواظر وفي مقدمتهم ابنة هيرودس انتيباس والي الجليل وبيريه

فزعق كاليغولا قائلاً : سالومة تلك الفتاة الطائشة التي رأيناها مرات عديدة

– لقد كنت اعتقد انكم الفيتم عشرتها حسنة لذيذة . ألم تسعَ جهدها لترضي جلالتكم ؟

– ادعُ ابنة غالوس لتجلس عن يميني وسالومة عن يساري وسنطلب من سالومة ان تعيد على مسامعنا ما لديها من القصص الفكاهية

– ولكن ألا تظن ان العضو غالوس يعتبر هذا الامر مسيئاً الى ابنته ومحطاً بقدره ؟

– انها تستحق ذلك لانها تهب القاضي الشيء الكثير من ابتساماتها الثمينة وهو الرجل الوحيد الذي يرجو ان يقلب الحكم فابعث مَن ياتي به بغير تاجيل والقه في غيابة سجن القصر ولا مانع من ان تُعدَّ له كل ما يلزم لراحته لانه قاضٍ

وادعُ ديانا الى هذه المادبة . وانت يا كنتوس تستطيع ان توسع نطاق الدعوة عند طلوع الصباح . واذا أبتْ ديانا القبول فاوضح لها ساعتئذٍ ان الامبراطور يمكنه ان يتساهل مع صديقها المسيحي اذا لبّت امره وشرّفت المقام بحضورها

اجاب كنتوس : كنت اعتقد ان جلالتكم تميلون الى ديانا وتودُّون ان تنالوا حظوة في عينيها . اتظنون يا مولانا ان تهديدكم اياها تحصل منه منفعة ما ؟ لا اظن يا صاحب الجلالة . لكنكم لو اظهرتم لها العطف والاهتمام بشانها لربما تنمى مع الايام حبها لمرسيلوس

– ان هذه المخلوقة المتعجرفة لا تجدي معاملتها باللطف فتيلاً بل انها تحتاج الى الضرب بالسياط . اما حبيبها فقد اعددت له ما يردعه عن غيه ويعيده الى رشده

– ولكنه ابن الشيخ غاليو يا صاحب الجلالة

– ليكن ابن مَن كان لاننا سنعطي ذلك الهرم درساً جديداً جيداً يقدر المجلس بموجبه ان يجزم في الحكم

* * * *

لم يذهب شخص جليل اعظم من كنتوس نفسه الذي كانت تحيط به الجنود الفرسان بالبستهم العسكرية الرسمية ليدعو ديانا الى المأدبة التي اعدّها الامبراطور . ولما دعاها خرجت بعد هنيهة من غرفتها مصفرة الوجه وعيناها منتفختان مغرورقتان بالدموع وكان هو بانتظارها في فسحة الدار ومع هذا فقد ملكت نفسها ووقفت امامه بعظمتها . اما والدتها پولا التي خرجت معها ووقفت بجانبها فكانت ترتجف اعضاؤها من شدة القلق عليها

فسلمها كنتوس رقعة الدعوة ولكي لا يدع الوقت الثمين ان يذهب سدًى اخبرها محتوياتها فتنهدت على رغمها . فقالت له والدتها وهي تحاول ان تهدئ روعها وصوتها المرتجف . ارجو منك ان تخبر الامبراطور ان ابنة العضو غالوس حزينة كاسفة البال ، لذلك لا تصلح ان تكون نديمة لجلالته

اجابها كنتوس منحنياً : ان هذه الدعوة موجهة الى ابنة غالوس وليس الى والدتها فهي تقدر ان تجيب عن نفسها

قالت ديانا . ان والدتي قد نطقت بالصدق ايها السيد فارجو منك ان تخبر الامبراطور انني مريضة جداً فليتلطف بقبول اعتذاري عن عدم استطاعتي حضور المادبة في الوقت الحاضر

اجاب كنتوس قائلاً : يجدر بي ان اخبركِ ان صديقكِ القاضي مرسيلوس هو الآن في احد سجون القصر وسيُحاكم غداً محاكمة المشاغبين العصاة . اما اذا كانت ابنة غالوس تريد ان تجيب دعوة الامبراطور الذي يتمنى حضورها الى مأدبته الملوكية فان بامكان جلالته تخفيف الحكم نوعاً ما عن صديقها مرسيلوس

اجابت ديانا بصوت ضعيف : حسناً ساذهب

فقالت پولا بحماسة : لو كان زوجي هنا لكانت الدماء تجري كالماء قبل ان يحكم على مرسيلوس هذا الحكم العنيف

اجابها كنتوس : يا حضرة السيدة انكِ افرطتِ في كلامكِ فان تهديدكِ هذا لا

يفيدكِ شيئاً . وانه يصعب عليّ ان اشكوكِ الى جلالته غير اني اشير عليكِ ان تكوني رصينة حكيمة ولا ترمي الكلام على عواهنه فيما بعد . واذ قال هذا انحنى امامها وخرج الى الخارج هو واتباعه

* * * *

لقد اخذ الدهش من مرسيلوس مأخذه لما لاقى من اكرام واحترام حرس القصر له الذين قبضوا عليه ومن موظفي السجن ايضاً . لكنه ظنّ ان ذلك كان بالنسبة الى منصبه الرفيع . وقد كان من امرهم بعد ان خرج من منزل غايوس الذي كان نائماً فيه ان مضوا به الى باحة الدار حيث كان قائد مئة مع عشرين جندياً بانتظاره

واذ رأى ان لا فائدة من مقاومته عدداً كبيراً كهذا ، طلب من القائد ان يسمح له باحضار حوائجه الخاصة فاجاب في الحال سؤله

وقد كانت ساعة فراق اليمة جداً بينه وبين ديانا التي تمسكت به وهي تشهق وتبكي والدموع تتساقط كالمطر من عينيها

فقال لها : كوني شجاعة يا حبيبتي . ربما ارسل الامبراطور يدعوني ليخفض من شأني او ليوبخني ثم يطلق سراحي بعد ان يزوّدني بنصائحه . فعلينا ان نصبر ونعلل انفسنا بذلك

ولم يستطع ان يتملص منها الا بعد الجهد الكلي فتركها على حالتها من الحزن والاكتئاب وتبع القائد طائعاً . ثم قدموا له جواداً واركبوه بينهم بحيث لم يكن احد من المحتشدين في الاسواق ليشتبه انه تحت الاسر

وعندما وصلوا به الى القصر ادخلوه الى السجن الواقع تحت الارض الا انه كان مضيئاً ومعرّضاً للهواء وارضه مفروشة فرشاً مريحاً وقد اعلمه قائد المئة ان له الحرية ان يخبر اصدقاءه عن محل وجوده وان يكتب اليهم ما يشاء فترسل رسائله حالاً .

وكذلك رخص له ان يستقبل اي زائر جاءه من اصدقائه وغيرهم . وبعد ان استقر به المقام جلس الى منضدة الكتابة وكتب الرسالة الآتية :

مرسيبور : انني في سجن القصر متهم بارتكاب الخيانة . اعلم عائلتي بذلك . واخبر والدي ألاّ يعرّض نفسه في الوقت الحاضر لمهمة خطيرة . انني أعامل في سجني معاملة حسنة لا بأس بها . وانك تستطيع زيارتي بغير مانع . فاحضر لي الرداء. مرسيلوس

وبعد وقت قصير من بزوغ الفجر جاء مرسيبور وهو يلهث من التعب لانه امسى هرماً . فأذن له الحرس في الدخول عليه وعادوا ادراجهم الى حيث كانوا واقفين . فدخل مرسيبور وكانت يداه النحيلتان باردتين ترتجفان من الضعف المستولي عليه وعيناه تشفّان عن تأثر وكآبة

وقال لمرسيلوس : انني افضّل الموت لنفسي يا بنيَّ على ان اراك عرضة لهذا الاضطهاد الاليم

فاجابه مرسيلوس : انه من الضروري احياناً ان يضحّي الانسان بنفسه المدافعة عن غاية عظيمة . انني منزعج جداً ليس من الحالة التي انا فيها بل من اجل الذين يحبونني

فطلب مرسيبور من مرسيلوس بالحاح قائلاً : دعني ادعو بطرس فان له قوة ايمان عجيبة ربما يتمكن بها من ان يخلصك من السجن

فهزّ مرسيلوس رأسه وقال : لا يا مرسيبور ان حياة بطرس ثمينة جداً عندنا ولا نريد ابداً ان يطرح في غيابة السجن

فسأل الرجل المسنّ باكياً : ولكن ألا يجيء المسيح ويخلصكما معاً

– ليس من الحق ان نمتحن مشيئة المسيح يا مرسيبور

وعندئذٍ اخرج مرسيبور الرداء من تحت جبته وسلمه اياه

ثم قال مرسيلوس بلطف واضعاً يده عن كتف الرجل المسنّ . لا يضطرب قلبك يا مرسيبور . تعال غداً ربما تكونِ الاخبار احسن

* * * *

ان الذي آلم ديانا شديد الالم وهي جالسة على المائدة الملوكية بقرب الامبراطور الثمل هو ما شاهدته من علائم اليأس والخيبة البادية على وجه الشيخ غاليو . فقد جاء وحده الى الوليمة على رغمه قياماً بالواجب عليه . وقد اعدَّ له مائدة بعيدة منفردة ليجلس عليها ومع هذا فانه كان هو وديانا يسترقان النظر من وقتٍ الى آخر . وقد ظهر لديانا انه كان معتقداً انها تركت ابنه في إبان محنته . وكانت تودّ من صميم قلبها ان تذهب اليه وتفهمه حالتها ولكن رأت هذا من رابع المستحيلات

اما الامبراطور كاليغولا فكان جُل اهتمامه موجهاً نحو سالومة وقد بذل جهده ليحملها على اعادة بعض قصصها البذيئة على سمعه ولكنه لم ينجح . واذ رآها متظاهرة بمجلى الطهارة والحشمة حار في امره وقد شقّ عليه ان يرى ان ما اعدّه المأدبة لم يأتِ حسب رغبته وان جلوس ديانا عن يمينه بعظمتها وسموّها وسالومة عن يساره ترفض ان تتآمر معه لاذلال ديانا، لذلك تولاه الكدر من جراء ذلك وشاء ان يحسِّن مركزه

فالتفت نحو سالومة وقال بصوت عالٍ بحيث يجعل ديانا تسمع ما يقوله . قد القينا القبض على احد المسيحيين الذي دفعته وقاحته الى قلب الحكومة راساً على عقب وقضيته هذه شغلت افكارنا وهي مهمة بحدّ ذاتها لانه قاضٍ . فهل يسرّكِ يا سالومة ان ترينه يرتدّ عن دينه امام الحرس البريتوري ومجلس الاعيان

فابتسمت له سالومة ابتسامة غامضة واجابت الأ اذا كان الامبراطور يريد ان يرى ذلك منه وعلى كل فالمسألة خطرة . لان هؤلاء المسيحيين يا صاحب الجلالة لا يرتدون عن ايمانهم . وقد اتفق مرة ان والدي اراد ان يذلّ رجلاً مسيحياً امام

محكمتنا ويردّه عن عقيدته فاذا بهذا الرجل يتفوّه بخطاب متين العبارة ثلم به صيت عائلتنا كلها وقدح فيَّ بنوع خاصّ . فليتك سمعت ما صرّح به امام المحكمة من الانتقاد والذمّ حتى اضطررنا الى معاقبته اشد عقاب

فاضاء وجه كاليغولا عند سماعه ذلك وسأل هل جلدتموه ؟

فاجابت : كلا بل قطعنا راسه

— حسناً فعلتم . ولكن ايّ قصاص تفرضون على أناس هنا في الجليل يقولون اقوالاً غير حقيقية عنكِ وضحك ضحكاً عالياً يقرب من القهقهة ثم التفت نحو ديانا ليرى تأثير هذا الحديث عليها فوجدها صفراء كالاموات

اما كنتوس الذي كان عرّيف الحفلة فانه قدّم كورنيليوس كابيتو الى منصّة الخطابة فكان خطابه اردأ خطاب القاه في حياته . فكان من الواجب ان يراعي حرمة المقام ويأتي على ذكر الحذاء الصغير ومدحه تجاه الجمهور لكنه كان رجلاً حرّاً صادقاً فلم يستطع ان يتغلب على حرية ضميره ويمدحه

ثم انشد جوق الموسيقى انشودة الاحتفال وبعده التى امير مصري خطبة اوشك كاليغولا من سماعها ان ينام لكنه انتبه من نومه واشار الى كنتوس الذي لم يلبث ان همس في اذن مساعده

ثم قال الحذاء الصغير لسالومة : ينبغي ان ننظر الآن في حقيقة ولاء واخلاص قاضينا المسيحي الذي اوعزت للحرَس ان يأتوا به الى هنا

— اذكروا يا مولاي ما قلته لجلالتكم ان هؤلاء الناس المسيحيين لا يهابون احداً سواء كان كبيراً ام صغيراً

— اتريدين ان نضع شرطاً فيما بيننا ؟

— الامر امركم

فنزع كاليغولا سواراً زمردياً من يده ووضعه على المائدة

ونزعت سالومة ذخيرة من السلسلة الذهبية المنوطة بجيدها وفتحتها فاذا فيهـا

خصلة من الشعر فدهش وسألها : ما هذه ؟ خصلة شعر ؟

— نعم انها من راس الشخص الوحيد والبطل الفريد الذي احببته في حياتي

فلما سمع كاليغولا ذلك انتصب على قدميه . وكل جمهور الرومانيين الاشراف وقفوا وانحنوا . واومأ اليهم بيده ان يلازموا مراكزهم وقد تأثرت عواطفه مما رآه من الامانة الفائقة نحو التاج واستطرد قائلاً : انه لا يُستغرب من الحرس البريتوري ومجلس الاعيان ان يعتبروا قيمة الاخلاص نحو الامبراطور والامبراطورية فهتفوا له هتافاً موجزاً

وتابع كلامه فقال انه بلغه ان جماعة من المشاغبين في الخفاء يسمّون انفسهم مسيحيين طفقوا منذ حين يتكلمون كلاماً لا طائل تحته عن رجل يهودي مشاغب يدعى يسوع وهو في عرفهم ملك وقد حُكم عليه بالموت صلباً لخيانة اقترفها فاقلق معهما راحة الرعية . فضلاً عن انه اتخذ له بضعة تلاميذ من بعض صيادي الاسماك الجهلة الضعيفي الشعور . فراحوا يقولون في كل حدب وصوب ان رئيسهم يسوع الذي مات قد عاد الى الحياة وعزم ان يقيم مملكة له

ومما قاله ايضاً بهذا الصدد : لو ان هذه الاشاعة التي لا ظلّ لها من الحقيقة قد اقتصرت على بعض المتعصبين البلداء الاغبياء الذين يرجون ان يجنوا من ورائها نجاحاً وفلاحاً لما كنا نعبأ بهم وباشاعتهم ولكننا فهمنا مؤخراً ان احد قضاتنا مرسيلوس غاليو اصبح واحداً منهم

وما ان رن ذكر اسم مرسيلوس في آذان الجمهور حتى تطاولت اعناقهم واتجهت انظارهم نحو والده الشيخ غاليو الذي كان رابط الجاش لم يظهر اقلّ تغير في سحنته بل استمرّ يتفرّس في وجه كاليغولا بغير ان ينطق ببنت شفة او يحرّك عينيه

ثم اكمل كاليغولا كلامه قائلاً : اننا نأبى تصديق هذه الاشاعة عن القاضي مرسيلوس . لذلك له الحق حسب شريعتنا ان يقف امامكم ويدافع عن نفسه

* * * *

كان افتخار ديانا بمرسيلوس عظيماً حينما دخل عالي الجبين مصحوباً بحرس القصر الى قاعة المأدبة ووقفوا جميعاً امام مائدة الامبراطور الملوكية السامية . كان الحرس من خيرة الشبان تتراوح اعمارهم بين العشرين عاماً الى الثلاثين فقط وهم جميلو الصورة عريضو الاكتاف اقوياء ولون بشرتهم نحاسيّ . اما ديانا فكان نظرها في مرسيلوس انه اجمل منهم صورة وأشدّ باساً وبسالة .فقالت مناجية نفسها : لو ان يسوع الذي وهب لمرسيلوس حبيبها القوة والصبر على احتمال هذه المحاكمة القاسية وطلب ان يكون له من اتباعه ومريديه رجل مجاهد كامل المروءة نظيره لما اختار غيره

على ان ديانا كانت خائفة كل الخوف من ان مرسيلوس لا يدرك وجودها بقرب ذلك الحذاء الصغير الضعيف النفس والارادة والسكير التعس ذي المقلتين الضيقتين والفم الذي ملء شدقيه القبائح والشتائم . لكن ما تصورته فيه لم يصحّ لانه فهم تماماً ، وحين وقع نظره عليها خفق قلبه لها واشرق وجهه غبطة وارتياحاً وابتسمت شفتاه ابتسامة الحب والحنان والشوق وهي اصبحت حالتها كحالته فاسرعت نبضات قلبها وعلا محياها الوسيم امارات الحبور

ثم أوعز الى مرسيلوس ان يتقدم الى الامام تجاه الامبراطور فاقترب حالاً من حضرته وعندئذٍ وقف جميع الحضور وكان سكوت رهيب

اما الموكب فقد ظلّ خارج القصر واقفاً ومنتظراً رجال الحكومة ليسيروا الى هيكل جوبيتر . وكان اثنا عشر من اساتذة الموسيقى يعزفون اناشيد النصر وهم يرتدون الاردية الانيقة الخاصة وينتظرون سير موكب الفرسان . اما جماهير الشعب فكانوا واقفين في الشارع الكبير يزحم بعضهم بعضاً ويعجون ويعربدون من كثرة الشراب غير ان فسحة دار المأدبة كانت هادئة

فشرع كاليغولا وهو شامخ الانف منتفخ الاوداج يحاكم مرسيلوس بقوله له : لقد اتهمت باشتراكك مع جماعة من الثورويين التابعين لزمرة المسيحيين ويقال ان اكثرهم من العبيد والبرابرة قد ادّعوا واذاعوا ان لهم ملكاً يهودياً فلسطينياً حكم

عليه بالموت لاجل الخيانة والتجديف واقلاق راحة العموم فبماذا تجيب عن هذا الاتهام؟

فتطلعت ديانا الى وجه حبيبها الصبيح الهادئ. الذي لم يكن عليه اثر من الخوف بل كان يبدو للناظر كانه ينال حظوة في عيني الامبراطور وقد تجلى لها وهو في لباسه الانيق الرسمي جميلاً للغاية . ثم اخذت تسائل نفسها : ما هذا الرداء الرمادي الذي كانت يداه متمسكتين به . ولما تكشف لها انه الرداء ذرفت دمعة سخينة من عينيها وقالت بخشوع :

« اتضرع اليك ايها المسيح ان موسيلوس الذي يعتصم بردائك وهو يحبك ويؤمن بقدرتك وقد ضحى بحياته من اجلك يسعى جهده اليوم لكي يكفّر عمّا اساء به اليك . فابتهل اليك ان تنقذه من الشدائد والضيقات »

فاجاب موسيلوس بصوت هادئ سمعه كل مَن كان في دار المأدبة : حقاً يا صاحب الجلالة انني مسيحي ولكنني غير مشاغب ولا مشترك في مؤامرة لقلب حكومتكم . وان يسوع الذي صلبته انا هو في الحق ملك على ان مملكته ليست من هذا العالم لانه لا يطلب عرشاً ارضياً . فان ملكوته مختص بالعقل والقلب السليمين اللذين يهدفان الى السلام والعدل والصلاح لجميع البشر

فصرخ كاليغولا قائلاً : قد قلت انك صلبت ذلك اليهودي فلماذا تضحي بحياتك كرسول له ؟

— يحق لك ان تسأل هذا السؤال يا مولاي . غير انني اصرّح لجلالتكم بان يسوع هذا كان بريئاً من كل جرم . وعند محاكمته حاول الوالي الذي حضر بنفسه المحاكمة ان يقنع المشتكين عليه ان يعفوا عنه . كان يجول بين الشعب القروي ناصحاً لهم ان يعاملوا بعضهم بعضاً بكل محبة ولطف وان يكونوا أمناء اوفياء رحماء بكل معنى الرحمة . وقد شفى مرضاهم وفتح اعين العميان منهم وكان فضلاً عن هذا يعزّي المحزونين والمصابين بالضيق والشدة . وكانت كلماته العذبة بلسماً شافياً لجراحات قلوبهم ، لذلك تبعه الوف مؤلفة منهم من مكان الى آخر يوماً فيوماً ولم

يقعدهم شيء عن سماع تعاليمه وارشاداته الحكيمة والالتصاق به . وقد تركوا مجامعهم حيث كان كهنتهم لا يهمهم من امرهم سوى ان ياخذوا منهم العشور والخراف وقنعوا ان يعيشوا عيشة واضعة مع اناس على شاكلتهم امناء واتقياء

توقف مرسيلوس عن الكلام قليلاً فامره الامبراطور ان يتمم خطابه قائلاً له: انك محام مقتدر لانك تقنعني ان اصير مسيحياً

فاجابه مرسيلوس بلهجة ناعمة محزنة : وقد أمرت يا صاحب الجلالة ان أشرف على اقامة عملية الصلب . ولما كانت محاكمته بلغة اجنبية اجهلها تمام الجهل . لذلك لم افهم شيئاً عن الجناية العظيمة التي نسبوها اليه حتى قضوا عليه بالموت صلباً : لكنني ادركت انا ما ارتكبته من الجرم

فصرخ كاليغولا قائلاً : ألجرم ! وهل تحسب اطاعة امر المملكة جرماً ؟

اجاب مرسيلوس : المملكة يا صاحب الجلالة مؤلفة من بشر ، والبشر كلهم غير معصومين من الخطإ وهذه يا مولاي اكبر غلطة حصلت

– إذن فالمملكة تعمل غلطاً . ربما تقول ايضاً في وقت قريب ان الامبراطور يغلط

اجابه مرسيلوس : انني يا صاحب الجلالة احكم على نفسي لا على الامبراطور

– لم يكن كاليغولا منتظراً ان يسمع هذا التفسير . وفي الوقت نفسه سمع صوتاً صادراً من ناحية سالومة فثار غضبه واشار باصبعه الى الرداء الرمادي الذي كان مرسيلوس متمسكاً به وسأله ما هذا الشيء الذي بين يديك ؟

– هو رداؤه يا صاحب الجلالة . ثم رفعه ليراه الجميع وقال: قد لبسه حتى الصلب

– أوَ لك جرأة ان تحضره معك الى هنا ؟ سلمه الى رئيس الحرس

فلبى مرسيلوس امره ولكن القائد مدّ يده بتردد ليتناوله فسقط الرداء على الارض على رغمه وقد انتظر القائد من السجين ان يرفعه عن الارض لكن مرسيلوس لم يفعل شيئاً من هذا الا بعد ان امره كاليغولا

فانحنى مرسيلوس ورفعه وسلّمه الى القائد وهذا امر احد الحرس ان يستلمه فسقط الرداء مرة اخرى

قال كاليغولا : اعطني هذا الرداء . واذ مدّ يده ليستلمه نظرت اليه سالومة محذرة اياه من لمسه . عندئذٍ قال له : سلّمه الى ديانا فانها تحفظه لك تذكاراً منك

فكان ما حدث في تلك الدقائق المعدودة مؤثراً للغاية لان ديانا اطرقت بخشوع لتستلم الرداء من يد مرسيلوس وكانت فرصة سانحة ليشاهد كل واحد منهما الآخر ويبتسما ابتسامة الحب والوفاء كما لو كانا وحدهما . عندئذٍ اتجهت العيون نحو ديانا التي ضمت ذلك الرداء الى صدرها بلطف وحنو كما تضم الام ولدها وتهلل وجهها فرحاً وسروراً

فارتبك الحذاء الصغير في امره لانه قصد ان يجعل هذه المسألة رواية تمثيلية هزلية لتؤثر على مجلس الاعيان ولكن حال دون ذلك بعض العراقيل . ثم قال يجب على العظماء ان يفهموا ان امبراطورهم الجديد يتوقع منهم ان يخلصوا له ويطيعوا اوامره سواء كان الشخص فقيراً او صاحب رتبة عالية . واذ لم تُمثل الرواية حسب مشيئته ولم يُمدح حسبما توقعه من هذه المحاكمة اشتدّ غضبه وحدّق في مرسيلوس قائلاً له : يتبين لي انه يهمك جداً امر هذا الرداء

نعم يا سيدي

— هل انت احمق لدرجة انه يتخيل لك ان هذا الرداء ساحر ؟

— ان له قوة عجيبة يا صاحب الجلالة عند الذين يؤمنون ان ابن الله لبسه

فحدث اذ ذاك في الغرفة حركة عظيمة اشترك فيها الجميع اذ التفت الواحد نحو الآخر متذمراً

فصرخ كاليغولا : ايها المجدف ! كيف تتجاسر وانت واقف في عيد جوبيتر المقدس ان تعلن بهدوء ان يهوديك المصلوب هو اله ؟

فاجاب مرسيلوس : انني لا اقول ذلك استخفافاً بجوبيتر ، ومليكي لا يتأثر من

هذا الاكرام . وهو يشفق على كل انسان يتوق الالتجاء تحت ظل احد الاجنحة . ان يسوع لم يأتِ الى العالم كي يُشهر حرباً على مَن يروم ذلك ولكنه اتى ليدعو كل الذين يحبون الحق والرحمة ان يصغوا الى صوته ويسيروا سيرة حسنة نظيره

افتخرت ديانا بمرسيلوس كثيراً لانه لم يكن كانه هو يُحاكم بل كل شخص موجود في تلك الدار كان كانه تحت المحاكمة . وقد اخذ الغضب من كاليغولا كل مأخذ

ثم ناجت نفسها بقولها : كيف يكون مرسيلوس لو اتيح له ان يُنصب امبراطوراً ؟ وارادت ان تصرخ قائلة : ايها الشيوخ سلّموا تاج الملك الى مرسيلوس ليعزّز شؤون المملكة ويرفع مقامها في عيون الرعية

كان قد آن للموكب ان يبتدئ فارتفع صراخ الناس خارجاً لان صبرهم نفذَ وضجروا من الانتظار

اخيراً فاه كاليغولا بالكلمات الآتية بصرامة : ايها القاضي مرسيلوس غاليو اننا يعزّ علينا ان نحكم عليك بالموت امام والدك الشيخ وشيوخ مجلس الاعيان النبلاء الذين خدموا المملكة معه خدمات صادقة . فعليك الآن ان تعمل ذهنك جيداً وتمعن في ما تجيب عن سؤالنا الاخير هذا . هل ترتد عن ايمانك هذا بذلك اليهودي الجليلي الذي دعا نفسه ملكاً وتقلع عن انقيادك الى طاعته واللجوء اليه ؟

فحدث سكوت مرة اخرى في قاعة المأدبة . وفي هذه الفترة كانت سالومة قد تناولت من على المائدة السوار الذهبي المرصع بالزمرّد وادخلته في معصمها

فاجاب مرسيلوس : اذا كانت المملكة ترغب في الصلاح والاصلاح والعدالة بين جميع الناس على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم فان ملكي يكون بجانبها وجانب مليكها . اما اذا كانت هي ومليكها يعملان على استعباد الناس واهلاكهم بطرق متنوعة من جوع وخوف وكآبة واسر حرية وما شاكل ذلك فان مليكي الذي هو ملك العدل والسلام لجميع العالم يتقدم الى الامام بخطى رشيدة لمحق هذه

المصاعب والمصائب وجاب السعادة والطمأنينة لقلوب البشر . ربما لا يكون لك الحظ غداً ان تشاهد تشييد هذا الملكوت الحصين – ولكنه آتٍ

فسأله كاليغولا : أهذا هو جوابك النهائي ؟

اجابه : نعم يا صاحب الجلالة

عندئذٍ انتصب كاليغولا واعلن حكمه امام الجميع قائلاً : ايها القاضي مرسيلوس غاليو اننا حكمنا عليك ان تؤخذ حالاً الى ساحة الرماية التابعة لقصرنا حيث يجري اعدامك وذلك لخيانتك

ولما لفظ هذا الحكم حدث امرٌ آخر اثار عواطف السامعين . فان ديانا غادرت مكانها وتولت من على السلم بشجاعة وافتخار ووقفت بجانب مرسيلوس فطوّقها بذراعه بلطف ورجا منها قائلاً لا . لا ياحبيبتي اصغي اليّ يا حبيبة قلبي لا تفعلي شيئاً . انني مستعد ان اموت . وليس من مبرّر ولا داعٍ لمجازفتكِ بحياتكِ فودعيني واتركيني

فابتسمت له ديانا ثم واجهت الامبراطور ولما كلمته كان صوتها منخفضاً عميقاً ولكنه واضح تماماً لكي يسمعه ويعيه شهود هذه الرواية الغريبة في بابها وقالت : يا صاحب الجلالة انني اعترف امامكم بانني مسيحية ايضاً ومرسيلوس هو زوجي فاسمحوا لي ان اذهب معه

فحدث في قاعة المأدبة غمغمة اعتراض . واما كاليغولا فهزّ راسه وقال شافعاً فيها : ان ابنة غالوس شجاعة ولكنها بريئة من التهمة وليس لنا من رغبة في تاديبها. انكِ تحبين زوجكِ بلا شك ولكن حبكِ له لا يفيده عندما يموت

– نعم يفيده اذا كنت انا معه لاننا لن نفترق ابداً وسنعيش معاً في ملكوت المحبة والسلام

فقال كاليغولا في ملكوت المحبة والسلام . إيه ! وانتِ ايضاً تؤمنين بذلك الملكوت ؟ فيجدر بكِ الآن ان تنتحي ناحية لان ليس عليكِ شكوى ولا دعوى

– اذا شاءت جلالتكم فاني اقدم لكم برهاناً يوجب الحكم عليَّ . انني لست اودُّ ان اعيش ساعة واحدة في مملكة سائرة الى الخراب وترضى رعاياها ان يسيطر عليها امبراطور لا يهمه خير شعبه

فتنفس الحضور الصعداء . اما كاليغولا فانه ذهل من هذه الجرأة واصغى وهو فاتح فاه

ثم استطردت ديانا قائلة : اظنني اتكلم الآن بلسان كل شخص من الحاضرين . ان كل الرجال الحكماء هنـا يعلمون حق العلم ان المملكة باسرها سائرة الى الدمار ولا يفوت ادراكهم سبب ذلك . اما انا فلي ملك آخر وارغب في الذهاب مع زوجي الى ذلك الملكوت

فاسودَّ وجه الامبراطور وحلف بآلهته صارخاً : اذهبـا انتما الاثنان الى ملكوتكما

ثم اومأ الى رئيس الحرَس واصدر امره . فنفخ في البوق وعلت دردبة الطبل . فسار مرسيلوس وديانا ويده بيدها بين الحرَس الى جهة الممرّ الذي تحت القناطر . وقد حاول غاليو الشيخ وهو يرتجف ان يشقَّ له طريقاً بين الجمع ولكن اصحابه ارجعوه وانذروه

ولما غاب الموكب عن العيـان فوجيء الحضور بضحك الحذاء الصغير الثمل فصرخ صراخ المجانين . انهما ذاهبان في طريقهما الى ملكوت احسن . ها ! ها ! ولكن لم يعتقد احد هذا الاعتقاد ان عبارته هذه مدعاة للضحك والاستهزاء الا هو وحده بل كان جماعة الشعب واقفين واجمين كأن على رؤوسهم الطير وامارات الاستياء والعبوسة بادية على وجوههم

ولما لاحظ انهم لم يشاركوه في غبطته وانشراحه اخذته حدَّة الغضب في الحال ولم يأمرهم بالخروج من لدنه بل غادرهم ونزل على السلم وفيما هو نازل زلقت رجله فللحال امسكه كتتوس بكلتا يديه . وكانت الموسيقى في الخارج تعزف تكرمة

واجلالاً لجوبيتر

فمشى مرسيلوس وديانا بين الحرّس وهما يمسكان الواحد بيد الاخر وقد علا وجهيهما الاصفرار ولكنهما كانا يبتسمان . وكان موكب المحتفلين بذلك العيد قد تجاوز الممشى الطويل ثم هبط السلّم الرخامية الى ان وصل الى ساحة الاعدام . ولما لم يكن الجمع المحتشد في الخارج عالماً ما كان جارياً فقد ظنّ ان هذه اول فرقة من النبلاء تشترك في مرافقة الموكب الى هيكل جوبيتر فقابلوها بالهتاف الشديد

فتقدم مرسيپور منهما ودموعه تتساقط على خديه . فلما رآه مرسيلوس همس كلمة في اذن ديانا . فابتسمت له واومأت بالايجاب

ثم انسلّت من بين الحارسَين وطرحت الرداء بين يدَي الرجل المرم وقالت له اعطهِ للصياد الكبير

انتهت